الميزان

في تفسير القرآن

ج/ ١٥

الجزء الخامس عشر

من كتاب

الميزان في تفسير القرآن

لمؤلفه

الأستاذ العلامة

السيد محمد حسين الطباطبائي

ملتزم الطبع والنشر

الشيخ محمد الأخوندي

مؤسس

دار الكتب الإسلامية

طهران - سوق السلطاني

١٣٨٦ ه‍ ق

مطبعة الحيدري بطهران

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المؤمنون مكيّة وهي مائة و ثماني عشر آية

بسم الله الرحمن الرحيم قد أفلح المؤمنون (١) الذين هم في صلاتهم خاشعون (٢) والذين هم عن اللغو معرضون (٣) و الذين هم للزكوة فاعلون (٤) والذين هم لفروجهم حافظون (٥) الا على ازواجهم او ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين (٦) فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون (٧) والذين هم لاماناتهم و عهدهم راعون (٨) و الذين هم على صلواتهم يحافظون (٩) اولئك هم الوارثون (١٠) الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون (١١) .

﴿ بيان ﴾

في السورة دعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر وتمييز المؤمنين من الكفّار بذكر ما لهؤلاء من جميل صفات العبوديّة و مالاُولئك من رذائل الأخلاق وسفاسف الأعمال ، و تعقيب ذلك بالتبشير والإنذار ، وقد تضمّن الإنذار ذكر عذاب الآخرة و ما غشي الاُمم المكذّبين للدعوة الحقّة من عذاب الاستئصال في مسير الدعوة آخذا من زمن نوح إلى زمن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام .

و السورة مكيّة ، و سياق آياتها يشهد بذلك .

قوله تعالى: « قد أفلح المؤمنون» قال الراغب : الفلح ـ بالفتح فالسكون ـ

الشقّ، و قيل: الحديد بالحديد يفلح أي يشقّ، و الفلاح الظفر و إدراك بغية و ذلك ضربان: دنيوي و اُخروي فالدنيوي الظفر بالسعادات الّتي تطيب بها الحياة الدنيا و هو البقاء و الغنى و العزّ، والاُخروي أربعة أشياء بقاء بلافناء وغنى بلافقر و عزّ بلاذلّ وعلم بلاجهل ولذلك قيل: لاعيش إلّا عيش الآخرة. انتهى ملخّصا. فتسمية الظفر بالسعادة فلاحا بعناية أنّ فيه شقّا للمانع و كشفا عن وجه المطلوب.

و الإيمان هو الإذعان و التصديق بشيء بالالتزام بلوازمه فالإيمان بالله في عرف القرآن التصديق بوحدانيّته و رسله و اليوم الآخر و بما جاءت به رسله مع الاتّباع في الجملة ولذا نجد القرآن كلّما ذكر المؤمنين بوصف جميل أوأجر جزيل شفّع الإيمان بالعمل الصالح كقوله: «من عمل صالحا من ذكر أو اُنثى و هو مؤمن فلنحيينّه حياة طيّبة» النحل: ٩٧، و قوله: «الّذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم و حسن مآب» الرعد: ٢٩ إلى غيرذلك من الآيات وهي كثيرة جدّا.

و ليس مجرّد الاعتقاد بشيء إيمانا به حتّى مع عدم الالتزام بلوازمه و آثاره فإنّ الإيمان علم بالشيء مع السكون والاطمئنان إليه ولاينفكّ السكون إلى الشيء من الالتزام بلوازمه لكنّ العلم ربّما ينفكّ من السكون و الالتزام ككثير من المعتادين بالأعمال الشنيعة أو المضرّة فإنّهم يعترفون بشناعة عملهم أوضرره لكنّهم لايتركونها معتذرين بالاعتياد وقدقال تعالى: «و جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم» النمل: ١٤.

و الإيمان و إن جاز أن يجتمع مع العصيان عن بعض لوازمه في الجملة لصارف من الصوارف النفسانيّة يصرف عنه لكنّه لايتخلّف عن لوازمه بالجملة.

قوله تعالى: «الّذين هم في صلاتهم خاشعون» الخشوع تأثّر خاصّ من المقهور قبال القاهر بحيث ينقطع عن غيره بالتوجّه إليه و الظاهر أنّه من صفات القلب ثمّ ينسب إلى الجوارح أوغيرها بنوع من العناية كقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم - على ما روي - فيمن يعبث بلحيته في الصلاة: أما إنّه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه، و قوله تعالى: «و خشعت الأصوات للرحمان» طه: ١٠٨.

و الخشوع بهذا المعنى جامع لجميع المعاني الّتي فسّر بها الخشوع في الآية كقول بعضهم : هو الخوف وسكون الجوارح ، وقول آخرين غضّ البصر و خفض الجناح ، أو تنكيس الرأس ، أو عدم الالتفات يمينا و شمالا ، أو إعظام المقام وجمع الاهتمام ، أو التذلّل إلى غير ذلك .

و هذه الآية إلى تمام ثماني آيات تذكر من أوصاف المؤمنين مايلازم كون وصف الإيمان حيّا فعّالا يترتّب عليه آثاره المطلوبة منه ليترتّب عليه الغرض المطلوب منه وهو الفلاح فإنّ الصلاة توجّه ممّن ليس له إلّا الفقر والذلّة إلى ساحة العظمة و الكبرياء و منبع العزّة و البهاء ولازمه أن يتأثّر الإنسان الشاعر بالمقام فيستغرق في الذلّة و الهوان و ينتزع قلبه عن كلّ ما يلهوه و يشغله عمّا يهمّه و يواجهه فلو كان إيمانه إيمانا صادقا جعل همّه حين التوجّه إلى ربّه همّا واحدا و شغله الاشتغال به عن الالتفات إلى غيره فما ذا يفعل الفقير المحض إذا لقي غنى لايقدّر بقدر ؟ والذليل إذا واجه عزّة مطلقة لايشوبها ذلّة و هوان ؟

وهذا معنى قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم في حديث الحارثة بن النعمان المرويّ في الكافي وغيره : إنّ لكلّ حقّ حقيقة ولكلّ صواب نورا . الحديث .

﴿ كلام فى معنى تأثير الايمان ﴾

الدين ـ كما تقدّم مرارا ـ السنّة الاجتماعيّة الّتي يسير بها الإنسان في حياته الدنيويّة الاجتماعيّة ، والسنن الاجتماعيّة متعلّقة بالعمل مبنيّا على أساس الاعتقاد في حقيقة الكون و الإنسان الّذي هو جزء من أجزائه ، و من هنا ما نرى أنّ السنن الاجتماعيّة تختلف باختلاف الاعتقادات فيما ذكر .

فمن يثبت للكون ربّا يبتدىء منه وسيعود إليه وللإنسان حياة باقية لاتبطل بموت و لافناء يسير في الحياة سيرة يراعي في الأعمال الجارية فيها سعادة الحياة الباقية و التنعّم في الدار الآخرة الخالدة .

و من يثبت له إلها أو آلهة تدبّر الأمر بالرضا والسخط من غير معاد إليه يعيش

عيشة نظمها على أساس التقرّب من الآلهة و إرضائها للفوز بأمتعة الحياة و الظفر بما يشتهيه من نعم الدنيا .

و من لا يهتمّ بأمر الربوبيّة ولا يرى للإنسان حياة خالدة كالمادّيّين و من يحذو حذوهم يبني سنّة الحياة و القوانين الموضوعة الجارية في مجتمعه على أساس التمتّع من الحياة الدنيا المحدودة بالموت .

فالدين سنّة عمليّة مبنيّة على الاعتقاد في أمر الكون و الإنسان بما أنّه جزء من أجزائه ، وليس هذا الاعتقاد هو العلم النظريّ المتعلّق بالكون و الإنسان فإنّ العلم النظريّ لا يستتبع بنفسه عملا وإن توقّف عليه العمل بل هو العلم بوجوب الجري على ما يقتضيه هذا النظر وإن شئت فقل : الحكم بوجوب اتّباع المعلوم النظريّ و الالتزام به ، و هو العلم العمليّ كقولنا : يجب أن يعبد الإنسان الإله تعالى ويراعي في أعماله ما يسعد به في الدنيا و الآخرة معا .

و معلوم أنّ الدعوة الدينيّة متعلّقة بالدين الّذي هو السنّة العمليّة المبنيّة على الاعتقاد فالإيمان الّذي يتعلّق به الدعوة هو الالتزام بما يقتضيه الاعتقاد الحقّ في الله سبحانه و رسله واليوم الآخر وما جاءت به رسله و هو علم عمليّ .

و العلوم العمليّة تشتدّ و تضعف حسب قوّة الدواعي وضعفها فإنّا لسنا نعمل عملا قطّ إلّا طمعا في خير أو نفع أو خوفا من شرّ أو ضرر ، وربّما رأينا وجوب فعل لداع يدعو إليه ثمّ صرفنا عنه داع آخر أقوى منه و آثر ، كمن يرى وجوب أكل الغذاء لرفع ما به من جوع فيصرفه عن ذلك علمه بأنّه مضرّ له مناف لصحّته فبالحقيقة يقيّد الداعي المانع بما معه من العلم إطلاق العلم الّذي مع الداعي الممنوع كأنّه يقول مثلا إنّ التغذّي لرفع الجوع ليس يجب مطلقا بل إنّما يجب إذا لم يكن مضرّاً بالبدن مضادّاً لصحّته .

و من هنا يظهر أنّ الإيمان بالله إنّما يؤثّر أثره من الأعمال الصالحة والصفات الجميلة النفسانيّة كالخشية و الخشوع و الإخلاص و نحوها إذا لم يغلبه الدواعي الباطلة و التسويلات الشيطانيّة و بعبارة اُخرى إذا لم يكن إيمانا مقيّدا بحال دون

حال كما قال تعالى : «ومن الناس من يعبدالله على حرف » الحج : ٦١ .

فالمؤمن إنّما يكون مؤمنا على الإطلاق إذاجرت أعماله على حاقّ مايقتضيه إيمانه من الخشوع في عبادته و الإعراض عن اللغو ونحوه .

قوله تعالى : « و الّذين هم عن اللغو معرضون» اللغو من الفعل هو مالافائدة فيه ويختلف باختلاف الاُمور الّتي تعود عليها الفائدة فربّ فعل هو لغو بالنسبة إلى أمر و هو بعينه مفيدمجد بالنسبة إلى أمر آخر .

فاللغو من الأفعال في نظر الدين الأعمال المباحة الّتي لاينتفع بها في الآخرة أو في الدنيا بحيث ينتهي أيضا إلى الآخرة كالأكل و الشرب بداعي شهوة التغذّي اللّذين يتفرّع عليهما التقوّي على طاعة الله و عبادته فإذا كان الفعل لا ينتفع به في آخرة ولا في دنيا تنتهي بنحو إلى آخرة فهو اللغو وبنظر أدقّ هو ماعداالواجبات و المستحبّات من الأفعال .

ولم يصف سبحانه المؤمنين بترك اللغو مطلقا فإنّ الإنسان في معرض العثرة و مزلّةالخطيئة وقدعفاعن السيّآت إذا اجتنبت الكبائر كما قال : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيّآتكم وندخلكم مدخلا كريما » النساء : ٣١ .

بل وصفهم بالإعراض عن اللغودون مطلق تركه والإعراض يقتضي أمرا بالفعل يدعو إلى الاشتغال به فيتركه الإنسان صارفا وجهه عنه إلى غيره لعدم اعتداده به و اعتنائه بشأنه ، ولازمه ترفّع النفس عن الأعمال الخسيسة و اعتلاؤها عن الاشتغال بما ينافي الشرف والكرامة و تعلّقها بعظائم الاُمور وجلائل المقاصد .

و من حقّ الإيمان أن يدعو إلى ذلك فإنّ فيه تعلّقا بساحة العظمة والكبرياء و منبع العزّة والمجد والبهاء و المتّصف به لايهتمّ إلّا بحياة سعيدة أبديّة خالدة فلا يشتغل إلّا بما يستعظمه الحقّ ولايستعظم مايهتمّ به سفلة الناس وجهلتهم ، وإذاخاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراما .

و من هنا يظهر أنّ وصفهم بالإعراض عن اللغو كناية عن علوّ همّتهم و كرامة نفوسهم .

قوله تعالى : « والّذين هم للزكاة فاعلون » ذكر الزكاة مع الصلاة قرينة على كون المراد بها الإنفاق المالي دون الزكاة بمعنى تطهير النفس بإزالة رذائل الأخلاق عنها ولعلّ المراد بالزكاة المعنى المصدري وهو تطهير المال بالإنفاق منه دون المقدار المخرج من المال فإنّ السورة مكّيّة وتشريع الزكاة المعهودة في الإسلام إنّما كان بالمدينة ثمّ صار لفظ الزكاة علما بالغلبة للمقدار المعيّن المخرج من المال .

و بهذا يستصحّ تعلّق « للزكاة » بقوله : « فاعلون » والمعنى : الّذين هم فاعلون للإنفاق الماليّ ، و أمّا لو كان المراد بالزكاة نفس المال المخرج لم يصحّ تعلّقه به إذ المال المخرج ليس فعلا متعلّقا بفاعل ، و لذا قدّر بعض من حمل الزكاة على هذا المعنى لفظ التأدية فكان التقدير عنده و الّذين هم لتأدية الزكاة فاعلون ، و لذا أيضاً فسّر بعضهم الزّكاة بتطهير النفس عن الأخلاق الرذيلة فرارا من تعلّق « للزكاة » بقوله : « فاعلون » .

و في التعبير بقوله : « للزكاة فاعلون » دون أن يقول : للزكاة مؤدّون أو ما يؤدّي معناه دلالة على عنايتهم بها كقول القائل : إنّي شارب لمن أمره بشرب الماء فإذا أراد أن يفيد عنايته به قال : إنّي فاعل .

و من حقّ الإيمان بالله أن يدعو إلى هذا الإنفاق الماليّ فإنّ الإنسان لا ينال كمال سعادته إلّا في مجتمع سعيد ينال فيه كلّ ذي حقّ حقّه ولا سعادة لمجتمع إلّا مع تقارب الطبقات في التمتّع من مزايا الحياة وأمتعة العيش ، و الإنفاق الماليّ على الفقراء والمساكين من أقوى ما يدرك به هذه البغية .

قوله تعالى : « والّذين هم لفروجهم حافظون » إلى آخر الآيات الثلاث الفروج جمع فرج وهو ـ على ما قيل ـ ما يسوء ذكره من الرجال و النساء ، و حفظ الفروج كناية عن الاجتناب عن المواقعة سواء كانت زنا أو لواطاً أو بإتيان البهائم وغير ذلك .

و قوله : « إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنّهم غير ملومين » استثناء عن حفظ الفروج ، و الأزواج الحلائل من النساء ، و ما ملكت أيمانهم الجواري المملوكة فإنّهم غير ملومين في مسّ الأزواج الحلائل والجواري المملوكة .

و قوله : « فمن ابتغى وراء ذلك فاُولئك هم العادون » تفريع على ما تقدّم من الاستثناء و المستثنى منه أي إذا كان مقتضى الإيمان حفظ الفروج مطلقا إلّا عن طائفتين من النساء هما الأزواج و ما ملكت أيمانهم فمن طلب وراء ذلك أي مسّ غير الطائفتين فاُولئك هم المتجاوزون عن الحدّ الّذي حدّه الله تعالى لهم .

و قد تقدّم كلام ما فيما يستعقبه الزنا من فساد النوع في ذيل قوله : « و لا تقربوا الزنا إنّه كان فاحشة وساء سبيلا » أسرى : ٣٢ في الجزء الثالث عشر من الكتاب .

قوله تعالى : « والّذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » الأمانة مصدر في الأصل وربّما اُريد به ما ائتمن عليه من مال و نحوه ، و هو المراد في الآية ، ولعلّ جمعه للدلالة على أقسام الأمانات الدائرة بين الناس ، و ربّما قيل بعموم الأمانات لكلّ تكليف إلهيّ اؤتمن عليه الإنسان و ما اؤتمن عليه من أعضائه و جوارحه و قواه أن يستعملها فيما فيه رضى الله و ما ائتمنه عليه الناس من الأموال و غيرها ، و لا يخلو من بعد بالنظر إلى ظاهر اللفظ وإن كان صحيحا من جهة تحليل المعنى و تعميمه .

و العهد بحسب عرف الشرع ما التزم به بصيغة العهد شقيق النذر و اليمين ، و يمكن أن يراد به مطلق التكليف المتوجّه إلى المؤمن فإنّ الله سبحانه سمّى إيمان المؤمن به عهدا و ميثاقا منه على ما توجّه إليه من تكاليفه تعالى بقوله : « أو كلّما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم » البقرة : ١٠٠ وقوله : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار » الأحزاب : ١٥ ، ولعلّ إرادة هذا المعنى هو السبب في إفراد العهد لأنّ جميع التكاليف يجمعها عهد واحد بإيمان واحد .

و الرعاية الحفظ و قد قيل : إنّ أصل الرعي حفظ الحيوان إمّا بغذائه الحافظ لحياته أو بذبّ العدوّ عنه ثمّ استعمل في الحفظ مطلقا انتهى و لعلّ العكس أقرب إلى الاعتبار .

و بالجملة الآية تصف المؤمنين بحفظ الأمانات من أن تخان و العهد من أن ينقض ، ومن حقّ الإيمان أن يدعو إلى ذلك فإنّ في إيمانه معنى السكون والاستقرار و الاطمئنان فإذا آمن أحدا في أمانة أودعها عنده أو عهد عاهده و قطع على ذلك

استقرّ عليه و لم يتزلزل بخيانة أو نقض .

قوله تعالى : «والّذين هم على صلواتهم يحافظون» جمع الصلاة و تعليق المحافظة عليه دليل على أنّ المراد المحافظة على العدد فهم يحافظون على أن لا يفوتهم شيء من الصلوات المفروضة و يراقبونها دائما و من حقّ إيمانهم أن يدعوهم إلى ذلك .

و لذلك جمعت الصلاة ههنا و اُفردت في قوله : « في صلاتهم خاشعون » لأنّ الخشوع في جنس الصلاة على حدّ سواء فلا موجب لجمعها .

قوله تعالى : « اُولئك هم الوارثون الّذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون» الفردوس أعلى الجنان ، وقد تقدّم معناها وشيء من وصفها في ذيل قوله تعالى : «كانت لهم جنّات الفردوس نزلا» الكهف : ١٠٧ .

و قوله : « الّذين يرثون» الخ بيان لقوله : «الوارثون» ووراثتهم الفردوس هو بقاؤها لهم بعد ما كانت في معرض أن يشاركهم فيها غيرهم أو يملكها دونهم لكنّهم زالوا عنها فانتقلت إليهم ، و قد ورد في الروايات أنّ لكلّ إنسان منزلا في الجنّة و منزلا في النار فإذا مات ودخل النار ورث أهل الجنّة منزله وستوافيك إن شاء الله في بحث روائيّ .

﴿بحث روائى﴾

في تفسير القمّيّ و قوله : « الّذين هم في صلاتهم خاشعون» قال : غضّك بصرك في صلاتك وإقبالك عليها .

أقول : و قد تقدّم أنّه من لوازم الخشوع فهو تعريف بلازم المعنى ، و نظيره ما رواه في الدرّ المنثور عن عدّة من أصحاب الجوامع عن عليّ عليه‌السلام : أن لا تلتفت في صلاتك .

و في الكافي بإسناده عن مسمع بن عبدالملك عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : ما زاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق .

أقول : و روى في الدرّ المنثور عن عدّة من أصحاب الجوامع عن أبي الدرداء

عنه صلى الله عليه وآله وسلم ما في معناه ولفظه : استعيذوا بالله من خشوع النفاق . قيل له : و ماخشوع النفاق ؟ قال : أن ترى الجسد خاشعا و القلب ليس بخاشع .

و في المجمع في الآية روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم رآى رجلا يعبث بلحيته في صلاته فقال : أما إنّه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه .

وفيه وروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يرفع بصره إلى السماء في صلاته فلمّا نزلت الآية طأطأ رأسه و رمى ببصره إلى الأرض .

أقول : و رواهما في الدرّ المنثور عن جمع من أصحاب الكتب عنه صلى الله عليه وآله وسلم . وفي معنى الخشوع روايات اُخر كثيرة .

و في إرشاد المفيد في كلام لأمير المؤمنين عليه السلام : كلّ قول ليس فيه لله ذكر فهو لغو .

و في المجمع في قوله : « و الّذين هم عن اللغو معرضون » روي عن أبي عبدالله عليه السلام قال : أن يتقوّل الرجل عليك بالباطل أو يأتيك بما ليس فيك فتعرض عنه لله و في رواية اُخرى أنّه الغناء و الملاهي .

أقول : ما في روايتي المجمع من قبيل ذكر بعض المصاديق وما في رواية الإرشاد من التعميم بالتحليل .

و في الخصال عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام: تحلّ الفروج بثلاثة وجوه: نكاح بميراث و نكاح بلا ميراث و نكاح بملك يمين .

و في الكافي بإسناده عن إسحاق بن أبي سارة قال : سألت أباعبدالله عليه السلام عنها يعني المتعة فقال لي : حلال فلا تتزوّج إلّا عفيفة إنّ الله عزّ و جلّ يقول : «والّذين هم لفروجهم حافظون» فلا تضع فرجك حيث لا تأمن على درهمك .

أقول : وفيه تعميم لمعنى حفظ الفروج بحيث يشمل ترك نكاح غير العفيفة .

والروايتان كما ترى تعدّ ان المتعة نكاحا وازدواجا والأمر على ذلك فيما لا يحصى من روايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام و على ذلك مبنى فقههم .

و الأمر على ذلك في عرف القرآن وفي عهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و ذلك أنّه ليس وراء

ملك اليمين إلّا نوعان : نكاح على الزوجيّة وزنا وقد حرّم الله الزنا و أكّد في تحريمه في آيات كثيرة في السور المكيّة والمدنيّة كسورتي الفرقان والإسراء وهما مكيّتان وسورتي النور والممتحنة وهما مدنيّتان .

ثمّ سمّاه سفاحا وحرّمه في سورتي النساء والمائدة ثمّ سمّاه فحشاء ومنع عنه و ذمّه في سور الأعراف و العنكبوت و يوسف و هي مكيّة و في سور النحل والبقرة و النور وهي أو الأخيرتان مدنيّتان .

ثمّ سمّاه فاحشة و نهي عنها في سور الأعراف والأنعام و الإسراء و النمل و العنكبوت والشورى والنجم وهي مكيّة وفي سور النساء والنور والأحزاب والطلاق و هي مدنيّة .

و نهى عنه أيضا بالتكنية في آية المؤمنون : « فمن ابتغى وراء ذلك فاُولئك هم العادون » و نظيره في سورة المعارج وكان من المعروف في أوّل البعثة من أمر الإسلام أنّه يحرّم الخمر والزنا [1] .

فلو لم يكن التمتّع ازدواجا و المتمتّع بها زوجا مشمولة لقوله : «إلّا على أزواجهم » لكان زنا و من المعلوم بالضرورة أنّ التمتّع كان معمولا به في مكّة قبل الهجرة في الجملة و كذا في المدينة بعد الهجرة في الجملة و لازم ذلك أن يكون زنا أباحه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لضرورة اقتضته لو أغمضنا عن قوله تعالى : «فما استمتعتم به منهنّ فآتوهنّ أجورهنّ » النساء : ٢٤ و لازم ذلك أن تكون آية سورة المؤمنون « إلّا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم ـ إلى قوله ـ العادون » ناسخة لإباحة التمتّع السابقة ثمّ يكون تحليل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أو تحليل آية سورة النساء ذلك ناسخاً لجميع الآيات المكيّة الناهية عن الزنا وبعض المدنيّات ممّا نزلت قبل التحليل ، وخاصّة على قول من يقول : إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حلّله ثمّ حرّمه مرّة [2] بعد مرّة فإنّ لازمه نسخ

(١) على ما رواه ابن هشام فى السيرة و قد أوردنا الرواية فى بحث روائى فى ذيل قوله تعالى : « انما الخمر و الميسر » الاية من سورة المائدة ج ٦ ص ١٤٦ من الكتاب .

(٢) و قد أوردنا الروايات الدالة على ذلك فى البحث الروائى الموضوع فى ذيل قوله تعالى : « فما استمتعتم به منهن فآتوهن اجورهن » الاية النساء : ٢٤ ج ٤ ص ٣٠٨ .

الآيات الناهية عن الزنا ثمّ إحكامها ثمّ نسخها ثمّ إحكامها مرّات و لم يقل أحد من المسلمين بكونها منسوخة فضلاً عن النسخ بعد النسخ وهل هذا إلّا لعب بكلام الله تجلّ عنه ساحة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ؟

على أنّ الآيات الناهية عن الزنا آبية بسياقها و ما فيه من التعليل آب عن النسخ و كيف يعقل أن يسمّي الله سبحانه فعلا من الأفعال فاحشة فحشاء وسبيل سوء و يخبر أنّ من يفعله يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ثمّ يجيز ارتكابه ثمّ يمنع ثمّ يجيز .

على أنّ أصل نسخ القرآن بالحديث لا معنى له[1] .

على أنّ عدّة من المرتكبين لنكاح المتعة في عهد النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كانوا من معاريف الصحابة وهم على ماهم عليه من حفظ ظواهر الأحكام فكيف استجازوا النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في الفحشاء ؟ و كيف لم يستخبثوه ؟ و كيف رضوا بالعار و الشنار و قد تمتّع زبير من أسماء بنت أبي بكر فولدت له عبدالله بن زبير وأخاه عروة بن زبير وورثاه بعد قتله وهم جميعا من الصحابة .

على أنّ الروايات الدالّة على نهي النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عن المتعة متهافتة ، وما تسلّموا عليه من قول عمر بن الخطّاب حينما نهى أيّام خلافته عن المتعة وما ورد عنه حول القصّة يكذّب هذه الروايات ويدفع حديث النسخ . وقد مرّ شطر من الكلام في هذا المعنى في تفسير قوله تعالى : « وأُحلّ لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهنّ فآتوهنّ اُجورهنّ فريضة » النساء : ٢٤ .

و من لطيف الدلالة على كون المتعة نكاحا غير سفاح اقتران جملة «فما استمتعتم» الخ بقوله قبله متّصلا به « محصنين غير مسافحين» .

فقد تبيّن بما ذكرنا أنّ المتعة في الشرع و في عرف القرآن نكاح و زوجيّة لا زنا و سفاح سواء قلنا بكونها منسوخة بعد بكتاب أو سنّة كما عليه معظم أهل السنّة

---

(١) و قد بين ذلك فى علم الاصول بما لامزيد عليه .

أو لم نقل كما عليه الشيعة تبعا لأئمّة أهل البيت عليهم السلام .

فالنكاح ينقسم إلى نوعين : نكاح دائم له أحكامه من العدد والإرث والإحصان و النفقة و الفراش و العدّة وغير ذلك . و نكاح موقّت مبنيّ على التسهيل له من أحكام النكاح الدائم اختصاص المرءة بالرجل و لحوق الأولاد و العدّة .

و بذلك يظهر فساد ما ذكره جمع منهم أنّ المتعة ليست بزوجيّة و لو كانت زوجيّة لجرت فيها أحكامها من العدد و الميراث والنفقة والإحصان وغير ذلك وذلك أنّ الزوجيّة تتقسّم إلى دائمة لها أحكامها و موقّتة مبنيّة على التسهيل يجري فيها بعض تلك الأحكام كما تقدّم .

و الإشكال بأنّ تشريع الازدواج إنّما هو للتناسل بدوام الزوجيّة و الغرض من المتعة مجرّد دفع الشهوة بصبّ الماء و سفحه فهي سفاح و ليست بنكاح .

فيه أنّ التوسّل إلى النسل حكمة لاعلّة يدور مدارها التشريع و إلّا لم يجز نكاح العاقر و اليائسة والصبي و الصبيّة .

على أنّ المتعة لا تنافي الاستيلاد ومن الشاهد على ذلك عبدالله وعروة ابنا زبير اُولداله من أسماء بنت أبي بكر من المتعة .

و كذا الإشكال بأنّ المتعة تجعل المرءة ملعبة يلعب بها الرجال كالكرة الدائرة بين الصوالج ذكره صاحب المنار و غيره .

فيه أنّ هذا يرد أوّل ما يرد على الشارع فإنّ من الضروريّ أنّ المتعة كانت دائرة في صدر الإسلام برهة من الزمان فما أجاب به الشارع كان هو جوابنا .

و ثانيا أنّ جميع ما يقصد بالمتعة من لذّة أو دفع شهوة أو استيلاد أو استئناس أو غير ذلك مشتركة بين الرجل والمرءة فلا معنى لجعلها ملعبة له دون العكس إلّا أن يكابر مكابر .

و للكلام تتمّة ستوافيك في بحث مستقلّ إن شاء الله تعالى .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الحاكم و صحّحه عن ابن أبي مليكة قال : سألت عائشة عن متعة النساء قالت : بيني و بينكم كتاب الله و

قرأت : « و الّذين هم لفروجهم حافظون إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم » فمن ابتغى وراء ما زوّجه الله أو ملّكه فقد عدا .

أقول : و روى نظيره عن القاسم بن محمّد ، و قد تبيّن بما قدّمنا أنّ المتمتّع بها زوج و أنّ الآية تجيزها على خلاف ما في الرواية .

و في تفسير القمّي « فمن ابتغى وراء ذلك فاُولئك هم العادون » قال : من جاوز ذلك .

و فيه : « و الّذين هم على صلواتهم يحافظون» قال : على أوقاتها و حدودها .

و في الكافي بإسناده عن الفضيل بن يسار قال : سألت أباعبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : « والّذين هم على صلواتهم يحافظون» قال : هي الفريضة قلت : «والّذين هم على صلاتهم دائمون » قال : هي النافلة .

و في المجمع روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : ما منكم من أحد إلّا له منزلان : منزل في الجنّة و منزل في النار فإن مات و دخل النار ورث أهل الجنّة منزله .

أقول : و روى مثله القمّي في تفسيره بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث مفصّل و تقدّم نظيره في قوله تعالى : « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر » مريم : ٣٩ في الجزء السابق من الكتاب .

﴿ بحث حقوقى اجتماعى ﴾

لاريب أنّ الّذي يدعو الإنسان و يبعثه نحو الاستنان بالسنن الاجتماعيّة أو وضع القوانين الجارية في المجتمع البشريّ تنبّهه لحوائج الحياة و توسّله بوضعها و العمل بها إلى رفعها .

و كلّما كانت الحاجة أبسط و إلى الطبيعة الساذجة أقرب كان التوسّل إلى رفعها أوجب والإهمال في دفعها أدهى وأضرّ فما الحاجة إلى أصل التغذّي والحياة تدور معه كالحاجة إلى التنعّم بألوان الطعام وأنواع الفواكه و هكذا .

و من الحوائج الأوّليّة الإنسانيّة حاجة كلّ من صنفيه : الذكور والإناث

إلى الآخرين بالنكاح و المباشرة ، ولاريب أنّ المطلوب بالنظر إلى الصنع والإيجاد بذلك بقاء النسل و قد جهّز الانسان بغريزة شهوة النكاح للتوسّل به إلى ذلك .

و لذلك نجد المجتمعات الإنسانيّة الّتي نشاهدها أو نسمع بأخبارها مستنّة بسنّة الازدواج و تكوين البيت وعلى ذلك كانت منذ أقدم عهودها فلم يضمن بقاء النسل إلّا الازدواج .

ولايدفع هذا الّذي ذكرنا أنّ المدنيّة الحديثة وضعت سنّة الازدواج على أصل الاشتراك في الحياة دون أصل التناسل أو إرضاء الغريزة فإنّ هذا البناء على كونه بناء محدثا غير طبيعيّ لم يبعث حتّى الآن شيأ من المجتمعات المستنّة بها على شيوع هذه الشركة الحيويّة بين الرجال أنفسهم أو النساء أنفسهنّ وليس إلّا لمباينته ما تبعث إليه الطبيعة الإنسانيّة .

و بالجملة الازدواج سنّة طبيعيّة لم تزل ولاتزال دائرة في المجتمعات البشريّة ولايزاحم هذه السنّة الطبيعيّة في مسيرها إلّا عمل الزنا الّذي هو أقوى مانع من تكوّن البيوت و تحمّل كلفة الازدواج و حمل أثقاله بانصراف غريزة الشهوة إليه المستلزم لانهدام البيت و انقطاع النسل .

و لذا كانت المجتمعات الدينيّة أو الطبيعيّة الساذجة تستشنعها وتعدّها فاحشة منكرة و تتوسّل إلى المنع عنه بأيّ وسيلة ممكنة ، والمجتمعات المتمدّنة الحديثة و إن لم تسدّ سبيله بالجملة ولم تمنع عنه ذاك المنع لكنّها مع ذلك لاتستحسنه لما ترى من مضادّته العميقة لتكوّن البيوت وازدياد النفوس وبقاء النسل ، وتحتال إلى تقليله بلطائف الحيل و تروّج سنّة الازدواج وتدعو إلى تكثير الأولاد بجعل الجوائز و ترفيع الدرجات و غير ذلك من المشوّقات .

غير أنّه على الرغم من كون سنّة الازدواج الدائم سنّة قانونيّة متّبعة في جميع المجتمعات الإنسانيّة في العالم و تحريض الدول عليها و احتيالها لتضعيف أمر الزنا وصرف الناس لاسيّما الشبّان و الفتيات عنه لايزال يوجد في جميع البلاد صغيرتها و كبيرتها معاهد لهذا العمل الهادم لبنية المجتمع علنيّة أو سرّيّة على اختلاف السنن

الجارية فيها .

و هذا أوضح حجة على أن سنة الازدواج الدائم لاتفي برفع هذه الحاجة الحيوية للنوع ، و أن الإنسانية بعد في حاجة إلى تتميم نقيصتها هذه . و أن من الواجب على من بيده زمام التقنين أن يتوسع في أمر الازدواج .

و لذلك شفع شارع الإسلام سنة الازدواج الدائم بسنة الازدواج الموقت تسهيلا للأمر و شرط فيه شروطا ترتفع بها محاذير الزنا من اختلاط المياه واختلال الأنساب و المواريث و انهدام البيوت و انقطاع النسل و عدم لحوق الأولاد و هي اختصاص المرءة بالرجل والعدة إذا افترقا و لحوق الأولاد ثم لها مااشترطت على زوجها وليس فيه على الرجل شيء من كلفة الازدواج الدائم ومشقته .

و لعمر الحق إنها لمن مفاخر الإسلام في شريعته السهلة السمحة نظير الطلاق و تعدد الزوجات و كثير من قوانينه ولكن ماتغني الآيات و النذر عن قوم لا يسمعون يقول القائل : لأن أزني أحب إلي من أن أتمتع أو اُمتع .



☆ ☆ ☆

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْاِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ(١٣)ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ اَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللّٰهُ اَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ اِنَّكُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ اِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَ لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَ اَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَاَسْكَنَّاهُ فِي الْاَرْضِ وَ اِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَاَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَاَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (٢٠) وَاِنَّ لَكُمْ فِي الْاَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ(٢١) وَ عَلَيْهَا وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) .

﴿ بيان ﴾

لمّا ذكر سبحانه فلاح المؤمنين بما عندهم من الأوصاف الجميلة عقّبه بشرح خلقهم و خلق ما أنعم عليهم من النعم مقرونا بتدبير أمرهم تدبيرا مخلوطا بالخلق لينكشف به أنّه هو ربّ للإنسان و لكلّ شيء الواجب أن يعبد وحده لاشريك له .

قوله تعالى : « و لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » قال في المجمع :

السلالة اسم لما يسلّ من الشيء كالكساحة اسم لما يكسح انتهى و ظاهر السياق أنّ المراد بالإنسان هو النوع فيشمل آدم و من دونه و يكون المراد بالخلق الخلق الابتدائيّ الّذي خلق به آدم من الطين ثمّ جعل النسل من النطفة، و تكون الآية و ما بعدها في معنى قوله: «وبدء خلق الإنسان من طين ثمّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين» الم السجدة: ٨.

و يؤيّده قوله بعد: «ثمّ جعلناه نطفة» إذ لو كان المراد بالإنسان ابن آدم فحسب و كان المراد بخلقه من طين انتهاء النطفة إلى الطين لكان الظاهر أن يقال: ثمّ خلقناه نطفة كما قيل: ثمّ خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة الخ.

و بذلك يظهر أنّ قول بعضهم: إنّ المراد بالإنسان جنس بني آدم، و كذا القول بأنّ المراد به آدم عليه السلام غير سديد.

و أصل الخلق - كما قيل - التقدير يقال: خلقت الثوب إذا قسته لتقطع منه شيأ من اللباس فالمعنى و لقد قدّرنا الإنسان أوّلاً من سلالة من أجزاء الأرض المخلوطة بالماء.

قوله تعالى: «ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين» النطفة القليل من الماء وربّما يطلق على مطلق الماء، و القرار مصدر اُريد به المقرّ مبالغة والمراد به الرحم الّتي تستقرّ فيها النطفة، و المكين المتمكّن وصفت به الرحم لتمكّنها في حفظ النطفة من الضيعة و الفساد أو لكون النطفة مستقرّة متمكّنة فيها.

و المعنى ثمّ جعلنا الإنسان نطفة في مستقرّ متمكّن هي الرحم كما خلقناه أوّلا من سلالة من طين أي بدّلنا طريق خلقه من هذا إلى ذاك.

قوله تعالى: «ثمّ خلقنا النطفة علقة - إلى قوله - فكسونا العظام لحما» تقدّم بيان مفردات الآية في الآية ٥ من سورة الحجّ في الجزء السابق من الكتاب و في قوله: «فكسونا العظام لحما» استعارة بالكناية لطيفة.

قوله تعالى: «ثمّ أنشأناه خلقا آخر» الإنشاء - كما ذكره الراغب - إيجاد الشيء و تربيته كما أنّ النشء و النشأة إحداثه و تربيته كما يقال للشابّ

الحديث السنّ ناشيء .

و قد غيّر السياق من الخلق إلى الإنشاء فقال : « ثمّ أنشأناه خلقا آخر » دون أن يقال : ثمّ خلقناه الخ للدلالة على حدوث أمر حديث ما كان يتضمّنه ولا يقارنه ما تقدّمه من مادّة فانّ العلقة مثلا و إن خالفت النطفة في أوصافها و خواصّها من لون وطعم وغير ذلك إلّا أنّ في النطفة مكان كلّ من هذه الأوصاف و الخواصّ ما يجانسه و إن لم يماثله كالبياض مكان الحمرة وهما جميعا لون بخلاف ما أنشأه الله أخيرا و هو الإنسان الّذي له حياة و علم و قدرة فانّ ماله من جوهر الذات و هو الّذي نحكي عنه بأنا لم يسبق من سنخه في المراحل السابقة أعني النطفة و العلقة و المضغة و العظام المكسوّة لحما شيء ، و لاسبق فيها شيء يناظر ماله من الخواصّ و الأوصاف كالحياة و القدرة والعلم فهو منشأ حادث مسبوق بالعدم .

و الضمير في « أنشأناه ـ على ما يعطيه السياق ـ للإنسان المخلوق عظاما مكسوّة باللحم فهوالّذي اُنشيء و اُحدث خلقا آخر أي بدّل و هومادّة ميتة جاهلة عاجزة موجودا ذاحياة و علم وقدرة ، فقدكان مادّة لها صفاتها و خواصّها ثمّ برز و هو يغاير سابقته في الذات و الصفات و الخواصّ فهوتلك المادّة السابقة فانّها الّتي صارت إنسانا ، و ليس بها إذ لايشاركها في ذات و لاصفات ، و إنّما له نوع اتّحاد معها و تعلّق بها يستعملها في سبيل مقاصدها استعمال ذي الآلة للآلة كالكاتب للقلم .

و هذا هو الّذي يستفاد من مثل قوله : « و قالوا أئذا ضللنا في الأرض إنّا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربّهم كافرون قل يتوفّاكم ملك الموت الّذي وكّل بكم » الم السجدة : ١١ ، فالمتوفّى و المأخوذ عند الموت هوالإنسان ، والمتلاشي الضالّ في الأرض هو البدن و ليس به .

و قد اختلف العطف في مفردات الآية بالفاء وثمّ ، و قد قيل في وجهه أنّ ما عطف بثمّ له بينونة كاملة مع ما عطف عليه كما في قوله : « ثمّ جعلناه نطفة » « ثمّ خلقنا النطفة علقة » « ثمّ أنشأناه خلقا آخر » ، و ما لم يكن بتلك البينونة و البعد عطف بالفاء كقوله : « فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما» .

قوله تعالى : « فتبارك الله أحسن الخالقين » قال الراغب : أصل البرك ـ بالفتح فالسكون ـ صدر البعير . قال : و برك البعير ألقى ركبه و اعتبر منه معنى اللزوم . قال : و سمّي محبس الماء بركة ـ بالكسر فالسكون ـ و البركة ثبوت الخير الإلهيّ في الشيء قال تعالى : لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض » و سمّي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة ، و المبارك ما فيه ذلك الخير .

قال : و لمّا كان الخير الإلهيّ يصدر من حيث لايحسّ و على وجه لا يحصى و لا يحصر قيل لكلّ ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هومبارك وفيه بركة . انتهى .

فالتبارك منه تعالى اختصاصه بالخير الكثير الّذي يجود به ويفيضه على خلقه و قد تقدّم أنّ الخلق في أصله بمعنى التقدير فهذاالخير الكثير كلّه في تقديره،وهو إيجاد الأشياء و تركيب أجزائهابحيث تتناسب فيمابين أنفسها و تناسب ماوراءها و من‌ذلك ينتشرالخير الكثير .

و وصفه تعالى بأحسن الخالقين يدلّ على عدم اختصاص الخلق به،وهو كذلك لما تقدّم‌أنّ معناه التقدير و قياس‌الشيء من الشيء لا يختصّ به تعالى ، وفي كلامه تعالى من الخلق المنسوب إلى غيره قوله : « و إذ تخلق من الطين كهيئة الطير » المائدة : ١١٠ و قوله : « و تخلقون إفكا » العنكبوت : ١٧ .

قوله تعالى : « ثمّ إنّكم بعد ذلك‌لميّتون » بيان لتمام التدبير الإلهيّ وأنّ الموت من المراحل الّتي من الواجب أن يقطعها الإنسان في مسير التقدير ، و أنّه حقّ كما تقدّم في قوله تعالى : « كلّ نفس ذائقة الموت و نبلوكم بالشرّ و الخير فتنة » الأنبياء : ٣٥ .

قوله تعالى : « ثمّ إنّكم يوم القيامة تبعثون » و هذا تمام التدبير وهو أعني البعث آخر مرحلة في مسير الإنسان إذا حلّ بها لزمها و لايزال قاطنا بها .

قوله تعالى : « و لقد خلقنا فوقكم سبع طرائق و ما كنّا عن الخلق‌غافلين» المراد بالطرائق السبع بقرينةقوله : « فوقكم» السماوات السبع و قد سمّاهاطرائق ـ جمع طريقة ـ و هي السبيل المطروقة لأنّها ممرّ الأمر النازل من عنده تعالى إلى

الأرض قال تعالى : « يتنزّل الأمر بينهنّ »الطلاق : ١٢ وقال : « يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ثمّ يعرج إليه » الم السجدة : ٥ . والسبل الّتي تسلكها الأعمال في صعودها إلى الله و الملائكة في هبوطهم و عروجهم كما قال : « إليه يصعد الكلم الطيّب و العمل الصالح يرفعه » فاطر : ١٠ و قال : « و ما نتنزّل إلّا بأمر ربّك » مريم : ٦٤.

و بذلك يتّضح اتّصال ذيل الآية « و ما كنّا عن الخلق غافلين » بصدرها أي لستم بمنقطعين عنّا ولا بمعزل عن مراقبتنا بل هذه الطرائق السبع منصوبة بيننا و بينكم يتطرّقها رسل الملائكة بالنزول و الصعود وينزل منها أمرنا إليكم وتصعدمنها أعمالكم إلينا .

و بذلك كلّه يظهر ما في قول بعضهم : إنّ الطرائق بمعنى الطباق المنضودة بعضها فوق بعض من طرق النعل إذا وضع طاقاتها بعضها فوق بعض ، و قول آخرين إنّها بمعنى المبسوطات من طرق الحديد إذا بسطه بالمطرقة.

على أنّ اتّصال ذيل الآية بصدرها على القولين غير بيّن .

قوله تعالى : « وأنزلنامن السماء ماء بقدرفأسكنّاه في الأرض وإنّاعلى ذهاب به لقادرون » المراد بالسماء جهة العلوفإنّ ما علاك وأظلّك فهو سماء ، والمراد بالماء النازل منها ماء المطر .

و في قوله : « بقدر» دلالة على أنّ الّذي نزل إنّما نزل على حسب مايقتضيه التدبير التامّ الإلهيّ الّذي يقدّره بقدر لايزيد قطرة على ما قدّر ولاينقص ، و فيه تلميح أيضاً إلى قوله : « و إن من شيء إلّا عندناخزائنه و ما ننزّله إلّا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ .

و المعنى و أنزلنا من جهة العلو ماء بقدر و هو ماء المطر فأسكنّاه في الأرض و هو الذخائر المدّخرة من الماء في الجبال و السهول تتفجّر عنه العيون و الأنهار و تكشف عنه الآبار ، و إنّا لقادرون على أن نذهب بهذا الماء الّذي أسكنّاه في الأرض نوعا من الذهاب لاتهتدون إلى علمه .

قوله تعالى : « فأنشأنا لكم به جنّات من نخيل و أعناب » إلى آخر الآية إنشاء الجنّات إحداثها و تربيتها ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « و شجرة تخرج من طورسيناء تنبت بالدهن و صبغ للآكلين » معطوف على « جنّات » أي وأنشأنا لكم به شجرة في طور سيناء ، و المراد بها شجرة الزيتون الّتي تكثر في طور سيناء ، و قوله : « تنبت بالدهن » أي تثمر ثمرة فيها الدهن و هو الزيت فهي تنبت بالدهن ، و قوله : « وصبغ للآكلين » أي و تنبت بصبغ للآكلين ، و الصبغ بالكسر فالسكون الإدام الّذي يؤتدم به ، و إنّما خصّ شجرة الزيتون بالذكر لعجيب أمرها ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « و إنّ لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم ممّا في بطونها » الخ . العبرة الدلالة يستدلّ بها على أنّه تعالى مدبّر لأمر خلقه حنين بهم رؤف رحيم ، و المراد بسقيه تعالى ممّا في بطونها أنّه رزقهم من ألبانها ، و المراد بالمنافع الكثيرة ما ينتفعون من صوفها وشعرها و وبرها و جلودها وغير ذلك ، و منها يأكلون .

قوله تعالى : « و عليها وعلى الفلك تحملون » ضمير « عليها » للأنعام والحمل على الأنعام هو الحمل على الإبل ، و هو حمل في البرّ و يقابله الحمل في البحر و هو الحمل على الفلك فالآية في معنى قوله : « و حملناهم في البرّ والبحر » أسرى : ٧٠ : و الفلك جمع فلكة و هي السفينة .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن عليّ قال : إذا تمّت النطفة أربعة أشهر بعث إليها ملك فنفخ فيها الروح في الظلمات الثلاث فذلك قوله : « ثمّ أنشأناه خلقا آخر » يعني نفخ الروح فيه .

و في الكافي بإسناده عن ابن فضّال عن الحسن بن الجهم قال : سمعت أبا الحسن الرضا عليه‌السلام يقول: قال أبوجعفر عليه‌السلام : إنّ النطفة تكون في الرحم أربعين يوما . ثمّ تصير علقة أربعين يوما . ثمّ تصير مضغة أربعين يوما فإذا كمل أربعة أشهر بعث الله

ملكين خلاّقين فيقولان : يا ربّ ما نخلق ذكرا أو اُنثى ؟ فيؤمران فيقولان : يا ربّ شقيّ أو سعيد ؟ فيؤمران فيقولان : يا ربّ ما أجله ومارزقه و كلّ شيء من حاله ؟ و عدّد من ذلك أشياء ، و يكتبان الميثاق بين عينيه .

فإذا كمل الأجل بعث الله إليه ملكا فزجره زجرة فيخرج و قد نسي الميثاق فقال الحسن بن الجهم : أفيجوز أن يدعوالله فيحوّل الأنثى ذكرا أو الذكر اُنثى ؟ فقال : إنّ الله يفعل ما يشاء .

اقول : و الرواية مرويّة عن أبي جعفر عليه السلام بطرق اُخرى وألفاظ متقاربة .

و في تفسير القمّي قوله عزّ و جلّ : « و شجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن و صبغ للآكلين » قال : شجرة الزيتون ، و هو مثل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومثل أمير المؤمنين عليه السلام فالطور الجبل و سيناء الشجرة .

و في المجمع «تنبت بالدهن وصبغ للآكلين» و قد روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : الزيت شجرة مباركة فائتدموا منه و ادّهنوا .

☆ ☆ ☆

و لقد ارسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره افلا تتقون (٢٣) فقال الملؤ الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم يريد ان يتفضل عليكم و لو شاء الله لانزل ملئكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين (٢٤) ان هو الا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين (٢٥) قال رب انصرني بما كذبون (٢٦) فاوحينا اليه ان اصنع الفلك باعيننا و وحينا فاذا جاء امرنا و فار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين و اهلك الا من سبق عليه القول منهم ولاتخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون (٢٧) فاذا استويت انت ومن معك على الفلك فقل الحمدلله الذى نجينا من القوم الظالمين (٢٨) و قل رب انزلني منزلا مباركا وانت خير المنزلين (٢٩) ان في ذلك لايات و ان كنا لمبتلين (٣٠) ثم انشانا من بعدهم قرنا آخرين (٣١) فارسلنا فيهم رسولا منهم ان اعبدوا الله مالكم من اله غيره افلا تتقون (٣٢) و قال الملاء من قومه الذين كفروا و كذبوا بلقاء الآخرة و اترفناهم في الحيوة الدنيا ما هذا الا بشر مثلكم ياكل مما تاكلون منه و يشرب مما تشربون (٣٣) و لئن اطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون (٣٤) ايعدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا

و عظاما انكم مخرجون (٣٥) هيهات هيهات لما توعدون (٣٦) ان هي الا حياتنا الدنيا نموت و نحيا و ما نحن بمبعوثين (٣٧) ان هو الا رجل افترى على الله كذبا و ما نحن له بمؤمنين (٣٨) قال رب انصرني بما كذبون (٣٩) قال عما قليل ليصبحن نادمين (٤٠) فاخذتهم الصيحة بالحق فجعلناكم غثاء فبعدا للقوم الظالمين (٤١) ثم انشانا من بعدهم قرونا آخرين (٤٢) ماتسبق من امة اجلها و ما يستاخرون (٤٣) ثم ارسلنا رسلنا تترا كلما جاء امة رسولها كذبوه فاتبعنا بعضهم بعضا و جعلناهم احاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون (٤٤) ثم ارسلنا موسى و اخاه هرون باياتنا و سلطان مبين (٤٥) الى فرعون وملائه فاستكبروا و كانوا قوما عالين (٤٦) فقالوا انؤمن لبشرين مثلنا و قومهما لنا عابدون (٤٧) فكذبوهما فكانوا من المهلكين (٤٨) ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون (٤٩) و جعلنا ابن مريم و امه آية و آويناهما الى ربوة ذات قرار و معين (٥٠) يا ايها الرسل كلوا من الطيبات و اعملوا صالحا اني بما تعملون عليم (٥١) وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون (٥٢) فتقطعوا امرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون (٥٣) فذرهم في غمرتهم حتى حين (٥٤) .

﴿ بيان ﴾

بعد ما عدّ نعمه العظام على الناس عقّبه في هذه الآيات بذكر دعوتهم إلى توحيد عبادته من طريق الرسالة و قصّ إجمال دعوة الرسل من لدن نوح إلى عيسى ابن مريم عليهما السلام، و لم يصرّح من أسمائهم إلّا باسم نوح و هو أوّل الناهضين لدعوة التوحيد و اسم موسى و عيسى عليهما السلام و هما في آخرهم و أبهم أسماء الباقين غير أنّه صرّح باتّصال الدعوة و تواتر الرسل، و أنّ الناس لم يستجيبوا إلّا بالكفر بآيات الله و الكفران لنعمه.

قوله تعالى: «و لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلاتتّقون» قد تقدّم في قصص نوح عليه السلام من سورة هود أنّه أوّل اُولي العزم من الرسل أصحاب الكتب و الشرائع المبعوثين إلى عامّة البشر و الناهضين للتوحيد و نفي الشرك فالمراد بقومه اُمّته وأهل عصره عامّة.

و قوله: «اعبدوا الله مالكم من إله غيره» دعوة إلى عبادة الله و رفض عبادة الآلهة من دونه فإنّ الوثنيّين إنّما يعبدون غيره من الملائكة و الجنّ والقدّيسين بدعوى اُلوهيّتهم أي كونهم معبودين من دونه.

قال بعض المفسّرين: إنّ معنى «اعبدوا الله» اعبدوه وحده كما يفصح عنه قوله في سورة هود: «ألّا تعبدوا إلّا الله» و ترك التقييد به للإيذان بأنّها هي العبادة فقط و أمّا العبادة مع الإشراك فليست من العبادة في شيء رأسا. انتهى.

و فيه غفلة أو ذهول عن أنّ الوثنيّين لايعبدون الله سبحانه أصلا بناء على أنّ العبادة توجّه من العابد إلى المعبود و الله سبحانه أجلّ من أن يحيط به توجّه متوجّه أو علم عالم فالوجه أن يتقرّب إلى خاصّة خلقه من الملائكة وغيره ليشفعوا عنده و يقرّبوا منه، و العبادة بإزاء التدبير وأمر التدبير مفوّض إليهم منه تعالى فهم الآلهة المعبودون والأرباب من دونه.

و من هنا يظهر أنّه لو جازت عبادته تعالى عندهم لم يجز إلّا عبادته وحده لأنّهم

لايرتابون في أنّه تعالى ربّ الأرباب موجد الكلّ و لو صحّت عبادته لم تجز إلّا عبادته وحده و لم تصحّ عبادة غيره لكنّهم لا يرون صحّتها بناء على ما زعموه من الوجه المتقدّم .

فقوله عليه السلام لقومه الوثنيّين : « اعبدوا الله » في معنى أن يقال : اعبدوا الله وحده كما ورد في سورة هود « أن لاتعبدوا إلّا الله » ، وقوله : « مالكم من إله غيره » في معنى أن يقال : ما لكم من معبود سواه لأنّه لا ربّ غيره يدبّر أمركم حتّى تعبدوه رجاء لرحمته أو خوفا من سخطه ، و قوله بالتفريع على ذلك : «أفلا تتّقون» أي إذا لم يكن لكم ربّ يدبّر اُموركم دونه أفلا تتّقون عذابه حيث لا تعبدونه و تكفرون به ؟

قوله تعالى : « قال الملأ الّذين كفروا من قومه ما هذا إلّا بشر مثلكم - إلى قوله - حتّى حين » ملأ القوم أشرافهم ، ووصفهم بقوله : « الّذين كفروا من قومه» وصف توضيحيّ لااحترازيّ إذ لم يؤمن به من ملاء قومه أحد بدليل قولهم على ما حكاه الله : « و ما نراك اتّبعك إلّا الّذين هم أراذلنا بادي الرأي » هود : ٢٧ .

و السياق يدلّ على أنّ الملأ كانوا يخاطبون بمضمون الآيتين عامّة الناس لصرف وجوههم عنه و إغرائهم عليه و تحريضهم على إيذائه و إسكاته ، و ما حكاه تعالى من أقاويلهم في الآيتين وجوه أربعة أو خمسة من فرية أو مغالطة لفّقوها و احتجّوا بها على بطلان دعوته .

الأوّل قولهم: «ما هذا إلّا بشر مثلكم يريد أن يتفضّل عليكم » و محصّله أنّه بشر مثلكم فلو كان صادقا فيما يدّعيه من الوحي الإلهيّ و الاتّصال بالغيب كان نظير ما يدّعيه متحقّقا فيكم إذ لا تنقصون منه في شيء من البشريّة و لوازمها ، و لم يتحقّق فهو كاذب و كيف يمكن أن يكون كمال في وسع البشر أن يناله ثمّ لايناله إلّا واحد منهم فقط ثمّ يدّعيه من غير شاهد يشهد عليه ؟ فلم يبق إلّا أنّه يريد بهذه الدعوة أن يتفضّل عليكم و يترأس فيكم ويؤيّده أنّه يدعوكم إلى اتّباعه و طاعته و هذه الحجّة تنحلّ في الحقيقة إلى حجّتين مختلفتين .

و الثاني قولهم : « ولو شاءالله لأنزل ملائكة » و محصّله أنّ الله سبحانه لوشاء أن يدعونا بدعوة غيبيّة لاختار لذلك الملائكة الّذين هم المقرّبون عنده و الشفعاء الروابط بيننا و بينه فأرسلهم إلينا لابشراً ممّن لانسبة بينه و بينه . على أنّ في نزولهم و اعترافهم بوجوب العبادة له تعالى وحده وعدم جواز اتّخاذهم أربابا و آلهة معبودين آية بيّنة على صحّة الدعوة و صدقها .

و التعبير عن إرسال الملائكة بإنزالهم إنّما هو لكون إرسالهم يتحقّق بالإنزال ، و التعبير بلفظ الجمع دون الإفراد لعلّه لكون المراد بهم الآلهة المتّخذة منهم وهم كثيرون .

و الثالث قولهم : « ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين » و محصّله أنّه لو كانت دعوته حقّة لاتّفق لها نظير فيما سلف من تاريخ الإنسانيّة ، و آباؤنا كانوا أفضل منّا و أعقل و لم يتّفق لهم و في أعصارهم ما يناظر هذه الدعوة فليست إلّا بدعة و اُحدوثة كاذبة .

و الرابع قولهم : « إن هو إلّا رجل به جنّة فتربّصوا به حتّى حين » الجنّة إمّا مصدر أي به جنون أومفرد الجنّ أي حلّ به من الجنّ من يتكلّم على لسانه لأنّه يدّعي ما لايقبله العقل السليم و يقول مالايقوله إلّا مصاب في عقله فتربّصوا وانتظروا به إلى حين مّا لعلّه يفيق من حالة جنونه أو يموت فنستريح منه .

و هذه حجج مختلقة ألقاها ملأ قومه إلى عامّتهم أو ذكر كلّاً منها بعضهم ، و هي و إن كانت حججا جدليّة مدخولة لكنّهم كانوا ينتفعون بها حينما يلقونها إلى الناس فيصرفون وجوههم عنه و يغرونهم عليه و يمدّون في ضلالهم .

قوله تعالى : « قال ربّ انصرني بما كذّبون » سؤال منه للنصر والباء في قوله : « بما كذّبون » للبدليّة و المعنى انصرني بدل تكذيبهم لي أو للآلة و عليه فالمعنى انصرني بالّذي كذّبوني فيه و هو العذاب فإنّهم قالوا : « فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » هود : ٣٢ ، ويؤيّده قول نوح : «ربّ لاتذر على الأرض من الكافرين ديّارا » نوح : ٢٦ ، و فصل الآية لكونها في معنى جواب السؤال .

قوله تعالى : «فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا» إلى آخر الآية . متفرّع على سؤال النصر ، و معنى صنع الفلك بأعينه صنعه بمرئى منه و هو كناية عن كونه تحت مراقبته تعالى و محافظته ، و معنى كون الصنع بوحيه كونه بتعليمه الغيبيّ حالاً بعد حال .

و قوله : « فإذا جاء أمرنا وفار التنّور » المراد بالأمر ـ كما قيل ـ حكمه الفصل بينه و بين قومه وقضاؤه فيهم بالغرق ، والسياق يشهد على كون فوران التنّور بالماء أمارة نزول العذاب عليهم و هو أعني فوران الماء من التنّور و هو محلّ النار من عجيب الأمر في نفسه .

و قوله : « فاسلك فيها من كلّ زوجين اثنين » القراءة الدائرة « من كلّ » بالتنوين و القطع عن الإضافة ، و التقدير من كلّ نوع من الحيوان ، و السلوك فيها الإدخال في الفلك و الظاهر أنّ «من» لابتداء الغاية و المعنى فأدخل في الفلك زوجين اثنين : ذكر و اُنثى من كلّ نوع من الحيوان .

و قوله : «و أهلك إلّا من سبق عليه القول منهم» معطوف على قوله : «زوجين» و ما قيل : إنّ عطف « أهلك » على «زوجين» يفسد المعنى المراد لرجوع التقدير حينئذ إلى قولنا : و اسلك فيها من كلّ نوع أهلك فالأولى تقدير «اسلك» ثانيا قبل «أهلك» و عطفه على « فاسلك» . يدفعه أنّ «من كلّ» في موضع الحال من «زوجين» فهو متأخّر عنه رتبة كما قدّمنا تقديره فلا يعود ثانيا على المعطوف .

و المراد بالأهل خاصّته ، و الظاهر أنّهم أهل بيته والمؤمنون به فقد ذكرهم في سورة هود مع الأهل و لم يذكر ههنا إلّا الأهل فقط .

و المراد بمن سبق عليه القول منهم امرأته الكافرة على ما فهم نوح عليه السلام وهي و ابنه الّذي أبى ركوب السفينة و غرق حينما أوى إلى جبل ، و سبق القول هو القضاء المحتوم بالغرق .

و قوله : « و لا تخاطبني في الّذين ظلموا إنّهم مغرقون » النهي عن مخاطبته تعالى كناية عن النهي الشديد عن الشفاعة لهم بدليل تعليق المخاطبة بالّذين ظلموا

و تعليل النهي بقوله : « إنّهم مغرقون » فكأنّه قيل : أنهاك عن أصل تكليمي فيهم فضلا أن تشفع لهم فقد شملهم غضبي شمولا لا يدفعه دافع .

قوله تعالى : « فإذا استويت أنت و من معك على الفلك فقل » إلى آخر الآيتين . علّمه أن يحمدالله بعد الاستواء على الفلك على تنجيته تعالى من القوم الظالمين و هذا بيان بعد بيان لكونهم هالكين مغرقين حتما ، و أن يسأله أن ينجيه من الطوفان و ينزله على الأرض إنزالا مباركا ذا خير كثير ثابت فإنّه خير المنزلين .

و في أمره عليه‌السلام أن يحمده و يصفه بالجميل دليل على أنّه من عباده المخلصين فإنّه تعالى منزّه عمّا يصفه غيرهم كما قال : « سبحان الله عمّا يصفون إلّا عباد الله المخلصين» الصافات : ١٦٠ .

و قد اكتفى سبحانه في القصّة بإخباره عن حكمه بغرقهم و أنّهم مغرقون حتما ولم يذكر خبر غرقهم إيماء إلى أنّهم آل بهم الأمر إلى أن لا خبر عنهم بعد ذلك ، و إعظاما للقدرة و تهويلا للسخطة وتحقيراً لهم واستهانة بأمرهم ، فالسكوت في هذه القصّة عن هلاكهم أبلغ من قوله في القصّة الآتية : « فجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لايؤمنون » من وجوه .

قوله تعالى : « إنّ في ذلك لآيات و إن كنّا لمبتلين » خطاب في آخر القصّة للنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، و بيان أنّ هذه الدعوة مع ما جرى معها كانت ابتلاءاً أي امتحانا و اختبارا إلهيّا .

قوله تعالى : « ثمّ أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين » إلى آخر الآية الثانية . القرن أهل عصر واحد ، و قوله : « أن اعبدوا الله » تفسير لإرسال الرسول من قبيل تفسير الفعل بنتيجته كقوله تعالى : « تتنزّل عليهم الملائكة أن لاتخافوا ولاتحزنوا » السجدة : ٣٠ .

قوله تعالى : « قال الملأ من قومه الّذين كفروا و كذّبوا بلقاء الآخرة و أترفناهم في الحياة الدنيا » هؤلاء أشرافهم المتوغّلون في الدنيا المخلدون إلى الأرض يغرون بقولهم هذا عامّتهم على رسولهم .

و قد وصفهم الله بصفات ثلاث و هي الكفر بالله بعبادة غيره و التكذيب بلقاء الآخرة ـ أي بلقاء الحياة الآخرة بقرينة مقابلتها لقوله : « في الحياة الدنيا » ـ و لكفرهم بالمبدء و المعاد انقطعوا عمّا وراء الدنيا فانكبّوا عليها ثمّ لمّا اُترفوا في الحياة الدنيا و تمكّنوا من زخارفها و زيناتها الملذّة اجتذبتهم الدنيا إلى نفسها فاتّبعوا الهوى و نسوا كلّ حقّ و حقيقة ، و لذلك تفوّهوا تارة بنفي التوحيد و الرسالة و تارة بإنكار المعاد و تارة ردّوا الدعوة بإضرارها دنياهم وحرّيّتهم في اتّباع هواهم .

فتارة قالوا لعوامّهم مشيرين إلى رسولهم إشارة المستحقر المستهين بأمره : « ما هذا إلّا بشر مثلكم يأكل ممّا تأكلون منه ويشرب ممّا تشربون » يريدون به تكذيبه في دعوته و دعواه الرسالة على ما مرّ من تقرير حجّتهم في قصّة نوح السابقة .

و في استدلالهم على بشريّته و مساواته سائر الناس بأكله و شربه مثل الناس و ذلك من خاصّة مطلق الحيوان دليل على أنّهم ما كانوا يرون للإنسان إلّا كمال الحيوان ولافضيلة إلّا في الأكل و الشرب و لا سعادة إلّا في التمكّن من التوسّع و الاسترسال من اللذائذ الحيوانيّة كما قال تعالى : « اُولئك كالأنعام » الأعراف : ١٧٩ ، و قال : « و الّذين كفروا يتمتّعون و يأكلون كما تأكل الأنعام » سورة محمّد : ١٢ .

و تارة قالوا : « و لئن أطعتم بشرا مثلكم إنّكم إذاً لخاسرون » و هو في معنى قولهم في القصّة السابقة : « يريد أن يتفضّل عليكم » يريدون به أنّ في اتّباعه و إطاعته فيما يأمركم به مع كونه بشرا مثلكم من غير فضل له عليكم خسرانكم و بطلان سعادتكم في الحياة إذ لا حياة إلّا الحياة الدنيا ولا سعادة فيها إلّا الحرّيّة في التمتّع من لذائذها ، وفي طاعة من لا فضل له عليكم رقّيّتكم وزوال حرّيّتكم وهو الخسران .

و تارة قالوا : « أيعدكم أنّكم إذا متّم و كنتم ترابا وعظاما أنّكم مخرجون » أي مبعوثون من قبوركم للحساب و الجزاء « هيهات هيهات لما توعدون » و هيهات كلمة استبعاد وفي تكراره مبالغة في الاستبعاد « إن هي إلّا حياتنا الدنيا نموت و نحيا »

أي يموت قوم منّا في الدنيا و يحيا آخرون فيها لا نزال كذلك «وما نحن بمبعوثين» للحياة في دار اُخرى وراء الدنيا .

و يمكن أن يحمل قولهم : «نموت و نحيا» على التناسخ و هو خروج الروح بالموت من بدن و تعلّقها ببدن آخر إنساني أو غير إنساني فإنّ التناسخ مذهب شائع عند الوثنيّين و ربّما عبّروا عنه بالولادة بعد الولادة لكنّه لا يلائم سياق الآيات كثير ملائمة .

و تارة قالوا : «إن هو إلّا رجل افترى على الله كذبا و ما نحن له بمؤمنين» يريدون به تكذيب دعواه الرسالة مع ما احتوت عليه دعوته وقد أنكروا التوحيد و المعاد قبل ذلك .

و مرادهم بقولهم «نحن» أنفسهم و عامّتهم أشركوا أنفسهم عامّتهم لئلّا يتّهمهم العامّة فيما يأمرونهم به من الكفر بالرسول ويمكن أن يكون المراد به أنفسهم خاصّة دون العامّة و إنّما أخبروا بعدم إيمانهم ليقتدوا بهم فيه .

و قد نشأت هذه الأقاويل من اجتماع الصفات الّتي وصفهم الله به في أوّل الآيات وهي إنكار التوحيد والنبوّة والمعاد و الإتراف في الحياة الدنيا .

و اعلم أنّ في قوله في صدر الآيات : «و قال الملأ من قومه الّذين كفروا و كذّبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم» قدّم قوله : «من قومه» على «الّذين كفروا» بخلاف ما في القصّة السابقة من قوله : «فقال الملأ الّذين كفروا من قومه» لأنّه لو وقع بعد «الّذين كفروا» اختلّ به ترتيب الجمل المتوالية «كفروا» «و كذّبوا» «و أترفناهم» و لو وقع بعد الجميع طال الفصل.

قوله تعالى : «قال ربّ انصرني بما كذّبون» تقدّم تفسيره في القصّة السابقة .

قوله تعالى : «قال عمّا قليل ليصبحنّ نادمين» استجابة لدعوة الرسول و صيرورتهم نادمين كناية عن حلول عذاب الاستئصال بهم ، و قوله : «عمّا قليل» عن بمعنى بعد و «ما» لتأكيد القلّة و ضمير الجمع للقوم ، و الكلام مؤكّد بلام القسم و نون التأكيد و المعنى اُقسم لتأخذنّهم الندامة بعد قليل من الزمان بمشاهدة

حلول العذاب.

قوله تعالى: «فأخذتهم الصيحة بالحقّ فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين» الباء في «بالحقّ» للمصاحبة و هو متعلّق بقوله: «فأخذتهم» أي أخذتهم الصيحة أخذا مصاحبا للحقّ، أو للسببيّة و الحقّ وصف اُقيم مقام موصوفه المحذوف و التقدير فأخذتهم الصيحة بسبب الأمر الحقّ أو القضاء الحقّ كما قال: «فإذا جاء أمر الله قضي بينهم بالحقّ» المؤمن: ٧٨.

و الغثاء بضمّ الغين و ربّما شدّدت الثاء ما يحمله السيل من يابس النبات و الورق و العيدان البالية، وقوله: «فبعداً للقوم الظالمين» إبعاد و لعن لهم أو دعاء عليهم.

و المعنى فأنجزنا للرسول ما وعدناه من عذابهم فأخذتهم الصيحة السماويّة و هي العذاب فأهلكناهم و جعلناهم كغثاء السيل فليبعد القوم الظالمون بعدا.

و لم يصرّح باسم هؤلاء القوم الّذين أنشأهم بعد قوم نوح ثمّ أهلكهم ولا باسم رسولهم، و ليس من البعيد أن يكونوا هم ثمود قوم صالح عليه‌السلام فقد ذكر الله سبحانه في قصّتهم في مواضع من كلامه أنّهم كانوا بعد قوم نوح و قد اُهلكوا بالصيحة.

قوله تعالى: «ثمّ أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين ما تسبق من اُمّة أجلها و ما يستأخرون» تقدّم توضيح مضمون الآيتين كرارا.

قوله تعالى: «ثمّ أرسلنا رسلنا تترا كلّما جاء اُمّة رسولها كذّبوه» إلى آخر الآية يقال: جاؤا تترى أي فرادى يتبع بعضهم بعضا، ومنه التواتر وهو تتابع الشيء وتراً و فرادى و عن الأصمعيّ: واترت الخبر أتبعت بعضه بعضا و بين الخبرين هنيهة انتهى.

و الكلام من تتمّة قوله: «ثمّ أنشأنا من بعدهم قرونا» و «ثمّ» للتراخي بحسب الذكر دون الزمان، و القصّة إجمال منتزع من قصص الرسل و اُممهم بين اُمّة نوح و الاُمّة الناشئة بعدها و بين اُمّة موسى.

يقول تعالى: ثمّ أنشأنا بعد تلك الاُمّة الهالكة بالصيحة بعد اُمّة نوح قرونا و اُمما آخرين و أرسلنا إليهم رسلنا متتابعين يتبع بعضهم بعضا كلّما جاء اُمّة رسولها

المبعوث منها إليها كذّبوه فأتبعنا بعضهم أي بعض هذه الاُمم بعضا أي بالعذاب و جعلناهم أحاديث أي صيّرناهم قصصا و أخبارا بعد ما كانوا أعيانا ذوات آثار فليبعد قوم لا يؤمنون.

و الآيات تدلّ على أنّه كان من سنّة الله إنشاء قرن بعد قرن وهدايتهم إلى الحقّ بإرسال رسول بعدرسول و هي سنّة الابتلاء والامتحان، و من سنّة القرون تكذيب الرسول بعد الرسول ثمّ من سنّة الله ثانيا - وهي سنّة المجازاة - تعذيب المكذّبين و إتباع بعضهم بعضا.

و قوله: «و جعلناهم أحاديث» أبلغ كلمة تفصح عن القهر الإلهيّ الّذي يغشى أعداء الحقّ و المكذّبين لدعوته حيث يمحو العين و يعفو الأثر و لا يبقى إلّا الخبر.

قوله تعالى: «ثمّ أرسلناموسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين» الآيات هي العصا و اليد البيضاء و سائر الآيات الّتي أراهاموسى فرعون وقومه، والسلطان المبين الحجّة الواضحة، وتفسير بعضهم السلطان بالعصا غير سديد.

قوله تعالى: «إلىفرعون وملائه فاستكبروا وكانوا قوما عالين» قيل: إنّما ذكر ملأ فرعون و اكتفى بهم عن ذكر قومه لأنّهم الأشراف المتبوعون و سائر القوم أتباع يتبعونهم.

و المراد بكونهم عالين أنّهم كانوا يعلون علىٰغيرهمفيستعبدونهم كما علواعلى بني إسرائيل و استعبدوهم فالعلوّ في الأرض كناية عن التطاول على أهلها و قهرهم على الطاعة.

قوله تعالى: «فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا و قومهما لنا عابدون» المراد بكونهما بشرين مثلهم نفي أن يكون لهما فضل عليهم، و بكون قومهما لهم عابدين فضلهم عليهما كما فضّلوا على قومهما فإذا كان الفضل لهم عليهما كان من الواجب أن يعبداهم كما عبدهم قومهما لا أن يؤمنوا بهما كما قال فرعون لموسى: «لئن اتّخذت إلها غيري لأجعلنّك من المسجونين» ثمّ ختم تعالى القصّة بذكر هلاكهم

فقال : « فكذّبوهما فكانوا من المهلكين » ثمّ قال : « و لقد آتينا موسى الكتاب لعلّهم يهتدون » و المراد بهم بنو إسرائيل لأنّ التوراة إنّما نزلت بعد هلاك فرعون وملائه .

قوله تعالى : «وجعلنا ابن مريم و اُمّه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار و معين » تقدّم أن الآية هي ولادة عيسى عليه‌السلام الخارقة للعادة و إذ كانت أمرا قائما به و باُمّه معاً عدّا جميعا آية واحدة .

و الإيواء من الاُويّ و أصله الرجوع ثمّ استعمل في رجوع الإنسان إلى مسكنه و مقرّه ، و آواه إلى مكان كذا أي جعله مسكنا له و الربوة المكان المرتفع المستوى الواسع ، و المعين الماء الجاري .

و المعنى وجعلنا عيسى بن مريم واُمّه مريم آية دالّة على ربوبيّتنا و أسكنّاهما في مكان مرتفع مستو وسيع فيه قرار وماء جار .

قوله تعالى : « يا أيّها الرسل كلوا من الطيّبات و اعملوا صالحا إنّي بما تعملون عليم» خطاب لعامّة الرسل بأكل الطيّبات وكأنّ المراد بالأكل منها الارتزاق بها بالتصرّف فيها سواء كان بأكل أو غيره و هو استعمال شائع .

و السياق يشهد بأنّ في قوله : « كلوا من الطيّبات » امتنانا منه تعالى عليهم ففي قوله عقيبه : « و اعملوا صالحا» أمر بمقابلة المنّة بصالح العمل و هو شكر للنعمة و في تعليله بقوله : « إنّي بما تعملون عليم » تحذير لهم من مخالفة أمره و بعث إلى ملازمة التقوى .

قوله تعالى : « إنّ هذه اُمّتكم اُمّة واحدة وأنا ربّكم فاتّقون » تقدّم تفسير نظيرة الآية في سورة الأنبياء .

قوله تعالى : « فتقطّعوا أمرهم بينهم زبرا كلّ حزب بما لديهم فرحون » في المجمع أنّ التقطّع و التقطيع بمعنى واحد ، و الزبر بضمّتين جمع زبور و هو الكتاب ، و الكلام متفرّع على ما تقدّمه ، و المعنى أنّ الله أرسل إليهم رسله تترا و الجميع اُمّة واحدة لهم ربّ واحد دعاهم إلى تقواه لكنّهم لم يأتمروا بأمره و

قطّعوا أمرهم بينهم قطعا و جعلوه كتبا اختصّ بكلّ كتاب حزب و كلّ حزب بما لديهم فرحون .

و في قراءة ابن عامر « زبرا » بفتح الباء و هو جمع زبرة وهي الفرقة و المعنى و تفرّقوا في أمرهم جماعات و أحزابا كلّ حزب بما لديهم فرحون ، و هي أرجح .

قوله تعالى : « فذرهم في غمرتهم حتّى حين » قال في المفردات : الغمرة معظم الماء الساترة لمقرّها وجعل مثلا للجهالة الّتي يغمر صاحبها ، انتهى و في الآية تهديد بالعذاب ، و قد تقدّمت إشارة إلى أنّ من سنّته تعالى المجازاة بالعذاب بعد تكذيب الرسالة ، و في تنكير «حين» إشارة إلى إتيان العذاب الموعود بغتة .

﴿ بحث روائى ﴾

في نهج البلاغة يا أيّها الناس إنّ الله قد أعاذكم من أن يجور عليكم ولم يعذكم من أن يبتليكم و قد قال جلّ من قائل : « إنّ في ذلك لآيات و إن كنّا المبتلين » .

وفي تفسير القمّي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام في قوله : «فجعلناهم غثاء » الغثاء اليابس الهامد من نبات الأرض .

و فيه في قوله تعالى : « إلى ربوة ذات قرار ومعين » قال : الربوة الحيرة ، و ذات قرار ومعين الكوفة .

و في المجمع « و آويناهما إلى ربوة ذات قرار و معين » قيل : حيرة الكوفة و سوادها ، و القرار مسجد الكوفة ، والمعين الفرات عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما‌السلام .

أقول : و روى في الدرّ المنثور عن ابن عساكر عن أبي أمامة عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنّ الربوة هي دمشق الشام ، و روى أيضا عن ابن عساكر و غيره عن مرّة البهزيّ عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنّها الرملة ، والروايات جميعا لا تخلو من الضعف .

و في المجمع : «يا أيّها الرسل كلوا من الطيّبات » روي عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : أنّ الله طيّب لا يقبل إلّا طيّباً و إنّه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : « يا

أيّها الرسل كلوا من الطيّبات » و قال : « يا أيّها الّذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم » .

أقول : و رواه في الدرّ المنثور عن أحمد ومسلم و الترمذيّ و غيرهم عن أبي هريرة عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم .

و في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « اُمّة واحدة » قال : على مذهب واحد .

و فيه في قوله : « كلّ حزب بما لديهم فرحون » قال : كلّ من اختار لنفسه دينا فهو فرح به .



✡ ✡ ✡

ايحسبون انما نمدهم به من مال و بنين (٥٥) نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون (٥٦) ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون (٥٧) و الذين هم بآيات ربهم يؤمنون (٥٨) والذين هم بربهم لايشركون (٥٨) و الذين يؤتون ما آتوا و قلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون (٦٠) اولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون (٦١) و لانكلف نفسا الا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق و هم لايظلمون (٦٢) بل قلوبهم في غمرة من هذا و لهم اعمال من دون ذلك هم لها عاملون (٦٣) حتى اذا اخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجئرون (٦٤) لا تجئروا اليوم انكم منا لا تنصرون (٦٥) قدكانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على اعقابكم تنكصون (٦٦) مستكبرين به سامرا تهجرون (٦٧) افلم يدبروا القول ام جاءهم ما لم يات آباءهم الاولين (٦٨) ام لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون (٦٩) ام يقولون به جنة بل جاءهم بالحق واكثرهم للحق كارهون (٧٠) و لو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات و الارض و من فيهن بل اتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون (٧١) ام تسئلهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين (٧٢) وانك لتدعوهم الى صراط

مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَ كَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَ لَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَ مَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) .

﴿ بيان ﴾

الآيات متّصلة بقوله السابق : «فذرهم في غمرتهم حتّى حين» فإنّه لمّا عقّب قصص الرسل باختلاف الناس في أمر الدين و تحزّبهم أحزابا كلّ حزب بما لديهم فرحون أوعدهم بعذاب مؤجّل لا مناص لهم عنه و لامخلص منه فليتيهوا في غمرتهم ما شاؤا فسيغشاهم العذاب ولامحالة .

فنبّههم في هذه الآيات أنّ توهّمهم أنّ ما مدّهم الله به من مال و بنين مسارعة لهم في الخيرات خطأ منهم وجهل بحقيقة الحال ، و لو كان ذلك من الخير لم يأخذ العذاب مترفيهم بل المسارعة في الخيرات هو ما وفّق الله المؤمنين له من الأعمال الصالحة و ما يترتّب عليها من جزيل الأجر وعظيم الثواب في الدنيا و الآخرة فهم يسارعون إليها فيسارع لهم فيها .

فالعذاب مدركهم لامحالة و الحجّة تامّة عليهم و لاعذر لهم يعتذرون به كعدم تدبّر القول أو كون الدعوة بدعا لاسابقة له أو عدم معرفة الرسول أو كونه مجنونا مختلّ القول أو سؤاله منهم خرجا بل هم أهل عناد و لجاج لا يؤمنون بالحقّ حتّى يأتيهم عذاب لامردّ له .

قوله تعالى : «أيحسبون أنّ ما نمدّهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لايشعرون» «نمدّهم» بضمّ النون من الإمداد والمدّ والإمداد بمعنى واحد وهو تتميم نقص الشيء و حفظه من أن ينقطع أو ينفد قال الراغب : و أكثر ما يستعمل

الإمداد في المحبوب و المدّ في المكروه فقوله : « نمدّهم » من الإمداد المستعمل في المكروه و المسارعة لهم في الخيرات إفاضة الخيرات بسرعة لكرامتهم عليه فيكون الخيرات على ظنّهم هي المال و البنون سورع لهم فيها

و المعنى أيظنّ هؤلاء أنّ ما نعطيهم في مدّة المهلة من مال و بنين خيرات نسارع لهم فيها لرضانا عنهم أوحبّنا لأعمالهم أو كرامتهم علينا ؟

لا ، بل لايشعرون أي إنّ الأمر على خلاف ما يظنّون و هم في جهل بحقيقة الأمر و هو أنّ ذلك إملاء منّا و استدراج و إنّما نمدّهم في طغيانهم يعمهون كما قال تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون و اُملي لهم إنّ كيدي متين » الأعراف : ١٨٣ .

قوله تعالى : « إنّ الّذين هم من خشية ربّهم مشفقون » إلى آخر الآيات الخمس . يبيّن تعالى في هذه الآيات الخمس بمعونة ما تقدّم أنّ الّذي يظنّ هؤلاء الكفّار أنّ المال و البنين خيرات نسارع لهم فيها خطأ منهم فليست هي من الخيرات في شيء بل استدراج و إملاء و إنّما الخيرات الّتي يسارع فيها هي ما عند المؤمنين بالله ورسله و اليوم الآخر الصالحين في أعمالهم .

فأفصح تعالى عن وصفهم فقال : « إنّ الّذين هم من خشية ربّهم مشفقون » قال : الراغب : الإشفاق عناية مختلطة بخوف لأنّ المشفق يحبّ المشفق عليه ويخاف ما يلحقه قال تعالى : « وهم من الساعة مشفقون » فإذا عدّي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر و إذا عدّي بفي فمعنى العناية فيه أظهر قال : « إنّا كنّا قبل في أهلنا مشفقين » « مشفقون منها » انتهى .

و الآية تصفهم بأنّهم اتّخذوا الله سبحانه ربّا يملكهم ويدبّر أمرهم ، ولازم ذلك أن يكون النجاة و الهلاك دائرين مدار رضاه وسخطه يخشونه في أمر يحبّونه وهو نجاتهم و سعادتهم فهم مشفقون من خشيته و هذا هو الّذي يبعثهم إلى الإيمان بآياته و عبادته ، و قد ظهر بما مرّ من المعنى أنّ الجمع في الآية بين الخشية و الإشفاق ليس تكرارا مستدركا .

ثمّ قال : « و الّذين‌هم بآيات ربّهم يؤمنون » و هي كلّ ما يدلّ عليه‌تعالى بوجه و من ذلك رسله الحاملون لرسالته و ما اُيّدوا به من كتاب و غيره وماجاؤا به من شريعة لأنّ إشفاقهم من خشية الله يبعثهم إلى تحصيل رضاه و يحملهم على إجابته إلى ما يدعوهم إليه و ائتمارهم لمايأمرهم به من طريق الوحي والرسالة .

ثمّ قال : « والّذين‌هم بربّهم لا يشركون » و الإيمان بآياته هوالّذي‌دعاهم إلى نفي الشركاء في‌العبادة فإنّ الإيمان‌بها إيمان‌بالشريعة الّتي‌شرعت عبادته‌تعالى و الحجج الّتي دلّت على توحّده في‌ربوبيّته و اُلوهيّته .

على أنّ جميع الرسل و الأنبياء عليهم‌السلام إنّما جاؤا من قبله و إرسال الرسل لهداية الناس إلى الحقّ الّذي‌فيه سعادتهم من شؤون الربوبيّة ، و لو كان له شريك لأرسل رسولا ، و من لطيف كلام عليّ عليه‌أفضل السلام قوله : لوكان لربّك‌شريك لأتتك رسله .

ثمّ قال : « و الّذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنّهم إلى ربّهم‌راجعون» الوجل الخوف ، و قوله : «يؤتون ما آتوا » أي يعطون ما أعطوا من المال‌بالإنفاق في سبيل الله و قيل : المراد بإيتاء ما آتوا إتيانهم‌بكلّ عمل‌صالح ، وقوله : «وقلوبهم وجلة » حال من‌فاعل «يؤتون» .

و المعنى و الّذين ينفقون ما أنفقوا أو يأتون بالأعمال الصالحة و الحال أنّ قلوبهم خائفة من أنّهم سيرجعون إلى ربّهم أي إنّ الباعث لهم‌على الإنفاق في‌سبيل الله أو على‌صالح العمل ذكرهم رجوعهم‌المحتوم إلى ربّهم على وجل منه .

و في الآية دلالة على إيمانهم باليوم الآخر و إتيانهم بصالح العمل وعندذلك تعيّنت صفاتهم أنّهم الّذين يؤمنون بالله وحده لا شريك له و برسله و باليوم‌الآخر و يعملون الصالحات .

ثم قال : « اُولئك يسارعون في الخيرات و هم لها سابقون» الظاهر أنّ اللاّم في «لها» بمعنى « إلى » و « لها » متعلّق بسابقون ، و المعنى اُولئك الّذين وصفناهم هم‌يسارعون في الخيرات من‌الأعمال وهم سابقون إليها أي يتسابقون فيهالأنّ ذلك

لازم كون كلّ منهم مريدا للسبق إليها .

فقد بيّن في الآيات أنّ الخيرات هي الأعمال الصالحة المبتنية على الاعتقاد الحقّ الّذي عند هؤلاء المؤمنين وهم يسارعون فيها وليست الخيرات ما عند اُولئك الكفّار وهم يعدّونها بحسبانهم مسارعة من الله سبحانه لهم في الخيرات .

قال في التفسير الكبير : و فيه يعني قوله : « اُولئك يسارعون في الخيرات » وجهان :

أحدهما أنّ المراد يرغبون في الطاعات أشدّ الرغبة فيبادرونها لئلّا تفوت عن وقتها ولكيلا تفوتهم دون الاخترام .

و الثاني أنّهم يتعجّلون في الدنيا أنواع النفع و وجوه الإكرام كما قال : « فآتاهم الله ثواب الدنيا و حسن ثواب الآخرة » « و آتيناه في الدنيا أجره و إنّه في الآخرة لمن الصالحين » لأنّهم إذا سورع لهم بها فقد سارعوا في نيلها وتعجّلوها وهذا الوجه أحسن طباقاً للآية المتقدّمة لأنّ فيه إثبات ما نفي عن الكفّار للمؤمنين . انتهى .

أقول : إنّ الّذي نفي عن الكفّار في الآية المتقدّمة هو مسارعة الله للكفّار في الخيرات و الّذي اُثبت للمؤمنين في هذه الآية هو مسارعة المؤمنين في الخيرات ، و الّذي وجّهه في هذا الوجه أنّ مسارعتهم في الخيرات مسارعة من الله سبحانه بوجه فيبقى عليه أن يبيّن الوجه في وضع مسارعتهم في الآية موضع مسارعته تعالى و تبديلها منها ، و وجّهه بعضهم بأنّ تغيير الاُسلوب للإيماء إلى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم ، و هو كما ترى .

و الظاهر أنّ هذا التبديل إنّما هو في قوله في الآية المتقدّمة : « نسارع لهم في الخيرات » و المراد بيان أنّهم يحسبون أنّ ما نمدّهم به من مال و بنين خيرات يتسارعون إليها لكرامتهم وهم كافرون لكن لمّا كان ذلك بإعطاء من الله تعالى لا بقدرتهم عليها من أنفسهم نسبت المسارعة إليه تعالى ثمّ نفيت بالاستفهام الإنكاريّ ، و اُثبت ما يقابله على الأصل للمؤمنين .

فمحصّل هذا النفي والإثبات أنّ المال والبنين ليست خيرات يتسارعون إليها ولاهم مسارعون إلى الخيرات بل الأعمال الصالحة و آثارها الحسنة هي الخيرات و المؤمنون هم المسارعون إلى الخيرات .

قوله تعالى : « و لا نكلّف نفسا إلّا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحقّ و هم لا يظلمون » الّذي يعطيه السياق أنّ في الآية ترغيبا وتحضيضا على ما ذكره من صفات المؤمنين و دفعا لما ربّما ينصرف الناس بتوهّمه عن التلبّس بكرامتها من وجهين أحدهما أنّ التلبّس بها أمر سهل في وسع النفوس وليس بذاك الصعب الشاقّ الّذي يستوعره المترفون ، والثاني أنّ الله لا يضيع عملهم الصالح و لا ينسى أجرهم الجزيل .

فقوله : « ولا نكلّف نفسا إلّا وسعها» نفي للتكليف الحرجيّ الخارج عن وسع النفوس أمّا في الاعتقاد فإنّه تعالى نصب حججا ظاهرة و آيات باهرة تدلّ على ما يريد الإيمان به من حقائق المعارف و جهّز الإنسان بما من شأنه أن يدركها و يصدّق بها و هو العقل ثمّ راعى حال العقول في اختلافها من جهة قوّة الإدراك و ضعفه فأراد من كلّ ما يناسب مقدار تحمّله وطوقه فلم يرد من العامّة ما يريده من الخاصّة و لم يسأل الأبرار عمّا سأل عنه المقرّبين و لا ساق المستضعفين بما ساق به المخلصين .

و أمّا في العمل فإنّما ندب الإنسان منه إلى ما فيه خيره في حياته الفرديّة و الاجتماعيّة الدنيويّة و سعادته في حياته الاُخرويّة ، ومن المعلوم أنّ خير كلّ نوع من الأنواع و منها الإنسان إنّما يكون فيما يتمّ به حياته و ينتفع به في عيشته و هو مجهّز بما يقوى على إتيانه و عمله ، و ما هذا شأنه لا يكون حرجيّا خارجا عن الوسع و الطاقة .

فلا تكليف حرجيّا في دين الله بمعنى الحكم الحرجيّ في تشريعه مبنيّا على مصلحة حرجيّة ، و بذلك امتنّ الله سبحانه على عباده ، وطيّب نفوسهم ورغّبهم إلى ما وصفه من حال المؤمنين .

و الآية « ولا نكلّف نفسا إلّا وسعها» تدلّ على ذلك و زيادة فإنّها تدلّ على

نفي التكليف المبنيّ على الحرج في أصل تشريعه كتشريع الرهبانيّة و التقرّب بذبح الأولاد مثلا ، و نفي التكليف الّذي هو في نفسه غير حرجيّ لكن اتّفق أن صار بعض مصاديقه حرجيّا لخصوصيّة في المورد كالقيام في الصلاة للمريض الّذي لا يستطيعه فالجميع منفيّ بالآية و إن كان الامتنان و الترغيب المذكوران يتمّان بنفي القسم الأوّل .

و الدليل عليه في الآية تعلّق نفي التكليف بقوله : «نفسا» وهو نكرة في سياق النفي يفيد العموم ، و عليه فأيّ نفس مفروضة في أيّ حادثة لا تكلّف إلّا وسعها و لا يتعلّق بها حكم حرجيّ سواء كان حرجيّا من أصله أو صار حرجيّا في خصوص المورد .

و قد ظهر أنّ في الآية إمضاء لدرجات الاعتقاد بحسب مراتب العقول ورفعا للحرج سواء كان في أصل الحكم أو طارئا عليه .

و قوله : «و عندنا كتاب ينطق بالحقّ و هم لايظلمون» ترغيب لهم بتطييب نفوسهم بأنّ عملهم لايضيع و أجرهم لايتخلّف و المراد بنطق الكتاب إعرابه عمّا اُثبت فيه إعرابا لالبس فيه و ذلك لأنّ أعمالهم مثبتة في كتاب لا ينطق إلّا بما هو حقّ فهو مصون عن الزيادة و النقيصة و التحريف ، و الحساب مبنيّ على ما اُثبت فيه كما يشير إليه قوله : «ينطق» والجزاء مبنيّ على مايستنتج من الحساب كما يشير إليه قوله : «و هم لايظلمون» فهم في أمن من الظلم بنسيان أجرهم أو بترك إعطائه أو بنقصه أو تغييره كما أنّهم في أمن من أن لايحفظ أعمالهم أو تنسى بعد الحفظ أو تتغيّر بوجه من وجوه التغيّر .

قال الرازيّ في التفسير الكبير فإن قيل : هؤلاء الّذين يعرض عليهم ذلك الكتاب إمّا أن يكونوا محيلين الكذب على الله تعالى أو مجوّزين ذلك عليه فإن أحالوه عليه فإنّهم يصدّقونه في كلّ مايقول سواء وجد الكتاب أولم يوجد ، وإن جوّزه عليه لم يثقوا بذلك الكتاب لتجويزهم أنّه سبحانه كتب فيه خلاف ماحصل فعلى التقديرين لافائدة في ذلك الكتاب .

قلنا : يفعل الله ما يشاء ، وعلى أنّه لايبعدأن يكون ذلك مصلحة للمكلّفين من

الملائكة . انتهى .

أقول : و الّذي أجاب به مبنيّ على مسلكه من نفي الغرض عن فعله تعالى و تجويز الإرادة الجزافيّة تعالى عن ذلك ، و الإشكال مطّرد في سائر شؤون يوم القيامة الّتي أخبر الله سبحانه بها كالحشر و الجمع و إشهاد الشهود و نشر الكتب و الدواوين و الصراط و الميزان و الحساب .

و الجواب عن ذلك كلّه أنّه تعالى مثّل لنا ما يجري على الإنسان يوم القيامة في صورة القضاء و الحكم الفصل ، و لا غنى للقضاء بما أنّه قضاء عن الاستناد إلى الحجج و البيّنات كالكتب و الشهود و الأمارات و الجمع بين المتخاصمين و لا يتمّ دون ذلك البتّة .

نعم لو أغمضنا النظر عن ذلك كان ظهور أعمال الإنسان له في مراحل رجوعه إلى الله سبحانه بإذنه فافهمه .

قوله تعالى : « بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون » المناسب لسياق الآيات أن يكون «هذا» إشارة إلى ما وصفته الآيات السابقة من حال المؤمنين ومسارعتهم في الخيرات ، ويمكن أن يكون إشارة إلى القرآن كما يؤيّده قوله بعد : « قد كانت آياتي تتلى عليكم » و الغمرة الغفلة الشديدة أو الجهل الشديد الّذي غمرهم ، و قوله : « و لهم أعمال من دون ذلك الخ أي من غير ما وصفناه من حال المؤمنين و هو كناية عن أنّ لهم شاغلا يشغلهم عن هذه الخيرات و الأعمال الصالحة وهو الأعمال الرديئة الخبيثة الّتي هم لها عاملون .

و المعنى بل الكفّار في غفلة شديدة أو جهل شديد عن هذا الّذي وصفنا به المؤمنين و لهم أعمال رديئة خبيثة من دون ذلك هم لها عاملون فهي شاغلتهم وما نعتهم .

قوله تعالى : « حتّى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون » الجؤار بضمّ الجيم صوت الوحش كالظباء و نحوها عند الفزع كنّي به عن رفعهم الصوت بالاستغاثة و التضرّع ، و قيل : المراد به ضجّتهم و جزعهم و الآيات التالية تؤيّد المعنى الأوّل .

و إنّما جعل مترفيهم متعلّق العذاب لأنّ الكلام فيمن ذكره قبلا بقوله : « أيحسبون أنّما نمدّهم به من مال و بنين » وهم الرؤساء المتنعّمون منهم و غيرهم تابعون لهم .

قوله تعالى : « لا تجأروا اليوم إنّكم منّا لا تنصرون » العدول عن سياق الغيبة إلى الخطاب لتشديد التوبيخ والتقريع ولقطع طمعهم في النجاة بسبب الاستغاثة و أيّ رجاء و أمل لهم فيها فانّ إخبار الوسائط أنّهم لا ينصرون لدعاء أو شفاعة لا يقطع طمعهم في النصر كما يقطعه إخبار من إليه النصر نفسه .

قوله تعالى : « قد كانت آياتي تتلى عليكم - إلى قوله - تهجرون » النكوص الرجوع القهقرى ، و السامر من السمر وهو التحديث بالليل قيل : السامر كالحاضر يطلق على المفرد و الجمع ، و قرىء «سمّرا » بضمّ السين و تشديد الميم جمع سامر وهو أرجح و قرىء أيضا « سمّارا» بالضمّ و التشديد ، و الهجر الهذيان .

و الفصل في قوله : «قد كانت آياتي» الخ لكونه في مقام التعليل والمعنى إنّكم منّا لا تنصرون لأنّه قد كانت آياتي تتلى وتقرء عليكم فكنتم تعرضون عنها وترجعون إلى أعقابكم القهقرى مستكبرين بنكوصكم تحدّثون في أمره في الليل تهجرون و تهذون ، و قيل : ضمير «به» عائد إلى البيت أو الحرم وهو كما ترى .

قوله تعالى : « أفلم يدّبّروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأوّلين » شروع في قطع أعذارهم في الإعراض عن القرآن النازل لهدايتهم و عدم استجابتهم للدعوة الحقّة الّتي قام بها النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم .

فقوله : « أفلم يدّبّروا القول » الاستفهام فيه للإنكار واللاّم في «القول» للعهد و المراد به القرآن المتلوّ عليهم ، و الكلام متفرّع على ما تقدّمه من كونهم في غفلة منه وشغل يشغلهم عنه ، و المعنى هل إذا كانوا على تلك الحال لم يدّبّروا هذا القول المتلوّ عليهم حتّى يعلموا أنّه حقّ من عندالله فيؤمنوا به .

و قوله : « أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأوّلين» «أم» فيه و فيما بعده منقطعة في معنى الإضراب ، و المعنى بل أجاءهم شيء لم يأت آباءهم الأوّلين فيكون بدعاً

ينكر ويحترز منه .

و كون الشيء بدعا محدثا لايعرفه السابقون و إن لميستلزم كونه باطلا غير حقّ على نحو الكلّيّة لكنّ الرسالة الإلهيّة لمّا كانت لغرض الهداية لو صحّت وجبت في حقّ الجميع فلولميأت الأوّلين كان ذلك حجّة قاطعة على بطلانها .

قوله تعالى . « أم لميعرفوا رسولهم فهم له منكرون» المراد بمعرفة الرسول معرفته بنسبه و حسبه و بالجملة بسجاياه الروحيّة و ملكاته النفسيّة من اكتسابيّة و موروثة حتّى يتبيّن به أنّه صادق فيمايقول مؤمن بما يدعو إليه مؤيّد من‌عندالله وقد عرفوا من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم سوابق حاله قبل البعثة ، وقد كان يتيما فاقدا للأبوين لم يقرء و لميكتب ولم يأخذ أدبا من مؤدّب ولاتربية من مربّ ثمّ لم يجدوا عنده مايستقبحه عقل أويستنكره طبع أو يستهجنه رأي ولاطمعا في ملك أوحرصا على مال أو ولعا بجاه ، و هو على ما هو سنين من عمره فإذا هو ينادي للفلاح و السعادة و يندب إلى‌حقائق معارف‌تبهر العقول و يدعوإلى‌شريعة تحيّر الألباب ويتلو كتابا .

فهم قد عرفوا رسولهم صلى الله عليه وآله وسلم بنعوته الخاصّة المعجزة لغيره ، و لولم يكونوا يعرفونه لكان لهم عذرا في إعراضهم عن دينه و استنكافهم عن الإيمان به. لأنّ معنى عدم‌معرفته لذلك‌وجدانه على غيربعض‌هذه النعوت أو عدم‌إحرازه فيه ، ومن‌المعلوم أنّ إلقاء الزمام إلى من هذا شأنه ممّا لا يجوّزه العقل .

قوله تعالى : « أم يقولون به جنّة بل‌جاء بالحقّ وأكثرهم للحقّ كارهون» و هذا عذر آخر لهم تشبّثوا به إذ قالوا : « يا أيّها الّذي نزّل عليه الذكر إنّك لمجنون» الحجر : ٦ ذكره وردّه بلازم قوله : «بل‌جاء بالحقّ» .

فمدلول قوله : « بل‌جاء بالحقّ و أكثرهم للحقّ كارهون » إضراب عن‌جملة محذوفة و التقدير إنّهم كاذبون في قولهم : « به‌جنّة » و اعتذارهم عن‌عدم إيمانهم‌به بذلك بل إنّما كرهوا الإيمان به لأنّه جاء بالحقّ وأكثرهم‌للحقّ كارهون .

و لازمه ردّ قولهم بحجّة يلوّح إليها هذا الإضراب ، و هي أنّ قولهم : «به جنّة» لو كان حقّا كان كلامه مختلّ النظم غيرمستقيم المعنى مدخولا فيه كما هو

مدخول في عقله ، غير رام إلى مرمى صحيح ، لكن كلامه ليس كذلك فلايدعو إلّا إلى حقّ ، ولا يأتي إلّا بحقّ ، و أين ذلك من كلام مجنون لا يدري ما يريدولايشعر بما يقول .

و إنّما نسب الكراهة إلى أكثرهم لأنّ فيهم مستضعفين لا يعبؤ بهم أرادوا أو كرهوا .

قوله تعالى : « و لو اتّبع الحقّ أهواءهم لفسدت السماوات و الأرض و من فيهنّ بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون » لمّا ذكر أنّ أكثرهم للحقّ كارهون و إنّما يكرهون الحقّ لمخالفته هواهم فهم يريدون من الحقّ أي الدعوة الحقّة أن يتّبع أهواءهم و هذا ممّا لا يكون البتّة .

إذ لو اتّبع الحقّ أهواءهم فتركوا و ما يهوونه من الاعتقاد والعمل فعبدوا الأصنام و اتّخذوا الأرباب و نفوا الرسالة و المعاد واقترفوا ما أرادوه من الفحشاء و المنكر والفسادجاز أن يتّبعهم الحقّ في غير ذلك من الخليقة والنظام الّذي يجري فيها بالحقّ إذ ليس بين الحقّ والحقّ فرق فاُعطي كلّ منهم ما يشتهيه من جريان النظام و فيه فساد السماوات والأرض و من فيهنّ واختلال النظام و انتقاض القوانين الكلّيّة الجارية في الكون ، فمن البيّن أنّ الهوى لا يقف على حدّ و لا يستقرّ على قرار .

و بتقرير آخر أدقّ و أوفق لما يعطيه القرآن من حقيقة الدين القيّم أنّ الإنسان حقيقة كونيّة مرتبطة في وجودها بالكون العامّ وله في نوعيّته غاية هي سعادته و قد خطّ له طريق إلى سعادته و كماله ينالها بطيّ الطريق المنصوب إليها نظير غيره من الأنواع الموجودة ، و قد جهّزه الكون العامّ و خلقته الخاصّة به من القوى و الآلات بما يناسب سعادته و الطريق المنصوب إليها و هي الاعتقاد والعمل اللّذان ينتهيان به إلى سعادته .

فالطريق الّتي ينتهي بالإنسان إلى سعادته أعني الاعتقادات و الأعمال الخاصّة المتوسّطة بينه و بين سعادته و هي الّتي تسمّى الدين و سنّة الحياة متعيّنة حسب

اقتضاء النظام العامّ الكوني و النظام الخاصّ الإنسانيّ الّذي نسمّيه الفطرة و تابعة لذلك .

و هذا هو الّذي يشير تعالى إليه بقوله : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله الّتي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم » سورة الروم : ٣٠ .

فسنّة الحياة الّتي تنتهي بسالكها إلى السعادة الإنسانيّة طريقة متعيّنة يقتضيها النظام بالحقّ و تكشف عنها تجهيزات وجوده بالحقّ ، و هذا الحقّ هو القوانين الثابتة غير المتغيّرة الّتي تحكم في النظام الكوني الّذي أحد أجزائه النظام الإنسانيّ و تدبّره و تسوقه إلى غاياته و هو الّذي قضى به الله سبحانه فكان حتما مقضيّا .

فلو اتّبع الحقّ أهواءهم فاقتضى لهم من الشرع ما تجازف به أهواؤهم لم يكن ذلك إلّا بتغيّر أجزاء الكون عمّا هي عليه و تبدّل العلل و الأسباب غيرها و تغيّر الروابط المنتظمة إلى روابط جزافيّة مختلّة متدافعة توافق مقتضياتها مجازفات أهوائهم ، وفي ذلك فساد السماوات و الأرض ومن فيهنّ في أنفسها و التدبير الجاري فيها لأنّ كينونتها و تدبيرها مختلطان غير متمايزين ، و الخلق و الأمر متّصلان غير منفصلين .

و هذا هو الّذي يشير إليه قوله : « ولو اتّبع الحقّ أهواءهم لفسدت السماوات و الأرض و من فيهنّ » .

و قوله : « بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون » لا ريب أنّ المراد بالذكر هو القرآن كما قال : « و هذا ذكر مبارك » الأنبياء : ٥٠ وقال : « وإنّه لذكر لك و لقومك » الزخرف : ٤٤ إلى غير ذلك من الآيات ، و لعلّ التعبير عنه بالذكر بعد قوله : « أم يقولون به جنّة » نوع مقابلة لقولهم : « يا أيّها الّذي نزّل عليه الذكر إنّك لمجنون » الحجر : ٦ .

و كيف كان فقد سمّي ذكرا لأنّه يذكّرهم بالله أو يذكر لهم دين الله من الاعتقاد الحقّ و العمل الصالح ، و الثاني أوفق لصدر الآية بما تقدّم من معناه ، و إنّما اُضيف إليهم لأنّ الدين أعني الدعوة الحقّة مختلفة بالنسبة إلى الناس

بالإجمال و التفصيل و الّذي يذكره القرآن آخر مراحل التفصيل لكون شريعته آخر الشرائع .

و المعنى لم يتّبع الحقّ أهواءهم بل جئناهم بكتاب يذكّرهم ـ أو يذكرون به ـ دينهم الّذي يختصّ بهم و يتفرّع عليه أنّهم عن دينهم الخاصّ بهم معرضون .

و قال كثير منهم إنّ إضافة الذكر إليهم للتشريف نظير قوله : « و إنّه لذكر لك و لقومك وسوف تسألون » الزخرف : ٤٤ و المعنى بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم الّذي كان يجب عليهم أن يقبلوا عليه أكمل إقبال فهم بما فعلوه من النكوص عن فخرهم و شرفهم أنفسهم معرضون .

و فيه أنّه لاريب في أنّ القرآن الكريم شرف للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إذ اُنزل عليه و لأهل بيته إذ نزل في بيتهم ، و للعرب إذ نزل بلغتهم وللاُمّة إذ نزل لهدايتهم غير أنّ الإضافة في الآية ليست لهذه العناية بل لعناية اختصاص هذا الدين بهذه الاُمّة و هو الأوفق لصدر الآية بالمعنى الّذي تقدّمت الإشارة إليه .

قوله تعالى : « أم تسألهم خرجا فخراج ربّك خير وهو خير الرازقين » قال في مجمع البيان : أصل الخراج و الخرج واحد و هو الغلّة الّتي يخرج على سبيل الوظيفة انتهى .

و هذا رابع الأعذار الّتي ذكرت في هذه الآيات و ردّت و وبّخوا عليها وقد ذكره الله بقوله : « أم تسألهم خرجا » أي مالاً يدفعونه إليك على سبيل الرسم و الوظيفة ثمّ ذكر غنى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : « فخراج ربّك خير وهو خير الرازقين» أي إنّ الله هو رازقك و لاحاجة لك إلى خرجهم ، و قد تكرّر الأمر بإعلامهم ذلك في الآيات «قل لا أسالكم عليه أجرا » الأنعام : ٩٠ الشورى : ٢٣ .

و قد تمّت بما ذكر في الآية أربعة من الأعذار المردودة إليهم و هي مختلفة فأوّلها « أفلم يدّبّروا القول » راجع إلى القرآن ، و الثاني « أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأوّلين » إلى الدين الذي إليه الدعوة ، و الثالث « أم يقولون به جنّة » إلى نفس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، و الرابع « أم تسألهم خرجا» إلى سيرته .

قوله تعالى : « و إنّك لتدعوهم إلى صراط مستقيم و إنّ الّذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون » النكب و النكوب العدول عن الطريق و الميل عن الشيء.

قد تقدّم في تفسير سورة الفاتحة أنّ الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الّذي لا يختلف و لا يتخلّف في حكمه و هو إيصاله سالكيه إلى الغاية المقصودة ، و هذه صفة الحقّ فإنّ الحقّ واحد لايختلف أجزاؤه بالتناقض والتدافع ولايتخلّف فيمطلوبه الّذي يهدي إليه فالحقّ صراط مستقيم ، وإذ ذكر أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يهدي إلى الحقّ كان لازمه هذا الّذي ذكره أنّه يهدي إلى صراط مستقيم .

ثمّ إنّ الّذين كفروا لمّا كانوا كارهين للحقّ كما ذكره فهم عادلون عن الصراط أي الصراط المستقيم مائلون إلى غيره .

و إنّما أورد من أوصافهمعدم إيمانهم بالآخرة واقتصرعليه لأنّ دينالحقّ مبنيّ على أساس أنّ للإنسان حياة خالدة لاتبطل بالموت و له فيها سعادة يجب أن تقتنى بالاعتقاد الحقّ و العمل الصالح و شقاوة يجب أن تجتنب ، و هؤلاء لنفيهم الحياة الآخرة يعدلون عن الحقّ والصراط المستقيم .

و بتقرير آخر : دين الحقّ مجموع تكاليف اعتقاديّة و عمليّة و التكليف لا يتمّ إلّا بحساب و جزاء ، و قد عيّن لذلك يوم القيامة ، وإذ لايؤمن هؤلاءبالآخرة لغى الدين عندهم فلايرون من الحياة إلّاالحياة الدنيا المادّيّة و لايبقى منالسعادة عندهم إلّا نيل اللذائذ المادّيّة و هو التمتّع بالبطن فما دونه ، و لازم ذلكأنيكون المتّبع عندهم الهوى وافق الحقّ أو خالفه .

فمحصّل الآيتين أنّهم ليسوا بمؤمنين بكلأنّك تدعوإلى صراط مستقيموهم لاهمّ لهم إلّا العدول و الميل عنه .

قوله تعالى : « و لو رحمناهم و كشفنا ما بهم من ضرّ » إلى قوله ـ « و ما يتضرّعون » اللجاج التمادي و العناد فيتعاطي الفعل المزجور عنه ، و العمهالتردّد في الأمر منالتحيّر ، ذكرهماالراغب ، وفيالمجمع : الاستكانةالخضوعوهواستفعل

من الكون و المعنى ما طلبوا الكون على صفة الخضوع . انتهى .

و قوله : « و لو رحمناهم » بيان و تأييد لنكوبهم عن الصراط بأنّا لو رحمناهم و كشفنا ما بهم من ضرّ لم يرجعوا بمقابلة ذلك لشكر بل أصرّوا على تمرّدهم عن الحقّ و تمادوا يتردّدون في طغيانهم فلاينفعهم رحمة بكشف الضرّ كما لاينفعهم تخويف بعذاب و نقمة فانّا قد أخذناهم بالعذاب فما خضعوا لربّهم و مايتضرّعون إليه فهؤلاء لا ينفعهم و لا يركبهم صراط الحقّ لارحمة بكشف الضرّ ولانقمة وتخويف بالأخذ بالعذاب .

و المراد بالعذاب العذاب الخفيف الّذي لاينقطع به الإنسان عن عامّة الأسباب بقرينة ما في الآية التالية فلايرد أنّ الرجوع إلى الله تعالى عند الاضطرار والانقطاع عن الأسباب من غريزيّات الإنسان كما تكرّر ذكره في القرآن الكريم فكيف يمكن أن يأخذهم العذاب ثمّ لايستكينوا ولايتضرّعوا ؟

و قوله في الآية الاُولى : « ما بهم من ضرّ » و في الثانية : « و لقد أخذناهم بالعذاب » يدلّ على أنّ الكلام ناظر إلى عذاب قد وقع و لمّا يرتفع حين نزول الآيات ، و من المحتمل أنّه الجدب الّذي ابتلي به أهل مكّة و قد ورد ذكر منه في الروايات .

قوله تعالى : « حتّى إذا فتحنا عليهم باباذا عذاب شديد إذاهم فيه مبلسون » أي هم على حالهم هذه لاينفع فيهم رحمة ولاعذاب حتّى إذا فتحنا عليهم باباذا عذاب شديد و هو الموت بما يستتبعه من عذاب الآخرة ـ على ما يعطيه سياق الآيات و خاصّة الآيات الآتية ـ فيفاجؤهم الإبلاس واليأس من كلّ خير .

و قد ختم هذا الفصل من الكلام أعني قوله : « أفلم يدّبّروا القول » الخ بنظير ما ختم به الفصل السابق أعني قوله : « أيحسبون أنّما نمدّهم به من مال وبنين » إلى آخر الآيات و هو ذكر عذاب الآخرة ، و سيعود إليه ثانيا .

﴿ بحث روائی ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : «والّذين هم من خشية ربّهم مشفقون ـ إلى قوله ـ يؤتون ما آتوا» قال : من العبادة و الطاعة .

و في الدرّ المنثور أخرج الفاريابىّ و أحمد و عبد بن حميد و الترمذيّ و ابن ماجه و ابن أبي الدنيا في نعت الخائفين و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الحاكم وصحّحه و ابن مردويه والبيهقيّ في شعب الإيمان عن عائشة قالت : قلت : يا رسول الله قول الله : « و الّذين يؤتون ما آتوا و قلوبهم وجلة » أهو الرجل يزني و يسرق و يشرب الخمر و هو مع ذلك يخاف الله ؟ قال : لا و لكنّ الرجل يصوم و يتصدّق و يصلّي وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبّل منه .

و في المجمع في قوله : « وقلوبهم وجلة» قال أبوعبدالله عليه‌السلام : معناه خائفة أن لا يقبل منهم ، و في رواية اُخرى : أتى و هو خائف راج .

وفي الدرّ المنثور أخرج عبدالرزّاق و عبد بن حميد و ابن أبي حاتم عن قتادة «حتّى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب» قال ذكر لنا أنّها نزلت في الّذين قتل الله يوم بدر .

أقول : و روى مثله عن النسائيّ عن ابن عبّاس ولفظه قال : هم أهل بدر ، و سياق الآيات لا ينطبق على مضمون الروايتين .

و فيه أخرج النسائيّ و ابن جرير و ابن أبي حاتم و الطبرانيّ والحاكم و صحّحه و ابن مردويه و البيهقيّ في الدلائل عن ابن عبّاس قال : جاء أبوسفيان إلى النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فقال : يا محمّد اُنشدك الله و الرحم فقد أكلنا العلهز يعني الوبر بالدم فأنزل الله : « ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربّهم و ما يتضرّعون » .

أقول : و الروايات في هذا المعنى مختلفة و ما أوردناه أعدلها و هي تشير إلى جدب وقع بمكّة و حواليها بدعوة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، و ظاهر أكثرها أنّه كان بعد الهجرة ، و لا يوافق ذلك الاعتبار .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : « و لو اتّبع الحقّ أهواءهم » قال : الحقّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم و أمير المؤمنين عليه‌السلام .

أقول : هو من البطن بالمعنى الّذي تقدّم في بحث المحكم و المتشابه و نظيره ما أورده في قوله : « و إنّك لتدعوهم إلى صراط مستقيم » قال : إلى ولاية أمير ـ المؤمنين عليه السلام ، و كذا ما أورده في قوله : «عن الصراط لنا كبون » قال : عن الإمام لحادون .

و فيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : «أم تسألهم خرجا فخراج ربّك خير وهو خير الرازقين» يقول : أم تسألهم أجرا فأجر ربّك خير .

و في الكافي بإسناده عن محمّد بن مسلم قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : «فما استكانوا لربّهم و ما يتضرّعون » فقال : الاستكانة هي الخضوع ، و التضرّع رفع اليدين و التضرّع بهما .

و في المجمع و روي عن مقاتل بن حيّان عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : رفع الأيدي من الاستكانة . قلت : وما الاستكانة قال : أما تقرء هذه الآية : « فما استكانوا لربّهم وما يتضرّعون » ؟ أورده الثعلبيّ و الواحديّ في تفسيريهما .

وفيه قال أبو عبدالله عليه السلام : الاستكانة الدعاء ، والتضرّع رفع اليدين في الصلاة .

و في الدرّ المنثور أخرج العسكريّ في المواعظ عن عليّ بن أبي طالب في قوله : « و ما استكانوا لربّهم و ما يتضرّعون» أي لم يتواضعوا في الدعاء ولم يخضعوا لو خضعوا لله لاستجاب لهم .

و في المجمع في قوله تعالى: « حتّى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد » قال أبو جعفر عليه السلام هو في الرجعة .

~~~~~~~~~~
~~~~~~~~~~

☆ ☆ ☆

و هو الذى انشا لكم السمع والابصار و الافئدة قليلا ما تشكرون(٧٨) و هو الذى ذراكم في الارض واليه تحشرون (٧٩) و هو الذى يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار افلاتعقلون (٨٠) بل قالوا مثل ماقال الاولون(٨١) قالوا ءاذا متنا و كنا ترابا و عظاما ءانا لمبعوثون (٨٢) لقد وعدنا نحن و آباؤنا هذا من قبل ان هذا الا اساطير الاولين (٨٣) قل لمن الارض و من فيها ان كنتم تعلمون (٨٤) سيقولون لله قل افلا تذكرون (٨٥) قل من رب السموات السبع و رب العرش العظيم(٨٦) سيقولون لله قل افلا تتقون (٨٧) قل من بيده ملكوت كل شيء و هو يجير ولايجار عليه ان كنتم تعلمون(٨٨) سيقولون لله قل فانى تسحرون (٨٩) بل اتيناهم بالحق و انهم لكاذبون(٩٠) ما اتخذالله من ولد و ما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق و لعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون (٩١) عالم الغيب و الشهادةفتعالى عما يشركون(٩٢) قل رب اماترينى ما يوعدون (٩٣) رب فلا تجعلني في القوم الظالمين (٩٤) و انا على ان نريك ما نعدهم لقادرون (٩٥) ادفع بالتى هى احسن السيئة نحن اعلم بما يصفون (٩٦) و قل رب اعوذبك من همزات الشياطين (٩٧) و اعوذبك رب ان يحضرون (٩٨) .

﴿ بيان ﴾

لمّا أوعدهم بعذاب شديد لا مردّ له و لا مخلص منه ، و ردّ عليهم كلّ عذر يمكنهم أن يعتذروا به ، و بيّن أنّ السبب الوحيد لكفرهم بالله و اليوم الآخر هو اتّباع الهوى و كراهة اتّباع الحقّ . تمّم البيان بإقامة الحجّة على توحّده في الربوبيّة و على رجوع الخلق إليه بذكر آيات بيّنة لاسبيل للإنكار إليها .

وعقّب ذلك بأمر النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يستعيذ به من أن يشمله العذاب الّذي اُوعدوا به ، و أن يعوذ به من همزات الشيطان و أن يحضروه كما فعلوا بهم .

قوله تعالى : « و هو الّذي أنشأ لكم السمع و الأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » افتتح سبحانه من نعمه الّتي أنعمها عليهم بذكر إنشاء السمع و البصر و هما نعمتان خصّ بهما جنس الحيوان خلقتا فيه إنشاء و إبداعا لاعن مثال سابق إذ لا توجدان في الأنواع البسيطة الّتي قبل الحيوان كالنبات والجماد و العناصر .

و بحصول هذين الحسّين يقف الوجود المجهّز بهما موقفا جديدا و يتّسع مجال فعّاليّته بالنسبة إلى ما هو محروم منهما اتّساعا لا يتقدّر بقدر فيدرك خيره و شرّه و نافعه و ضارّه و يعطى معهما الحركة الاراديّة إلى ما يريده و عمّا يكرهه ، و يستقرّ في عالم حديث طريّ فيه مجالي الجمال واللذّة و العزّة و الغلبة والمحبّة ممّا لاخبر عنه فيما قبله .

و إنّما اقتصر من الحواسّ بالسمع والبصر ـ قيل ـ لأنّ الاستدلال يتوقّف عليهما و يتمّ بهما .

ثمّ ذكر سبحانه الفؤاد و المراد به المبدء الّذي يعقل من الإنسان و هو نعمة خاصّة بالإنسان من بين سائر الحيوان و مرحلة حصول الفؤاد مرحلة وجوديّة جديدة هي أرفع درجة و أعلى منزلة و أوسع مجالا من عالم الحيوان الّذي هو عالم الحواسّ فيتّسع به أوّلا شعاع عمل الحواسّ ممّا كان عليه في عامّة الحيوان بما لا يتقدّر بقدر فإذا الإنسان يدرك بهما ما غاب وما حضر و ما مضى و ما غبر من أخبار

الأشياء و آثارها و أوصافها بعلاج و غير علاج .

ثمّ يرقى بفؤاده أي بتعقّله إلى ما فوق المحسوسات و الجزئيّات فيتعقّل الكلّيّات فيحصّل القوانين الكلّيّة ، و يغور متفكّرا في العلوم النظريّة و المعارف الحقيقيّة ، و ينفذ بسلطان التدبّر في أقطار السماوات و الأرض .

ففي ذلك كلّه من عجيب التدبير الإلهيّ بإنشاء السمع و الأبصار والأفئدة ما لايسع الإنسان أن يستوفي شكره .

و قوله : « قليلا ما تشكرون » فيه بعض العتاب ومعناه تشكرون شكرا قليلا فقوله : « قليلا » وصف للمفعول المطلق قائم‌مقامه .

قوله تعالى : « و هو الّذي‌ذرأ كم في‌الأرض وإليه تحشرون » قال الراغب : الذرء إظهار الله تعالى ما أبداه يقال : ذرء الله الخلق أي أوجد أشخاصهم . و قال : الحشر إخراج الجماعة عن مقرّهم و إزعاجهم عنه إلى الحرب و نحوها . انتهى .

فالمعنى أنّه لمّا جعلكم ذوي حسّ و عقل أظهر وجودكم في الأرض متعلّقين بها ثمّ يجمعكم و يرجعكم إلى لقائه .

قوله تعالى : « و هو الّذي يحيي و يميت وله اختلاف الليل و النهار أفلا تعقلون » معنى الآية ظاهر ، و قوله : « و هو الّذي يحيي ويميت » مترتّب بحسب المعنى على الجملة الّتي قبله أي‌لمّا جعلكم ذوي علم وأظهر وجودكم في الأرض‌إلى حين حتّى تحشروا إليه لزمت ذلك سنّة الإحياء و الإماتة إذ العلم متوقّف على الحياة و الحشر متوقّف على الموت .

و قوله : « وله اختلاف الليل و النهار » مترتّب على ما قبله فإنّ الحياة‌ثمّ الموت لاتتمّ إلّا بمرور الزمان و ورود الليل بعد النهار و النهار بعد الليل حتّى ينقضي العمر ويحلّ الأجل المكتوب ، هذا لو اُريد باختلاف الليل و النهار ورود الواحد منها بعد الواحد ، و لو اُريد به اختلافهما في الطول والقصر كانت‌فيه‌إشارة إلى إيجاد فصول السنة الأربعة المتفرّعة‌على طول الليل و النهار و قصرهما وبذلك يتمّ أمر أرزاق الحيوان وتدبير معاشها كما قال : « و قدّر فيها أقواتهافي أربعة أيّام

سواء للسائلين » حم السجدة : ١٠ .

فمضامين الآيات الثلاث مترتّبة مستتبعة بعضها بعضا فإنشاء السمع و البصر والفؤاد و هوالحسّ والعقل للإنسان يستتبع حياة متعلّقة بالمادّة و سكونا في الأرض إلى حين ، ثمّ الرجوع إلى الله ، وهويستتبع حياة وموتا ، و ذلك يستتبع ممرّا امتقضّيا بانقضاء الزمان و رزقا يرتزق به .

فالآيات الثلاث تتضمّن الإشارة إلى دور كامل من تدبير أمر الإنسان من حين يخلق إلى أن يرجع إلى ربّه ، والله سبحانه هو مالك خلقه فهو مالك تدبير أمره لأنّ هذا التدبير تدبير تكوينيّ لا يفارق الخلق و الإيجاد و لاينحاز عنه ، و هو نظام الفعل و الانفعال الجاري بين الأشياء بما بينها من الروابط المختلفة المجعولة بالتكوين فالله سبحانه هوربّهم المدبّر لأمرهم وإليه يحشرون وقوله: «أفلاتعقلون» توبيخ لهم و حثّ على التنبّه فالإيمان .

قوله تعالى : « بل قالوا مثل ما قال الأوّلون » إضراب عن نفي سابق يدلّ عليه الاستفهام المتقدّم أي لم يعقلوا بل قالوا كذا و كذا .

و في تشبيه قولهم بقول الأوّلين إشارة إلى أنّ تقليد الآباء منعهم عن اتّباع الحقّ وأوقعهم فيما لايبقى معه للدين جدوى وهو نفي المعاد ، والإخلاد إلى الأرض و الانغمار في المادّيّات سنّة جارية فيهم في آخريهم و أوّليهم .

قوله تعالى : « قالوا ءإذا امتنا و كنّا ترابا و عظاما ءإنّا لمبعوثون » بيان لقوله : « قالوا» في الآية السابقة والكلام مبنيّ على الاستبعاد .

قوله تعالى : « لقد وعدنا نحن و آباؤنا هذا من قبل إن هذا إلّا أساطير الأوّلين » الأساطير الأباطيل و الأحاديث الخرافيّة و هي جمع اُسطورة كأكاذيب جمع اُكذوبة و أعاجيب جمع اُعجوبة و إطلاق الأساطير و هو جمع على البعث وهو مفرد بعناية أنّه مجموع عدات كلّ واحد منها اُسطورة كالإحياء و الجمع والحشر و الحساب و الجنّة و النار وغيرها ، و الإشارة بهذا إلى حديث البعث و قوله : من قبل ، متعلّق بقوله : «وعدنا» على ما يعطيه سياق الجملة .

و المعنى أنّ وعد البعث وعد قديم ليس بحديث نقسم لقد وعدناه من قبل نحن و آباؤنا ليس البعث الموعود إلّا أحاديث خرافيّة وضعها و نظمها الأناسيّ الأوّلون في صورة إحياء الأموات و حساب الأعمال و الجنّة و النار و الثواب والعقاب.

و الدليل على كونها أساطير أنّ الأنبياء من قديم الدهر لايزالون يعدوننا و يخوّفوننا بقيام الساعة ولو كان حقّاً غير خرافيّ لوقع.

و من هنا يظهر أوّلا أنّ قولهم: «من قبل» لتمهيد الحجّة على قولهم بعده «إن هذا إلّا أساطير الأوّلين».

و ثانيا أنّ الكلام مسوق للترقّي فالآية السابقة: «إذا كنّا ترابا و عظاما إنّا لمبعوثون» مبنيّة على الاستبعاد وهذه الآية متضمّنة للإنكار مبنيّا على حجّة واهية.

قوله تعالى: «قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون» لمّا ذكر استبعادهم للبعث ثمّ إنكارهم له شرع في الاحتجاج على إمكانه من طريق الملك و الربوبيّة و السلطنة، و وجه الكلام إلى الوثنيّين المنكرين للبعث وهم معترفون به تعالى بمعنى أنّه الموجد للعالم و ربّ الأرباب و الآلهة المعبودون دونه من خلقه، و لذا أخذ وجوده تعالى مسلّما في ضمن الحجّة.

فقوله: «قل لمن الأرض و من فيها» أمر للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يسألهم عن مالك الأرض و من فيها من اُولي العقل من هو؟ و معلوم أنّ السؤال إنّما هو عن الملك الحقيقيّ الّذي هو قيام وجود شيء بشيء بحيث لايستقلّ الشيء المملوك عن مالكه بأيّ وجه فرض دون الملك الاعتباريّ الّذي وضعناه معاشر المجتمعين لمصلحة الاجتماع و هو يقبل الصحّة و الفساد ويقع مورداً للبيع والشرى، و ذلك لأنّ الكلام مسوق لإثبات صحّة جميع التصرّفات التكوينيّة وملاكها الملك التكوينيّ الحقيقيّ دون التشريعيّ الاعتباريّ.

قوله تعالى: «سيقولون لله قل أفلا تذكّرون» إخبار عن جوابهم و هو أنّ الأرض و من فيها مملوكة لله، ولامناص لهم عن الاعتراف بكونها لله سبحانه فإنّ

هذا النوع من الملك لا يقوم إلّا بالعلّة الموجدة لمعلولها حيث يقوم وجود المعلول بها قياما لا يستقلّ عنها بوجه من الوجوه ، و العلّة الموجدة للأرض ومن فيها هو الله سبحانه وحده لاشريك له حتّى باعتراف الوثنيّين .

و قوله : « قل أفلا تذكّرون » أمر بعد تسجيل الجواب أن يوبّخهم على عدم تذكّرهم بالحجّة الدالّة على إمكان البعث ، و المعنى قل لهم فإذا كان الله سبحانه مالك الأرض ومن فيها لم لا تتذكّرون أنّ له - لمكان مالكيّته - أن يتصرّف في أهلها بالإحياء بعد الإماتة .

قوله تعالى : « قل من ربّ السماوات السبع و ربّ العرش العظيم » أمره ثانيا أن يسألهم عن ربّ السماوات السبع و ربّ العرش العظيم من هو ؟

و المراد بالعرش هو المقام الّذي يجتمع فيه أزمّة الاُمور و يصدر عنه كلّ تدبير ، و تكرار لفظ الربّ في قوله : « وربّ العرش العظيم » للإشارة إلى أهميّة أمره و رفعة محلّه كما وصفه الله بالعظمة ، وقد تقدّم البحث عنه في تفسير سورة الأعراف في الجزء الثامن من الكتاب .

ذكروا أنّ قولنا : لمن السماوات السبع و قولنا : من ربّ السماوات السبع بمعنى واحد كما يقال : لمن الدار ومن ربّ الدار فقوله تعالى : « من ربّ السماوات السبع ؟ سؤال عن مالكها ، و لذا حكى الجواب عنهم بقوله : « سيقولون لله » على المعنى و لو أنّه اُجيب عنه فقيل : « الله » كما في القراءة الاُخرى كان جوابا على اللفظ .

و فيه أنّ الّذي ثبت في اللغة أنّ ربّ الشيء هو مالكه المدبّر لأمره بالتصرّف فيه فيكون الربوبيّة أخصّ من الملك ، و لو كان الربّ مرادفاً للمالك لم يستقم ترتّب الجواب على السؤال في الآيتين السابقتين « قل لمن الأرض و من فيها - إلى قوله - سيقولون لله » إذ كان معنى السؤال : من ربّ الأرض ومن فيها ، ومن المعلوم أنّهم كانوا قائلين بربوبيّة آلهتهم من دون الله للأرض و من فيها فكان جوابهم إثبات الربوبيّة لآلهتهم من غير أن يكونوا ملزمين بتصديق ذلك لله سبحانه و هذا بخلاف

السؤال عن مالك الأرض و من فيها فإنّ الجواب عنه تصديقه لله لأنّهم كانوا يرون الإيجاد لله و الملك لازم الإيجاد فكانوا ملزمين بالاعتراف به .

ثمّ على تقدير كون الربّ أخصّ من المالك يمكن أن يتوهّم توجّه الاشكال إلى ترتّب الجواب على السؤال في الآية المبحوث عنها « قل من ربّ السماوات السبع ـ إلى قوله ـ سيقولون لله» فإنّ جلّ الوثنيّين من الصابئين و غيرهم يرون للسماوات و ما فيها من الشمس والقمر وغيرهما آلهة دون الله فلو أجابوا عن السؤال عن ربّ السماوات أجابوا بإثبات الربوبيّة لآلهتهم دون الله فلا يستقيم قوله : « سيقولون لله» إذ لاملزم يلزمهم على الاعتراف به .

و الّذي يحسم أصل الإشكال أنّ البحث العميق عن معتقدات القوم يعطي أنّهم لم يكونوا يبنون آراءهم في أمر الآلهة على أصل أو اُصول منظّمة مسلّمة عند الجميع فأمثال الصابئين و البرهمائيّين و البوذيّين كانوا يقسّمون اُمور العالم إلى أنواع و أقسام كأمر السماء و الأرض و أنواع الحيوان و النبات والبرّ و البحر و غير ذلك و يثبتون لكلّ منها إلها دون الله يعبدونه من دون الله و يعدّونه شفيعا مقرّبا ثمّ يتّخذون له صنما يمثّله .

و أمّا عامّتهم من الهمجيّين كأعراب الجاهليّة و القاطنين في أطراف المعمورة فلم يكن معتقداتهم في ذلك مبنيّة على قواعد مضبوطة و ربّما كانوا يرون للمعمورة من الأرض و سكّانها آلهة دون الله لها أصنام و ربّما رأوا نفس الأصنام المصنوعة آلهة ، و أمّا السماوات والسماويّات و كذا البحار فكانوا يرونها مربوبة لله سبحانه و الله ربّها كما يلوّح إليه قوله تعالى حكاية عن فرعون : « يا هامان بن لي صرحا لعلّي أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطّلع إلى إله موسى » المؤمن : ٣٧ فإنّ ظاهره أنّه كان يرى أنّ الّذي يدعو إليه موسى ـ و هو الله تعالى ـ إله السماء و بالجملة السماوات وما فيهنّ ومن فيهنّ من الملائكة عندهم مربوبون لله سبحانه ثمّ الملائكة أرباب لما دون السماوات .

وأمّا الصابئون و من يحذو حذوهم فإنّهم ـ كما سمعت ـ يرون للسماوات و

ما فيهنّ من النجوم و الكواكب آلهة وأربابا من دون الله وهم الملائكة والجنّ وهم يرون الملائكة و الجنّ موجودات مجرّدة عن المادّة طاهرة عن لوث الطبيعة ، و حينما يعدّونهم ساكنين في السماوات فإنّما يريدون باطن هذا العالم و هو العالم السماويّ العلويّ الّذي فيه تتقدّر الاُمور ومنه ينزل القضاء و به تستمدّ الأسباب الطبيعيّة ، و هو بما فيه من الملائكة و غيرهم مربوب لله سبحانه و إن كان من فيه آلهة للعالم الحسّيّ و أربابا لمن فيه و الله ربّ الأرباب .

إذا تمهّدت هذه المقدّمة فنقول : إن كان وجه الكلام في الآية الكريمة إلى مشركي العرب كما هو الظاهر ،كان السؤال عن ربّ السماوات السبع و الجواب عنه باعترافهم أنّه الله في محلّه كما عرفت .

و إن كان وجه الكلام إلى غيرهم ممّن يرى للسماء إلها دون الله كان المراد بالسماء العالم السماويّ بسكنته من الملائكة و الجنّ دون السماوات المادّيّة ، و يؤيّده مقارنته بالسؤال عن ربّ العرش العظيم فإنّ العرش مقام صدور الأحكام المتعلّقة بمطلق الخلق الّذي منهم أربابهم و آلهتهم ، ومن المعلوم أن لاربّ لمقام هذا شأنه إلّا الله إذ لايفوقه شيء دونه .

و هذا العالم العلويّ هو عندهم عالم الأرباب و الآلهة لاربّ له إلّا الله سبحانه فالسؤال عن ربّه و الجواب عنه باعترافهم أنّه الله في محلّه كما اُشير إليه .

فمعنى الآية ـ و الله أعلم ـ قل : من ربّ السماوات السبع الّتي منها تنزل أقدار الاُمور و أقضيتها و ربّ العرش العظيم الّذي منه يصدر الأحكام لعامّة ما في العالم من الملائكة فمن دونهم ؟ فإنّهم و ما يملكونهم باعتقادكم مملوكة لله و هو الّذي ملّكهم ما ملكوه .

قوله تعالى : « سيقولون لله قل أفلا تتّقون » حكاية لجوابهم بالاعتراف بأنّ السماوات السبع والعرش العظيم لله سبحانه .

و المعنى سيجيبونك بأنّها لله قل لهم تبكيتا و توبيخا : فإذا كان السماوات السبع منها ينزل الأمر و العرش العظيم منه يصدر الأمر لله سبحانه فلم لاتتّقون

سخطه إذ تنكرون البعث و تعدّونه من أساطير الأوّلين و تسخرون من أنبيائه الّذين وعدوكم به ؟ فإنّ له تعالى أن يصدر الأمر ببعث الأموات و إنشاء النشأة الآخرة للإنسان و ينزل الأمر به من السماء ،

و من لطيف تعبير الآية التعبير بقوله : «لله» فإنّ الحجّة تتمّ بالملك و إن لم يعترفوا بالربوبيّة .

قوله تعالى : « قل من بيده ملكوت كلّ شيء و هو يجير و لا يجار عليه إن كنتم تعلمون » الملكوت هو الملك بمعنى السلطنة و الحكم ، و يفيد مبالغة في معناه و الفرق بين الملك بالفتح و الكسر و بين المالك أنّ المالك هو الّذي يملك المال و الملك يملك المالك وماله ، فله ملك في طول ملك و له التصرّف بالحكم في المال و مالكه .

و قد فسّر تعالى ملكوته بقوله : « إنّما أمره إذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون فسبحان الّذي بيده ملكوت كلّ شيء » يس : ٨٣ فملكوت كلّ شيء هو كونه عن أمره تعالى بكلمة كن و بعبارة اُخرى وجوده عن إيجاده تعالى .

فكون ملكوت كلّ شيء بيده كناية استعاريّة عن اختصاص إيجاد كلّ ما يصدق عليه الشيء به تعالى كما قال : « الله خالق كلّ شيء » الزمر : ٤٢ فملكه تعالى محيط بكلّ شيء ونفوذ أمره و مضيّ حكمه ثابت على كلّ شيء .

و لمّا كان من الممكن أن يتوهّم أنّ عموم الملك و نفوذ الأمر لا ينافي إخلال بعض ما أوجده من الأسباب و العلل بأمره فيفعل ببعض خلقه ما لا يريده أو يمنعه عمّا يريده تمّم قوله : «بيده ملكوت كلّ شيء » بقوله : « و هو يجير ولا يجار عليه» و هو في الحقيقة توضيح لاختصاص الملك بأنّه بتمام معنى الكلمة فليس لشيء شيء من الملك في عرض ملكه و لو بالمنع و الإخلال و الاعتراض فله الملك وله الحكم .

و قوله : « و هو يجير ولا يجار عليه » من الجوار ، وهو في أصله قرب المسكن ثمّ جعلوا للجوار حقّا و هو حماية الجار لجاره ممّن يقصده بسوء لكرامة الجار على الجار بقرب الدار واشتقّ منه الأفعال يقال : استجاره فأجاره أي سأله الحماية فحماه

أي منع عنه من يقصده بسوء .

و هذا جار في جميع أفعاله تعالى فما من شيء يخصّه الله بعطيّة حدوثا أو بقاء إلاّ و هو يحفظه على ما يريد و بمقدار ما يريد من غير أن يمنعه إذ منع المانع - لو فرض - إنّما هو بإذن منه و مشيّة فليس منعا له تعالى بل منعا منه و تحديداً لفعل منه بفعل آخر ، و ما من سبب من الأسباب يفعل فعلا إلاّ و له تعالى أن يتصرّف فيه بما لا يريده لأنّه تعالى هو الّذي ملّكه الفعل بمشيّته فله أن يمنعه منه أو من بعضه .

فالمراد بقوله : « و هو يجير و لا يجار عليه » أنّه يمنع السوء عمّن قصد به و لا يمنعه شيء إذا أراد شيأ بسوء عمّا أراد .

ومعنى الآية قل لهؤلاء المنكرين للبعث : من الّذي يختصّ به إيجاد كلّ شيء بماله من الخواصّ و الآثار وهو يحمي من استجار به و لا يحمي عنه شيء إذا أراد شيأ بسوء ؟ إن كنتم تعلمون .

قوله تعالى : « سيقولون لله قل فأنّى تسحرون » قيل : إنّ المراد بالسحر أن يخيّل الشيء للإنسان على خلاف ما هو عليه فهو من الاستعارة أو الكناية .

و المعنى سيجيبونك أنّ الملكوت لله قل لهم تبكيتا وتوبيخا : فإلى متى يخيّل لكم الحقّ باطلا فإذا كان الملك المطلق لله سبحانه فله أن يوجد النشأة الآخرة ويعيد الأموات للحساب و الجزاء بأمر يأمره و هو قوله : « كن » .

و اعلم أنّ الاحتجاجات الثلاثة كما تثبت إمكان البعث كذلك تثبت توحّده تعالى في الربوبيّة فإنّ الملك الحقيقيّ لا يتخلّف عن جواز التصرّفات ، و المالك المتصرّف هو الربّ .

قوله تعالى : « بل أتيناهم بالحقّ و إنّهم لكاذبون » إضراب عن النفي المفهوم من الحجج الّتي اُقيمت في الآيات السابقة ، والمعنى فإذا كانت الحجج المبيّنة تدلّ على البعث وهم معترفون بصحّتها فليس ما وعدهم رسلنا باطلا بل جئناهم بلسان الرسل بالحقّ و إنّهم لكاذبون في دعواهم كذبهم و نفيهم للبعث .

قوله تعالى : « ما اتّخذ الله من ولد و ما كان معه من إله إذاً لذهب كلّ

إله بما خلق و لعلا بعضهم على بعض » الخ القول بالولد كان شائعا بين الوثنيّين يعدّون الملائكة أو بعضهم وبعض الجنّ و بعض القدّيسين من البشر أولاد الله سبحانه و تبعهم النصارى في قولهم : المسيح ابن الله ، و هذا النوع من الولادة والبنوّة مبنيّ على اشتمال الابن على شيء من حقيقة اللاهوت و جوهره و انفصاله منه بنوع من الاشتقاق فيكون المسمّى بالابن إلها مولودا من إله .

و أمّا البنوّة الادّعائيّة بالتبنّي و هو أخذ ولد الغير ابنا لتشريف أو لغرض آخر فلا يوجب اشتمال الابن على شيء من حقيقة الأب كقول اليهود نحن أبناء الله و أحبّاؤه ، و ليس الولد بهذا المعنى مراداً لأنّ الكلام مسوق لنفي تعدّد الآلهة و لا يستلزم هذا النوع من البنوّة اُلوهيّة و إن كان التسمّي و التسمية بها ممنوعا .

فالمراد باتّخاذ الولد إيجاد شيء بنحو التبعّض و الاشتقاق يكون مشتملا بنحو على شيء من حقيقة الموجد لا تسمية شيء موجود ابنا وولداً لغرض من الأغراض كما ذكره بعضهم .

و الولد ـ كما عرفت ـ أخصّ مصداقا عندهم من الإله فإنّ بعض آلهتهم ليس بولد عندهم فقوله : « ما اتّخذ الله من ولد وما كان معه من إله » ترقّ من نفي الأخصّ إلى نفي الأعمّ و لفظة « من » في الجملتين زائدة للتأكيد .

و قوله : « إذا لذهب كلّ إله بما خلق » حجّة على نفي التعدّد ببيان محذوره إذ لا يتصوّر تعدّد الآلهة إلّا ببينونتها بوجه من الوجوه بحيث لا تتّحد في معنى اُلوهيّتها و ربوبيّتها ، و معنى ربوبيّة الإله في شطر من الكون و نوع من أنواعه تفويض التدبير فيه إليه بحيث يستقلّ في أمره من غير أن يحتاج فيه إلى شيء غير نفسه حتّى إلى من فوّض إليه الأمر ، ومن البيّن أيضا أنّ المتباينين لا يترشّح منهما إلّا أمران متباينان .

و لازم ذلك أن يستقلّ كلّ من الآلهة بما يرجع إليه من نوع التدبير و تنقطع رابطة الاتّحاد و الاتّصال بين أنواع التدابير الجارية في العالم كالنظام الجاري في العالم الإنساني عن الأنظمة الجارية في أنواع الحيوان والنبات والبرّ والبحر

و السهل و الجبل و الأرض و السماء و غيرها و كلّ منها عن كلّ منها ، و فيه فساد السماوات والأرض و ما فيهنّ ، و وحدة النظام الكونيّ و التيام أجزائه و اتّصال التدبير الجاري فيه يكذّبه .

و هذا هو المراد بقوله : «إذا لذهب كلّ إله بما خلق» أي انفصل بعض الآلهة عن بعض بما يترشّح منه من التدبير .

و قوله : «و لعلا بعضهم على بعض» محذور آخر لازم لتعدّد الآلهة تتألّف منه حجّة اُخرى على النفي ، بيانه أنّ التدابير الجارية في الكون مختلفة منها التدابير العرضيّة كالتدبيرين الجاريين في البرّ و البحر و التدبيرين الجاريين في الماء و النار ، و منها التدابير الطوليّة الّتي تنقسم إلى تدبير عامّ كلّيّ حاكم وتدبير خاصّ جزئيّ محكوم كتدبير العالم الأرضيّ و تدبير النبات الّذي فيه ، و كتدبير العالم السماويّ و تدبير كوكب من الكواكب الّتي في السماء ، و كتدبير العالم المادّيّ برمّته و تدبير نوع من الأنواع المادّيّة .

فبعض التدبير وهو التدبير العامّ الكلّيّ يعلو بعضا بمعنى أنّه بحيث لو انقطع عنه ما دونه بطل ما دونه لتقوّمه بما فوقه كما أنّه لو لم يكن هناك عالم أرضيّ أو التدبير الّذي يجري فيه بالعموم لم يكن عالم إنسانيّ و لا التدبير الّذي يجري فيه بالخصوص .

و لازم ذلك أن يكون الإله الّذي يرجع إليه نوع عال من التدبير عاليا بالنسبة إلى الإله الّذي فوّض إليه من التدبير ما هو دونه و أخصّ منه و أخسّ و استعلاء الإله على الإله محال .

لا لأنّ استعلاء المذكور يستلزم كون الإله مغلوبا لغيره أو ناقصا في قدرته محتاجا في تمامه إلى غيره أو محدودا والمحدوديّة تفضي إلى التركيب ، و كلّ ذلك من لوازم الإمكان المنافي لوجوب وجود الإله فيلزم الخلف ـ كما قرّره المفسّرون ـ فإنّ الوثنيّين لا يرون لآلهتهم من دون الله وجوب الوجود بل هي عندهم موجودات ممكنة عالية فوّض إليهم تدبير أمر ما دونها ، و هي مربوبة لله سبحانه و أرباب لما دونها

والله سبحانه ربّ الأرباب و إله الآلهة وهوالواجب الوجود بالذات وحده .

بل استحالة الاستعلاء إنّما هو لاستلزامه بطلان استقلال المستعلى عليه في تدبيره و تأثيره إذ لا يجامع توقّف التدبير على الغير و الحاجة إليه الاستقلال فيكون السافل منها مستمدّا في تأثيره محتاجا فيه إلى العالي فيكون سببا من الأسباب الّتي يتوسّل بها إلى تدبير ما دونه لا إلها مستقلّا بالتأثير دونه فيكون ما فرض إلها غير إله بل سببا يدبّر به الأمر هذا خلف .

هذا ما يعطيه التدبّر في الآية ، و للمفسّرين في تقرير حجّة الآية مسالك مختلفة يبتني جميعها على استلزام تعدّد الآلهة اُمورا تستلزم إمكانها و تنافي كونها واجبة الوجود فيلزم الخلف ، و القوم لا يقولون في شيء من آلهتهم من دون الله بوجوب الوجود ، و قد أفرط بعضهم فقرّر الآية بوجوه مؤلّفة من مقدّمات لا إشارة في الآية إلى جلّها و لا إيهام ، و فرّط آخرون فصرّحوا بأنّ الملازمة المذكورة في الآيه عاديّة لا عقليّة و الدليل إقناعيّ لا قطعيّ .

ثمّ لا يشتبهنّ عليك أمر قوله : « لذهب كلّ إله بما خلق » حيث نسب الخلقة إليها و قد تقدّم أنّهم قائلون بإله التدبير دون الإيجاد و ذلك لأنّ بعض الخلق من التدبير فإنّ خلق جزئيّ من الجزئيّات ممّا يتمّ بوجوده النظام الكلّيّ من التدبير بالنسبة إلى النظام الجاري فالخلق بمعنى الفعل و التدبير مختلطان و قد نسب الخلق إلى أعمالنا كما في قوله : « و الله خلقكم و ما تعملون » الصافات : ٩٦ و قوله : « و جعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون » الزخرف : ١٢ .

فالقوم يرون أنّ كلّا من الآلهة خالق لما دونه أي فاعل له كما يفعل الواحد منّا أفعاله ، و أمّا إعطاء الوجود للأشياء فممّا يختصّ بالله سبحانه وحده لا يرتاب فيه موحّد و لا وثنيّ إلّا بعض من لم يفرّق بين الفعل والإيجاد من المتكلّمين .

و قد ختم الآية بالتنزيه بقوله : « سبحان الله عمّا يصفون » .

قوله تعالى : « عالم الغيب والشهادة فتعالى عمّا يشركون » صفة لاسم الجلالة في قوله : « سبحان الله عمّا يصفون » و تأخيرها للدلالة على علمه بتنزّهه عن وصفهم

إيّاه بالشركة - على ما يعطيه السياق - فيكون في معنى قوله : « قل أتنبّؤن الله بما لا يعلم في السماوات و لا في الأرض سبحانه و تعالى عمّا يشركون» يونس : ١٨ .
و يرجع في الحقيقة إلى الاحتجاج على نفي الشركاء بشهادته تعالى أنّه لا يعلم لنفسه شريكا كما أنّ قوله : «شهدالله أنّه لا إله إلاّ هو» آل عمران : ١٨ احتجاج بالشهادة على نفي أصل الوجود .

و قيل : إنّه برهان آخر راجع إلى إثبات العلوّ أو لزوم الجهل الّذي هو نقص و ضدّ العلوّ لأنّ المتعدّدين لا سبيل لهما إلى أن يعلم كلّ واحد حقيقة الآخر كعلم ذلك الآخر بنفسه بالضرورة وهو نوع جهل و قصور . انتهى .

و فيه أنّ ذلك كسائر ما قرّره من البراهين ينفي تعدّد الإله الواجب الوجود بالذات ، والوثنيّون لا يلتزمون في آلهتهم من دون الله بذلك . على أنّ بعض مقدّمات ما قرّر من الدليل ممنوع .

و قوله : « فتعالى عمّا يشركون» تفريع على جميع ما تقدّم من الحجج على نفي الشركاء .

قوله تعالى : « قل ربّ إمّا تريَنّي ما يوعدون ربّ فلا تجعلني في القوم الظالمين » لمّا فرغ من نقل ما تفوّهوا به من الشرك بالله و إنكار البعث والاستهزاء بالرسل و أقام الحجج على إثبات حقّيّتها رجع إلى ماتقدّم من تهديدهم بالعذاب فأمر نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أن يسأله أن ينجيه من العذاب الّذي أوعدهم به إن أراه ذلك العذاب .

فقوله : « قل ربّ إمّا تريَنّي ما يوعدون» أمر بالدعاء و الاستغاثة، و تكرار «ربّ» لتأكيد التضرّع و ما في قوله : «إمّا تريَنّي » زائدة و هي المصحّحة لدخول نون التأكيد على الشرط وأصله : إن تريني . و في قوله : « ما يوعدون » دلالة على أنّ بعض ما تقدّم في السورة من الإيعاد بالعذاب إيعاد بعذاب دنيويّ . و ما في قوله : « ربّ فلا تجعلني في القوم الظالمين » من الكون فيهم كناية عن شمول عذابهم له .

قوله تعالى : « و إنّا على أن نريك ما نعدهم لقادرون » تطييب لنفس

النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بقدرة ربّه على أن يكشف عنه بإراءته ما يعدهم من العذاب ، و لعلّ المراد به ما عذّبهم الله به يوم بدر و قد أراه الله ذلك و أراه المؤمنين و شفى به غليل صدورهم .

قوله تعالى : « ادفع بالّتي هي أحسن السيّئة نحن أعلم بما يصفون » أي ادفع السيّئة الّتي تتوجّه إليك منهم بالحسنة و اختر للدفع من الحسنات أحسنها ، وهو دفع السيّئة بالحسنة الّتي هي أحسن مثل أنّه لو أساؤا إليك بالإيذاء أحسن إليهم بغاية ما استطعت من الإحسان ثمّ ببعض الإحسان في الجملة و لو لم يسعك ذلك فبالصفح عنهم .

و قوله : « نحن أعلم بما يصفون » نوع تسلية للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يسوءنّه ما يلقاه و لا يحزنه ما يشاهد من تجرّيهم على ربّهم فإنّه أعلم بما يصفون .

قوله تعالى : « و قل ربّ أعوذبك من همزات الشياطين و أعوذ بك ربّ أن يحضرون » قال في مجمع البيان : الهمزة شدّة الدفع ، و منه الهمزة للحرف الّذي يخرج من أقصى الحلق باعتماد شديد و دفع ، و همزة الشيطان دفعه بالإغواء إلى المعاصي انتهى و في تفسير القمّي عنه عليه السلام : أنّه ما يقع في قلبك من وسوسة الشياطين .

و في الآيتين أمره صلى الله عليه وآله وسلم أن يستعيذ بربّه من إغواء الشياطين و من أن يحضروه ، وفيه إيهام إلى أنّ ما ابتلي به المشركون من الشرك والتكذيب من همزات الشياطين و إحاطتهم بهم بالحضور .

✡ ✡ ✡

حتى اذا جاء احدهم الموت قال رب ارجعون (٩٩) لعلي اعمل صالحا
فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون (١٠٠)
فاذا نفخ في الصور فلا انساب بينهم يومئذ و لايتساءلون (١٠١) فمن ثقلت
موازينه فاولئك هم المفلحون (١٠٢) ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا
انفسهم في جهنم خالدون (١٠٣) تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون (١٠٤)
الم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون (١٠٥) قالوا ربنا غلبت علينا
شقوتنا وكنا قوما ضالين (١٠٦) ربنا اخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون (١٠٧)
قال اخسؤا فيها ولاتكلمون (١٠٨) انه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا
فاغفر لنا و ارحمنا و انت خير الراحمين (١٠٩) فاتخذتموهم سخريا حتى
انسوكم ذكري و كنتم منهم تضحكون (١١٠) اني جزيتهم اليوم بما صبروا
انهم هم الفائزون (١١١) قال كم لبثتم في الارض عدد سنين (١١٢) قالوا
لبثنا يوما او بعض يوم فاسئل العادين (١١٣) قال ان لبثتم الا قليلا لو انكم كنتم
تعلمون (١١٤) افحسبتم انما خلقناكم عبثا و انكم الينا لا ترجعون (١١٥)
فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم (١١٦) و من يدع
مع الله الها آخر لابرهان له به فانما حسابه عند ربه انه لايفلح الكافرون (١١٧)
و قل رب اغفر وارحم و انت خير الراحمين (١١٨) .

﴿ بيان ﴾

الآيات تفصّل القول في عذاب الآخرة الّتي أوعدهم الله بها في طيّ الآيات السابقة و هو من يوم الموت إلى يوم البعث ثمّ إلى الأبد ، و تذكر أنّ الحياة الدّنيا الّتي غرّتهم و صرفتهم عن الآخرة قليلة لو كانوا يعلمون . ثمّ تختم السورة بأمره صلى الله عليه وآله وسلم أن تسأله ما حكاه عن عباده المؤمنين الفائزين في الآخرة « ربّ اغفر وارحم وأنت خير الراحمين» وقد افتتحت السورة بأنّهم مفلحون وارثون للجنّة .

قوله تعالى : « حتّى إذاجاء أحدهم الموت قال ربّ ارجعون » «حتّى»متعلّق بما تقدّم من وصفهم له تعالى بما هو منزّه منه و شركهم به ، و الآيات المتخلّلة اعتراض في الكلام أي لايزالون يشركون به ويصفونه بماهو منزّه منه وهم مغترّون بما نمدّهم به من مال وبنين حتّى إذا جاء أحدهم الموت .

و قوله : « قال ربّ ارجعون » الظاهر أنّ الخطاب للملائكة المتصدّين لقبض روحه و « ربّ » استغاثة معترضة بحذف حرف النداء و المعنى قال ـ و هو يستغيث بربّه ـ ارجعون .

و قيل : إنّ الخطاب للربّ تعالى و الجمع للتعظيم كقول امرأة فرعون له على ماحكاه الله : « قرّة عين لي ولك لاتقتلوه » .

و قيل : هو من جمع الفعل ويفيد تعدّد الخطاب و المعنى ربّ ارجعني ارجعني ارجعني كما قيل في قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل　　　بسقط اللوى بين الدخول فحومل

أي قف قف نبك .

و في الوجهين أنّ الجمع للتعظيم إن صحّ ثبوته في اللغة العربيّة فهو شاذّ لايحمل عليه كلامه تعالى ، و أشذّ منه جمع الفعل بالمعنى الّذي ذكر .

قوله تعالى : « لعلّي أعمل صالحا فيما تركت كلّا إنّها كلمة هو قائلها » «لعلّ» للترجّي وهو رجاء تعلّقوا به بمعاينة العذاب المشرف عليهم كما ربّما ذكروا

الرجوع بوعد العمل الصالح كقولهم : «فارجعنا نعمل صالحا» السجدة : ١٢ وربّما ذكروه بلفظ التمنّي كقولهم : «ياليتنا نردّ ولانكذّب بآيات ربّنا» الأنعام : ٢٧ .

وقوله : «أعمل صالحا فيما تركت» أي أعمل عملا صالحا فيما تركت من المال بإنفاقه في البرّ والإحسان وكلّ ما فيه رضى الله سبحانه .

وقيل : المراد بما تركت الدنيا الّتي تركها بالموت والعمل الصالح أعمّ من العبادات الماليّة وغيرها من صلاة وصوم وحجّ ونحوها ، وهو حسن غير أنّ الأوّل هو الأظهر .

وقوله : «كلّا إنّها كلمة هو قائلها» أي لا يرجع إلى الدنيا إنّ هذه الكلمة «ارجعوني لعلّي أعمل صالحا فيما تركت» كلمة هو قائلها أي لا أثر لها إلّا أنّها كلمة هو قائلها ، فهو كناية عن عدم إجابة مسألته .

قوله تعالى : «ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون» البرزخ هو الحاجز بين الشيئين كما في قوله : «بينهما برزخ لايبغيان» الرحمان : ٢٠ والمراد بكونه وراءهم كونه أمامهم محيطا بهم وسمّي وراءهم بعناية أنّه يطلبهم كما أنّ مستقبل الزمان أمام الإنسان ويقال : وراءك يوم كذا بعناية أنّ الزمان يطلب الإنسان ليمرّ عليه وهذا معنى قول بعضهم : إنّ في «وراء» معنى الإحاطة قال تعالى : «وكان وراءهم ملك يأخذ كلّ سفينة غصبا» الكهف : ٧٩ .

والمراد بهذا البرزخ عالم القبر وهو عالم المثال الّذي يعيش فيه الإنسان بعد موته إلى قيام الساعة على ما يعطيه السياق وتدلّ عليه آيات اُخر وتكاثرت فيه الروايات من طرق الشيعة عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وأئمّة أهل البيت عليهم السلام وكذا من طرق أهل السنّة ، وقد تقدّم البحث عنه في الجزء الأوّل من الكتاب .

وقيل : المراد بالآية أنّ بينهم وبين الدنيا حاجزاً يمنعهم من الرجوع إليها إلى يوم القيامة ومعلوم أن لا رجوع بعد القيامة ففيه تأكيد لعدم رجوعهم وإيآس لهم من الرجوع إليها من أصله .

وفيه أنّ ظاهر السياق الدلالة على استقرار الحاجز بين الدنيا وبين يوم

يبعثون لا بينهم و بين الرجوع إلى الدنيا ، و لو كان المراد أنّ الموت حاجز بينهم و بين الرجوع إلى الدنيا لغى التقييد بقوله : « إلى يوم يبعثون » لا لدلالته من طريق المفهوم على رجوعهم بعد البعث إلى الدنيا و لا رجوع بعد البعث بل للغويّة أصل التقييد و إن فرض أنّهم كانوا يعلمون من الخارج أو من آيات سابقة أن لا رجوع بعد القيامة .

على أنّ قولهم : إنّه تأكيد لعدم الرجوع بإيآسهم من الرجوع مطلقا مع قولهم بأنّ عدم الرجوع بعد القيامة معلوم من خارج كالمتهافتين بل يرجع المعنى إلى تأكيد نفي الرجوع مطلقا المفهوم من « كلّا » بنفي الرجوع الموقّت المحدود بقوله : « إلى يوم يبعثون » فافهمه .

قوله تعالى : « فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم و لا يتساءلون » المراد به النفخة الثانية الّتي تحيا فيها الأموات دون النفخة الاُولى الّتي تموت فيها الأحياء كما قاله بعضهم لكون ما يترتّب عليها من انتفاء الأنساب و التساؤل وثقل الميزان و خفّته إلى غير ذلك من آثار النفخة الثانية .

و قوله : « فلا أنساب بينهم » نفي لآثار الأنساب بنفي أصلها فإنّ الّذي يستوجب حفظ الأنساب و اعتبارها هي الحوائج الدنيويّة الّتي تدعو الإنسان إلى الحياة الاجتماعيّة الّتي تبتني على تكوّن البيت ، و المجتمع المنزليّ يستعقب التعارف و التعاطف وأقسام التعاون والتعاضد وسائر الأسباب الّتي تدوم بها العيشة الدنيويّة و يوم القيامة ظرف جزاء الأعمال و سقوط الأسباب الّتي منها الأعمال فلا موطن فيه للأسباب الدنيويّة الّتي منها الأنساب بلوازمها و خواصّها و آثارها .

و قوله : « و لا يتساءلون » ذكر لأظهر آثار الأنساب ، و هو التساؤل بين المنتسبين بسؤال بعضهم عن حال بعض للإعانة والاستعانة في الحوائج لجلب المنافع و دفع المضارّ .

و لا ينافي الآية ما وقع في مواضع اُخر من قوله تعالى : « و أقبل بعضهم على بعض يتساءلون » الصافات : ٥٠ و ٢٧ فإنّه حكاية تساؤل أهل الجنّة بعد

دخولها و تساؤل أهل النار بعد دخولها و هذه الآية تنفي التساؤل في ظرف الحساب و القضاء .

قوله تعالى : « فمن ثقلت موازينه فاُولئك هم المفلحون » إلى آخر الآيتين . الموازين جمع الميزان أو جمع الموزون و هو العمل الّذي يوزن يومئذ ، و قد تقدّم الكلام في معنى الميزان و ثقله و خفّته في تفسير سورة الأعراف .

قوله تعالى : «تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون» قال في المجمع : اللفح و النفح بمعنى إلّا أنّ اللفح أشدّ تأثيرا و أعظم من النفح ، و هو ضرب من السموم للوجه ، و النفح ضرب الريح الوجه ، والكلوح تقلّص الشفتين عن الأسنان حتّى تبدو الأسنان . انتهى .

و المعنى يصيب وجوههم لهب النّار حتّى تتقلّص شفاههم و تنكشف عن أسنانهم كالرؤس المشويّة .

قوله تعالى : « ألم تكن آياتي تتلى عليكم » الخ أي يقال لهم : ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذّبون .

قوله تعالى : « قالوا ربّنا غلبت علينا شقوتنا و كنّا قوما ضالّين » الشقوة و الشقاوة و الشقاء خلاف السعادة ، وسعادة الشيء ما يختصّ به من الخير ، وشقاوته فقد ذلك و إن شئت فقل : ما يختصّ به من الشرّ .

و قوله : « غلبت علينا شقوتنا» أي قهرنا و استولت علينا شقوتنا ، و في إضافة الشقوة إلى أنفسهم تلويح إلى أنّ لهم صنعا في شقوتهم من جهة اكتسابهم ذلك بسوء اختيارهم ، و الدليل عليه قولهم بعد : « ربّنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنّا ظالمون» إذ هو وعد منهم بالحسنات و لو لم يكن لها ارتباط باكتسابهم الاختياريّ لم يكن للوعد معنى لكون حالهم بعد الخروج مساوية لما قبل الخروج .

و قد عدّوا أنفسهم مغلوبة للشقوة فقد أخذوها ساذجة في ذواتها صالحة للحوق السعادة و الشقاوة غير أنّ الشقوة غلبت فأشغلت المحلّ و كانت الشقوة شقوة أنفسهم أي شقوة لازمة لسوء اختيارهم وسيّآت أعمالهم لأنّهم فرضوا أنفسهم خالية عن السعادة

و الشقوة لذاتها فانتساب الشقوة إلى أنفسهم و ارتباطها بها إنّما هي من جهة سوء اختيارهم و سيّآت أعمالهم .

و بالجملة هو اعتراف منهم بتمام الحجّة ولحوق الشقوة على ما يشهدبه وقوع الآية بعد قوله : « ألم تكن آياتي تتلى عليكم» الخ .

ثمّ عقّبوا قولهم : « غلبت عليناشقوتنا» بقولهم : «و كنّا قوما ضالّين »تأكيداً لاعترافهم ، و إنّما اعترفوابالذنب ليتوسّلوا به إلى التخلّص من العذاب والرجوع إلى الدنيا لكسب السعادة فقد شاهدوا في الدنيا أنّ اعتراف العاصي المتمرّد بذنبه وظلمه توبة منه مطهّرة له تنجيه من تبعة الذنب و هم يعلمون أنّ اليوم يوم جزاء لايوم عمل و التوبةوالاعتراف بالذنب من الأعمال لكنّ ذلك من قبيل ظهورالملكات كما أنّهم يكذّبون يومئذ وينكرون أشياء معظهور الحقّ و معاينته لاستقرارملكة الكذب و الإنكار في نفوسهم قال تعالى : « يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم» المجادلة : ١٨ . و قال : « ثمّ قيل لهمأين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلّوا عنّا بل لم نكن ندعو من قبل شيأ» المؤمن :٧٣.

قوله تعالى : « ربّنا أخرجنامنها فإن عدنافإنّاظالمون» سؤال منهم للرجوع إلى الدنيا على ما تدلّ عليه آيات اُخر فهو من قبيل طلب المسبّب بطلب سببه ، و مرادهم أن يعملوا صالحا بعد ما تابوا بالاعتراف المذكور فيكونوا بذلك ممّن تاب و عمل صالحا .

قوله تعالى : « قال اخسؤا فيها و لاتكلّمون » قال الراغب : خسأت الكلب فخسأأي زجرته مستهينا به فانزجر وذلك إذاقلت له : اخسأ انتهى ففي الكلام استعارة بالكناية ، و المرادزجرهم بالتباعد و قطع الكلام .

قوله تعالى : « إنّه كان فريق من عبادي يقولون ربّنا آمنّا فاغفر لنا و ارحمنا و أنت خير الراحمين » هؤلاءهم المؤمنون فيالدنيا و كان إيمانهم توبة ورجوعا إلى الله كما سمّاه الله في كلامه توبة ، و كان سؤالهم شمول الرحمة ـ و هي الرحمة الخاصّة بالمؤمنين البتّة ـ سؤالا منهم أن يوفّقهم للسعادة فيعملوا صالحا فيدخلوا

الجنّة، و قد توسّلوا إليه باسمه خير الراحمين .

فكان ما قاله المؤمنون في الدنيا معناه التوبة و سؤال الفوز بالسعادة و ذلك عين ما قاله هؤلاء ممّا معناه التوبة و سؤال الفوز بالسعادة و إنّما الفرق بينهما من حيث الموقف .

قوله تعالى : « فاتّخذتموهم سخريّا حتّى أنسوكم ذكري و كنتم منهم تضحكون » ضمائر الخطاب للكفّار و ضمائر الغيبة للمؤمنين ، و السياق يشهد أنّ المراد من «ذكري» قول المؤمنين : « ربّنا آمنّا فاغفر لنا و ارحمنا » الخ و هومعنى قول الكفّار في النار .

و قوله : « حتّى أنسوكم ذكري » أي أنسى اشتغالكم بسخريّة المؤمنين و الضحك منهم ذكري ، ففي نسبة الإنساء إلى المؤمنين دون سخريّتهم إشارة إلى أنّه لم يكن للمؤمنين عندهم شأن من الشؤون إلّا أن يتّخذوهم سخريّا .

قوله تعالى : « إنّي جزيتهم اليوم بماصبروا أنّهم هم الفائزون» المراد باليوم يوم الجزاء ، و متعلّق الصبر معلوم من السياق محذوف للإيجاز أي صبروا على ذكري مع سخريّتكم منهم لأجله ، و قوله : « أنّهم هم الفائزون» مسوق للحصر أي هم الفائزون دونكم .

و هذه الآيات الأربع «قال اخسؤا ـ إلى قوله ـ هم الفائزون » إيآس قطعيّ للكفّار عن الفوز بسبب ما تعلّقوا به من الاعتراف بالذنب و سؤال الرجوع إلى الدنيا و محصّلها أن اقنطوا ممّا تطلبونه بهذا القول و هو الاعتراف و السؤال فإنّه عمل إنّما كان ينفع في دار العمل و هي الدنيا ، و قد كان المؤمنون من عبادي يتّخذونه وسيلة إلى الفوز و كنتم تسخرون و تضحكون منهم حتّى تركتموه و بدّلتموه من سخريّتهم حتّى إذا كان اليوم و هو يوم جزاء لا يوم عمل فازوا بجزاء ما عملوا يوم العمل و بقيتم صفر الأكفّ تريدون أن تتوسّلوا بالعمل اليوم و هو يوم الجزاء دون العمل .

قوله تعالى : « قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين » ممّا يسأل الله الناس عنه

يوم القيامة مدّة لبثهم في الأرض وقد ذكر في مواضع من كلامه و المراد به السؤال عن مدّة لبثهم في القبور كما يدلّ عليه قوله تعالى : « و يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » الروم : ٥٥ و قوله : « كأنّهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلّا ساعة من نهار » الأحقاف : ٣٥ و غيرهما من الآيات ، فلا محلّ لقول بعضهم : إنّ المراد به المكث في الدنيا ، واحتمال بعضهم أنّه مجموع اللبث في الدنيا و البرزخ .

قوله تعالى : « قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادّين » ظاهر السياق أنّ المراد باليوم هو الواحد من أيّام الدنيا وقد استقلّوا اللبث في الأرض حينما قايسوه بالبقاء الأبديّ الّذي يلوح لهم يوم القيامة و يعاينونه .

و يؤيّده ما وقع في موضع آخر من تقديرهم ذلك بالساعة ، و في موضع آخر بعشيّة أوضحاها .

و قوله : « فاسأل العادّين » أي نحن لانحسن إحصاءها فاسأل الّذين يعدّونه و فسّر بالملائكة العادّين للأيّام و ليس ببعيد .

قوله تعالى : « قال إن لبثتم إلّا قليلا لو أنّكم كنتم تعلمون » القائل هو الله سبحانه ، و في الكلام تصديق لهم في استقلالهم المكث في القبور و فيه توطئة لما يلحق به من قوله : « لو أنّكم كنتم تعلمون » بما فيه من التمنّي .

و المعنى قال الله : الأمر كما قلتم فما مكثتم إلّا قليلا فليتكم كنتم تعلمون في الدنيا أنّكم لاتلبثون في قبوركم إلّا قليلا ثمّ تبعثون حتّى لاتنكروا البعث ولم تبتلوا بهذا العذاب الخالد ، والتمنّي في كلامه تعالى كالترجّي راجع إلى المخاطب أو المقام .

و جعل بعضهم « لو » في الآية شرطيّة والجملة شرطا محذوف الجزاء وتكلّف في تصحيح الكلام بما لايرتضيه الذوق السليم و هو بعيد عن السياق كما هو ظاهر و أبعد منه جعل « لو » وصليّة مع أنّ « لو » الوصليّة لا تجيء بغير واو العطف .

قوله تعالى : « أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثا ـ إلى قوله ـ ربّ العرش

الكريم ـ بعد ما بيّن ما سيستقبلهم من أحوال الموت ثمّ اللبث في البرزخ ثمّ البعث بما فيه من الحساب و الجزاء و بخّهم على حسبانهم أنّهم لا يبعثون فإنّ فيه جرأة على الله بنسبة العبث إليه ثمّ أشار إلى برهان البعث.

فقوله: «أفحسبتم» الخ معناه فإذا كان الأمر على ما أخبرناكم من تحسّر كم عند معاينة الموت ثمّ اللبث في القبور ثمّ البعث فالحساب و الجزاء فهل تظنّون أنّما خلقناكم عبثا تحيون و تموتون من غير غاية باقية في خلقكم و أنّكم إلينا لا ترجعون؟

و قوله: «فتعالى الله الملك الحقّ لا إله إلّا هو ربّ العرش الكريم» إشارة إلى برهان يثبت البعث و يدفع قولهم بالنفي، في صورة التنزيه؛ فإنّه تعالى وصف نفسه في كلمة التنزيه بالأوصاف الأربعة: أنّه ملك و أنّه حقّ و أنّه لا إله إلّا هو و أنّه ربّ العرش الكريم.

فله أن يحكم بما شاء من بدء وعود و حياة و موت و رزق نافذا حكمه ماضيا أمره لملكه، و ما يصدرعنه من حكم فإنّه لا يكون إلّا حقّا فإنّه حقّ و لا يصدرعن الحقّ بما هو حقّ إلّا حقّ دون أن يكون عبثا باطلا ثمّ لمّا أمكن أن يتصوّر أنّ معه مصدر حكم آخر يحكم بما يبطل به حكمه وصفه بأنّه لا إله ـ أي لا معبود ـ إلّا هو، و الإله معبود لربوبيّته فإذ لا إله غيره فهو ربّ العرش الكريم ـ عرش العالم ـ الّذي هو مجتمع أزمّة الاُمور و منه يصدر الأحكام و الأوامر الجارية فيه.

فتلخّص أنّه هو الّذي يصدر عنه كلّ حكم و يوجد منه كلّ شيء و لا يحكم إلّا بحقّ و لا يفعل إلّا حقّا فللأشياء رجوع إليه و بقاء به و إلّا لكانت عبثا باطلة و لا عبث في الخلق ولا باطل في الصنع.

و الدليل على اتّصافه بالأوصاف الأربعة كونه تعالى هو الله الموجود لذاته الموجد لغيره.

قوله تعالى: «و من يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنّما حسابه عند ربّه إنّه لا يفلح الكافرون» المراد من دعاء إله آخر مع الله دعاؤه مع وجوده تعالى

لا دعاؤه تعالى و دعاء إله آخر معا فإنّ المشركين جلّهم أو كلّهم لايدعون الله تعالى و إنّمايدعون ما أثبتوه من الشركاء ، ويمكن أن يكون المراد بالدعاء الإثبات فإنّ إثبات إله آخر لاينفكّ عن دعائه .

و قوله : « لا برهان له به » قيد توضيحيّ لإله آخر إذلاإله آخر يكون به برهان بل البرهان قائم على نفي الإله الآخر مطلقا .

و قوله : « فإنّما حسابه عند ربّه» كلمة تهديد و فيه قصر حسابه بكونه عند ربّه لايداخله أحد فيما اقتضاه حسابه من جزاء ـ و هو النار كما صرّحت به الآيات السابقة ـ فإنّه يصيبه لامحالة ، و مرجعه إلى نفي الشفعاء و الإيآس من أسباب النجاة و تمّمه بقوله : «إنّه لايفلح الكافرون » .

قوله تعالى : « و قل ربّ اغفر وارحم و أنت خير الراحمين » خاتمة السورة و قد أمر فيها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول ما حكاه عن عباده المؤمنين أنّهم يقولونه في الدنيا و أنّ جزاء ذلك هو الفوز يوم القيامة : « إنّه كان فريق من عبادي يقولون » الخ الآيتان ١٠٩ و ١١١ من السورة .

و بذلك يختتم الكلام بما افتتح به في أوّل السورة : « قد أفلح المؤمنون» وقد تقدّم الكلام في معنى الآية .

﴿ بحث روائى ﴾

في الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبى عبدالله عليه السلام : من منع قيراطا من الزكاة فليس بمؤمن و لا مسلم ، و هوقوله تعالى : «ربّ ارجعون لعلّي أعمل صالحا فيما تركت » .

أقول : و روي هذا المعنى بطرق اُخرى غيرها عنه عليه السلام و عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و المراد به انطباق الآية على مانع الزكاة لا نزولها فيه .

و في تفسير القمّيّ : قوله عزّ و جلّ : « ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » قال : البرزخ هو أمر بين أمرين و هو الثواب و العقاب بين الدنيا و الآخرة ، وهو

قول الصادق عليه السلام : و الله ما أخاف عليكم إلّا البرزخ و أمّا إذا صار الأمر إلينا فنحن أولى بكم .

أقول : و روى الذيل في الكافي بإسناده عن عمر بن يزيد عنه عليه السلام .

و فيه قال عليّ بن الحسين عليه السلام : إنّ القبر إمّا روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النار .

و في الكافي بإسناده عن أبي ولّاد الحنّاط عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قلت له : جعلت فداك يروون أنّ أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر حول العرش . فقال : لا . المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طير لكن في أبدان كأبدانهم .

و فيه بإسناده عن أبي بصير قال أبو عبدالله عليه السلام إنّ أرواح المؤمنين لفي شجرة من الجنّة يأكلون من طعامها و يشربون من شرابها و يقولون : ربّنا أقم الساعة لنا ، و أنجز لنا ما وعدتنا ، و ألحق آخرنا بأوّلنا .

و فيه بإسناده أيضا عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إنّ الأرواح في صفة الأجساد في شجرة في الجنّة تتعارف و تتساءل فإذا قدمت الروح على الأرواح تقول : دعوها فإنّها قد أقبلت من هول عظيم ثمّ يسألونها ما فعل فلان ؟ و ما فعل فلان ؟ فإن قالت لهم : تركته حيّا ارتجوه ، و إن قالت لهم : قد هلك ، قالوا : قد هوى قد هوى .

أقول : أخبار البرزخ و تفاصيل ما يجري على المؤمنين و غيرهم فيه كثيرة متواترة ، و قد مرّ شطر منها في أبحاث متفرّقة ممّا تقدّم .

في مجمع البيان و قال النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم : كلّ حسب و نسب منقطع يوم القيامة إلّا حسبي و نسبي .

أقول : كأنّ الرواية من طريق الجماعة ، و قد رواها في الدرّ المنثور عن عدّة من أصحاب الجوامع عن المسوّر بن مخرمة عن النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم و لفظها : أنّ الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي و سببي وصهري ، و عن عدّة منهم عن عمر بن الخطّاب عنه صلّى الله عليه و آله و سلّم و لفظها : كلّ سبب و نسب منقطع يوم القيامة إلّا سببي و نسبي

و عن ابن عساكر عن ابن عمر عنه صلى الله عليه وآله وسلم و لفظها : كلّ نسب و صهر ينقطع يوم القيامة إلّا نسبي و صهري .

و في المناقب في حديث طاوس عن زين العابدين عليه السلام : خلق الله الجنّة لمن أطاع و أحسن و لو كان عبدا حبشيّا ، و خلق النار لمن عصاه و لو كان ولدا قرشيّا أما سمعت قول الله تعالى : « فإذا نفخ في الصور فلاأنساب بينهم ولايتساءلون» و الله لاينفعك غدا إلّا تقدمة تقدّمها من عمل صالح .

أقول : سياق الآية كالآبي عن التخصيص و لعلّ من آثار نسبه صلى الله عليه وآله وسلم أن يوفّق ذرّيّته من صالح العمل بما ينتفع به يوم القيامة .

وفي تفسير القمّي و قوله عزّ وجلّ : « تلفح وجوههم النار» قال : تلهب عليهم فتحرقهم «وهم فيها كالحون» أي مفتوحي الفم متربّدي الوجوه .

و في التوحيد بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : « ربّنا غلبت علينا شقوتنا » قال : بأعمالهم شقوا .

و في العلل بإسناده عن مسعدة بن زياد قال : قال رجل لجعفر بن محمّد عليه السلام : يا باعبدالله إنّا خلقنا للعجب . قال : و ما ذلك لله أنت ؟ قال : خلقنا للفناء . قال : مه يا ابن أخ خلقنا للبقاء و كيف تفنى جنّة لاتبيد و نار لاتخمد ؟ ولكن إنّما نتحوّل من دار إلى دار .

و في تفسير القمّي قوله تعالى : « قال كم لبثتم ـ إلى قوله ـ فاسأل العادّين» قال : سل الملائكة الّذين يعدّون علينا الأيّام ، و يكتبون ساعاتنا و أعمالنا الّتي اكتسبنا فيها .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن أيفع بن عبدالكلاعيّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ الله إذا أدخل أهل الجنّة الجنّة وأهل النار النار قال لأهل الجنّة : كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم . قال : لنعم ما اتّجرتم في يوم أو بعض يوم رحمتي و رضواني و جنّتي اسكنوا فيها خالدين مخلّدين .

ثمّ يقول : يا أهل النار كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم فيقول : بئس ما اتّجرتم في يوم أو بعض يوم ناري و سخطي امكثوا فيها خالدين .

أقول : و في انطباق معنى الحديث على الآية بما لها من السياق و بما يشهد به الآيات النظائر خفاء ، و قد تقدّم البحث عن مدلول الآية مستمدّا من الشواهد .



سورة النور مدنيّة و هي أربع و ستّون آية

بسم الله الرحمن الرحيم سورة انزلناها و فرضناها و انزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون (١) الزانية و الزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة و لا تاخذكم بهما رافة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر و ليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين (٢) الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة و الزانية لا ينكحها الا زان او مشرك وحرم ذلك على المؤمنين (٣) والذين يرمون المحصنات ثم لم ياتوا باربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة و لا تقبلوا لهم شهادة ابدا و اولئك هم الفاسقون (٤) الا الذين تابوا من بعد ذلك و اصلحوا فان الله غفور رحيم (٥) و الذين يرمون ازواجهم ولم يكن لهم شهداء الا انفسهم فشهادة احدهم اربع شهادات بالله انه لمن الصادقين (٦) و الخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين (٧) و يدرؤا عنها العذاب ان تشهد اربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين (٨) و الخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين (٩) و لولا فضل الله عليكم و رحمته و ان الله تواب حكيم (١٠) .

﴿ بيان ﴾

غرض السورة ما ينبىء عنه مفتتحها « سورة أنزلناها و فرضناها و أنزلنا فيها آيات بيّنات لعلّكم تذكّرون » فهي تذكر نبذة من الأحكام المفروضة المشرّعة ثمّ جملة من المعارف الإلهيّة تناسبها و يتذكّر بها المؤمنون .

و هي سورة مدنيّة بلاخلاف وسياق آياتها يشهد بذلك و من غرر الآيات فيها آية النور .

قوله تعالى : « سورة أنزلناها و فرضناها و أنزلنا فيها آيات بيّنات لعلّكم تذكّرون» السورة طائفة من الكلام يجمعها غرض واحد سيقت لأجله و لذا اعتبرت تارة نفس الآيات بمالها من المعاني فقيل : «فرضناها» ، و تارة ظرفا لبعض الآيات ظرفيّة المجموع للبعض فقيل : «أنزلنا فيها آيات بيّنات » وهي ممّا وضعه القرآن و سمّى به طائفة خاصّة من آياته وتكرّر استعمالها في كلامه تعالى ، و كأنّه مأخوذ من سور البلد و هو الحائط الّذي يحيط به سمّيت به سورة القرآن لإحاطتها بمافيها من الآيات أو بالغرض الّذي سيقت له .

و قال الراغب : الفرض قطع الشيء الصلب و التأثير فيه كفرض الحديد و فرض الزند والقوس . قال : والفرض كالإيجاب لكنّ الإيجاب يقال اعتبارا بوقوعه و ثباته ، و الفرض بقطع الحكم فيه قال تعالى : « سورة أنزلناها و فرضناها » أي أوجبنا العمل بهاعليك . قال : و كلّ موضع ورد «فرض الله عليه» ففي الإيجاب الّذي أدخله الله فيه ، و ماورد «فرض الله له» فهو في أن لايحظره على نفسه نحو « ماكان على النبيّ من حرج فيما فرض الله له » . انتهى .

فقوله : « سورة أنزلناها و فرضناها » أي هذه سورة أنزلناها و أوجبنا العمل بما فيها من الأحكام فالعمل بالحكم الايجابيّ هو الاتيان به و بالحكم التحريميّ الانتهاء عنه .

و قوله : « و أنزلنا فيها آيات بيّنات لعلّكم تذكّرون » المراد بها ـ بشهادة

السياق ـ آية النور ومايتلوها من الآيات المبيّنة لحقيقة الإيمان والكفر والتوحيد والشرك المذكّرة لهذه المعارف الإلهيّة .

قوله تعالى : « الزانية و الزاني فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة » الآية الزنا المواقعة من غير عقد أو شبهة عقد أو ملك يمين ، و الجلد هو الضرب بالسوط و الرأفة التحنّن و التعطّف و قيل : هي رحمة في توجّع ، و الطائفة في الأصل هي الجماعة كانوا يطوفون بالارتحال من مكان إلى مكان قيل : و ربّما تطلق على الاثنين و على الواحد .

و قوله : « الزانية و الزاني » الخ أي المرأة و الرجل اللّذان تحقّق منهما الزنا فاضربوا كلّ واحد منهما مائة سوط ، و هو حدّ الزنا بنصّ الآية غير أنّها مخصّصة بصور : منها أن يكونا محصنين ذوي زوج أو يكون أحدهما محصنا فالرجم و منها أن يكونا غير حرّين أو أحدهما رقّا فنصف الحدّ .

قيل : و قدّمت الزانية في الذكر على الزاني لأنّ الزنا منهنّ أشنع ولكون الشهوة فيهنّ أقوى و أكثر ، و الخطاب في الأمر بالجلد متوجّه إلى عامّة المسلمين فيقوم بمن قام بأمرهم من ذوي الولاية من النبيّ و الإمام و من ينوب منابه .

و قوله : « و لا تأخذكم بهما رأفة في دين الله » الخ النهي عن الرأفة من قبيل النهي عن المسبّب بالنهي عن سببه إذ الرأفة بمن يستحقّ نوعا من العذاب توجب التساهل في إذاقته مايستحقّه من العذاب بالتخفيف فيه وربّما أدّى إلى تركه ، و لذا قيّده بقوله : « في دين الله » أي حال كون الرأفة أي المساهلة من جهتها في دين الله و شريعته .

و قيل : المراد بدين الله حكم الله كما في قوله تعالى : « ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك » يوسف : ٧٦ أي في حكمه أي لا تأخذكم بهما رأفة في إنفاذ حكم الله وإقامة حدّه .

و قوله : « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » أي إن كنتم كذا و كذا فلا تأخذكم بهما رأفة ولاتساهلوا في أمرهما و فيه تأكيد للنهي .

و قوله : « و ليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » أي و ليحضر و لينظر إلى ذلك جماعة منهم ليعتبروا بذلك فلا يقتربوا الفاحشة .

قوله تعالى : « الزاني لا ينكح إلّا زانية أو مشركة و الزانية لا ينكحها إلّا زان أو مشرك و حرّم ذلك على المؤمنين » ظاهر الآية و خاصّة بالنظر إلى سياق ذيلها المرتبط بصدرها أنّ الّذي تشمل عليه حكم تشريعيّ تحريميّ و إن كان صدرها واردا في صورة الخبر فإنّ المراد النهي تأكيداً للطلب وهو شائع .

و المحصّل من معناها بتفسير من السنّة من طرق أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ الزاني إذا اشتهر منه الزنا و اُقيم عليه الحدّ و لم تتبيّن منه التوبة يحرم عليه نكاح غير الزانية و المشركة ، و الزانية إذا اشتهر منها الزنا و اُقيم عليها الحدّ ولم تتبيّن منها التوبة يحرم أن ينكحها إلّا زان أو مشرك .

فالآية محكمة باقية على إحكامها من غير نسخ و لا تأويل ، و تقييدها بإقامة الحدّ و تبيّن التوبة ممّا يمكن أن يستفاد من السياق فإنّ وقوع الحكم بتحريم النكاح بعد الأمر بإقامة الحدّ يلوّح إلى أنّ المراد به الزاني و الزانية المجلودان ، و كذا إطلاق الزاني و الزانية على من ابتلي بذلك ثمّ تاب توبة نصوحا و تبيّن منه ذلك ، بعيد من دأب القرآن و أدبه .

و للمفسّرين في معنى الآية تشاجرات طويلة وأقوال شتّى :

منها أنّ الكلام مسوق للإخبار عمّا من شأن مرتكبي هذه الفاحشة أن يقصدوه و ذلك أنّ من خبثت فطرته لا يميل إلّا إلى من يشابهه في الخباثة و يجانسه في الفساد و الزاني لا يميل إلّا إلى الزانية المشاركة لها في الفحشاء و من هو أفسد منها وهي المشركة ، و الزانية كذلك لا تميل إلّا إلى مثلها و هو الزاني و من هو أفسد منه و هو المشرك فالحكم وارد مورد الأعمّ الأغلب كما قيل في قوله تعالى : « الخبيثات للخبيثين و الخبيثون للخبيثات » الآية ٢٦ من السورة .

و منها أنّ المراد بالآية التقبيح والمعنى أنّ اللائق بحال الزاني أن لا ينكح إلّا زانية أو من هي دونها و هي المشركة واللائق بحال الزانية أن لا ينكحها إلّا زان

أو من هو دونه و هو المشرك ، و المراد بالنكاح العقد ، و قوله : « وحرّم ذلك على المؤمنين» معطوف على أوّل الآية ، و المراد و حرّم الزنا على المؤمنين .

و فيه و في سابقه مخالفتهما لسياق الآية و خاصّة اتّصال ذيلها بصدرها كما تقدّمت الإشارة إليه .

و منها أنّ الآية منسوخة بقوله تعالى : «وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم».

و فيه أنّ النسبة بين الآيتين نسبة العموم و الخصوص و العامّ الوارد بعد الخاصّ لاينسخه خلافا لمن قال به نعم ربّما أمكن أن يستفاد النسخ من قوله تعالى : « و لاتنكحوا المشركات حتّى يؤمنّ و لأمة مؤمنة خير من مشركة ولوأعجبتكم و لا تنكحوا المشركين حتّى يؤمنوا و لعبد مؤمن خير من مشرك و لو أعجبكم اُولئك يدعون إلى النار و الله يدعو إلى الجنّة و المغفرة بإذنه » البقرة : ٢٢١ بدعوى أنّ الآية و إن كانت من العموم بعد الخصوص لكن لسانها آب عن التخصيص فتكون ناسخة بالنسبة إلى جواز النكاح بين المشرك و المشركة ، وقد ادّعى بعضهم أنّ نكاح الكافر للمسلمة كان جائزا إلى سنة ستّ من الهجرة ثمّ نزل التحريم فلعلّ الآية الّتي نحن فيها نزلت قبل ذلك ، و نزلت آية التحريم بعدها و في الآية أقوال اُخر تركنا إيرادها لظهور فسادها .

قوله تعالى : « والّذين يرمون المحصنات ثمّ لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة » الخ الرمي معروف ثمّ استعير لنسبة أمر غير مرضيّ إلى الإنسان كالزنا والسرقة و هو القذف ، و السياق يشهد أنّ المراد به نسبة الزنا إلى المرأة المحصنة العفيفة ، و المراد بالإتيان بأربعة شهداء و هم شهود الزنا إقامة الشهادة لإثبات ما قذف به ، و قد أمر الله تعالى بإقامة الحدّ عليهم إن لم يقيموا الشهادة و حكم بفسقهم و عدم قبول شهادتهم أبدا .

والمعنى والّذين يقذفون المحصنات من النساء بالزنا ثمّ لم يقيموا أربعة من الشهود على صدقهم في قذفهم فاجلدوهم ثمانين جلدة على قذفهم وهم فاسقون لاتقبلوا

شهادتهم على شيء أبدا .

والآية كما ترى مطلقة تشمل من القاذف الذكر والأنثى والحرّ والعبد ، و بذلك تفسّرها روايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام .

قوله تعالى : « إلّا الّذين تابوا من بعد ذلك و أصلحوا فإنّ الله غفور رحيم » الاستثناء راجع إلى الجملة الأخيرة و هي قوله : « و اُولئك هم الفاسقون» لكنّها لمّا كانت تفيد معنى التعليل بالنسبة إلى قوله : « ولاتقبلوا لهم شهادة أبدا ». على ما يعطيه السياق ـ كان لازم ما تفيده من ارتفاع الحكم بالفسق ارتفاع الحكم بعدم قبول الشهادة أبدا ، ولازم ذلك رجوع الاستثناء بحسب المعنى إلى الجملتين معا .

والمعنى إلّا الّذين تابوا من بعد ذلك و أصلحوا أعمالهم فإنّ الله غفور رحيم يغفر ذنبهم ويرحمهم فيرتفع عنهم الحكم بالفسق والحكم بعدم قبول شهادتهم أبدا .

و ذكر بعضهم أنّ الاستثناء راجع إلى الجملة الأخيرة فحسب فلو تاب القاذف و أصلح بعد إقامة الحدّ عليه غفر له ذنبه لكن لاتقبل شهادته أبدا خلافا لمن قال برجوع الاستثناء إلى الجملتين معا .

والظاهر أنّ خلافهم هذا مبنيّ على المسألة الاُصوليّة المعنونة بأنّ الاستثناء الواقع بعد الجمل المتعدّدة هل يتعلّق بالجميع أو بالجملة الأخيرة والحقّ في المسألة أنّ الاستثناء في نفسه صالح للأمرين جميعا و تعيّن أحدهما منوط بماتقتضيه قرائن الكلام ، والّذي يعطيه السياق في الآية الّتي نحن فيها تعلّق الاستثناء بالجملة الأخيرة غير أنّ إفادتها للتعليل تستلزم تقيّد الجملة السابقة أيضا بمعناه كالأخيرة على ما تقدّم .

قوله تعالى : « و الّذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلّا أنفسهم ـ إلى قوله ـ من الكاذبين » أي لم يكن لهم شهداء يشهدون ماشهدوا فيتحمّلوا الشهادة ثمّ يؤدّوها إلّا أنفسهم ، و قوله : « فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله » أي شهادة أحدهم يعني القاذف و هو واحد أربع شهادات متعلّقة بالله إنّه لمن الصادقين فيما يخبر به من القذف .

و معنى الآيتين : والّذين يقذفون أزواجهم ولم يكن لهم أربعة من الشهداء يشهدون ما شهدوا ـ و من طبع الأمر ذلك على تقدير صدقهم إذلو ذهبوا يطلبون الشهداء ليحضروهم على الواقعة فيشهدوهم عليها فات الغرض بتفرّقهما ـ فالشهادة الّتي يجب على أحدهم أن يقيمها هي أن يشهد أربع شهادات أي يقول مرّة بعد مرّة : « اُشهدالله على صدقي فيما أقذفها به » أربع مرّات و خامستها أن يشهد و يقول : لعنةالله عليّ إن كنت من الكاذبين .

قوله تعالى : « ويدرؤعنها العذاب أن تشهد» إلى آخر الآيتين الدرء الدفع والمراد بالعذاب حدّ الزنا ، والمعنى أنّ المرأة إن شهدت خمس شهادات بإزاء شهادات الرجل دفع ذلك عنه حدّ الزنا ، و شهاداتها أن تشهد أربع مرّات تقول فيها : أشهد بالله إنّه لمن الكاذبين ثمّ تشهد خامسة فتقول : لعنةالله عليّ إن كان من الصادقين ، و هذا هو اللعان الّذي ينفصل به الزوجان .

قوله تعالى : « ولولا فضل الله عليكم و رحمته وأنّ الله توّاب رحيم » جواب لولا محذوف يدلّ عليه ما اُخذ في شرطه من القيود إذمعناه لولا فضل الله و رحمته و توبته وحكمته لحلّ بكم ما دفعته عنكم هذه الصفات و الأفعال فالتقدير على ما يعطيه مافي الشرط من القيود لولاما أنعم الله عليكم من نعمة الدين و توبته لمذنبيكم و تشريعه الشرائع لنظم اُمور حياتكم لزمتكم الشقوة ، و أهلكتكم المعصيته و الخطيئة ، و اختلّ نظام حياتكم بالجهالة . والله أعلم .

﴿بحث روائي﴾

في الكافي بإسناده عن محمّد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : وسورة النور اُنزلت بعد سورة النساء ، و تصديق ذلك أنّ الله عزّ وجلّ أنزل عليه في سورة النساء « و اللاّتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهنّ أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهنّ في البيوت حتّى يتوفّاهنّ الموت أو يجعل الله لهنّ سبيلا » والسبيل الّذي قال الله عزّ و جلّ « سورة أنزلناها و فرضناها و أنزلنا فيها آيات

بيّنات لعلّكم تذكّرون الزانية والزاني فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم آمنتم بالله واليوم الآخر و ليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » .

و في تفسير القمّي و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « وليشهدعذابهما» يقول : ضربهما «طائفةمن المؤمنين » يجمع لهماالناس إذاجلدوا .

وفي التهذيب بإسناده عن غياث بن إبراهيم عن جعفر عن أبيه عن أمير المؤمنين عليهم السلام في قول الله عزّ و جلّ : « ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله » قال : في إقامة الحدود ، وفي قوله تعالى : « وليشهدعذابهما طائفة من المؤمنين » قال : الطائفة واحد .

و في الكافي بإسناده عن محمّد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : وأنزل بالمدينة « الزاني لاينكح إلّا زانية أو مشركة والزانية لاينكحها إلّا زان أو مشرك و حرّم ذلك على المؤمنين » فلم يسمّ الله الزاني مؤمنا ولا الزانية مؤمنة ، و قال رسول الله صلى الله عليه وآله ليس يمتري فيه أهل العلم أنّه قال لايزني الزاني حين يزني و هو مؤمن ، ولايسرق السارق حين يسرق و هو مؤمن فإنّه إذا فعل ذلك خلع عنه الإيمان كخلع القميص .

و فيه بإسناده عن زرارة قال : سألت أباعبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : « الزاني لاينكح إلّا زانية أو مشركة » قال : هنّ نساء مشهورات و رجال مشهورون بالزنا شهروابه و عرفوا به ، والناس اليوم بذلك المنزل فمن اُقيم عليه حدّ الزنا أو متّهم بالزنا لم ينبغ لأحد أن يناكحه حتّى يعرف منه التوبة .

أقول : و رواه أيضاً بإسناده عن أبي الصباح عنه عليه السلام مثله ، و بإسناده عن محمّد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام و لفظه : هم رجال و نساء كانوا على عهد رسول الله صلّى الله عليه و آله مشهورين بالزنا فنهى الله عن اُولئك الرجال و النساء ، و الناس اليوم على تلك المنزلة من شهر شيأ من ذلك أو اُقيم عليه الحدّ فلا تزوّجوه حتّى تعرف توبته .

و فيه باسناده عن حكم بن حكيم عن أبي عبدالله عليه السلام في الآية قال : إنّما ذلك في الجهر ثمّ قال : لوأنّ إنسانا زنا ثمّ تاب تزوّج حيث شاء .

و في الدرّ المنثور أخرج أحمد و عبد بن حميد و النسائيّ والحاكم و صحّحه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي في سننه و أبوداود في ناسخه عن عبدالله بن عمر قال : كانت امرأة يقال لها : اُم مهزول ، و كانت تسافح الرجل وتشرط أن تنفق عليه فأراد رجل من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يزوّجها فأنزل الله : « الزانية لاينكحها إلّا زان أومشرك » .

اقول : و روى مايقرب منه عن عدّة من أصحاب الجوامع عن مجاهد .

و فيه أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال : لمّا قدم المهاجرون المدينة قدموها وهم بجهد إلّا قليل منهم ، و المدينة غالية السعر شديدة الجهد ، و في السوق زوان متعالنات من أهل الكتاب ، و أمّا الأنصار منهنّ اُميّة وليدة عبدالله بن اُبيّ و نسيكة بنت اُميّة لرجل من الأنصار في بغايا من ولائد الأنصار قد رفعت كلّ امرأة منهنّ علامة على بابها ليعرف أنّها زانية و كنّ من أخصب أهل المدينة وأكثره خيرا .

فرغب اُناس من مهاجري المسلمين فيما يكتسبن للّذي هم فيه من الجهد فأشار بعضهم على بعض لوتزوّجنا بعض هؤلاء الزواني فنصيب من بعض أطعماتهنّ فقال بعضهم : نستأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأتوه فقالوا : يا رسول الله قد شقّ علينا الجهد ولانجد ما نأكل ، و في السوق بغايا نساء أهل الكتاب و ولائدهنّ و ولائد الأنصار يكتسبن لأنفسهنّ فيصلح لنا أن نتزوّج منهنّ فنصيب من فضول ما يكتسبن ؟ فإذا وجدنا عنهنّ غنى تركناهنّ فأنزل الله : « الزاني لاينكح » الآية فحرّم على المؤمنين أن يتزوّجوا الزواني المسافحات العالنات زناهنّ .

اقول : والروايتان إنّما تذكران سبب نزول قوله : « الزانية لاينكحها إلّا زان أو مشرك » دون قوله : « الزاني لاينكح إلّا زانية أو مشركة » .

و في المجمع في قوله تعالى : « إلّا الّذين تابوا » اختلف في هذه الاستثناء إلى ماذا يرجع على قولين : أحدهما أنّه يرجع إلى الفسق خاصّة دون قوله : «ولاتقبلوا

لهم شهادة أبدا » - إلى أن قال - والآخر أنّ الاستثناء يرجع إلى الأمرين فإذا تاب قبلت شهادته حدّ أم لم يحدّ عن ابن عبّاس - إلى أن قال - و قول أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام .

و في الدرّ المنثور أخرج عبدالرزّاق وعبد بن حميد و ابن المنذر عن سعيدبن المسيّب قال : شهد على المغيرة بن شعبة ثلاثة بالزنا و نكل زياد فحدّ عمر الثلاثة ، و قال لهم : توبوا تقبل شهادتكم فتاب رجلان ولم يتب أبو بكرة فكان لاتقبل شهادته، وكان أبو بكرة أخا زياد لأمّه فلمّا كان من أمر زياد ما كان حلف أبو بكرة أن لايكلّمه أبدا فلم يكلّمه حتّى مات .

و في التهذيب بإسناده عن الحلبي عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إذا قذف العبد الحرّ جلد ثمانين . و قال : هذا من حقوق الناس .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : « والّذين يرمون أزواجهم - إلى قوله - إن كان من الصادقين » فإنّها نزلت في اللعان فكان سبب ذلك أنّه لمّا رجع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من غزوة تبوك جاء إليه عويمر بن ساعدة العجلانيّ و كان من الأنصار و قال : يا رسول الله إنّ امرأتي زنى بها شريك بن السمحاء و هي منه حامل فأعرض عنه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فأعاد عليه القول فأعرض عنه حتّى فعل ذلك أربع مرّات .

فدخل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم منزله فنزلت عليه آية اللعان فخرج رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم و صلّى بالناس العصر ، و قال لعويمر : ائتني بأهلك فقد أنزل الله عزّ وجلّ فيكما قرآنا فجاء إليها و قال لها : رسول الله يدعوك و كانت في شرف من قومها فجاء معها جماعة فلمّا دخلت المسجد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لعويمر: تقدّم إلى المنبر والتعنا فقال : كيف أصنع ؟ فقال : تقدّم و قل : أشهد بالله إنّي لمن الصادقين فيما رميتها به فتقدّم و قالها فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : أعدها فأعادها حتّى فعل ذلك أربع مرّات فقال له في الخامسة : عليك لعنة الله إن كنت من الكاذبين فيما رميتها به فقال في الخامسة إنّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به . ثمّ

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ اللعنة موجبة إن كنت كاذبا .

ثمّ قال له : تنحّ فتنحّى ثمّ قال لزوجته : تشهدين كما شهد ، و إلاّ أقمت عليك حدّ الله فنظرت في وجوه قومها فقالت : لا اُسوّد هذه الوجوه في هذه العشيّة فتقدّمت إلى المنبر و قالت : أشهد بالله إنّ عويمر بن ساعدة من الكاذبين فيما رماني فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أعيديها فأعادتها حتّى أعادتها أربع مرّات فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : العني نفسك في الخامسة إن كان من الصادقين فيما رماك به فقالت في الخامسة إنّ غضب الله عليها إن كان من الصادقين فيما رماها به فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ويلك إنّها موجبة إن كنت كاذبة .

ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لزوجها : اذهب فلا تحلّ لك أبدا . قال : يارسول الله فمالي الّذي أعطيتها . قال : إن كنت كاذبا فهو أبعد لك منه ، و إن كنت صادقا فهو لها بما استحللت من فرجها . الحديث .

و في المجمع في رواية عكرمة عن ابن عبّاس : قال سعد بن عبادة لو أتيت لكاع و قد يفخّذها رجل لم يكن لي أن أهيجه حتّى آتي بأربعة شهداء فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء حتّى يفرغ من حاجته و يذهب ، و إن قلت ما رأيت إنّ في ظهري لثمانين جلدة .

فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : يا معشر الأنصار ما تسمعون إلى ما قال سيّدكم ؟ فقالوا : لاتلمه فإنّه رجل غيور ما تزوّج امرأة قطّ إلّا بكرا ، ولاطلّق امرأة له فاجترى رجل منّا أن يتزوّجها ، فقال سعدبن عبادة : يا رسول الله بأبي أنت و اُمّي والله إنّي لأعرف أنّها من الله وأنّها حقّ ولكن عجبت من ذلك لما أخبرتك فقال: فإنّ الله يأبى إلّا ذلك فقال : صدق الله ورسوله .

فلم يلبثوا إلّا يسيرا حتّى جاء ابن عمّ له يقال له : هلال بن اُميّة من حديقة له قد رآى رجلا مع امرأته فلمّا أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إنّي جئت أهلي عشاء فوجدت معها رجلا رأيته بعيني وسمعته باُذني ، فكره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتّى رئي الكراهة في وجهه فقال هلال : إنّي لأرى الكراهة في وجهك والله يعلم

إنّي لصادق ، وإنّي لأرجو أن يجعل الله فرجا فهمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بضربه .

قال : و اجتمعت الأنصار و قالوا : ابتلينا بما قال سعد أيجلد هلال و يبطل شهادته ؟ فنزل الوحي و أمسكوا عن الكلام حين عرفوا أنّ الوحي قد نزل فأنزل الله تعالى : « و الّذين يرمون أزواجهم » الآيات .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : أبشريا هلال فإنّ الله تعالى قد جعل فرجا فقال : قد كنت أرجو ذلك من الله تعالى فقال صلى الله عليه وآله وسلم : أرسلوا إليها فجاءت فلاعن بينهما فلمّا انقضى اللعان فرّق بينهما و قضى أنّ الولد لها ولا يدعى لأب ولا يرمى ولدها .

ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن جاءت به كذا و كذا فهو لزوجها و إن جاءت به كذا و كذا فهو للّذي قيل فيه .

أقول : و رواه في الدرّ المنثور عن عدّة من أرباب الجوامع عن ابن عبّاس .

✿ ✿ ✿

ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم (١١) لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين (١٢) لولا جاؤا عليه باربعة شهداء فاذ لم ياتوا بالشهداء فاولئك عندالله هم الكاذبون (١٣) ولولافضل الله عليكم و رحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما افضتم فيه عذاب عظيم (١٤) اذ تلقونه بالسنتكم و تقولون بافواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهوعندالله عظيم (١٥) و لولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا ان نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم (١٦) يعظكم الله ان تعودوا لمثله ابدا ان كنتم مؤمنين (١٧) و يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم (١٨) ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب اليم فى الدنيا و الآخرة والله يعلم و انتم لا تعلمون (١٩) ولولا فضل الله عليكم و رحمته و ان الله رؤف رحيم (٢٠) يا ايها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان و من يتبع خطوات الشيطان فانه يامر بالفحشاء و المنكر ولولا فضل الله عليكم و رحمته ما زكى منكم

مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَ لَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَ الْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَكُمْ وَاللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللّٰهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَ الْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَ الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولٰئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) .

﴿ بيان ﴾

الآيات تشير إلى حديث الإفك ، و قد روى أهل السنّة أنّ المقذوفة في قصّة الإفك هي اُمّ المؤمنين عائشة ، وروت الشيعة أنّها مارية القبطيّة اُمّ إبراهيم الّتي أهداها مقوقس ملك مصر إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وكلّ من الحديثين لايخلو عن شيء على ما سيجيىء في البحث الروائيّ الآتي .

فالأحرى أن نبحث عن متن الآيات في معزل من الروايتين جميعا غير أنّ من المسلّم أنّ الإفك المذكور فيها كان راجعا إلى بعض أهل النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إمّا زوجه و أمّا اُمّ ولده وربّما لوّح إليه قوله تعالى : « و تحسبونه هيّنا و هوعندالله عظيم » و كذا ما يستفاد من الآيات أنّ الحديث كان قد شاع بينهم و أفاضوا فيه و سائر مايومي إليه من الآيات .

والمستفاد من الآيات أنّهم رموا بعض أهل النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بالفحشاء، و كان الرامون عصبة من القوم فشاع الحديث بين الناس يتلقّاه هذا من ذاك، وكان بعض المنافقين أو الّذين في قلوبهم مرض يساعدون على إذاعة الحديث حبّاً منهم أن تشيع الفاحشة في الّذين آمنوا فأنزل الله الآيات و دافع عن نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم.

قوله تعالى: « إنّ الّذين جاؤُا بالإفك عصبة منكم » الخ الإفك على ما ذكره الراغب الكذب مطلقا والأصل في معناه أنّه كلّ مصروف عن وجهه الّذي يحقّ أن يكون عليه كالاعتقاد المصروف عن الحقّ إلى الباطل ـ والفعل المصروف عن الجميل إلى القبيح، والقول المصروف عن الصدق إلى الكذب، و قد استعمل في كلامه تعالى في جميع هذه المعاني.

و ذكر أيضاً أنّ العصبة جماعة متعصّبة متعاضدة، و قيل: إنّها عشرة إلى أربعين.

والخطاب في الآية و مايتلوها من الآيات لعامّة المؤمنين ممّن ظاهره الإيمان أعمّ من المؤمن بحقيقة الإيمان والمنافق و من في قلبه مرض، وأمّا قول بعضهم: إنّ المخاطب بالخطابات الأربعة الاُول أوالثاني والثالث و الرابع النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم والمقذوفة والمقذوف ففيه تفكيك بين الخطابات الواقعة في الآيات العشر الاُول وهي نيّف وعشرون خطابا أكثرها لعامّة المؤمنين بلاريب.

و أسوء حالا منه قول بعض آخر إنّ الخطابات الأربعة أو الثلاثة المذكورة لمن ساءه ذلك من المؤمنين فإنّه مضافاإلى استلزامه التفكيك بين الخطابات المتوالية مجازفة ظاهرة.

والمعنى إنّ الّذين أتوا بهذا الكذب ـ واللاّم في الإفك للعهد ـ جماعة معدودة منكم مرتبط بعضهم ببعض، و في ذلك إشارة إلى أنّ هناك تواطؤا منهم على إذاعة هذا الخبر ليطعنوا به في نزاهة بيت النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم و يفضحوه بين الناس.

و هذا هو فائدة الخبر في قوله: « إنّ الّذين جاؤُا بالإفك عصبة منكم » لاتسلية النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أو تسليته و تسلية من ساءه هذا الإفك كما ذكره بعضهم فإنّ

السياق لايساعد عليه .

و قوله : « لا تحسبوه شرّاً لكم بل هو خير لكم » مقتضى كون الخطاب لعامّة المؤمنين أن يكون المراد بنفي كونه شرّا لهم و إثبات كونه خيرا أنّ المجتمع الصالح من سعادته أن يتميّز فيه أهل الزيغ والفساد ليكونوا على بصيرة من أمرهم و ينهضوا لإصلاح ما فسد من أعضائهم ، وخاصّة في مجتمع دينيّ متّصل بالوحي ينزل عليهم الوحي عند وقوع أمثال هذه الوقائع فيعظهم و يذكّرهم بما هم في غفلة منه أومساهلة حتّى يحتاطوا لدينهم و يتفطّنوا لما يهمّهم .

والدليل على ما ذكرنا قوله بعد : « لكلّ امرء منهم ما اكتسب من الإثم » فإنّ الإثم هو الأثر السيّء الّذي يبقى للإنسان عن اقتراف المعصية فظاهر الجملة أنّ أهل الإفك الجائين به يعرفون بإثمه و يتميّزون به عندكم فيفتضحون به بدل ما أرادوا أن يفضحوا النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم .

و أمّا قول من قال : إنّ المراد بكونه خيرا لهم أنّهم يثابون بما اتّهموهم بالإفك كما أنّ أهل الإفك يتأثّمون به فمبنيّ على كون الخطاب للمتّهمين خاصّة و قد عرفت فساده .

و قوله : « و الّذي تولّى كبره منهم له عذاب عظيم » فسّروا كبره بمعنى معظمه والضمير للإفك ، والمعنى والّذي تولّى معظم الإفك و أصرّ على إذاعته بين الناس من هؤلاء الآفكين له عذاب عظيم .

قوله تعالى : « لولا إذ سمعتموه ظنّ المؤمنون و المؤمنات بأنفسهم خيرا و قالوا هذا إفك مبين » توبيخ لهم إذلم يردّوا الحديث حينما سمعوه و لم يظنّوا بمن رمي به خيرا .

و قوله: « ظنّ المؤمنون و المؤمنات بأنفسهم» من وضع الظاهر موضع المضمر ، والأصل « ظننتم بأنفسكم » والوجه في تبديل الضمير وصفا الدلالة على علّة الحكم فإنّ صفة الإيمان رادعة بالطبع تردع المتلبّس بها عن الفحشاء و المنكر في القول والفعل فعلى المتلبّس بها أن يظنّ على المتلبّسين بها خيرا ، و أن يجتنب القول

فيهم بغير علم فإنّهم جميعا كنفس واحدة في التلبّس بالإيمان ولوازمه وآثاره .

فالمعنى و لولا إذ سمعتم الإفك ظننتم بمن رمي به خيرا فإنّكم جميعا مؤمنون بعضكم من بعض والمرمىّ به من أنفسكم و على المؤمن أن يظنّ بالمؤمن خيرا ولا يصفه بما لاعلم له به .

و قوله : « قالوا هذا إفك مبين» أي قال المؤمنون والمؤمنات وهم السامعون ـ أي قلتم ـ هذا إفك مبين لأنّ الخبر الّذي لاعلم لمخبره به والدعوى الّتي لا بيّنة لمدّعيها عليها محكوم شرعا بالكذب سواء كان بحسب الواقع صدقا أو كذبا ، والدليل عليه قوله في الآية التالية : « فإذ لم يأتوا بالشهداء فاُولئك عندالله هم الكاذبون » .

قوله تعالى : « لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء فإذلم يأتوا بالشهداء فاُولئك عندالله هم الكاذبون» أي لو كانوا صادقين فيما يقولون و يرمون لأقاموا عليه الشهادة و هي في الزنا بأربعة شهداء فإذلم يأتوا بالشهداء فهم محكومون شرعا بالكذب لأنّ الدعوى من غير بيّنة كذب و إفك .

قوله تعالى : « و لولا فضل الله عليكم و رحمته في الدنيا و الآخرة لمسّكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم » إفاضة القوم في الحديث خوضهم فيه .

و قوله : « و لولا فضل الله » الخ عطف على قوله : « لولا إذسمعتموه » الخ وفيه كرّة ثانية على المؤمنين ، وفي تقييد الفضل والرحمة بقوله : « في الدنيا والآخرة » دلالة على كون العذاب المذكور ذيلا هو عذاب الدنيا و الآخرة .

والمعنى ولولا فضل الله عليكم و رحمته في الدنيا والآخرة لوصل إليكم بسبب ما خضتم فيه من الإفك عذاب عظيم في الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : « إذ تلقّونه بألسنتكم و تقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم» الخ الظرف متعلّق بقوله : « أفضتم» و تلقّي الإنسان القول أخذه القول الّذي ألقاه إليه غيره ، و تقييد التلقّي بالألسنة للدلالة على أنّه كان مجرّد انتقال القول من لسان إلى لسان من غير تثبّت و تدبّر فيه .

و على هذا فقوله : « و تقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم » من قبيل عطف

التفسير ، و تقييده أيضا بقوله : « بأفواهكم » للإشارة إلى أنّ القول لم يكن عن تثبّت و تبيّن قلبي ولم يكن له موطن إلّا الأفواه لايتعدّاها .

والمعنى أفضتم و خضتم فيه إذ تأخذونه و تنقلونه لسانا عن لسان وتتلفّظون بما لا علم لكم به .

و قوله : وتحسبونه هيّنا و هو عندالله عظيم » أي تظنّون التلقّي بألسنتكم والقول بأفواهكم من غير علم سهلا وهو عندالله عظيم لأنّه بهتان وافتراء ، على أنّ الأمر مرتبط بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و شيوع إفك هذا شأنه بين الناس يفضحه عندهم و يفسد أمر الدعوة الدينيّة .

قوله تعالى : « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلّم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » عطف بعد عطف على قوله : « لولا إذ سمعتموه » الخ و فيه كرّة ثالثة على المؤمنين بالتوبيخ ، وقوله : « سبحانك » اعتراض بالتنزيه لله سبحانه وهو من أدب القرآن أن ينزّه الله بالتسبيح عند تنزيه كلّ منزّه .

والبهتان الافتراء سمّي به لأنّه يبهت الإنسان المفترى عليه و كونه بهتانا عظيما لأنّه افتراء في عرض وخاصّة إذ كان متعلّقا بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و إنّما كان بهتانا لكونه إخبارا من غير علم و دعوى من غير بيّنة كما تقدّم في قوله : « فإذ لم يأتوا بالشهداء فاُولئك عندالله هم الكاذبون » ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا » إلى آخر الآيتين موعظة بالنهي عن العود لمثله ، و معنى الآيتين ظاهر .

قوله تعالى : « إنّ الّذين يحبّون أن تشيع الفاحشة في الّذين آمنوا » إلى آخر الآية إن كانت الآية نازلة في جملة آيات الإفك و متّصلة بما تقدّمها وموردها الرمي بالزنا بغير بيّنة كان مضمونها تهديد الرامين المفيضين في الإفك لكونه فاحشة و إشاعته في المؤمنين حبّا منهم لشيوع الفاحشة .

فالمراد بالفاحشة مطلق الفحشاء كالزنا والقذف و غير ذلك ، و حبّ شيوعها و منها القذف في المؤمنين يستوجب عذابا أليما لمحبّيه في الدنيا والآخرة .

و على هذا فلاموجب لحمل العذاب في الدنيا على الحدّ إذحبّ شيوع الفحشاء ليس ممّا يوجب الحدّ ، نعم لو كان اللّام في « الفاحشة » للعهد و المراد بها القذف و كان حبّ الشيوع كناية عن قصد الشيوع بالإفاضة و التلقّي بالألسن و النقل أمكن حمل العذاب على الحدّ لكنّ السياق لا يساعد عليه .

على أنّ الرمي بمجرّد تحقّقه مرّة موجب للحدّ ولاموجب لتقييده بقصد الشيوع ولانكتة تستدعي ذلك .

و قوله : « والله يعلم و أنتم لاتعلمون » تأكيد و إعظام لما فيه من سخط الله و غضبه و إن جهله الناس .

قوله تعالى : «ولولا فضل الله عليكم و رحمته » تكرار للامتنان ومعناه ظاهر .

قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا لاتتّبعوا خطوات الشيطان فإنّه يأمر بالفحشاء و المنكر » تقدّم تفسير الآية في الآية ٢٠٨ من سورة البقرة في الجزء الثاني من الكتاب .

قوله تعالى : « ولولا فضل الله عليكم و رحمته ما زكى منكم من أحد أبدا » إلى آخر الآية . رجوع بعد رجوع إلى الامتنان بالفضل و الرحمة ، لايخلو هذا الاهتمام من تأييد لكون الإفك متعلّقا بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم و ليس إلّا لكرامته على الله سبحانه .

و قد صرّح في هذه المرّة الثالثة بجواب لولا و هو قوله : « ما زكى منكم من أحد أبدا » و هذا ممّا يدلّ عليه العقل فإنّ مفيض الخير و السعادة هو الله سبحانه ، و التعليم القرآنيّ أيضا يعطيه كما قال تعالى : « بيدك الخير » آل عمران : ٢٦ و قال : « ما أصابك من حسنة فمن الله » النساء : ٧٩ .

و قوله : «ولكنّ الله يزكّي من يشاء والله سميع عليم» إضراب عمّا تقدّم فهو تعالى يزكّي من يشاء فالأمر إلى مشيّته ، ولا يشاء إلّا تزكية من استعدّ لها و سأله بلسان استعداده ذلك ، وإليه يشير قوله : « والله سميع عليم» أي سميع لسؤال من سأله التزكية عليم بحال من استعدّ لها .

قوله تعالى : « ولا يأتل اُولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا اُولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله» الخ الايتلاء التقصير و الترك و الحلف ، و كلّ من المعاني الثلاثة لايخلو من مناسبة ، و المعنى لايقصّر اُولوالفضل منكم و السعة يعني الأغنياء في إيتاء اُولي‌القرابة و المساكين و المهاجرين في سبيل الله من مالهم أو لايترك إيتاء هم أولا يحلف أن لايؤتيهم - وليعفوا عنهم وليصفحوا ثم حرّضهم بقوله : « ألا تحبّون أن يغفرالله لكم والله غفور رحيم » .

و في الآية - على تقدير نزولها في جملة الآيات و اتّصالها بها - دلالة على أنّ بعض المؤمنين عزم على أن يقطع ما كان يؤتيه بعض أهل الإفك فنهاه الله عن ذلك وحثّه على إدامة الإيتاء كما سيجيء .

قوله تعالى : « إنّ الّذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » أخذ الصفات الثلاث الإحصان والغفلة والإيمان للدلالة على عظم المعصية فإنّ كلاًّ من الإحصان بمعنى العفّة و الغفلة و الإيمان سبب تامّ في كون الرمي ظلما و الرامي ظالما و المرميّة مظلومة فإذا اجتمعت كان الظلم أعظم ثمّ أعظم ، وجزاؤه اللعن في الدنيا و الآخرة و العذاب العظيم ، والآية عامّة و إن كان سبب نزولها لو نزلت في جملة آيات الإفك خاصّا .

قوله تعالى : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم و أيديهم و أرجلهم بما كانوا يعملون» الظرف متعلّق بقوله في‌الآية السابقة : « ولهم عذاب عظيم » .

والمراد بقوله : «بما كانوايعملون » كما يقتضيه إطلاقه مطلق الأعمال السيّئة - كما قيل - لا خصوص الرمي بأن تشهد ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم على رميهم فالمراد بالشهادة شهادة الأعضاء على السيّآت والمعاصي بحسب ما يناسبها فما كان منها من قبيل الأقوال كالقذف و الكذب و الغيبة و نحوها شهدت عليه الألسنة ، و ما كان منها من قبيل‌الأفعال كالسرقة والمشي للنميمة و السعاية و غيرهما شهدت عليه بقيّة الأعضاء ، و إذكان معظم‌المعاصي من‌الأفعال للأيدي و الأرجل اختصّتا بالذكر .

و بالحقيقة الشاهد على كلّ فعل هو العضو الّذي صدر منه كما يشير إليه

قوله تعالى : «شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون» حم السجدة : ٢٠ ، و قوله : « إنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ اُولئك كان عنه مسؤلا » أسرى : ٣٦ ، و قوله : « اليوم نختم على أفواههم و تكلّمنا أيديهم و تشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » يس : ٥٦ وسيأتي الكلام على شهادة الأعضاء يوم القيامة في بحث مستقلّ في تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « يومئذ يوفّيهم الله دينهم الحقّ و يعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين » المراد بالدين الجزاء كما في قوله : « مالك يوم الدين » الحمد : ٤ وتوفية الشيء بذله تامّا كاملا ، والمعنى يوم القيامة يؤتيهم الله جزاءهم الحقّ إيتاء تامّا كاملا و يعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين .

هذا بالنظر إلى اتّصال الآية بما قبلها و وقوعها في سياق ما تقدّمها ، و أمّا بالنظر إلى استقلالها في نفسها فمن الممكن أن يراد بالدين ما يرادف الملّة وهو سنّة الحياة ، و هو معنى عال يرجع إلى ظهور الحقائق يوم القيامة للإنسان ، و يكون أكثر مناسبة لقوله : « و يعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين » .

والآية من غرر الآيات القرآنيّة تفسّر معنى معرفة الله فإنّ قوله : «ويعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين » ينبىء أنّه تعالى هو الحقّ لاسترة عليه بوجه من الوجوه ولا على تقدير من التقادير فهو من أبده البديهيّات الّتي لا يتعلّق بها جهل لكنّ البديهيّ ربّما يغفل عنه فالعلم به تعالى هو ارتفاع الغفلة عنه الّذي ربّما يعبّر عنه بالعلم بالعلم ، وهذا هو الّذي يبدو لهم يوم القيامة فيعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين .

و إلى مثله يشير قوله تعالى : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ق : ٢٢ .

قوله تعالى : « الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات و الطيّبات للطيّبين والطيّبون للطيّبات » الخ ذيل الآية « اُولئك مبرّؤن ممّا يقولون » دليل على أنّ المراد بالخبيثات والخبيثين والطيّبات و الطيّبين نساء و رجال متلبّسون بالخباثة والطيب فالآية من تمام آيات الإفك متصّلة بها مشاركة لها في سياقها ، و هي عامّة

لامخصّص لها من جهة اللفظ البتّة .

فالمراد بالطيب الّذي يوجب كونهم مبرّئين ممّا يقولون على ما تدلّ عليه الآيات السابقة هو المعنى الّذي يقتضيه تلبّسهم بالإيمان و الإحصان فالمؤمنون والمؤمنات مع الإحصان طيّبون و طيّبات يختصّ كلّ من الفريقين بصاحبه ، و هم بحكم الإيمان و الإحصان مصونون مبرّؤن شرعا من الرمي بغير بيّنة ، محكومون من جهة إيمانهم بأنّ لهم مغفرة كما قال تعالى : «و آمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم» الأحقاف : ٣١ و لهم رزق كريم ، وهو الحياة الطيّبة في الدنيا و الأجر الحسن في الآخرة كما قال : «من عمل صالحا من ذكر أو اُنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيّبة و لنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» النحل : ٩٧ .

والمراد بالخبث في الخبيثين والخبيثات وهم غير المؤمنين هو الحال المستقذرة الّتي يوجبها لهم تلبّسهم بالكفر و قد خصّت خبيثاتهم بخبيثهم و خبيثوهم بخبيثاتهم بمقتضى المجانسة والمسانخة و ليسوا بمبرّئين عن التلبّس بالفحشاء - نعم هذا ليس حكما بالتلبّس -

فظهر بما تقدّم :

أوّلا أنّ الآية عامّة بحسب اللفظ تصف المؤمنين و المؤمنات بالطيب و لاينافي ذلك اختصاص سبب نزولها و انطباقها عليه .

و ثانيا أنّها تدلّ على كونهم جميعا محكومين شرعا بالبراءة عمّا يرمون به ما لم تقم عليه بيّنة .

و ثالثا أنّهم محكومون بالمغفرة و الرزق الكريم كلّ ذلك حكم ظاهريّ لكرامتهم على الله بإيمانهم ، والكفّار على خلاف ذلك .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور أخرج عبدالرزّاق و أحمد والبخاريّ و عبد بن حميد و مسلم وابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقيّ في الشعب عن

عائشة قالت :

كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج إلى سفر أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه . قالت عائشة : فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما نزل الحجاب وأنا أُحمل في هودجي و أنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل .

فدنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فاذا عقدلي من جزع ظفار[1] فدا نقطع فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب ، وهم يحسبون أني فيه ، وكانت النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلهن اللحم إنما تأكل المرأة العلقة[2] من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه و كنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل فساروا فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم و ليس بها داع ولا مجيب فيممت منزلي الذي كنت به فظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت .

وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكراني من وراء الجيش فأدلج[3] فأصبح عند منزلي فرآى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني و كان يراني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي والله ما كلمني كلمة واحدة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد أن نزلوا موغرين في نحر الظهيرة فهلك في من هلك .

---

(١) ظفار كقطام بلد باليمن قرب صنعاء وجزع ظفارى منسوب اليها والجزع الخرز و هو الذى فيه سواد و بياض .

(٢) العلقة من الطعام ما يمسك به الرمق .

(٣) أدلج القوم ساروا الليل كله أو فى آخره .

وكان الّذي تولّى الإفك عبدالله بن اُبيّ بن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرا والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا اُشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أنّي لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اللطف الّذي كنت أرى منه حين أشتكي إنّما يدخل عليّ فيسلّم ثمّ يقول: كيف تيكم؟ ثمّ ينصرف فذاك الّذي يريبني ولا اُشعر بالشرّ حتّى خرجت بعد ما نقهت وخرجت معي اُمّ مسطح قبل المناصع[1] وهي متبرّزنا وكنّا لانخرج إلّا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتّخذ الكنف قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأوّل في التبرّز قبل الغائط فكنّا نتأذّى بالكنف أن نتّخذها عند بيوتنا.

فانطلقت أنا واُمّ مسطح فأقبلت أنا واُمّ مسطح قبل بيتي قد أشرعنا[2] من ثيابنا فعثرت اُمّ مسطح في مرطها[3] فقالت: تعس مسطح فقلت لها: بئس ما قلت أتسبّين رجلا شهد بدرا؟ قالت: إي هنتاه[4] أولم تسمعي ما قال؟ قلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا على مرضي.

فلمّا رجعت إلى بيتي دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسلّم ثمّ قال: كيف تيكم؟ فقلت: أتأذن لي أن آتي أبويّ؟ - قالت: وأنا حينئذ اُريد أن أستيقن الخبر من قبلهما - قالت: فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجئت لأبويّ فقلت لاُمّي: يا اُمّتاه ما يتحدّث الناس؟ قالت: يا بنيّة هوّني عليك فوالله لقلّما كانت امرأة قطّ وضيئة عند رجل يحبّها ولها ضرائر إلّا أكثرن عليها فقلت: سبحان الله ولقد تحدّث الناس بهذا؟ فبكيت تلك اللّيلة حتّى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثمّ أصبحت أبكي.

ودعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليّ بن أبي طالب واُسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله فأمّا اُسامة فأشار على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالّذي يعلم من

(١) المناصع: المواضع يتخلى فيها لبول او حاجة.　(٢) اى رفعنا ثيابنا.
(٣) المرط - بالكسر - كساء واسع يؤتزر به وربما تلقيه المرءة على رأسها وتتلفع به.
(٤) خطاب للمرءة يقال للرجل يا هناه.

براءة أهله و بالّذي يعلم لهم في نفسه من الودّ فقال : يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلّا خيرا ، و أمّا عليّ بن أبي‌طالب فقال : يا رسول الله لم يضيّق الله عليك ، و النساء سواها كثيرة و إن تسأل الجارية تصدقك فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : أي بريرة هل رأيت شيأ يريبك ؟ قالت بريرة : لا والّذي بعثك بالحقّ إن رأيت عليها أمرا أغمضه أكثر من أنّها جارية حديثة السنّ تنام عن عجين أهلها فيأتي الداجن فيأكله .

فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبدالله بن اُبيّ فقال وهو على المنبر : يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلّا خيرا ، و لقد ذكروا رجلا ماعلمت عليه إلّا خيرا وماكان يدخل على أهلي إلّا معي .

فقام سعد بن معاذ الأنصاريّ فقال : يا رسول الله أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه و إن كان من إخواننا من بني الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك فقام سعد بن عبادة وهو سيّد الخزرج و كان قبل ذلك رجلا صالحا و لكن احتملته الحميّة فقال لسعد : كذبت لعمرالله ما تقتله ولاتقدر على قتله فقام اُسيد بن حضير و هو ابن عمّ سعد فقال لسعد بن عبادة : كذبت لنقتلنّه فإنّك منافق تجادل عن المنافقين فتثاور الحيّان : الأوس والخزرج حتّى همّوا أن يقتتلوا و رسول الله ﷺ قائم على المنبر فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتّى سكتوا و سكت .

فبكيت يومي ذلك فلا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم فأصبح أبواي عندي و قد بكيت ليلتين ويوما لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع وأبواي يظنّان أنّ البكاء فالق كبدي .

فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت عليّ امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ ثمّ جلس ولم يجلس عندي منذ قيل فيّ ما قيل قبلها و قد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء فتشهّد حين جلس ثمّ قال : أمّا بعد ياعائشة إنّه بلغني عنك كذا و كذافإ ن

كنت بريئة فسيبرؤك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله و توبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثمّ تاب تاب الله عليه .

فلمّا قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقالته قلص[1] دمعي حتّى ما اُحسّ منه قطرة فقلت لأبي : أجب عنّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . قال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلّى الله عليه و آله وسلّم فقلت لاُمّي : أجيبي عنّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . قالت : والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فقلت و أنا جارية حديثة السنّ لاأقرأ كثيرا من القرآن : إنّي و الله لقد علمت أنّكم سمعتم هذا الحديث حتّى استقرّ في أنفسكم و صدّقتم به فلئن قلت لكم : إنّي بريئة والله يعلم أنّي بريئة لاتصدّقوني ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنّي منه بريئة لتصدّقنّي ، والله لاأجد لي و لكم مثلا إلّا قول أبي يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون .

ثمّ تحوّلت فاضطجعت على فراشي وأنا حينئذ أعلم أنّي بريئة و أنّ الله مبرّئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظنّ أنّ الله منزل في شأني وحيا يتلى ، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلّم الله فيّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رؤيا يبرّئني الله بها .

قالت : فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مجلسه ولاخرج أحد من أهل البيت حتّى اُنزل عليه فأخذه ماكان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتّى أنّه ليتحدّر منه مثل الجمان من العرق و هو في يوم شات من ثقل القول الّذي اُنزل عليه فلمّا سري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سري عنه و هو يضحك فكان أوّل كلمة تكلّم بها أن قال : أبشري يا عائشة أمّا الله فقد برّأك فقالت اُمّي : قومي إليه فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلّا الله الّذي أنزل براءتي و أنزل الله : « إنّ الّذين جاؤا بالإفك عصبة منكم » العشر الآيات كلها .

فلمّا أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر ، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة

---

(١) قلص اجتمع وانقبض .

لقرابته منه و فقره : والله لا اُنفق على مسطح شيأً أبدا بعد الّذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله : « ولا يأتل اُولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا اُولي القربى والمساكين ـ إلى قوله ـ رحيم » قال أبو بكر : والله إنّي اُحبّ أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح النفقة الّتي كان ينفق عليه ، و قال : والله لا أنزعها منه أبدا .

قالت عائشة : فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسأل زينب ابنة جحش عن أمري فقال : يا زينب ماذا علمت أو رأيت ؟ فقالت : يا رسول الله أحمي سمعي و بصري ما علمت إلّا خيرا قالت : وهي الّتي كانت تساميني من أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فعصمها الله بالورع ، وطفقت اُختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك .

أقول : والرواية مرويّة بطرق اُخرى عن عائشة أيضا و عن عمر وابن عبّاس و أبي هريرة و أبي اليسر الأنصاريّ و اُمّ رومان اُمّ عائشة و غيرهم و فيها بعض الاختلاف .

و فيها أنّ الّذين جاؤا بالإفك عبدالله بن اُبيّ بن سلول و مسطح بن أثاثة و كان بدريّا من السابقين الأوّلين من المهاجرين ، وحسّان بن ثابت ، وحمنة اُخت زينب زوج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم .

و فيها أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم دعاهم بعد ما نزلت آيات الإفك فحدّهم جميعا غير أنّه حدّ عبدالله بن اُبيّ حدّين و إنّما حدّه حدّين لأنّه من قذف زوج النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلم كان عليه حدّان .

و في الروايات على تقاربها في سرد القصّة إشكال من وجوه :

أحدها أنّ المسلّم من سياقها أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان في ريب من أمر عائشة بعد تحقّق الإفك كما يدلّ عليه تغيّر حاله بالنسبة إليها في المعاملة باللطف أيّام اشتكائها وبعدها حتّى نزلت الآيات ، ويدلّ عليه قولها له حين نزلت الآيات وبشّرها به : بحمد الله لا بحمدك ، و في بعض الروايات أنّها قالت لأبيها و قد أرسله النبيّ صلّى الله عليه وآله و سلّم ليبشّرها بنزول العذر : بحمد الله لا بحمد صاحبك الّذي أرسلك ، تريد به النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، و في الرواية الاُخرى عنها : أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لمّا

وعظها أن تتوب إلى الله إن كان منها شيء و في الباب امرأة جالسة قالت له عائشة : أمّا تستحي من هذه المرأة أن تذكر شيأ ، ومن المعلوم أنّ هذا النوع من الخطاب المبنيّ على الإهانة والإزراء ما كان يصدر عنها لولا أنّها وجدت النبيّ في ريب من أمرها . كلّ ذلك مضافا إلى التصريح به في رواية عمر ففيها : « فكان في قلب النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ممّا قالوا » .

و بالجملة دلالة عامّة الروايات على كون النبيّ ﷺ في ريب من أمرها إلى نزول العذر ممّا لاريب فيه ، وهذا ممّا يجلّ عنه مقامه ﷺ كيف ؟ وهو سبحانه يقول : « لولا إذ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا و قالوا هذا إفك مبين » فيوبّخ المؤمنين والمؤمنات على إساءتهم الظنّ و عدم ردّهم ما سمعوه من الإفك فمن لوازم الإيمان حسن الظنّ بالمؤمنين ، والنبيّ ﷺ أحقّ من يتّصف بذلك ويتحرّز من سوء الظنّ الّذي من الإثم وله مقام النبوّة والعصمة الإلهيّة .

على أنّه تعالى ينصّ في كلامه على اتّصافه ﷺ بذلك إذ يقول : « ومنهم الّذين يؤذون النبيّ و يقولون هو اُذن قل اُذن خير لكم يؤمن بالله و يؤمن للمؤمنين و رحمة للّذين آمنوا منكم و الّذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » التوبة : ٦١ .

على أنّا نقول : إنّ تسرّب الفحشاء إلى أهل النبيّ ينفّر القلوب عنه فمن الواجب أن يطهّر الله سبحانه ساحة أزواج الأنبياء عن لوث الزنا والفحشاء و إلّا لغت الدعوة و نثبت بهذه الحجّة العقليّة عفّتهنّ واقعا لا ظاهرا فحسب ، والنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلم أعرف بهذه الحجّة منّا فكيف جاز له أن يرتاب في أمر أهله برمي من رامٍ أو شيوع من إفك .

و ثانيها أن الّذي تدلّ عليه الروايات أنّ حديث الإفك كان جاريا بين الناس منذ بدء به أصحاب الإفك إلى أن ختم بحدّهم أكثر من شهر وقد كان حكم القذف مع عدم قيام الشهادة معلوما و هو جلد القاذف و تبرئة المقذوف شرعا فما معنى توقّف النبيّ ﷺ عن حدّ أصحاب الإفك هذه المدّة الطويلة و انتظاره الوحي في أمرها حتّى يشيع بين الناس و تتلقّاه الألسن و تسير به الركبان و يتّسع الخرق

على الراتق؟ و ما أتى به الوحي من العذر لا يزيد على ما تعيّنه آية القذف من براءة المقذوف حكما شرعيّا ظاهريّا .

فإن قيل : الّذي نزل من العذر براءتها واقعا و طهارة ذيلها في نفس الأمر و هذا أمر لاتكفي له آية حدّ القاذف ، و لعلّ صبره صلى الله عليه وآله وسلم هذه المدّة الطويلة إنّما كان لأجله .

قلت : لا دلالة في شيء من هذه الآيات الستّ عشرة على ذلك ، وإنّما تثبت بالحجّة العقليّة السابقة الدالّة على طهارة بيوت الأنبياء من لوثة الفحشاء :

أمّا الآيات العشر الاُول الّتي فيها شائبة الاختصاص فأظهرها في الدلالة على براءتها قوله تعالى : « لولاجاؤا عليه بأربعة شهداء فإذلم يأتوا بالشهداء فاُولئك عندالله هم الكاذبون » وقد استدلّ فيها على كذبهم بعدم إتيانهم بالشهداء ، و من الواضح أنّ عدم إقامة الشهادة إنّما هودليل البراءة الظاهريّة أعني الحكم الشرعيّ بالبراءة دون البراءة الواقعيّة لوضوح عدم الملازمة .

وأمّاالآيات الستّ الأخيرة فقوله: « الطيّبات للطيّبين و الطيّبون للطيّبات» الخ عامّ من غيرمخصّص من جهة اللفظ فالّذي تثبته من البراءة مشترك فيه بين جميع المقذوفين من غير قيام بيّنة من المؤمنين و المؤمنات ، و من الواضح أنّ البراءة المناسبة لهذا المعنى هي البراءة الشرعيّة .

والحقّ أن لامناص عن هذا الإشكال إلّا بالقول بأنّ آية القذف لم تكن نازلة قبل حديث الإفك و إنّما نزلت بعده ، و إنّما كان سبب توقّفه صلى الله عليه وآله وسلم خلوّ الواقعة عن حكم الله بعد فكان ينتظر في أمر الإفك الحكم السماويّ .

و من أوضح الدليل عليه ما في الرواية من استعذار النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من القاذف في المسجد و قول سعد بن معاذ ماقال ومجادلة سعدبن عبادة إيّاه واختلاف الأوس والخزرج بمحضر من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و في رواية عمر بعد ما ذكر اختلاف ابن معاذ وابن عبادة : فقال هذا : ياللأوس وقال هذا : ياللخزرج فاضطربوا بالنعال والحجارة فتلاطموا ، الحديث فلوكانت آية القذف نازلة قبل ذلك وحكم الحدّ معلوما لم يجب

سعدبن‌معاذالنبي ﷺ بأنّه يعذره منه بالقتل ولقال هو وسائر الناس : يا رسول‌الله حكم‌القذف معلوم ويدك مبسوطة .

و ثالثها أنّها تصرّح بكون أصحاب الإفك هم عبدالله بن اُبيّ و مسطحا و حسّانا و حمنة ثمّ تذكر أنّه ﷺ حدّ عبدالله بن اُبيّ حدّين و كلّاً من مسطح و حسّان وحمنة حدّا واحدا ، ثمّ تعلّل حدّي عبدالله بن‌اُبيّ بأنّ من قذف أزواج النبيّ ﷺ فعليه حدّان ، و هذا تناقض صريح فإنّهم جميعا كانوا قاذفين بلا فرق بينهم .

نعم تذكر الروايات أنّ عبدالله بن‌اُبيّ كان هو الّذي تولّى كبره منهم لكن لم يقل أحد من الاُمّة أنّ هذا الوصف يوجب حدّين . ولا أنّ المراد بالعذاب العظيم في قوله : « الّذي تولّى كبره منهم له عذاب عظيم » هو ثبوت حدّين .

و في تفسيرالقمّيّ في قوله تعالى : « إنّ الّذين جاؤا بالإفك عصبة منكم » الآية فإنّ العامّة روت أنّها نزلت في عائشة و ما رميت به في غزوة بني المصطلق من خزاعة ، و أمّا الخاصّة فإنّهم رووا أنّها نزلت في مارية القبطيّة و ما رمتها به عائشة .

حدّثنا محمّد بن جعفر قال : حدّثنا محمّد بن عيسى عن الحسن بن عليّ بن‌فضّال قال : حدّثني عبدالله بن‌بكيرعن زرارة قال : سمعت أباجعفر عليه السلام يقول : لمّا هلك إبراهيم بن رسول‌الله ﷺ حزن عليه حزنا شديدا فقالت عائشة : ما الّذي‌يحزنك عليه ؟ ماهو إلّاابن جريح ، فبعث رسول الله ﷺ عليّا عليه السلام و أمره بقتله .

فذهب عليّ عليه السلام و معه السيف و كان جريح القبطيّ في حائط فضرب عليّ عليه‌السلام باب البستان فأقبل جريح له ليفتح الباب فلمّا رأى عليّا عليه السلام عرف في وجهه الغضب فأدبر راجعا و لم يفتح باب البستان فوثب عليّ عليه السلام على الحائط و نزل إلى البستان و اتّبعه و ولّى جريح مدبرا فلمّا خشي أن يرهقه (١) صعد في نخلة و صعد عليّ عليه السلام في أثره‌فلمّا دنامنه رمى بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته

(١) أرهقه : أدركه .

فإذا ليس له ما للرجال ولاله ما للنساء .

فانصرف علي عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له : يا رسول الله إذا بعثتني في الأمر أكون كالمسمار المحمي في الوبر أم أثبت ؟ قال : لابل تثبت . قال : والذي بعثك بالحق ماله ماللرجال وماله ماللنساء فقال : الحمد لله الذي صرف عنا السوء أهل البيت .

و فيه في رواية عبيدالله بن موسى عن أحمد بن راشد عن مروان بن مسلم عن عبدالله بن بكير قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : جعلت فداك كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر بقتل القبطي و قدعلم أنها كذبت عليه أولم يعلم ؟ و قد دفع الله عن القبطي القتل بتثبيت علي عليه السلام فقال : بل كان والله علم ، ولوكانت عزيمة من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ما انصرف علي عليه السلام حتى يقتله ، ولكن إنما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لترجع عن ذنبها فما رجعت ولااشتد عليها قتل رجل مسلم .

أقول : و هناك روايات أخر تدل على مشاركة غيرها معها في هذا الرمي ، و جريح هذا كان خادما خصيا لمارية أهداه معها مقوقس عظيم مصر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و أرسله معها ليخدمها .

و هذه الروايات لاتخلو من نظر :

أما أولا فلأن مافيها من القصة لايقبل الانطباق على الآيات ولاسيما قوله : «إن الذين جاؤا بالإفك» الآية و قوله : «لولا إذسمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا» الآية ، و قوله : «إذ تلقونه بألسنتكم و تقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم» الآية فمحصل الآيات أنه كان هناك جماعة مرتبط بعضهم ببعض يذيعون الحديث ليفضحوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، و كان الناس يتداولونه لسانا عن لسان حتى شاع بينهم ومكثوا على ذلك زمانا وهم لايراعون حرمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم و كرامته من الله ، و أين مضمون هذه الروايات من ذلك .

اللهم إلا أن تكون الروايات قاصرة في شرحها للقصة .

و أما ثانيا فقد كان مقتضى القصة و ظهور براءتها إجراء الحد و لم يجر ،

ولامناص عن هذه الإشكال إلّا بالقول بنزول آية القذف بعد قصّة الإفك بزمان.

والّذي ينبغي أن يقال بالنظر إلى إشكال الحدّ الوارد على الصنفين من الروايات جميعا - كما عرفت - أنّ آيات الإفك نزلت قبل آية حدّ القذف، ولم يشرّع بنزول آيات الإفك إلاّ براءة المقذوف مع عدم قيام الشهادة وتحريم القذف.

ولو كان حدّ القاذف مشروعا قبل حديث الإفك لم يكن هناك مجوّز لتأخيره مدّة معتدّا بها و انتظار الوحي، و لانجامنه قاذف منهم، ولو كان مشروعا مع نزول آيات الإفك لأشير فيها إليه، ولأقلّ باتّصال الآيات بآية القذف، والعارف بأساليب الكلام لايرتاب في أنّ قوله: «إنّ الّذين جاؤا بالإفك» الآيات منقطعة عمّا قبلها.

ولو كان على من قذف أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حدّ لأشير إلى ذلك في خلال آيات الإفك بما فيها من التشديد واللعن والتهديد بالعذاب على القاذفين.

و يتأكّد الإشكال على تقدير نزول آية القذف مع نزول آيات الإفك فإنّ لازمه أن يقع الابتلاء بحكم الحدّين فينزل حكم الحدّ الواحد.

و في الكافي عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابه عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته اُذناه فهو من الّذين قال الله عزّ وجلّ: «إنّ الّذين يحبّون - إلى قوله - والآخرة».

أقول: و رواه القمّي في تفسيره عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام عنه عليه السلام والصدوق في الأمالي بإسناده عن ابن أبي عمير عن محمّد بن حمران عنه عليه السلام، والمفيد في الاختصاص عنه عليه السلام مرسلا.

و فيه بإسناده عن إسحاق بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: من أذاع فاحشة كان كمبتدئها.

و في المجمع قيل: إنّ قوله: «ولايأتل اُولوا الفضل منكم والسعة» الآية نزلت في أبي بكر ومسطح بن أثاثة و كان ابن خالة أبي بكر، و كان من المهاجرين و من جملة البدريّين و كان فقيرا، وكان أبو بكر يجري عليه و يقوم بنفقته فلمّا

خاض في الإفك قطعها و حلف أن لاينفعه بنفع أبدا فلمّا نزلت الآية عاد أبوبكر إلى ما كان ، وقال : والله إنّي لاُحبّ أن يغفرالله لي ، والله لاأنزعها عنه أبدا عن ابن عبّاس و عائشة وابن زيد .

و فيه و قيل : نزلت في جماعة من الصحابة أقسموا على أن لايتصدّقوا على رجل تكلّم بشيء من الإفك ولا يواسوهم عن ابن عبّاس و غيره .

أقول : و رواه في الدرّ المنثور عن ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عبّاس .

و في تفسير القمّي وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « ولا يأتل اُولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا اُولي القربى » وهم قرابة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم « والمساكين و المهاجرين في سبيل الله وليعفوا و ليصفحوا » يقول : يعفو بعضكم عن بعض ، ويصفح بعضكم بعضا فإذا فعلتم كانت رحمة الله لكم يقول الله عزّ وجلّ : « ألاتحبّون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » .

في الكافي بإسناده عن محمّد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : ونزل بالمدينة « والّذين يرمون المحصنات ثمّ لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولاتقبلوا لهم شهادة أبدا واُولئك هم الفاسقون إلّا الّذين تابوا من بعد ذلك و أصلحوا فإنّ الله غفور رحيم » .

فبرّأه الله ماكان مقيما على الفرية من أن يسمّى بالإيمان قال الله عزّوجلّ : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستون » و جعله من أولياء إبليس قال : « إلّا إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه » وجعله ملعونا فقال : « إنّ الّذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا و الآخرة ولهم عذاب أليم يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم و أرجلهم بماكانوا يعملون » .

وليست تشهد الجوارح على مؤمن إنّما تشهد على من حقّت عليه كلمة العذاب فأمّا المؤمن فيعطى كتابه بيمينه قال الله عزّ وجلّ : « فأمّا من اُوتي كتابه بيمينه فاُولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا » .

و في المجمع في قوله تعالى : « الخبيثات للخبيثين و الخبيثون للخبيثات

والطيّبات للطيّبين والطيّبون للطيّبات » الآية قيل في معناه أقوال ـ إلى أن قال ـ الثالث الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال و الخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ـ عن أبي مسلم والجبائيّ وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام . قالا : هي مثل قوله : « الزاني لاينكح إلّا زانية أو مشركة » إلّا أنّ اُناساهمّوا أن يتزوّجوا منهنّ فنهاهم الله عن ذلك و كره ذلك لهم .

و في الخصال عن عبدالله بن عمر وأبي هريرة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا طاب قلب المرء طاب جسده ، و إذا خبث القلب خبث الجسد .

و في الاحتجاج عن الحسن بن عليّ عليه السلام في حديث له مع معاوية و أصحابه و قدنالوا من عليّ عليه السلام : « الخبيثات للخبيثين و الخبيثون للخبيثات » هم والله يا معاوية أنت و أصحابك هؤلاء و شيعتك « و الطيّبات للطيّبين والطيّبون للطيّبات » إلى آخر الآية هم عليّ بن أبي طالب وأصحابه وشيعته .



✡ ✡ ✡

يا ايها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستانسوا وتسلموا
على اهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون (٢٧) فان لم تجدوا فيها احدا
فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم و ان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو ازكى لكم
والله بما تعملون عليم (٢٨) ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة
فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون و ما تكتمون (٢٩) قل للمؤمنين يغضوا
من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك ازكى لهم ان الله خبير بما يصنعون (٣٠)
وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن
الا ما ظهر منها و ليضربن بخمرهن على جيوبهن و لا يبدين زينتهن الا
لبعولتهن اوآبائهن اوآباء بعولتهن اوابنائهن اوابناء بعولتهن اواخوانهن
او بني اخوانهن او بني اخواتهن اونسائهن او ما ملكت ايمانهن او التابعين
غير اولي الاربة من الرجال او الطفل الذين لم يظهروا على عورات
النساء ولا يضربن بارجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن و توبوا الى الله
جميعا ايه المؤمنون لعلكم تفلحون (٣١) وانكحوا الايامى منكم والصالحين
من عبادكم و امائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع

عَلِيمٌ (٣٢) وَ لْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيكُمْ وَ لَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيوٰةِ الدُّنْيَا وَ مَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣) وَ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَ مَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٣٤) .

﴿ بيان ﴾

أحكام و شرائع متناسبة و مناسبة لمّا تقدّم .

قوله تعالى : « ياأيّها الّذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتّى تستأنسوا و تسلّموا على أهلها » الخ الاُنس بالشيء و إليه الاُلفة و سكون القلب إليه ، والاستيناس طلب ذلك بفعل يؤدّي إليه كالاستيناس لدخول بيت بذكر الله والتنحنح و نحو ذلك ليتنبّه صاحب البيت أنّ هناك من يريد الدخول عليه فيستعدّ لذلك فربّما كان في حال لايحبّ أن يراه عليها أحد أو يطّلع عليها مطّلع .

و منه يظهر أنّ مصلحة هذا الحكم هو الستر على عورات الناس و التحفّظ على كرامة الإيمان فإذا استأنس الداخل عند إرادة الدخول على بيت غير بيته فأخبر باستيناسه صاحب البيت بدخوله ثمّ دخل فسلّم عليه فقد أعانه على ستر عورته . و أعطاه الأمن من نفسه .

و يؤدّي الاستمرار على هذه السيرة الجميلة إلى استحكام الاُخوّة والاُلفة والتعاون العامّ على إظهار الجميل والستر على القبيح و إليه الإشارة بقوله : « ذلكم خير لكم لعلّكم تذكّرون » أي لعلّكم بالاستمرار على هذه السيرة تتذكّرون مايجب

عليكم رعايته و إحياؤه من سنّة الأخوّة و تألّف القلوب الّتي تحتها كلّ سعادة اجتماعيّة .

و قيل : إنّ قوله : « لعلّكم تذكّرون » تعليل لمحذوف والتقدير قيل لكم كذا لعلّكم تتذكّرون مواعظ الله فتعملوا بموجبها . ولا بأس به .

و قيل : إنّ في قوله : « حتّى تستأنسوا و تسلّموا » تقديما و تأخيرا والأصل حتّى تسلّموا و تستأنسوا . وهو كما ترى .

قوله تعالى : « فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتّى يؤذن لكم » الخ أي إن علمتم بعدم وجود أحد فيها ـ و هو الّذي يملك الإذن ـ فلا تدخلوها حتّى يؤذن لكم من قبل من يملك الإذن ، وليس المراد به أن يتطلّع على البيت وينظر فيه فإن لم يرفيه أحدا كفّ عن الدخول فإنّ السياق يشهد على أنّ المنع في الحقيقة عن النظر والاطّلاع على عورات الناس .

و هذه الآية تبيّن حكم دخول بيت الغير وليس فيه من يملك الإذن ، والآية السابقة تبيّن حكم الدخول و فيه من يملك الإذن ولايمنع ، وأمّا دخوله و فيه من يملك الإذن ويمنع ولايأذن فيه فيبيّن حكمه قوله تعالى : « و إن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ».

قوله تعالى : « ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم » الخ ظاهر السياق كون قوله : « فيها متاع لكم » صفة بعد صفة لقوله : « بيوتا » لا جملة مستأنفة معلّلة لقوله : « ليس عليكم جناح » ، و الظاهر أنّ المتاع بمعنى الاستمتاع .

ففيه تجويز الدخول في بيوت معدّة لأنواع الاستمتاع و هي غير مسكونة بالطبع كالخانات و الحمّامات و الأرحية و نحوها فإنّ كونها موضوعة للاستمتاع إذن عامّ في دخولها .

وربّما قيل : إنّ المراد بالمتاع المعنى الاسميّ وهو الأثاث و الأشياء الموضوعة للبيع والشرى كما في بيوت التجارة والحوانيت فإنّها مأذونة في دخولها إذنا عامّا

و لايخلو من بعد لقصور اللفظ .

قوله تعالى : « قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم و يحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إنّ الله خبير بما يصنعون » الغضّ إطباق الجفن على الجفن ، والأبصار جمع بصر و هو العضو الناظر ، ومن هنا يظهر أنّ « من » في « من أبصارهم » لابتداء الغاية لا مزيدة ولا للجنس ولا للتبعيض كما قال بكلّ قائل ، والمعنى يأتوا بالغضّ آخذا من أبصارهم .

فقوله : « قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم » لمّا كان «يغضّوا» مترتّبا على قوله : « قل » ترتّب جواب الشرط عليه دلّ ذلك على كون القول بمعنى الأمر و المعنى مرهم يغضّوا من أبصارهم و التقدير مرهم بالغضّ إنّك إن تأمرهم به يغضّوا ، والآية أمر بغضّ الأبصار و إن شئت فقل : نهي عن النظر إلى مالا يحلّ النظر إليه من الأجنبيّ والأجنبيّة لمكان الإطلاق .

وقوله : «ويحفظوا فروجهم » أي مرهم يحفظوا فروجهم ، والفرجة والفرج الشقّ بين الشيئين ، و كنّي به عن السوأة ، وعلى ذلك جرى استعمال القرآن المليء أدبا و خلقا ثمّ كثر استعماله فيها حتّى صار كالنصّ كما ذكره الراغب .

والمقابلة بين قوله : « يغضّوا من أبصارهم » و « يحفظوا فروجهم » يعطي أنّ المراد بحفظ الفروج سترها عن النظر لاحفظها عن الزنا واللواطة كما قيل ، و قد ورد في الرواية عن الصادق عليه السلام أنّ كلّ آية في القرآن في حفظ الفروج فهي من الزنا إلّا هذه الآية فهي من النظر .

و على هذا يمكن أن تتقيّد اُولى الجملتين بثانيتهما و يكون مدلول الآية هو النهي عن النظر إلى الفروج والأمر بسترها .

ثمّ أشار إلى وجه المصلحة في الحكم وحثّهم على المراقبة في جنبه بقوله : « ذلك أزكى لهم إنّ الله خبير بما يصنعون » .

قوله تعالى : « و قل للمؤمنات يغضضن الخ الكلام في قوله : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن » نظير ما مرّ في قوله : « قل للمؤمنين يغضّوا

من أبصارهم و يحفظوا فروجهم» فلا يجوزلهن النظر إلى ما يجوز النظر إليه ويجب عليهن ستر العورة عن الأجنبي والأجنبية .

و أمّا قوله : «ولايبدين زينتهن إلاّ ما ظهر منها » فالإبداء الإظهار ، والمراد بزينتهن مواضع الزينة لأن نفس مايتزين به كالقرط والسوار لا يحرم إبداؤها فالمراد بإبداءالزينة إبداء مواضعها من البدن .

و قد استثنى الله سبحانه منها ما ظهر ، و قدوردت الرواية أن المراد بما ظهر منها الوجه والكفّان والقدمان كما سيجيء إن شاءالله .

و قوله : « و ليضربن بخمرهن على جيوبهن » الخمر بضمتين جمع خمار و هو ما تغطي به المرأة رأسها و ينسدل على صدرها ، والجيوب جمع جيب بالفتح فالسكون وهومعروف والمراد بالجيوب الصدور ، والمعنى وليلقين بأطراف مقانعهن على صدورهن ليسترنها بها .

و قوله : « ولايبدين زينتهن إلاّ لبعولتهن ـ إلى قوله ـ أوبني أخواتهن » البعولة هم أزواجهن ، والطوائف السبع الأُخر محارمهن من جهة النسب والسبب ، و أجداد البعولة حكمهم حكم آبائهم و أبناء أبناء البعولة حكمهم حكم الأبناء .

و قوله : « أونسائهن » في الاضافة إشارة إلى أن المراد بهن المؤمنات من النساء فلا يجوز لهن التجرد لغيرهن من النساء و قد وردت به الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام .

و قوله : « أو ما ملكت أيمانهن » إطلاقه يشمل العبيد والإماء ، وقد وردت به الرواية كما سيأتي إن شاء الله ، و هذا من موارد استعمال «ما» في أُولي العقل .

و قوله : « أوالتابعين غير أُولي الإربة من الرجال » الإربة هي الحاجة ، والمراد به الشهوة الّتي تحوج إلى الازدواج ، و «من الرجال» بيان للتابعين ، والمراد بهم كما تفسره الروايات البله المولّى عليهم من الرجال ولا شهوة لهم .

و قوله : « أوالطفل الّذين لم يظهروا على عورات النساء » أي جماعة الأطفال - واللاّم للاستغراق - الّذين لم يقووا ولم يظهروا - من الظهور بمعنى الغلبة - على

أُمور يسوء التصريح بها من النساء ، و هو - كما قيل - كناية عن البلوغ .

و قوله : « و لا يضربن بأرجلهنّ ليعلم ما يخفين من زينتهنّ » ذلك بتصوّت أسباب الزينة كالخلخال والعقد و القرط والسوار .

و قوله : « وتوبوا إلى الله جميعا أيّها المؤمنون لعلّكم تفلحون » المراد بالتوبة - على ما يعطيه السياق - الرجوع إليه تعالى بامتثال أوامره و الانتهاء عن نواهيه و بالجملة اتّباع سبيله .

قوله تعالى : « و أنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم و إمائكم » الإنكاح التزويج ، و الأيامى جمع أيّم بفتح الهمزة و كسر الياء المشدّدة و هو الذكر الّذي لا اُنثى معه والاُنثى الّتي لا ذكر معها وقد يقال في المرأة أيّمة ، والمراد بالصالحين الصالحون للتزويج لا الصالحون في الأعمال .

و قوله : « إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » وعد جميل بالغنى وسعة الرزق و قد أكّده بقوله : « والله واسع عليم » والرزق يتبع صلاحية المرزوق بمشيّة من الله سبحانه ، و سيوافيك إن شاء الله في تفسير قوله تعالى : « فوربّ السماء والأرض إنّه لحقّ مثل ما أنّكم تنطقون » الذاريات : ٢٣ كلام في معنى سعة الرزق .

قوله تعالى : « و ليستعفف الّذين لا يجدون نكاحا حتّى يغنيهم الله من فضله » الاستعفاف والتعفّف قريبا المعنى ، والمراد بعدم وجدان النكاح عدم القدرة على المهر والنفقة ، ومعنى الآية الأمر بالتعفّف لمن لا يقدر على النكاح والتحرّز عن الوقوع في الزنا حتّى يغنيه الله من فضله .

قوله تعالى : « والّذين يبتغون الكتاب ممّا ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا » الخ المراد بالكتاب المكاتبة ، وابتغاء المكاتبة أن يسأل العبد مولاه أن يكاتبه على إيتائه المولى مالا على أن يعتقه ، وفي الآية أمر للموالي بإجابتهم إن علموا فيهم خيرا و هو كناية عن إحراز صلاحيتهم لذلك .

و قوله : « و آتوهم من مال الله الّذي آتاكم » إشارة إلى إيتائهم مال المكاتبة من الزكاة المفروضة فسهم من سهام الزكاة لهم كما قال تعالى : « و في الرقاب »

النوبة : ٦٠ أو إسقاط شيء من مال المكاتبة .

و في هذه الآية والآيات السابقة مباحث فقهيّة جمّة ينبغي أن يراجع فيها كتب الفقه .

قوله تعالى : « ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصّنا » الفتيات الإماء والولائد ، والبغاء الزنا وهومفاعلة من البغي ، والتحصّن التعفّف والازدواج و ابتغاء عرض الحياة الدنيا طلب المال ، والمعنى ظاهر .

و إنّما اشترط النهي عن الإكراه بإرادة التحصّن لأنّ الإكراه لايتحقّق فيمن لا يريد التحصّن ، ثمّ وعدهنّ المغفرة على تقدير الإكراه بقوله : « ومن يكرههنّ فإنّ الله من بعد إكراههنّ غفور رحيم » و معناه ظاهر .

قوله تعالى : « ولقد أنزلنا إليكم آيات مبيّنات و مثلا من الّذين خلوا من قبلكم و موعظة للمتّقين » المثل الصفة ، و من الممكن أن يكون قوله : « ولقد أنزلنا » الخ حالا من فاعل قوله : « توبوا » في الآية السابقة أو استينافا والمعنى واُقسم لقد أنزلنا إليكم آيات تبيّن لكم من معارف الدين ماتفلحون به ، وصفة من السابقين أخيارهم و أشرارهم يتميّز بها لكم ماينبغي أن تأخذوا به ممّا ينبغي لكم أن تجتنبوا ، وموعظة للمتّقين منكم .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي بإسناده عن عبدالرحمان بن أبي عبدالله عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : « لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتّى تستأنسوا و تسلّموا على أهلها » قال : الاستيناس وقع النعل والتسليم .

أقول : و رواه الصدوق في معاني الأخبار عن محمد بن الحسن مرفوعا عن عبدالرحمان عنه عليه السلام .

و في المجمع عن أبي أيّوب الأنصاريّ قال : قلنا : يارسول الله ما الاستيناس ؟ قال : يتكلّم الرجل بالتسبيحة والتحميدة والتكبيرة و يتنحنح على أهل البيت .

و عن سهل بن سعد قال : اطّلع رجل في حجرة من حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه مدرى [1] يحكّ رأسه : لوأعلم أنّك تنظر لطعنت به في عينيك إنّما الاستيذان من النظر .

و روي أنّ رجلا قال للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : أستأذن على اُمّي ؟ فقال : نعم . قال : إنّها ليس لها خادم غيري أفأستأذن عليها كلّما دخلت ؟ قال : أتحبّ أن تراها عريانة ؟ قال الرجل : لا ، قال : فاستأذن عليها .

و روي أنّ رجلا استأذن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتنحنح فقال صلى الله عليه وآله وسلم لا مرأة يقال لها : روضة : قومي إلى هذا فعلّميه و قولي له : قل : السلام عليكم أأدخل ؟ فسمعها الرجل فقالها فقال : ادخل .

أقول : و روى في الدرّ المنثور عن جمع من أصحاب الجوامع الرواية الاُولى عن أبي أيّوب ، والثانية عن سهل بن سعد والرابعة عن عمرو بن سعد الثقفيّ .

و في الدّرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن الاستيذان في البيوت فقال : من دخلت عينه قبل أن يستأذن و يسلّم فقد عصى الله ولا إذن له .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : « فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتّى يؤذن لكم » قال : معناه و إن لم تجدوا فيها أحدا يأذن لكم فلا تدخلوها حتّى يؤذن لكم .

و فيه في قوله تعالى : « ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيهامتاع لكم » قال الصادق عليه السلام : هي الحمّامات و الخانات والأرحية تدخلها بغير إذن .

و في الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزبيريّ عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث يذكر فيه ما فرض الله على الجوارح . قال : وفرض على البصر أن لاينظر إلى ما

---

(١) المشط .

حرّم الله عليه ، و أن يعرض عمّا نهى الله عنه ممّا لا يحلّ له و هو عمله و هو من الايمان .

فقال تبارك و تعالى : « قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم و يحفظوا فروجهم» فنهاهم أن ينظروا إلى عوراتهم و أن ينظر المرء إلى فرج أخيه ، و يحفظ فرجه أن ينظر إليه ، وقال : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهنّ و يحفظن فروجهن» من أن تنظر إحداهنّ إلى فرج اُختها و تحفظ فرجها من أن ينظر إليه .

و قال : كلّ شيء في القرآن من حفظ الفرج فهو من الزنا إلاّ هذه الآية فهو من النظر .

اقول : و روى القمّي في تفسيره ذيل الحديث عن أبيه عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عنه عليه‌السلام ، و روي مثله عن أبي العالية و ابن زيد .

و في الكافي باسناده عن سعد الاسكاف عن أبي جعفر عليه‌السلام قال : استقبل شابّ من الأنصار امرأة بالمدينة و كان النساء يتقنّعن خلف آذانهنّ فنظر إليها وهي مقبلة فلمّا جازت نظر إليها و دخل في زقاق قد سمّاه ببني فلان ، و جعل ينظر خلفها و اعترض وجهه عظم في الحائط أو زجاجة فشقّ وجهه فلمّا مضت المرأة نظر فاذا الدماء تسيل على ثوبه و صدره فقال : والله لآتينّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ولاُخبرنّه .

قال : فأتاه فلمّا رآه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال له : ما هذا ؟ فأخبره فهبط جبرئيل بهذه الآية « قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إنّ الله خبير بما يصنعون » .

أقول : و رواه في الدرّ المنثور عن ابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب مثله ، و ظاهر الحديث أنّ المراد بالأمر بالغضّ في الآية النهي عن مطلق النظر إلى الأجنبيّة كما أنّ ظاهر بعض الروايات السابقة أنّه نهي عن النظر إلى فرج الغير خاصّة .

و فيه باسناده عن مروك بن عبيد عن بعض أصحابنا عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال : قلت له : ما يحلّ أن يرى من المرأة إذا لم يكن محرما ؟ قال : الوجه والكفّان

والقدمان .

اقول : و رواه في الخصال عن بعض أصحابنا عنه عليه السلام و لفظه : الوجه والكفين والقدمين .

وفي قرب الأسناد للحميري عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام قال : سألته عن الرجل ما يصلح له أن ينظر إليه من المرأة الّتي لا تحل له ؟ قال: الوجه والكف و موضع السوار .

و في الكافي بإسناده عن عباد بن صهيب قال : سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول : لابأس بالنظر إلى رؤس أهل تهامة والأعراب و أهل السواد و العلوج لأنّهم [1] إذا نهوا لاينتهون .

قال : والمجنونة والمغلوبة على عقلها ، ولا بأس بالنظر إلى شعرها وجسدها مالم يتعمد ذلك .

أقول : كأنّه عليه السلام يريد بقوله : ما لم يتعمد ذلك ، الريبة .

و في الخصال وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأمير المؤمنين عليه السلام : يا علي أوّل نظرة لك والثانية عليك لالك .

أقول : و روى مثله في الدر المنثور عن عدة من أصحاب الجوامع عن بريدة عنه صلى الله عليه وآله وسلم و لفظه : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي : لاتتبع النظرة النظرة فإن لك الاُولى وليست لك الآخرة .

و في جوامع الجامع عن اُم سلمة قالت : كنت عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم و عنده ميمونة فأقبل ابن اُم مكتوم و ذلك بعد أن أمرنا بالحجاب فقال : احتجبا فقلنا : يا رسول الله أليس أعمى لا يبصرنا ؟ فقال : أفعمياوان أنتما ؟ ألستما تبصرانه ؟

أقول : ورواه في الدر المنثور عن أبي داود والترمذي والنسائي والبيهقي عنها .

و في الفقيه و روى حفص بن البختري عن أبي عبدالله عليه السلام قال : لاينبغي

---

(١) رعاية التذكير لاعتبار الاهل والقوم فى مرجع الضمير ، و كان الظاهر أن يقال : لانهن اذا نهين لاينتهين .

للمرأة أن تنكشف بين يدي اليهوديّة والنصرانيّة فإنّهنّ يصفن ذلك لأزواجهنّ .

و في المجمع في قوله تعالى : « أوما ملكت أيمانهنّ » و قيل : معناه العبيد والإماء و روي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام .

و في الكافي بإسناده عن عبدالرحمان بن أبي عبدالله قال : سألته عن [غير] اُولي الإربة من الرجال . قال : الأحمق المولّى عليه الّذي لا يأتي النساء .

و فيه بإسناده عن محمّد بن جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال : قال رسول الله صلّى الله عليه و آله وسلّم : من ترك التزويج مخافة العيلة فقد أساء ظنّه بالله عزّ وجلّ إنّ الله يقول « إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » .

أقول : و في المعاني السابقة روايات كثيرة جدّاً عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام من أرادها فليراجع كتب الحديث .

و في الفقيه روى العلاء عن محمّد بن مسلم عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : « فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا » قال : الخير أن يشهد أن لا إله إلّا الله و أنّ محمّداً رسول الله ، و يكون بيده عمل يكتسب به أو يكون له حرفة .

أقول : و في معناه روايات اُخر .

و في الكافي بإسناده عن العلاء بن فضيل عن أبي عبدالله عليه السلام قال في قوله عزّ وجلّ : « فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا و آتوهم من مال الله الّذي آتاكم » قال : تضع عنه من نجومه الّتي لم تكن تريد أن تنقصه ، ولا تزيد فوق ما في نفسك . فقلت : كم ؟ فقال : وضع أبوجعفر عليه السلام عن مملوك ألفا من ستّة آلاف .

أقول : و روى في مجمع البيان و كذا في الدرّ المنثور عن عليّ عليه السلام ربع المال ، و المستفاد من ظواهر الأخبار عدم تعيّن مقدار معيّن ذي نسبة .

وقد تقدّمت في ذيل قوله : « وفي الرقاب » التوبة : ٦٠ الجزء التاسع من الكتاب رواية العيّاشي أنّ المكاتب يؤتى من سهم الرقاب من الزكاة .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصّنا » قال : كانت العرب و قريش يشترون الإماء و يضعون عليهنّ الضريبة

الثقيلة و يقولون : اذهبن وازنين واكتسبن فنهاهم الله عن ذلك فقال : «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ـ إلى قوله غفور رحيم » أي لا يؤاخذهنّ الله تعالى بذلك إذا اُكرهن عليه .

و في المجمع في قوله تعالى : « لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » قيل : إنّ عبدالله بن اُبي كانت له ستّ جوار يكرههنّ على الكسب بالزنا ، فلمّا نزل تحريم الزنا أتين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فشكون إليه فنزلت الآية .

أقول : أمّا أنّه كان له من الجواري من يكرههنّ على الزنا فقد وردت فيه روايات رواها في الدرّ المنثور كما روى هذه الرواية . وأمّا كون ذلك بعد نزول تحريم الزنا فيضعّفه أنّ الزنا لم يحرّم في المدينة بل في مكّة قبل الهجرة بل كانت حرمته من ضروريّات الإسلام منذ ظهرت الدعوة الحقّة ، وقد تقدّم في تفسير سورة الأنعام أنّ حرمة الفواحش ومنها الزنا من الأحكام العامّة الّتي لا تختصّ بشريعة دون شريعة .

☆ ☆ ☆

اللّٰه نور السموات والارض مثل نوره كمشكوة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كانها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولولم تمسسه نار نور على نور يهدى اللّٰه لنوره من يشاء و يضرب اللّٰه الامثال للناس واللّٰه بكل شيء عليم (٣٥) في بيوت اذن اللّٰه ان ترفع و يذكرفيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والاصال(٣٦) رجال لا تلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر اللّٰه و اقام الصلوة وايتاء الزكوة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار (٣٧) ليجزيهم اللّٰه احسن ماعملوا و يزيدهم من فضله واللّٰه يرزق من يشاء بغير حساب (٣٨) والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء حتى اذا جائه لم يجده شيئا و وجد اللّٰه عنده فوفيه حسابه واللّٰه سريع الحساب (٣٩) او كظلمات في بحر لجي يغشيه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها و من لم يجعل اللّٰه له نورا فما له من نور (٤٠) الم تر ان اللّٰه يسبح له من في السموات و الارض والطير صافات كل قد علم صلوته و تسبيحه واللّٰه عليم بما يفعلون (٤١) و للّٰه ملك السموات و الارض و الى اللّٰه

الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) .

﴿ بيان ﴾

تتضمّن الآيات مقايسة بين المؤمنين بحقيقة الإيمان والكفّار ، تميّز المؤمنين منهم بأنّ المؤمنين مهديّون بأعمالهم الصالحة إلى نور من ربّهم يفيدهم معرفة الله سبحانه و يسلك بهم إلى أحسن الجزاء والفضل من الله تعالى يوم ينكشف عن قلوبهم و أبصارهم الغطاء ، والكفّار لاتسلك بهم أعمالهم إلّا إلى سراب لاحقيقة له ، وهم في ظلمات بعضها فوق بعض ولم يجعل الله لهم نوراً فمالهم من نور .

و قد بيّن سبحانه هذه الحقيقة بأنّ له تعالى نوراً عامّا تستنير به السماوات والأرض فتظهر به في الوجود بعد ما لم تكن ظاهرة فيه فمن البيّن أنّ ظهور شيء بشيء يستدعي كون المظهر ظاهرا بنفسه والظاهر بذاته المظهر لغيره هو النور فهو تعالى نور يظهر السماوات والأرض بإشراقه عليها كما أنّ الأنوار الحسّيّة تظهر الأجسام الكثيفة للحسّ بإشراقها عليها غير أنّ ظهور الأشياء بالنور الإلهي عين وجودها و ظهور الأجسام الكثيفة بالأنوار الحسّيّة غير أصل وجودها .

و نورا خاصّا يستنير به المؤمنون و يهتدون إليه بأعمالهم الصالحة و هو نور

المعرفة الّذي سيستنير به قلوبهم وأبصارهم يوم تتقلّب فيه القلوب والأبصار فيهتدون به إلى سعادتهم الخالدة فيشاهدون فيه شهود عيان ما كان في غيب عنهم في الدنيا ، ومثّل تعالى هذا النور بمصباح في زجاجة في مشكاة يشتعل من زيت في نهاية الصفاء فتتلألأ الزجاجة كأنّها كوكب درّيّ فتزيد نورا على نور ، والمصباح موضوع في بيوت العبادة الّتي يسبّح الله فيها رجال من المؤمنين لاتلهيهم عن ذكر ربّهم وعبادته تجارة ولابيع .

فهذه صفة ما أكرم الله به المؤمنين من نور معرفته المتعقّب للسعادة الخالدة ، وحرّمه على الكافرين وتركهم في ظلمات لايبصرون ، فخصّ من اشتغل بربّه وأعرض عن عرض الحياة الدنيا بنور من عنده ، والله يفعل ما يشاء له الملك وإليه المصير يحكم بما أراد ينزّل الودق والبرد من سحاب واحد ، ويقلّب الليل والنهار ، ويجعل من الحيوان من يمشي على بطنه ومن يمشي على رجلين ومن يمشي على أربع وقد خلق الكلّ من ماء .

والآيات غير فاقدة للاتّصال بما قبلها لما أنّ بيان الأحكام والشرائع فيما تقدّم انتهى إلى مثل قوله : « ولقد أنزلنا إليكم آيات مبيّنات ومثلا من الّذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتّقين » والبيان إظهار لحقائق المعارف فهو تنوير إلهيّ .

على أنّ الآيات قرآن وقد سمّى سبحانه القرآن في مواضع من كلامه نوراً كقوله : « وأنزلنا إليكم نورا مبينا » النساء : ١٧٤ .

قوله تعالى : « الله نور السماوات والأرض » إلى آخر الآية . المشكاة على ما ذكره الراغب وغيره : كوّة غير نافذة وهي مايتّخذ في جدار البيت من الكوّ لوضع بعض الأثاث كالمصباح وغيره عليه وهو غير الفانوس .

والدرّيّ من الكواكب العظيم الكثير النور ، وهو معدود في السماء والإيقاد الإشعال ، والزيت الدهن المتّخذ من الزيتون .

وقوله : « الله نور السماوات والأرض » النور معروف وهو الّذي يظهر به الأجسام الكثيفة لأبصارنا فالأشياء ظاهرة به وهو ظاهر مكشوف لنا بنفس ذاته فهو

الظاهر بذاته المظهر لغيره من المحسوسات للبصر . هذا أوّل ما وضع عليه لفظ النور ثمّ عمّم لكلّ ما ينكشف به شيء من المحسوسات على نحو الاستعارة أو الحقيقة الثانية فعدّ كلّ من الحواس نورا أو ذا نور يظهر به محسوساته كالسمع والشمّ والذوق واللمس. ثمّ عمّم لغير المحسوس فعدّ العقل نورا يظهر به المعقولات كلّ ذلك بتحليل معنى النور المبصر إلى الظاهر بذاته المظهر لغيره .

و إذ كان وجود الشيء هو الّذي يظهر به نفسه لغيره من الأشياء كان مصداقا تامّا للنور ثمّ لمّا كانت الأشياء الممكنة الوجود إنّما هي موجودة بإيجاد الله تعالى كان هو المصداق الأتمّ للنور فهناك وجود و نور يتّصف به الأشياء و هو وجودها و نورها المستعار المأخوذ منه تعالى و وجود و نور قائم بذاته يوجد ويستنير به الأشياء .

فهو سبحانه نور يظهر به السماوات والأرض ، و هذا هو المراد بقوله : « الله نور السماوات والأرض » حيث اُضيف النور إلى السماوات والأرض ثمّ حمل على اسم الجلالة ، وعلى هذا ينبغي أن يحمل قول من قال : إنّ المعنى الله منوّر السماوات والأرض ، وعمدة الغرض منه أن ليس المراد بالنور النور المستعار القائم بها و هو الوجود الّذي يحمل عليها تعالى الله عن ذلك و تقدّس .

و من ذلك يستفاد أنّه تعالى غير مجهول لشيء من الأشياء إذ ظهور كلّ شيء لنفسه أو لغيره إنّما هو عن إظهاره تعالى فهو الظاهر بذاته له قبله ، و إلى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى بعد آيتين : « ألم تر أنّ الله يسبّح له من في السماوات والأرض والطير صافّات كلّ قد علم صلاته و تسبيحه » إذ لا معنى للتسبيح والعلم به و بالصلاة مع الجهل بمن يصلّون له ويسبّحونه فهو نظير قوله : « و إن من شيء إلّا يسبّح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم » أسرى : ٤٤ ، و سيوافيك البحث عنه إن شاء الله .

فقد تحصّل أنّ المراد بالنور في قوله : « الله نور السماوات والأرض » نوره تعالى من حيث يشرق منه النور العامّ الّذي يستنير به كلّ شيء وهو مساو لوجود كلّ شيء و ظهوره في نفسه و لغيره وهي الرحمة العامّة .

و قوله : « مثل نوره » يصف تعالى نوره ، و إضافة النور إلى الضمير الراجع إليه تعالى ـ و ظاهره الإضافة اللاّميّة ـ دليل على أنّ المراد ليس هو وصف النور الّذي هوالله بل النور المستعار الّذي يفيضه ، و ليس هوالنور العامّ المستعار الّذي يظهر به كلّ شيء و هو الوجود الّذي يستفيضه منه الأشياء و تتّصف به ، والدليل عليه قوله بعد تتميم المثل : « يهدي الله لنوره من يشاء » إذلو كان هو النور العامّ لم يختصّ به شيء دون شيء بل هو نوره الخاصّ بالمؤمنين بحقيقة الإيمان على ما يفيده الكلام .

و قد نسب تعالى في سائر كلامه إلى نفسه نورا كما في قوله : « يريدون ليطفؤا نورالله بأفواههم والله متمّ نوره » الصف : ٨ و قوله : «أو من كان ميتافأحييناه و جعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام ١٢٢ و قوله : « يؤتكم كفلين من رحمته و يجعل لكم نورا تمشون به » الحديد : ٢٨ ، و قوله : أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه » الزمر : ٢٢ وهذا هو النور الّذي يجعله الله لعباده المؤمنين يستضيؤن به في طريقهم إلى ربّهم و هو نور الإيمان والمعرفة .

وليس المراد به القرآن كما قاله بعضهم فإنّ الآية تصف حال عامّة المؤمنين قبل نزول القرآن و بعده . على أنّ هذا النور وصف لهم يتّصفون به كما يشير إليه قوله : «لهم أجرهم ونورهم» الحديد: ١٩ وقوله: «يقولون ربّنا أتمم لنا نورنا » التحريم: ٨ . و القرآن ليس وصفا لهم وإن لوحظ باعتبار ما يكشف عنه من المعارف رجع إلى ماقلناه .

و قوله : « كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة » المشبّه به مجموع ما ذكر من قوله مشكاة فيها مصباح المصباح الخ لا مجرّد المشكاة و إلّا فسد المعنى ، و هذا كثير في تمثيلات القرآن .

وقوله : «الزجاجة كأنّها كوكب درّيّ» تشبيه الزجاجة بالكوكب الدرّيّ من جهة ازدياد لمعان نور المصباح و شروقه بتركيب الزجاجة على المصباح فتزيد الشعلة بذلك سكونا من غير اضطراب بتموّج الأهوية وضرب الرياح فهي كالكوكب

الدرّيّ في تلالؤ نورها و ثبات شروقها .

و قوله : «يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقيّة ولاغربيّة يكاد زيتها يضيىء ولو لم تمسسه نار» خبر بعد خبر للمصباح أي المصباح يشتعل آخذا اشتعاله من شجرة مباركة زيتونة أي إنّه يشتعل من دهن زيت مأخوذ منها ، و المراد بكون الشجرة لا شرقيّة ولا غربيّة أنّها ليست نابتة في الجانب الشرقيّ ولا في الجانب الغربيّ حتّى تقع الشمس عليها في أحد طرفي النهار و يفيىء الظلّ عليها في الطرف الآخر فلا تنضج ثمرتها فلا يصفو الدهن المأخوذ منها فلا تجود الإضاءة بل هي ضاحية تأخذ من الشمس حظّها طول النهار فيجود دهنها لكمال نضج ثمرتها .

والدليل على هذا المعنى قوله : «يكادزيتها يضيىء ولم تمسسه نار» فإنّ ظاهر السياق أنّ المراد به صفاء الدهن و كمال استعداده للاشتعال و أنّ ذلك متفرّع على الوصفين : لاشرقيّة ولاغربيّة .

و أمّا قول بعضهم : إنّ المراد بقوله : «لا شرقيّة ولاغربيّة» أنّها ليست من شجر الدنيا حتّى تنبت إمّا في شرق أو في غرب ، و كذا قول آخرين : إنّ المراد أنّها ليست من شجر شرق المعمورة ولا من شجر غربها بل من شجر الشام الواقع بين الشرق والغرب وزيته أفضل الزيت فغير مفهوم من السياق .

و قوله : «نور على نور» خبر لمبتدء محذوف وهوضمير راجع إلى نورالزجاجة المفهوم من السياق ، والمعنى نور الزجاجة المذكور نور عظيم على نور كذلك أي في كمال التلمّع .

والمراد من كون النور على النور قيل : هو تضاعف النور لا تعدّده فليس المراد به أنّه نور معيّن أو غير معيّن فوق نور آخر مثله ، ولا أنّه مجموع نورين اثنين فقط بل أنّه نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه و هذا التعبير شائع في الكلام .

و هذا معنى لايخلو من جودة و إن كان إرادة التعدّد أيضا لاتخلو من لطف و دقّة فإنّ للنور الشارق من المصباح نسبة إليه بالأصالة و الحقيقة و نسبة إلى الزجاجة الّتي عليه بالاستعارة والمجاز ويتغاير النور بتغاير النسبتين ويتعدّد بتعدّدهما

و إن لم يكن بحسب الحقيقة إلّا للمصباح و الزجاجة صفر الكفّ منه فللزجاجة بالنظر إلى تعدّد النسب نور غير نور المصباح و هو قائم به و مستمدّ منه .

وهذاالاعتبار جار بعينه في الممثّل له فانّ نور الايمان والمعرفة نور مستعار مشرق على قلوب المؤمنين مقتبس من نوره تعالى قائم به مستمدّ منه .

فقد تحصّل أنّ الممثّل له هو نورالله المشرق علىقلوب المؤمنين والمثل وهو المشبّه به النور المشرق من زجاجة على مصباح موقد من زيت جيّد صاف و هو موضوع في مشكاة فانّ نور المصباح المشرق من الزجاجة والمشكاة تجمعه و تعكسه على المستنيرين به يشرق عليهم في نهاية القوّة والجودة .

فأخذ المشكاة للدلالة على اجتماع النور في بطن المشكاة و انعكاسه إلى جوّ البيت ، و اعتبار كونالدهن من شجرة زيتونة لاشرقيّة ولاغربيّة للدلالة علىصفاء الدهن وجودته المؤثّر في صفاء النورالمشرق عن اشتعاله وجودة الضياء على مايدلّ عليه كون زيته يكاد يضيءولو لم تمسسه نار ، و اعتبار كون النور علىالنور للدلالة على تضاعف النور أوكون الزجاجة مستمدّة من نور المصباح في إنارتها .

و قوله : «يهدي الله لنوره منيشاء» استئناف يعلّل به اختصاص المؤمنينبنور الايمان والمعرفة و حرمان غيرهم فمن المعلوم من السياق أنّ المراد بقوله : «من يشاء» القوم الّذينذكرهم بقوله بعد : «رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عنذكرالله» الخ فالمراد بمن يشاء المؤمنون بوصف كمال إيمانهم .

والمعنىأنّ الله إنّما هدى المتلبّسين بكمال الايمان إلى نوره دونالمتلبّسين بالكفر ـ الّذينسيذكرهمبعد ـ لمجرّدمشيّته وليسالمعنىأنّالله يهدي بعضالأفراد إلى نوره دون بعض بمشيّته ذلك حتّىيحتاج في تتميمه إلى القول بأنّه إنّما يشاء الهداية إذا استعدّ المحلّ إلى الهداية بحسنالسريرة والسيرة ، وذلك ممّا يختصّ به أهل الايمان دونأهل الكفر فافهمه .

والدليل على ذلك ما سيأتي من قوله : «ولله ملك السماوات والأرض» إلى آخر الآيات بالبيان الآتي إن شاء الله .

و قوله : « و يضرب الله الأمثال للناس والله بكلّ شيء عليم » إشارة إلى أنّ المثل المضروب تحته طور من العلم ، و إنّما اختير المثل لكونه أسهل الطرق لتبيين الحقائق والدقائق و يشترك فيه العالم والعامّي فيأخذ منه كلّ ما قسم له قال تعالى « و تلك الأمثال نضربها للنّاس و ما يعقلها إلّا العالمون » العنكبوت : ٤٣ .

قوله تعالى : « في بيوت أذن الله أن ترفع و يذكر فيها اسمه » الإذن في الشيء هو إعلام ارتفاع المانع عن فعله ، والمراد بالرفع رفع القدر و المنزلة و هو التعظيم ، و إذ كانت العظمة والعلوّ لله تعالى لا يشاركه في ذلك غيره إلّا أن ينتسب إليه و بمقدار ما ينتسب إليه فالإذن منه تعالى في أن ترفع هذه البيوت إنّما هو لانتساب مّا منها إليه .

و بذلك يظهر أنّ السبب لرفعها هوماعطف عليه من ذكراسمه فيها ، والسياق يدلّ على الاستمرار أو التهيّوء له فيعود المعنى إلى مثل قولنا : « أن يذكر فيها اسمه فيرتفع قدرها بذلك » .

و قوله : « في بيوت » متعلّق بقوله في الآية السابقة : « كمشكاة » أو قوله : «يهدي الله» الخ والمآل واحد ، ومن المتيقّن من هذه البيوت المساجد فإنّها معدّة لذكر اسمه فيها ممحّضة لذلك وقدقال تعالى : « ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا» الحجّ : ٤٠ .

قوله تعالى : « يسبّح له فيها بالغدوّ والآصال رجال » إلى آخرالآية . تسبيحه تعالى تنزيهه من كلّ مالايليق بساحة قدسه ، والغدوّ جمع غداة و هو الصبح والآصال جمع أصيل وهوالعصر ، والإلهاء صرف الإنسان عمّا يعنيه ويهمّه ، والتجارة على ما قاله الراغب : التصرّف في رأس المال طلبا للربح . قال : وليس في كلامهم تاء بعدها جيم غير هذا اللفظ . والبيع على ما قال : إعطاء المثمن وأخذ الثمن ، و قلب الشيء على ما ذكره صرف الشيء من وجه إلى وجه ، والتقليب مبالغة فيه و التقلّب قبوله فتقلّب القلوب و الأبصار تحوّل منها من وجه من الإدراك إلى وجه آخر .

و قوله : « يسبّح له فيها بالغدوّ والآصال » صفة لبيوت أو استئناف لبيان قوله : « و يذكر فيهااسمه » ، و كون التسبيح بالغدوّ والآصال كناية عن استمرارهم فيه لأنّ التسبيح مقصور في الوقتين لايسبّح له في غيرهما .

والاكتفاء بالتسبيح من غير ذكر التحميد معه لأنّه تعالى معلوم بجميع صفاته الكماليّة لاسترة عليه إذالمفروض أنّه نور و النور هو الظاهر بذاته المظهر لغيره و إنّما يحتاج خلوص المعرفة إلى نفي النقائص عنه وتنزيهه ممّا لايليق به فإذا تمّ التسبيح لم يبق معه غيره وتمّت المعرفة ثمّ إذا تمّت المعرفة وقع الثناء و الحمد و بالجملة التوصيف بصفات الكمال موقعه بعدحصول المعرفة كما قال تعالى : «سبحان الله عمّا يصفون إلّا عبادالله المخلصين » الصّافات : ١٦٠ فنزّهه عمّا يصفونه به إلّا ما وصفه به من أخلصهم لنفسه من عباده ، وقد تقدّم في تفسير سورة الحمد كلام في معنى حمده تعالى .

وبيان آخر حمده تعالى وهو ثناؤه بصفة الكمال مساوق لحصول نور المعرفة و تسبيحه و هوالتنزيه بنفي مالايليق به عنه مقدّمة لحصوله ، و الآية في مقام بيان خصالهم الّتي تستدعي هدايتهم إلى نوره فلاجرم اقتصر فيها بذكر ماهي المقدّمة و هو التسبيح فافهم ذلك .

و قوله : «رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع» التجارة إذا قوبلت بالبيع كان المفهوم منها بحسب العرف الاستمرار في الاكتساب بالبيع والشرى والبيع هو العمل الاكتسابي الدفعيّ فالفرق بينهما هو الفرق بين الدفعة والاستمرار فمعنى نفي البيع بعد نفي التجارة مع كونه منفيّا بنفيها الدلالة على أنّهم لا يُلهون عن ربّهم في مكاسبهم دائما ولافي وقت من الأوقات ، و بعبارة اُخرى لاتنسيهم ربّهم تجارة مستمرّة ولا بيع ما من البيوع الّتي يوقعونها مدّة تجارتهم .

و قيل : الوجه في نفي البيع بعد نفي إلهاء التجارة أنّ الربح في البيع ناجز بالفعل بخلاف التجارة الّتي هي الحرفة فعدم إلهاء التجارة لايستلزم عدم إلهاء البيع الرابح بالفعل ، ولذلك نفى البيع ثانيا بعد نفي إلهاء التجارة و لذلك كرّرت لفظة

«لا» لتذكير النفي وتأكيده ، وهو وجه حسن .

و قوله : «عن ذكرالله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة» الإقام هو الإقامة بحذف التاء تخفيفا .

و المراد بإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة الإتيان بجميع الأعمال الصالحة الّتي كلّف الله تعالى عباده بإتيانها في حياتهم الدنيا ، وإقامة الصلاة ممثّلة لإتيان ما للعبد من وظائف العبوديّة مع الله سبحانه ، وإيتاء الزكاة ممثّل لوظائفه مع الخلق وذلك لكون كلّ منها ركنا في بابه .

والمقابلة بين ذكرالله وبين إقام الصلاة و إيتاء الزكاة وهما - وخاصّة الصلاة - من ذكرالله يعطي أن يكون المراد بذكر الله الذكر القلبيّ الّذي يقابل النسيان والغفلة و هو ذكر علميّ كما أنّ أمثال الصلاة و الزكاة ذكر عمليّ .

فالمقابلة المذكورة تعطي أنّ المراد بقوله : «عن ذكرالله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة» أنّهم لا يشتغلون بشيء عن ذكرهم المستمرّ بقلوبهم لربّهم و ذكرهم الموقّت بأعمالهم من الصلاة والزكاة ، و عند ذلك يظهر حسن التقابل بين التجارة والبيع وبين ذكرالله وإقام الصلاة الخ لرجوع المعنى إلى أنّهم لا يلهيهم مُله مستمرّ ولا موقّت عن الذكر المستمرّ والموقّت فافهم ذلك .

و قوله : «يخافون يوما تتقلّب فيه القلوب والأبصار» هذا هو يوم القيامة والمراد بالقلوب والأبصار مايعمّ قلوب المؤمنين والكافرين و أبصارهما لكون القلوب والأبصار جمعا محلّى باللام و هو يفيد العموم .

و أمّا تقلّب القلوب والأبصار فالآيات الواصفة لشأن يوم القيامة تدلّ على أنّه بظهور حقيقة الأمر و انكشاف الغطاء كما قال تعالى : «فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» ق : ٢٢ و قال : «وبدالهم من الله مالم يكونوا يحتسبون» الزمر : ٤٧ إلى غير ذلك من الآيات .

فتنصرف القلوب والأبصار يومئذ عن المشاهدة والرؤية الدنيويّة الشاغلة عن الله الساترة للحقّ والحقيقة إلى سنخ آخر من المشاهدة والرؤية و هو الرؤية بنور

الإيمان والمعرفة فيتبصّر المؤمن بنور ربّه وهو نور الإيمان والمعرفة فينظر إلى كرامة الله، ويعمى الكافر ولا يجد إلّا ما يسوؤه قال تعالى: «وأشرقت الأرض بنور ربّها» الزمر: ٦٩ وقال: «يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم» الحديد: ١٢، و قال: «و من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى» الاسراء: ٧٢، و قال: «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربّها ناظرة» القيامة: ٢٣ و قال: «كلّا إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون» المطفّفين: ١٥.

و قد تبيّن بما مرّ:

أوّلا وجه اختصاص هذه الصفة أعني تقلّب القلوب و الأبصار من بين أوصاف يوم القيامة بالذكر و ذلك أنّ الكلام مسوق لبيان ما يتوسّل به إلى هدايته تعالى إلى نوره و هو نور الإيمان والمعرفة الّذي يستضاء به يوم القيامة ويبصّر به.

و ثانيا أنّ المراد بالقلوب والأبصار النفوس وبصائرها.

و ثالثا أنّ توصيف اليوم بقوله: «تتقلّب فيه القلوب والأبصار» لبيان سبب الخوف فهم إنّما يخافون اليوم لما فيه من تقلّب القلوب و الأبصار، وإنّما يخافون هذا التقلّب لما في أحد شقيّه من الحرمان من نور الله والنظر إلى كرامته وهو الشقاء الدائم والعذاب الخالد و في الحقيقة يخافون أنفسهم.

قوله تعالى: «ليجزيهم الله أحسن ما عملوا و يزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب» الظاهر أنّ لام «ليجزيهم» للغاية، و الّذي ذكره الله في خلال الكلام هو أعمالهم الصالحة والأجر الجميل على كلّ صالح ممّا ينصّ عليه كلامه تعالى فقوله: إنّه يجزيهم أحسن ما عملوا معناه أنّه يجزيهم بإزاء عملهم في كلّ باب جزاء أحسن عمل في ذلك الباب، ومرجع ذلك إلى أنّه تعالى يزكّي أعمالهم فلا يناقش فيها بالمؤاخذة في جهات توجب نقصها وانحطاط قدرها فيعدّ الحسن منها أحسن.

و يؤيّد هذا المعنى قوله في ذيل الآية: «و الله يرزق من يشاء بغير حساب» فإنّ ظاهره عدم المداقّة في حساب الحسنات بالإغماض عن جهات نقصها فيلحق

المحسن بالأحسن .

و قوله : « و يزيدهم من فضله » الفضل العطاء ، و هذا نصّ في أنّه تعالى يعطيهم من فضله ما ليس بإزاء أعمالهم الصالحة ، و أوضح منه قوله تعالى في موضع آخر : « لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد » ق : ٣٥ حيث إنّ ظاهره أنّ هذا المزيد الموعود أمر وراء ما تتعلّق به مشيّتهم.

و قد دلّ كلامه سبحانه أنّ أجرهم أنّ لهم ما يشاؤن قال تعالى : « اُولئك هم المتّقون لهم ما يشاؤن عند ربّهم ذلك جزاء المحسنين » الزمر : ٣٤ ، و قال : « أم جنّة الخلد الّتي وعد المتّقون كانت لهم جزاء ومصيرا لهم فيها ما يشاؤن خالدين » الفرقان : ١٦ ، وقال: «لهم فيها ما يشاؤن كذلك يجزي الله المتّقين» : النحل: ٣١ .

فهذا المزيد الّذي هو وراء جزاء الأعمال أمر أعلى و أعظم من أن تتعلّق به مشيّة الإنسان أو يوصل إليه سعيه ، وهذا أعجب مايعده القرآن المؤمنين ويبشّرهم به فأجد التدبّر فيه .

و قوله : « والله يرزق من يشاء بغير حساب » استئناف مآله تعليل الجملتين السابقتين بالمشيّة نظير قوله فيما تقدّم : « يهدي الله لنوره من يشاء » على ما مرّ بيانه.

و محصّله أنّهم عملوا صالحا وكان لهم من الأجر ما يعادل عملهم كما هو ظاهر قوله : « و توفّى كلّ نفس ما عملت» النحل: ١١١ وما في معناه من الآيات لكنّه تعالى يجزيهم بكلّ عمل من أعمالهم جزاء أحسن عمل يؤتى به في بابه من غير أن يداقّ في الحساب فهذه موهبة ثمّ يرزقهم أمراً هو أعلى وأرفع من أن تتعلّق به مشيّتهم وهذه أيضا موهبة ورزق بغير حساب ، والرزق من الله موهبة محضة من غير أن يملك المرزوقون منه شيأ أو يستحقّوه عليه تعالى فله تعالى أن يخصّ منه ما يشاء لمن يشاء .

غير أنّه تعالى وعدهم الرزق و أقسم على إنجازه في قوله : « فوربّ السماء والأرض إنّه لحقّ » الذاريات : ٢٣ فملّكهم الاستحقاق لأصله و هو الّذي يجزيهم به على قدر أعمالهم وأمّا الزائد عليه فلم يملّكهم ذلك فله أن يختصّ به من يشاء فلا يعلّل ذلك إلّا بمشيّة ، و للكلام تتمّة ستوافيك إن شاء الله في بحث مستقلّ .

قوله تعالى : « والّذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء » إلى آخر الآية . السراب هو ما يلمع في المفازة كالماء و لا حقيقة له ، والقيع و القاع هو المستوي من الأرض ومفرداهما القيعة والقاعة كالتينة والتمرة ، والظمآن هو العطشان .

لمّا ذكر سبحانه المؤمنين و وصفهم بأنّهم ذاكرون له في بيوت معظّمة لا تلهيهم عنه تجارة ولا بيع ، وأنّ الله الّذي هو نور السماوات و الأرض يهديهم بذلك إلى نوره فيكرمهم بنور معرفته قابل ذلك بذكر الّذين كفروا فوصف أعمالهم تارة بأنّها لا حقيقة لها كسراب بقيعة فلا غاية لها تنتهي إليها ، و تارة بأنّها كظلمات بعضها فوق بعض لا نور معها و هي حاجزة عن النور ، وهذه الآية هي الّتي تتضمّن الوصف الأوّل .

فقوله : « والّذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتّى إذا جاءه لم يجده شيأ » شبّه أعمالهم - و هي الّتي يأتون بها من قرابين و أذكار وغيرهما من عباداتهم يتقرّبون بها إلى آلهتهم - بسراب بقيعة يحسبه الإنسان ماء ولا حقيقة له يترتّب عليها ما يترتّب على الماء من رفع العطش و غير ذلك .

وإنّما قيل : يحسبه الظمآن ماء مع أنّ السراب يترآى ماء لكلّ راء لأنّ المطلوب بيان سيره إليه ولا يسير إليه إلّا الظمآن يدفعه إليه ما به من ظمأ ، و لذلك رتّب عليه قوله : « حتّى إذا جاءه لم يجده شيأ » كأنّه قيل : كسراب بقيعة يتخيّله الظمآن ماء فيسير إليه و يقبل نحوه ليرتوي و يرفع عطشه به ، و لا يزال يسير حتّى إذا جاءه لم يجده شيأ .

و التعبير بقوله : « جاءه » دون أن يقال : بلغه أو وصل إليه أو انتهى إليه و نحوها للإيماء إلى أنّ هناك من يريد مجيئه و ينتظره انتظارا و هو الله سبحانه ، و لذلك أردفه بقوله : « ووجدالله عنده فوفّاه حسابه » فأفاد أنّ هؤلاء يريدون بأعمالهم الظفر بأمر تبعثهم نحوه فطرتهم و جبلّتهم و هو السعادة الّتي يريدها كلّ إنسان

بفطرته و جبلّته لكنّ أعمالهم لا توصلهم إليه ، ولا أنّ الآلهة الّتي يبتغون بأعمالهم جزاء حسنا منهم لهم حقيقة بل الّذي ينتهي إليه أعمالهم ويحيط هو بها و يجزيهم هو الله سبحانه فيوفّيهم حسابهم ، وتوفية الحساب كناية عن الجزاء بما يستوجبه حساب الأعمال و إيصال ما يستحقّه صاحب الأعمال .

ففي الآية تشبيه أعمالهم بالسراب ، و تشبيههم بالظمآن الّذي يريد الماء و عنده عذب الماء لكنّه يعرض عنه و لا يصغي إلى مولاه الّذي ينصحه و يدعوه إلى شربه بل يحسب السراب ماء فيسير إليه و يقبل نحوه ، و تشبيه مصيرهم إلى الله سبحانه بحلول الآجال و عند ذلك تمام الأعمال بالظمآن السائر إلى السراب إذا جاءه و عنده مولاه الّذي كان ينصحه و يدعوه إلى شرب الماء .

فهؤلاء قوم الهوا عن ذكر ربّهم والأعمال الصالحة الهادية إلى نوره و فيه سعادتهم وحسبوا أنّ سعادتهم عند غيره من الآلهة الّذين يدعونهم ، والأعمال المقرّبة إليهم و فيها سعادتهم فأكبّوا على تلك الأعمال السرابيّة و استوفوا ما يمكنهم أن يأتوا بها مدّة أعمارهم حتّى حلّت آجالهم و شارفوا الدار الآخرة فلم يجدوا شيأ ممّا يؤمّلونه من أعمالهم ولا أثرا من الوهيّة آلهتهم فوفّاهم الله حسابهم والله سريع الحساب .

و قوله : « والله سريع الحساب » إنّما هو لاحاطة علمه بالقليل و الكثير و الحقير و الخطير و الدقيق و الجليل و المتقدّم و المتأخّر على حدّ سواء .

و اعلم أنّ الآية و إن كان ظاهرها بيان حال الكفّار من أهل الملل وخاصّة المشركين من الوثنيّين لكنّ البيان جار في غيرهم من منكري الصانع فان الانسان كائنا من كان يرى لنفسه سعادة في الحياة ولا يرتاب أنّ الوسيلة إلى نيلها أعماله الّتي يأتي بها فان كان ممّن يقول بالصانع و يراه المؤثّر في سعادته بوجه من الوجوه توسّل بأعماله إلى تحصيل رضاه و الفوز بالسعادة الّتي يقدّرها له ، و إن كان ممّن ينكره و ينهي التأثير إلى غيره توسّل بأعماله إلى توجيه ما يقول به من المؤثّر كالدهر و الطبيعة و المادّة نحو سعادة حياته الدنيا الّتي لا يقول بما وراءها .

فهؤلاء يرون المؤثّر الّذي بيده سعادة حياتهم غيره تعالى و لا مؤثّر غيره و يرون مساعيهم الدنيويّة موصلة لهم إلى سعادتهم و ليست إلّا سرابا لا حقيقة له ولا يزالون يسعون حتّى إذا تمّ ما قدّر لهم من الأعمال بحلول ما سمّي لهم من الآجال لم يجدوا عندها شيأ و عاينوا أنّ ما كانوا يتمنّون منها لم يكن إلّا طائف خيال أو حلم نائم ، و عند ذلك يوفّيهم الله حسابهم والله سريع الحساب .

قوله تعالى : « أو كظلمات في بحر لجّيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب » تشبيه ثان لأعمالهم يظهر به أنّها حجب متراكمة على قلوبهم تحجبهم عن نور المعرفة ، و قد تكرّر في كلامه تعالى أنّهم في الظلمات كقوله : « والّذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » البقرة : ٢٥٧ و قوله : « كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام : ١٢٢ و قوله : « كلّا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلّا إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون » المطفّفين : ١٥ .

و قوله : « أو كظلمات في بحر لجّيّ » معطوف على « سراب » في الآية السابقة و البحر اللّجّيّ هو البحر المتردّد أمواجه منسوب إلى لجّة البحر و هي تردّد أمواجه ، والمعنى أعمالهم كظلمات كائنة في بحر لجّيّ .

و قوله : « يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب » صفة البحر جيىء بها لتقرير الظلمات المفروضة فيه فصفته أنّه يغشاه ويحيط به موج كائن من فوقه موج آخر كائن من فوقه سحاب يحجبنه جميعا من الاستضاءة بأضواء الشمس و القمر و النجوم .

و قوله : « ظلمات بعضها فوق بعض » تقرير لبيان أنّ المراد بالظلمات المفروضة الظلمات المتراكمة بعضها على بعض دون المتفرّقة ، وقد أكّد ذلك بقوله: « إذا أخرج يده لم يكد يراها » فإنّ أقرب ما يشاهده الإنسان منه هو نفسه وهو أقدر على رؤية يده منه على سائر أعضائه لأنّه يقرّبها تجاه باصرته كيفما أراد فإذا أخرج يده ولم يكد يراها كانت الظلمة بالغة .

فهؤلاء وهم سائرون إلى الله و صائرون إليه من جهة أعمالهم كراكب بحر

لجّي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب في ظلمات متراكمة كأشدّ ما يكون ولا نور هناك يستضيء به فيهتدي إلى ساحل النجاة .

و قوله : « و من لم يجعل الله له نورا فما له من نور » نفي للنور عنهم بأنّ الله لم يجعله لهم كيف لا ؟ و جاعل النور هو الله الّذي هو نور كلّ شيء فإذا لم يجعل لشيء نورا لم يكن له نور إذ لا جاعل غيره تعالى .

قوله تعالى : « ألم تر أنّ الله يسبّح له من في السماوات و الأرض و الطير صافّات » إلى آخر الآية . لمّا ذكر سبحانه أنّه نور تستنير به السماوات والأرض و أنّه يختصّ بمزيد نوره المؤمنين من عباده والّذين كفروا لا نصيب لهم من ذلك شرع يحتجّ على ذلك بما في هذه الآية والآيات الأربع التالية لها .

فكونه تعالى نور السماوات والأرض يدلّ عليه أنّ ما في السماوات والأرض موجود بوجود ليس من عنده ولا من عند شيء ممّا فيهما لكونه مثله في الفاقة فوجود ما فيهما من موجود من الله الّذي ينتهي إليه الحاجات .

فوجود كلّ شيء ممّا فيهما كما يظهر به نفس الوجود يدلّ على من يظهره بما أفاض عليه من الوجود فهو نور يستنير به الشيء ويدلّ على منوّره بما أشرق عليه من النور وأنّ هناك نورا يستنير به كلّ شيء فكلّ شيء ممّا فيهما يدلّ على أنّ وراءه شيئاً منزّهاً من الظلمة الّتي غشيته ، والفاقة الّتي لزمته ، والنقص الّذي لا ينفكّ عنه ، و هذا هو تسبيح ما في السماوات والأرض له سبحانه ، ولازمه نفي الاستقلال عن كلّ من سواه و سلب أيّ إله و ربّ يدبّر الأمر دونه تعالى .

وإلى ذلك يشير قوله : «ألم تر أنّ الله يسبّح له من في السماوات والأرض والطير صافّات كلّ قد علم صلاته وتسبيحه » و به يحتجّ تعالى على كونه نور السماوات والأرض لأنّ النور هو ما يظهر به الشيء المستنير ثمّ يدلّ بظهوره على مظهره ، وهو تعالى يظهر ويوجد بإظهاره و إيجاده الأشياء ثمّ يدلّ على ظهوره و وجوده .

و تزيد الآية بالإشارة إلى لطائف يكمل بها البيان :

منها اختصاصها من في السماوات والأرض والطير صافّات و هم العقلاء و بعض

ذوات الروح بالذكر مع عموم التسبيح لغيرهم لقوله : « و إن من شيء إلّا يسبّح بحمده » .

ولعلّ ذلك من باب اختيار اُمور من أعاجيب الخلقة للذكر فإنّ ظهور الموجود العاقل الّذي يدلّ عليه لفظ « من في السماوات والأرض » من عجيب أمر الخلقة الّذي يدهش لبّ ذي اللبّ كما أنّ صفيف الطير الصافّات في الجوّ من أعجب ما يرى من أعمال الحيوان ذي الشعور و أبدعه .

و يظهر من بعضهم أنّ المراد بقوله : «من في السماوات » الخ جميع الأشياء و إنّما عبّر بلفظ اُولي العقل لكون التسبيح المنسوب إليها من شؤون اُولي العقل أو للتنبيه على قوّة تلك الدلالة و وضوح تلك الإشارة تنزيلا للسان الحال منزلة المقال .

و فيه أنّه لايلايم إسناد العلم إليها في قوله بعد : « كلّ قد علم صلاته و تسبيحه » .

و منها تصدير الكلام بقوله : «ألم تر» وفيه دلالة على ظهور تسبيحهم و وضوح دلالتهم على التنزيه بحيث لايرتاب فيه ذوريب فكثيرا مّا يعبّر عن العلم الجازم بالرؤية كما في قوله تعالى : « ألم ترأنّ الله خلق السماوات و الأرض » إبراهيم : ١٩ و الخطاب فيه عامّ لكل ذي عقل و إن كان خاصّا بحسب اللفظ .

ومن الممكن أن يكون خطابا خاصّا بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و قد كان أراه الله تسبيح من في السماوات والأرض والطير صافّات فيما أراه من ملكوت السماوات والأرض و ليس ببدع منه صلى الله عليه وآله وسلم و قد أرى الناس تسبيح الحصاة في كفّه كما وردت به الأخبار المعتبرة .

و منها أنّ الآية تعمّم العلم لكلّ ماذكر ممّن في السماوات والأرض والطير و قد تقدّم بعض البحث عنه في تفسير قوله : « و إن من شيء إلّايسبّح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم » الاسراء : ٤٤ و ستجيء تتمّة الكلام فيه في تفسير سورة حمٓ السجدة إن شاء الله .

و قول بعضهم : إنّ الضمير في قوله : « قدعلم » راجع إليه تعالى ، يدفعه عدم ملائمته للسياق و خاصّة لقوله بعده : «والله عليم بمايفعلون » و نظيره قول آخرين: إنّ إسناد العلم إلى مجموع ما تقدّم من المجاز بتنزيل غير العالم منزلة العالم لقوّة دلالته على تسبيحه و تنزيهه .

و منها تخصيصها التسبيح بالذكر مع أنّ الأشياء تشير إلى صفات كماله تعالى و هو التحميد كما تسبّحه على ما يدلّ عليه البرهان و يؤيّده قوله : « و إن من شيء إلّا يسبّح بحمده » و لعلّ الوجه فيه كون الآيات مسوقة للتوحيد و نفي الشركاء و ذلك بالتنزيه أمسّ فإنّ من يدعو من دون الله إلها آخر أو يركن إلى غيره نوعا من الركون إنّما يكفر بإثبات خصوصيّة وجود ذلك الشيء للإله تعالى فنفيه إنّما يتأتّى بالتنزيه دون التحميد فافهمه .

و أمّا قوله : « كلّ قد علم صلاته و تسبيحه » فصلاته دعاؤه و الدعاء توجيه من الداعي للمدعوّ إلى حاجته ففيه دلالة على حاجة عند الداعي المدعوّ في غنى عنها فهو أقرب إلى الدلالة على التنزيه منه على الثناء والتحميد .

و منها أنّ الآية تنسب التسبيح والعلم به إلى من في السماوات والأرض فيعمّ المؤمن والكافر ، و يظهر بذلك أنّ هناك نورين نور عامّ يعمّ الأشياء والمؤمن والكافر فيه سواء ، و إلى ذلك تشير آيات كآية الذرّ : « و أشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين» الأعراف: ١٧٢ و قوله : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ق : ٢٢ إلى غير ذلك ، و نور خاصّ و هو الّذي تذكره الآيات و يختصّ بأوليائه من المؤمنين .

فالنور الّذي ينوّر تعالى به خلقه كالرحمة الّتي يرحمهم بها قسمان : عامّ وخاصّ و قد قال تعالى: « ورحمتي وسعت كلّ شيء » الأعراف : ١٥٦ وقوله : « فأمّا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربّهم في رحمته » الجاثية : ٣٠ ، و قد جمع بينهما في قوله : « يا أيّها الّذين آمنوا اتقوا الله و آمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته و يجعل لكم نورا » الحديد : ٢٨ و ما ذكر فيه من النور هو النور على نور بحذاء

الثاني من كفلي الرحمة.

و قوله: « والله عليم بما يفعلون » و من فعلهم تسبيحهم له سبحانه، و هذا التسبيح و إن كان في بعض المراحل هو نفس وجودهم لكن صدق اسم التسبيح يجوز أن يعدّ فعلالهم بهذه العناية.

و في ذكر علمه تعالى بما يفعلون عقيب ذكر تسبيحهم ترغيب للمؤمنين و شكر لهم بأنّ ربّهم يعلم ذلك منهم و سيجزيهم جزاء حسنا، و إيذان بتمام الحجّة على الكافرين، فإنّ من مراتب علمه تعالى كتب الأعمال و الكتاب المبين الّتي تثبت فيها أعمالهم فيثبت فيها تسبيحهم بوجودهم ثمّ إنكارهم بألسنتهم.

قوله تعالى: « ولله ملك السماوات والأرض و إلى الله المصير » سياق الآية و قد وقعت بين قوله: « ألم تر أنّ الله يسبّح له » الخ و هو احتجاج على شمول نوره العامّ لكلّ شيء، و بين قوله: « ألم ترأنّ الله يزجي » الخ و ما يتعقّبه وهو احتجاج على اختصاص النور الخاصّ، يعطي أنّها كالمتوسّط بين القبيلين أعني بين الأمرين يحتجّ بها على كليهما فملكه تعالى لكلّ شيء و كونه مصيرا لها هو دليل على تعميمه نوره العامّ و تخصيصه نوره الخاصّ يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

فقوله: « ولله ملك السماوات والأرض » يخصّ الملك و يقصره فيه تعالى فله أن يفعل ما يشاء و يحكم بما يريد لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون، و لازم قصر الملك فيه كونه هو المصير لكلّ شيء، و إذ كان لامليك إلّا هو و إليه مرجع كلّ شيء و مصيره فله أن يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

ومن هنا يظهر أنّ المراد ـ والله أعلم ـ بقوله: «وإلى الله المصير» مرجعيّته تعالى في الأمور دون المعاد نظير قوله: « ألا إلى الله تصير الاُمور » الشورى: ٥٣.

قوله تعالى: «ألم ترأنّ الله يزجي سحابا ثمّ يؤلّف بينه ثمّ يجعله ركامافترى الودق يخرج من خلاله » إلى آخرالآية. الإزجاء هو الدفع، والركام المتراكم بعضه على بعض، والودق هوالمطر، والخلال جمع الخلل و هوالفرجة بين الشيئين.

و الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بعنوان أنّه سامع فيشمل كلّ سامع و المعنى: ألم

ترأنت و كل من يرى أن الله يدفع بالرياح سحابا متفرقا ثم يؤلف بينه ثم يجعله متراكما بعضه على بعض فترى المطر يخرج من خلله و فرجه فينزل على الأرض .

وقوله : « وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء و يصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » السماء جهت العلو ، و قوله : من جبال فيها » بيان للسماء ، والجبال جمع جبل و هو معروف ، و قوله : « من برد » بيان للجبال ، والبرد قطعات الجمد النازل من السماء ، و كونه جبالا فيها كناية عن كثرته و تراكمه ، والسنا بالقصر الضوء .

والكلام معطوف على قوله : «يزجي » والمعنى ألم تر أن الله ينزل من السماء من البرد المتراكم فيها كالجبال فيصيب به من يشاء فيفسد المزارع و البساتين وربما قتل النفوس و المواشي و يصرفه عمن يشاء فلا يتضررون به يقرب ضوء برقة من أن يذهب الأبصار .

والآية ـ على مايعطيه السياق ـ مسوقة لتعليل ماتقدم من اختصاصه المؤمنين بنوره ، والمعنى أن الأمر في ذلك إلى مشيته تعالى كما ترى أنه إذا شاء نزل من السماء مطرا فيه منافع الناس لنفوسهم و مواشيهم و مزارعهم و بساتينهم ، و إذا شاء نزل بردا فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء .

قوله تعالى : « يقلب الله الليل و النهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار » بيان آخر لرجوع الأمر إلى مشيته تعالى فقط . و تقليب الليل والنهار تصريفهما بتبديل أحدهما من الآخر و معنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين و منهم من يمشي على أربع » بيان آخر لرجوع الأمر إلى مشيته تعالى محضا حيث يخلق كل دابة من ماء ثم تختلف حالهم في المشي فمنهم من يمشي على بطنه كالحيات والديدان ، ومنهم من يمشي على رجلين كالأناسي والطيور و منهم من يمشي على أربع كالبهائم والسباع ، و اقتصر سبحانه على هذه الأنواع

الثلاثة ـ وفيهم غير ذلك ـ إيجازاً لحصول الغرض بهذا المقدار .

و قوله : « يخلق الله مايشاء» تعليل لما تقدّم من اختلاف الدوابّ ، مع وحدة المادّة الّتي خلقت منها يبيّن أنّ الأمر إلى مشيّة الله محضا فله أن يعمّم فيضا من فيوضه على جميع خلقه كالنور العامّ والرحمة العامّة ، و له أن يختصّ بفيض من فيوضه بعضا من خلقه دون بعض كالنور الخاصّ والرحمة الخاصّة .

و قوله : « إنّ الله على كلّ شيء قدير » تعليل لقوله : « يخلق الله ما يشاء» فإنّ إطلاق القدرة على كلّ شيء يستوجب أن لايتوقّف شيء من الأشياء في كينونته على أمر وراء مشيّته وإلّا كانت قدرته عليه مشروطة بحصول ذلك الأمر و هذا خلف. و هذا باب من التوحيد دقيق سيتّضح بعض الاتّضاح إن شاء الله بما في البحث الآتي.

﴿ بحث فلسفى ﴾

إنّا لانشكّ في أنّ ما نجده من الموجودات الممكنة معلولة منتهية إلى الواجب تعالى و إنّ كثيرا منها ـ و خاصّة في المادّيّات ـ تتوقّف في وجودها على شروط لاتحقّق لها بدونها كالإنسان الّذي هو ابن فإنّ لوجوده توقّفا على وجود الوالدين و على شرائط اُخرى كثيرة زمانيّة و مكانيّة ، و إذ كان من الضروريّ كون كلّ ممّا يتوقّف عليه جزءاً من علّته التامّة كان الواجب تعالى على هذا جزء علّته التامّة لا علّة تامّة وحدها .

نعم هو بالنسبة إلى مجموع العالم علّة تامّة إذ لا يتوقّف على شيء غيره و كذا الصادر الأوّل الّذي تتبعه بقيّة أجزاء المجموع ، و أمّا سائر أجزاء العالم فإنّه تعالى جزء علّته التامّة ضرورة توقّفه على ما هو قبله من العلل وما هو معه من الشرائط و المعدّات .

هذا إذا اعتبرنا كلّ واحد من الأجزاء بحياله ثمّ نسبنا وحده إلى الواجب تعالى .

وههنا نظر آخر أدقّ وهو أنّ الارتباط الوجوديّ الّذي لا سبيل إلى إنكاره

بين كلّ شيء وبين علله الممكنة وشروطه ومعدّاته يقضي بنوع من الاتّحاد والاتّصال بينها فالواحد من الأجزاء ليس مطلقا منفصلا بل هو في وجوده المتعيّن مقيّد بجميع ما يرتبط به متّصل الهويّة بغيرها .

فالإنسان الابن الّذي كنّا نعتبره في المثال المتقدّم بالنظر السابق موجودا مستقلاّ مطلقا فنجده متوقّفا على علل و شروط كثيرة والواجب تعالى أحدها يعود بحسب هذه النظرة هويّة مقيّدة بجميع ما كان يعتبر توقّفه عليه من العلل والشرائط غير الواجب تعالى فحقيقة زيد مثلا هو الانسان ابن فلان وفلانة المتولّد في زمان كذا ومكان كذا المتقدّم عليه كذا و كذا المقارن لوجوده كذا و كذا من الممكنات .

فهذه هو حقيقة زيد مثلا ومن الضروريّ أنّ ما حقيقته ذلك لا تتوقّف على شيء غير الواجب فالواجب هو علّته التامّة الّتي لا توقّف له على غيره ، ولا حاجة له إلى غير مشيّته ، وقدرته تعالى بالنسبة إليه مطلقة غير مشروطة ولا مقيّدة ، وهو قوله تعالى : يخلق الله ما يشاء إنّ الله على كلّ شيء قدير .

قوله تعالى : « لقد أنزلنا آيات مبيّنات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » يريد آية النور و ما يتلوها المبيّنة لصفة نوره تعالى و الصراط المستقيم سبيله الّتي لا سبيل للغضب و الضلال إلى من اهتدى إليها كما قال : « إهدنا الصراط المستقيم صراط الّذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين » الحمد : ٧ و قد تقدّم الكلام فيه في تفسير سورة الحمد .

و تذييل الآية بقوله : « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » هو الموجب لعدم تقييد قوله : « لقد أنزلنا آيات مبيّنات » بلفظة إليكم بخلاف قوله قبل آيات: «لقد أنزلنا إليكم آيات مبيّنات ومثلا من الّذين خلوا من قبلكم و موعظة للمتّقين».

إذ لو قيل : لقد أنزلنا إليكم آيات مبيّنات و الله يهدي . تبادر إلى الذهن أنّ البيان اللفظيّ هداية إلى الصراط المستقيم وأنّ المخاطبين عامّة مهديّون إلى الصراط المستقيم و فيهم المنافق والّذين في قلوبهم مرض والله العالم .

﴿بحث روائي﴾

في التوحيد بإسناده عن العبّاس بن هلال قال : سألت الرضا عليه السلام عن قول الله عزّ و جلّ : « الله نور السماوات والأرض » فقال : هاد لأهل السماوات و هاد لأهل الأرض .

و في رواية البرقيّ : هدى من في السماوات وهدى من في الأرض .

أقول : إذ كان المراد بالهداية الهداية الخاصّة و هي الهداية إلى السعادة الدينيّة كان من التفسير بمرتبة من المعنى ، وإن كان المراد بها الهداية العامّة وهي إيصال كلّ شيء إلى كماله انطبق على ما تقدّم .

و في الكافي بإسناده عن إسحاق بن جرير قال : سألتني امرأة أن اُدخلها على أبي عبدالله عليه السلام فاستأذنت لها فأذن لها فدخلت و معها مولاة لها فقالت له : يا أباعبدالله قول الله :« زيتونة لاشرقيّة ولاغربيّة » ماعنى بهذا ؟ فقال لها : أيّتها المرأة إنّ الله لم يضرب الأمثال للشجر إنّما ضرب الأمثال لبني آدم .

و في تفسير القمّيّ بإسناده عن طلحة بن زيد عن جعفر بن محمّد عن أبيه عليهما السلام في هذه الآية « الله نور السماوات والأرض » قال : بدء بنور نفسه « مثل نوره» مثل هداه في قلب المؤمن « كمشكاة فيها مصباح » والمصباح جوف المؤمن والقنديل قلبه، والمصباح النور الّذي جعله الله في قلبه .

«يوقد من شجرة مباركة» قال : الشجرة المؤمن «زيتونة لا شرقيّة ولاغربيّة» قال : على سواد الجبل لا غربيّة أي لاشرق لها ، ولا شرقيّة أي لا غرب لها إذا طلعت الشمس طلعت عليها و إذا غربت غربت عليها « يكاد زيتها يضيء » يكاد النور الّذي في قلبه يضيء و إن لم يتكلّم .

« نور على نور » فريضة على فريضة ، و سنّة على سنّة « يهدي الله لنوره من يشاء » يهدي الله لفرائضه و سننه من يشاء « و يضرب الله الأمثال للناس » فهذا مثل ضربه الله للمؤمن .

ثمّ قال : فالمؤمن يتقلّب في خمسة من النور : مدخله نور ، ومخرجه نور ، و علمه نور ، و كلامه نور ، ومصيره يوم القيامة إلى الجنّة نور . قلت لجعفر عليه السلام : إنّهم يقولون : مثل نور الربّ . قال : سبحان الله ليس لله مثل قال الله : « فلا تضربوا لله الأمثال » .

أقول : الحديث يؤيّد ما تقدّم في تفسير الآية ، و قد اكتفى عليه السلام في تفسير بعض فقرات الآية بذكر بعض المصاديق كالّذي ذكره في ذيل قوله : « يكاد زيتها يضيء » و قوله : « نور على نور » .

و أمّا قوله : «سبحان الله ليس لله مثل » فإنّما ينفي به أن يكون المثل مثلا للنور الّذي هو اسمه تعالى المحمول عليه فكونه مثلا له تعالى يؤدّي إلى الحلول أو الانقلاب تعالى عن ذلك بل هو مثل لنوره المفاض على السماوات والأرض ، و أمّا الضمير في قوله : « مثل نوره » فلا ضير في رجوعه إليه تعالى مع الاحتفاظ على المعنى الصحيح .

و في التوحيد و قد روي عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن قول الله عزّ وجلّ : « الله نور السماوات و الأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » فقال : هو مثل ضربه الله لنا فالنبيّ و الأئمّة صلوات الله عليهم من دلالات الله و آياته الّتي يهتدى بها إلى التوحيد و مصالح الدين و شرائع الإسلام و السنن و الفرائض ، ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم .

أقول : الرواية من قبيل الإشارة إلى بعض المصاديق وهو من أفضل المصاديق و هو النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والطاهرون من أهل بيته عليهم السلام و إلّا فالآية تعمّ بظاهرها غيرهم من الأنبياء عليهم السلام والأوصياء والأولياء .

نعم ليست الآية بعامّة لجميع المؤمنين لأخذها في وصفهم صفات لا تعمّ الجميع كقوله : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » الخ .

و قد وردت عدّة من الأخبار من طرق الشيعة في تطبيق مفردات الآية على

النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم و أهل بيته عليهم السلام و هي من التطبيق دون التفسير ، و من الدليل على ذلك اختلافها في نحو التطبيق كرواية الكلينيّ في روضة الكافي بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام و فيها أنّ المشكاة قلب محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، والمصباح النور الّذي فيه العلم ، والزجاجة عليّ أو قلبه ، والشجرة المباركة الزيتونة الّتي لا شرقيّة ولا غربيّة إبراهيم عليه السلام ما كان يهوديّاً و لا نصرانيّاً ، و قوله : « يكاد زيتها يضيء » الخ يكاد أولادهم أن يتكلّموا بالنبوّة وإن لم ينزل عليهم ملك .

و ما رواه في التوحيد بإسناده إلى عيسى بن راشد عن الباقر عليه السلام و فيه أنّ المشكاة نور العلم في صدر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، و الزجاجة صدر عليّ « يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار » يكاد العالم من آل محمّد يتكلّم بالعلم قبل أن يسأل « نور على نور » إمام مؤيّد بنور العلم والحكمة في إثر الإمام من آل محمّد .

و ما في الكافي بإسناده عن صالح بن سهل الهمدانيّ عن الصادق عليه السلام و فيه أنّ المشكاة فاطمة عليها السلام ، و المصباح الحسن عليه السلام ، و الزجاجة الحسين عليه السلام ، و الشجرة المباركة إبراهيم عليه السلام ، ولا شرقيّة ولا غربيّة ما كان يهوديّاً ولا نصرانيّاً ، ونور على نور إمام بعد إمام ، و يهدي الله لنوره من يشاء يهدي الله للأئمّة عليهم السلام من يشاء .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في قوله: « زيتونة لا شرقيّة ولا غربيّة » قال : قلب إبراهيم لا يهوديّ ولا نصرانيّ .

أقول : و هو من قبيل ذكر بعض المصاديق ، و قد ورد مثله من طرق الشيعة عن بعض أئمّة أهل البيت عليهم السلام كما تقدّم .

وفيه أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك و بريدة قالا : قرء رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم هذه الآية « في بيوت أذن الله أن ترفع » فقام إليه رجل فقال : أيّ بيوت هذه يا رسول الله ؟ قال : بيوت الأنبياء . فقام إليه أبوبكر فقال : يارسول الله هذا البيت منها لبيت عليّ و فاطمة ؟ قال : نعم من أفاضلها .

أقول : و رواه في المجمع عنه صلى الله عليه وآله وسلم مرسلا ، و روى هذا المعنى القمّي في تفسيره بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام ولفظه : قال : هي بيوت الأنبياء وبيت عليّ عليه السلام منها . و هو على أيّ حال من قبيل ذكر بعض المصاديق على ما تقدّم .

و في نهج البلاغة من كلام له عليه السلام عند تلاوته « رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » و إنّ للذكر لأهلا أخذوه من الدنيا بدلا فلم يشغلهم تجارة ولا بيع عنه يقطعون به أيّام الحياة ، و يهتفون بالرواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين ، و يأمرون بالقسط و يأتمرون به وينهون عن المنكر ويتناهون عنه .

كأنّما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها فشاهدوا ماوراء ذلك فكأنّما اطّلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه ، و حقّقت القيامة عليهم عذابها فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا حتّى كأنّهم يرون مالايرى الناس ويسمعون مالايسمعون .

وفي المجمع في قوله تعالى : « رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع » و روي عن أبي جعفر و أبي عبدالله عليهما السلام : أنّهم قوم إذا حضرت الصلاة تركوا التجارة و انطلقوا إلى الصلاة وهم أعظم أجرا ممّن لم يتّجر .

أقول : أي لم يتّجر واشتغل بذكر الله كما في روايات اُخر .

و في الدرّ المنثور عن ابن مردويه وغيره عن أبي هريرة و أبي سعيد الخدريّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى : « رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » قال: هم الّذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله .

أقول : كأنّ الرواية غير تامّة و تمامها فيما روي عن ابن عبّاس قال : كانوا رجالا يبتغون من فضل الله يشترون و يبيعون فإذا سمعوا النداء بالصلاة ألقوا ما بأيديهم و قاموا إلى المسجد فصلّوا .

و في المجمع في قوله تعالى : «والله سريع الحساب » وسئل أمير المؤمنين عليه السلام: كيف يحاسبهم في حالة واحدة ؟ فقال : كما يرزقهم في حالة واحدة .

و في روضة الكافي بإسناده عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبدالله عن أبيه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ الله عزّ و جلّ جعل السحاب

غرابيل المطر هي تذيب البرد حتّى يصير ماء لكي لايضرّ شيئاً يصيبه ، والّذي ترون فيه من البرد والصواعق نقمة من الله عزّ و جلّ يصيب بها من يشاء من عباده .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « فمنهم من يمشي على بطنه و منهم من يمشي على رجلين و منهم من يمشي على أربع » قال : على رجلين الناس ، وعلى بطنه الحيّات ، و على أربع البهائم ، و قال أبو عبدالله عليه السلام : و منهم من يمشي على أكثر من ذلك .

☆ ☆ ☆

وَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللّٰهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ اَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلّٰى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَ مَا اُولٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَ اِذَا دُعُوا اِلَى اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ اِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَاِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَاْتُوا اِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) اَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ اَمِ ارْتَابُوا اَمْ يَخَافُونَ اَنْ يَحِيفَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ بَلْ اُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) اِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ اِذَا دُعُوا اِلَى اللّٰهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ اَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَ اَطَعْنَا وَ اُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَ مَنْ يُطِعِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ اللّٰهَ وَ يَتَّقْهِ فَاُولٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَ اَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ اَيْمَانِهِمْ لَئِنْ اَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ اِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ اَطِيعُوا اللّٰهَ وَاَطِيعُوا الرَّسُولَ فَاِنْ تَوَلَّوْا فَاِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَاِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ اِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْاَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضٰى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ اَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَاُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَ اَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَ آتُوا الزَّكٰوةَ وَ اَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْاَرْضِ وَ مَاْوٰيهُمُ النَّارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) .

﴿ بيان ﴾

تتضمّن الآيات افتراض طاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و أنّها لا تفارق طاعة الله تعالى ، و وجوب الرجوع إلى حكمه وقضائه وأنّ الإعراض عنه آية النفاق ، و تختتم بوعد جميل للصالحين من المؤمنين و إيعاد للكافرين .

قوله تعالى : « و يقولون آمنّا بالله و بالرسول و أطعنا ثمّ يتولّى فريق منهم من بعد ذلك » الخ بيان حال بعض المنافقين حيث أظهروا الإيمان والطاعة أوّلا ثمّ تولّوا ثانيا فالإيمان بالله هو العقد على توحيده و ما شرع من الدين ، و الايمان بالرسول هو العقد على كونه رسولا مبعوثا من عند ربّه أمره أمره و نهيه نهيه و حكمه حكمه من غير أن يكون له من الأمر شيء ، و طاعة الله هي تطبيق العمل بما شرعه ، وطاعة الرسول الايتمار والانتهاء عند أمره ونهيه وقبول ما حكم به وقضى عليه .

فالإيمان بالله وطاعته موردهما نفس الدين والتشرّع به ، والإيمان بالرسول و طاعته موردهما ما أخبر به الرسول من الدين بما أنّه يخبر به و ما حكم به وقضى عليه في المنازعات والانقياد له في ذلك كلّه .

فبين الإيمانين والطاعتين فرق ما من حيث سعة المورد و ضيقه ، و يشير إلى ذلك ما في العبارة من نوع من التفصيل حيث قيل : « آمنّا بالله و بالرسول » فاُشير إلى تعدّد الإيمان والطاعة ولم يقل : آمنّا بالله والرسول بحذف الباء ، والإيمانان مع ذلك متلازمان لا ينفكّ أحدهما عن الآخر قال تعالى : « ويريدون أن يفرّقوا بين الله و رسله » النساء : ١٥٠ .

فقوله : « و يقولون آمنّا بالله وبالرسول و أطعنا » أي عقدنا القلوب على دين الله و تشرّعنا به و على أنّ الرسول لا يخبر إلّا بالحقّ ولا يحكم إلّا بالحقّ .

و قوله : «ثمّ يتولّى فريق منهم من بعد ذلك» أي ثمّ يعرض طائفة من هؤلاء القائلين : « آمنّا بالله و بالرسول و أطعنا » عن مقتضى قولهم من بعد ما قالوا ذلك .

و قوله : «وما اُولئك بالمؤمنين » أي ليس اُولئك القائلون بالمؤمنين ، والمشار

إليه باسم الإشارة القائلون جميعا لاخصوص الفريق المتولّين على ما يعطيه السياق لأنّ الكلام مسوق لذمّ الجميع.

قوله تعالى: «و إذا دعوا إلى الله و رسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون» يشهد سياق الآية أنّ الآيات إنّما نزلت في بعض من المنافقين دعوا إلى حكم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في منازعة وقعت بينه و بين غيره فأبى الرجوع إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و في ذلك نزلت الآيات.

والنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إنّما كان يحكم بينهم بحكم الله على ما أراه الله كما قال تعالى: «إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين الناس بما أراك الله» النساء: ١٠٥. فللحكم نسبة إليه بالمباشرة و نسبة إلى الله سبحانه من حيث كان الحكم في ضوء شريعته و بنصبه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم للحكم والقضاء.

و بذلك يظهر أنّ المراد بالدعوة إلى الله ليحكم بينهم هي الدعوة إلى المتابعة لما يقتضيه شرعه تعالى في مورد النزاع، و بالدعوة إلى رسوله ليحكم بينهم هي الدعوة إلى متابعة ما يقضي عليه بالمباشرة، و أنّ الظاهر أنّ ضمير «ليحكم» للرسول، و إنّما اُفرد الفاعل ولم يثنّ إشارة إلى أنّ حكم الرسول حكمه تعالى.

والآية بالنسبة إلى الآية السابقة كالخاصّ بالنسبة إلى العامّ فهي تقصّ إعراضا معيّنا منهم والإعراض المذكور في الآية السابقة منهم إعراض مطلق.

قوله تعالى: «و إن يكن لهم الحقّ يأتوا إليه مذعنين» الإذعان الانقياد، و ظاهر السياق و خاصّة قوله: «يأتوا إليه» أنّ المراد بالحقّ حكم الرسول بدعوى أنّه حقّ لاينفكّ عنه، والمعنى وإن يكن الحقّ الّذي هو حكم الرسول لهم لا عليهم يأتوا إلى حكمه منقادين فليسوا بمعرضين عنه إلّا لكونه عليهم لالهم، ولازم ذلك أنّهم يتّبعون الهوى ولايريدون اتّباع الحقّ.

قوله تعالى: «أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم و رسوله» إلى آخر الآية. الحيف الجور.

و ظاهر سياق الآيات أنّ المراد بمرض القلوب ضعف الإيمان كما في قوله

تعالى : « فلا تخضعن بالقول فيطمع الّذي في قلبه مرض » الأحزاب : ٣٢ ، وقوله: « لئن لم ينته المنافقون والّذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينّك بهم» الأحزاب : ٦٠ و غيرذلك من الآيات .

وأمّا كون المراد بمرض القلوب النفاق كما فسّر به فيدفعه قوله في صدر الآيات: « و ما اُولئك بالمؤمنين » فإنّه حكم بنفاقهم ، ولامعنى مع إثبات النفاق للاستفهام عن النفاق ثمّ الإضراب عنه بقوله : « بل اُولئك هم الظالمون » .

و قوله : « أم ارتابوا » ظاهر إطلاق الارتياب و هوالشكّ أن يكون المراد هو شكّهم في دينهم بعدالإيمان دون الشكّ في صلاحية النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم للحكم أوعدله ونحو ذلك لكونها بحسب الطبع محتاجة إلى بيان بنصب قرينة .

و قوله : « أم يخافون أن يحيف الله عليهم و رسوله » أي أم يعرضون عن ذلك لأنّهم يخافون أن يجورالله عليهم و رسوله لكون الشريعة الإلهيّة الّتي يتبعها حكم النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم مبنيّة على الجور و إماتة الحقوق الحقّة ، أو لكون النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لايراعي الحقّ في قضائه .

و قوله : « بل اُولئك هم الظالمون » إضراب عن الترديد السابق بشقوقه الثلاثة و ذلك أنّ سبب إعراضهم لوكان مرض قلوبهم أو ارتيابهم لم يأتوا إليه مذعنين على تقدير كون الحقّ لهم بل كانوا يعرضون كان الحقّ لهم أو عليهم ، وأمّا الخوف من أن يحيف الله عليهم و رسوله فلا موجب له فالله بري من الحيف و رسوله فليس إعراضهم عن إجابة الدعوة إلى حكم الله ورسوله إلّا لكونهم حقّ عليهم أنّهم ظالمون .

والظاهر أنّ المراد بالظلم التعدّي عن طور الإيمان مع الإقرار به قولا كما قال آنفا : « و ما اُولئك بالمؤمنين » أو خصوص التعدّي إلى حقوق الغير الماليّة ، و لوكان المراد مطلق الظلم لم يصحّ الإضراب عن الشقوق الثلاثة السابقة إليه لأنّها من مطلق الظلم ، و يدلّ عليه أيضا الآية التالية .

و قد بان بما تقدّم أنّ الترديد في أسباب الإعراض على تقدير عدم النفاق بين الاُمور الثلاثة حاصر والأقسام متغايرة فإنّ محصّل المعنى أنّهم منافقون غير

مؤمنين إذ لو لم يكونوا كذلك كان إعراضهم إمّا لضعف إيمانهم وإمّا لزواله بالارتياب وإمّا للخوف من غير سبب يوجبه فإنّ الخوف من الرجوع إلى حكم الحاكم إنّما يكون إذا احتمل حيفه في حكمه و ميله عن الحقّ إلى الباطل ولا يحتمل ذلك في حكم الله و رسوله.

و قد طال البحث في كلامهم عمّا في الآية من الترديد و الإضراب و لعلّ فيما ذكرناه كفاية، ومن أراد أزيد من ذلك فليراجع المطوّلات.

قوله تعالى: « إنّما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله و رسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا و أطعنا » إلى آخر الآية سياق قوله: « إنّما كان قول المؤمنين » و قد اُخذ فيه « كان » و وصف الإيمان في « المؤمنين » يدلّ على أنّ ذلك من مقتضيات طبيعة الإيمان فإنّ مقتضى الإيمان بالله و رسوله و عقد القلب على اتّباع ما حكم به الله و رسوله التلبية للدعوة إلى حكم الله و رسوله دون الردّ.

و على هذا فالمراد بقوله: «إذا دعوا إلى الله و رسوله ليحكم بينهم» دعوة بعض الناس ممّن ينازعهم كدعوة بعض المتنازعين المتخاصمين الآخر إلى التحاكم إلى الله و رسوله ليحكم بينهم، و يدلّ عليه تصدير الجملة بلفظة « إذا » و لو كان المراد به دعوة الله و رسوله بمعنى إيجاب رجوع المؤمنين في منازعاتهم إلى حكم الله و رسوله كان ذلك حكما مؤبّدا لا حاجة فيه إلى التقييد بالزمان.

و بذلك يظهر ضعف ما قيل: إنّ فاعل « دعوا » المحذوف هو الله و رسوله و المعنى إذا دعاهم الله و رسوله. نعم مرجع الدعوة بأخرة إلى دعوة الله ورسوله.

و كيف كان تقصر الآية قول المؤمنين على تقدير الدعوة إلى حكم الله و رسوله في قولهم: سمعنا و أطعنا و هو سمع وطاعة للدعوة الإلهيّة سواء فرض الداعي هو أحد المتنازعين للآخر أو فرض الداعي هو الله و رسوله أو كان المراد هو السمع و الطاعة لحكم الله و رسوله و إن كان بعيدا.

و انحصار قول المؤمنين عند الدعوة في « سمعنا و أطعنا » يوجب كون الردّ للدعوة ليس من قول المؤمنين فيكون تعدّيا عن طور الإيمان كما يفيده قوله:

«بل اُولئك هم الظالمون» على ما تقدّم فتكون الآية في مقام التعليل للإضراب في ذيل الآية السابقة.

و قد ختمت الآية بقوله: «و اُولئك هم المفلحون» و فيه قصر الفلاح فيهم لاقصرهم في الفلاح.

قوله تعالى: «و من يطع الله ورسوله ويخش الله ويتّقه فاُولئك هم الفائزون» ورود الآية في سياق الآيات السابقة وانضمامها إلى سابقتها يعطي أنّها في مقام التعليل ـ كالكبرى الكلّيّة ـ للآية السابقة حيث حكمت بفلاح من أجاب الدعوة إلى حكم الله ورسوله بالسمع والطاعة بقيد الإيمان كأنّه قيل: إنّما أفلح من أجاب إلى حكم الله و رسوله و هو مؤمن لأنّه مطيع لله و لرسوله و هو مؤمن حقّاً في باطنه خشية الله و في ظاهره تقواه ومن يطع الله و رسوله فيما قضى عليه ويخش الله ويتّقه فاُولئك هم الفائزون، والفوز هو الفلاح.

و تشمل الآية الداعي إلى حكم الله ورسوله من المتنازعين كما يشمل المدعوّ منهما إذا أجاب بالسمع و الطاعة ففيها زيادةً على تعليل حكم الآية السابقة تعميم الوعد الحسن للداعي والمدعوّ جميعا.

قوله تعالى: «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجنّ قل لا تقسموا طاعة معروفة» إلى آخر الآية الجهد الطاقة، والتقدير في قوله: «أقسموا بالله جهد أيمانهم» أقسموا بالله مبلغ جهدهم في أيمانهم والمراد أقسموا بأغلظ أيمانهم.

والظاهر أنّ المراد بقوله: «ليخرجنّ» الخروج إلى الجهاد على ما وقع في عدّة من الآيات كقوله: «ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين لو خرجوا فيكم مازادوكم إلّا خبالا» التوبة: ٤٧.

و قوله: «قل لا تقسموا» نهي عن الإقسام، و قوله: «طاعة معروفة» خبر لمبتدء محذوف هو الضمير الراجع إلى الخروج و الجملة في مقام التعليل للنهي عن الأقسام ولذا جيىء بالفصل، وقوله: «والله خبير بما تعملون» من تمام التعليل.

و معنى الآية: و أقسموا بالله بأغلظ أيمانهم لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد

ليخرجنّ قل لهم : لاتقسموا فالخروج إلى الجهاد طاعة معروفة من الدين ـ و هو واجب لاحاجة إلى إيجابه بيمين مغلّظ ـ و إن تكونوا تقسمون لأجل أن ترضوا الله و رسوله بذلك فالله خبير بما تعملون لايغرّه إغلاظكم في الأيمان .

و قيل : المراد بالخروج خروجهم من ديارهم و أموالهم لوحكم الرسول بذلك وقوله : «طاعة معروفة » مبتدء لخبر محذوف والتقدير طاعة معروفة للنبيّ خير من إقسامكم ، و معنى الآية «أقسموا بالله بأغلظ الأيمان لئن أمرتهم وحكمت عليهم في منازعاتهم بالخروج من ديارهم و أموالهم ليخرجنّ منها قل لهم : لاتقسموا لأنّ طاعة حسنة منكم للنبيّ خير من إقسامكم بالله و الله خبير بماتعملون .

و فيه أنّ هذا المعنى و إن كان يؤكّد اتّصال الآية بما قبلها بخلاف المعنى السابق لكنّه لايلائم التصريح السابق بردّهم الدعوة إلى الله و رسوله ليحكم بينهم لأنّهم إذ كانوا تولّوا و أعرضوا عن حكم الله و رسوله لم يكن يسعهم أن يقسموا للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لئن أمرهم في حكمه بالخروج من ديارهم و أموالهم ليخرجنّ و هو ظاهر، اللّهمّ إلّا أن يكون المقسمون فريقا آخر منهم غير الرادّين للدعوة المعرضين عن الحكم ، وحينئذ كان حمل « ليخرجنّ » على هذا المعنى لادليل يدلّ عليه .

قوله تعالى : « قل أطيعوا الله و أطيعوا الرسول فإن تولّوا فإنّما عليه ما حمّل و عليكم ما حمّلتم » إلى آخر الآية أمر بطاعة الله فيما أنزل من الدين ، وأمر بطاعة الرسول فيما يأتيهم به من ربّهم و يأمرهم به في أمر دينهم و دنياهم ، وتصدير الكلام بقوله : « قل » إشارة إلى أنّ الطاعة جميعاً لله ، و قد أكّده بقوله : « وأطيعوا الرسول» دون أن يقول : و أطيعوني لأنّ طاعة الرسول بما هو طاعة الرسول طاعة المرسل ، و بذلك تتمّ الحجّة .

و لذلك عقّب الكلام :

أوّلا بقوله : « فإن تولّوا فإنّما عليه ما حمّل و عليكم ما حمّلتم » أي فإن تتولّوا و تعرضوا عن طاعة الرسول لم يضرّ ذلك الرسول فإنّما عليه ما حمّل من التكليف ولايمسّكم منه شيء وعليكم ما حمّلتم من التكليف ولايمسّه منه شيء فإنّ

الطاعة جميعالله سبحانه .

و ثانيا بقوله : « وإن تطيعوه تهتدوا » أي و إن كان لكلٍّ منكم ومنه ما حمّل لكن إن تطيعوا الرسول تهتدوا لأنّ ما يجيء به إليكم و ما يأمركم به من الله و بأمره ، والطاعة لله و فيه الهداية .

و ثالثا بقوله : « و ما على الرسول إلّا البلاغ المبين » و هو بمنزلة التعليل لما تقدّمه أي إنّ ما حمّله الرسول من التكليف هو التبليغ فحسب فلا بأس عليه إن خالفتم ما بلّغ ، و إذكان رسولا لم يحتمل إلّا التبليغ فطاعته طاعة من أرسله وفي طاعة من أرسله و هوالله سبحانه اهتداؤكم .

قوله تعالى : « وعدالله الّذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم » إلى آخر الآية .

ظاهر وقوع الآية موقعها أنّها نزلت في ذيل الآيات السابقة من السورة وهي مدنيّة ولم تنزل بمكّة قبل الهجرة على ما يؤيّده سياقها و خاصّة ذيلها .

فالآية ـ على هذا ـ و عد جميل للّذين آمنوا و عملوا الصالحات أنّ الله تعالى سيجعل لهم مجتمعا صالحا يخصّ بهم فيستخلفهم في الأرض و يمكّن لهم دينهم و يبدلهم من بعد خوفهم أمنا لايخافون كيد منافق ولاصدّ كافر يعبدونه لايشركون به شيأ .

فقوله : « وعدالله الّذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات » من فيه تبعيضيّة لابيانيّة و الخطاب لعامّة المسلمين و فيهم المنافق و المؤمن و في المؤمنين منهم من يعمل الصالحات ومن لايعمل الصالحات ، و الوعد خاصّ بالّذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات محضا .

و قوله : « ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم » إن كان المراد بالاستخلاف إعطاء الخلافة الإلهيّة كما ورد في آدم و داود و سليمان عليهم السلام قال تعالى : «إنّي جاعل في الأرض خليفة » البقرة : ٣٠ ، وقال : « يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض » ص : ٢٦ ، و قال : « و ورث سليمان داود » النمل : ١٦ فالمراد

بالّذين من قبلهم خلفاء الله من أنبيائه وأوليائه ولايخلو من بعد كما سيأتي .

و إن كان المراد به إيراث الأرض و تسليط قوم عليها بعد قوم كما قال : « إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده و العاقبة للمتّقين » الاعراف ١٢٨ وقال : « أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون » الأنبياء : ١٠٥ فالمراد بالّذين من قبلهم المؤمنون من اُمم الأنبياء الماضين الّذين أهلك الله الكافرين والفاسقين منهم و نجّى الخلّص من مؤمنيهم كقوم نوح وهود وصالح وشعيب كما أخبر عن جمعهم في قوله تعالى : « قال الّذين كفروا لرسلهم لنخرجنّكم من أرضنا أولتعودنّ في ملّتنا فأوحى إليهم ربّهم لنهلكنّ الظالمين ولنسكننّكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد » إبراهيم : ١٤ فهؤلا الّذين أخلصوا لله فنجّاهم فعقدوا مجتمعا صالحا وعاشوا فيه حتّى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم .

و أما قول من قال : إنّ المراد بالّذين استخلفوا من قبلهم بنو إسرائيل لمّا أهلك الله فرعون وجنوده فأورثهم أرض مصر والشام و مكّنهم فيها كما قال تعالى فيهم : « و نريد أن نمنّ على الّذين استضعفوا في الأرض و نجعلهم أئمّة و نجعلهم الوارثين و نمكّن لهم في الأرض » القصص : ٦ .

ففيه أنّ المجتمع الإسرائيلي المنعقد بعد نجاتهم من فرعون وجنوده لم يصف من الكفر والنفاق والفسق ولم يخلص للّذين آمنوا و عملوا الصالحات ولا حيناً على ما ينصّ عليه القرآن الكريم في آيات كثيرة ، ولا وجه لتشبيه استخلاف الّذين آمنوا و عملوا الصالحات باستخلافهم و فيهم الكافر والمنافق والطالح والصالح .

و لو كان المراد تشبيه أصل استخلافهم بأصل استخلاف الّذين من قبلهم ـ وهم بنو إسرائيل ـ كيفما كان لم يحتج إلى إشخاص المجتمع الإسرائيلي للتشبيه به و في زمن نزول الآية و قبل ذلك اُمم أشدّ قوّة وأكثر جمعا منهم كالروم و الفارس و كلدة وغيرهم وقد قال تعالى في عاد الاُولى و ثمود : « إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح » الأعراف : ٦٩ ، و قال : « إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد » الأعراف : ٧٤ ، و قد خاطب بذلك الكفّار من هذه الاُمّة فقال : « هو الّذي جعلكم خلائف

الأرض » الأنعام : ١٦٥ و قال : « هو الّذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره » فاطر : ٣٩ .

فإن قلت : لم لايجوز أن يكون التشبيه ببني إسرائيل ثمّ يؤدّى حقّ هذا المجتمع الصالح بما يعقّبه من قوله : « وليمكّننّ لهم دينهم » إلى آخر الوعد ؟

قلت : نعم ولكن لا موجب حينئذ لاختصاص استخلاف بني إسرائيل لأن يشبّه به و أن يكون المراد بالّذين من قبلهم بني إسرائيل فقط كما تقدّم .

و قوله : « و ليمكّننّ لهم دينهم الّذي ارتضى لهم » تمكين الشيء إقراره في مكان و هو كناية عن ثبات الشيء من غير زوال و اضطراب و تزلزل بحيث يؤثّر أثره من غير مانع ولاحاجز فتمكّن الدين هو كونه معمولا به في المجتمع من غير كفر به و استهانة بأمره ، و مأخوذاً بأُصول معارفه من غير اختلاف و تخاصم و قد حكم الله سبحانه في مواضع من كلامه أنّ الاختلاف في الدين من بغي المختلفين كقوله : « وما اختلف فيه إلّا الّذين اُوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغيا بينهم » البقرة :٢١٢ .

و المراد بدينهم الّذي ارتضى لهم دين الإسلام ، و أضاف الدين إليهم تشريفا لهم ولكونه من مقتضى فطرتهم .

و قوله : « و ليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمنا » هو كقوله : « و ليمكّننّ لهم » عطف على قوله : « ليستخلفنّهم » و أصل المعنى وليبدّلنّ خوفهم أمنا فنسبة التبديل إليهم إمّا على المجاز العقليّ أوعلى حذف مضاف يدلّ عليه قوله : « من بعد خوفهم » والتقدير و ليبدّلنّ خوفهم ، أو كون « أمنا » بمعنى آمنين .

و المراد بالخوف على أيّ حال ما كان يقاسيه المؤمنون في صدر الإسلام من الكفّار والمنافقين .

و قوله : « يعبدونني لا يشركون بي شيأ » الأوفق بالسياق أن يكون حالا من ضمير « وليبدّلنّهم » أي و ليبدّلنّ خوفهم أمنا في حال يعبدونني لا يشركون بي شيأ .

والالتفات في الكلام من الغيبة إلى التكلّم ، و تأكيد « يعبدونني » بقوله :

« لايشركون بي شيأ » و وقوع النكرة ـ شيأ ـ في سياق النفي الدالّ على نفي الشرك على الإطلاق كلّ ذلك يقضي بأنّ المراد عبادتهم لله عبادة خالصة لايداخلها شرك جليّ أوخفيّ و بالجملة يبدّل الله مجتمعهم مجتمعا أمنا لايعبد فيه إلّا الله ولا يتّخذ فيه ربّ غيره .

و قوله : « و من كفر بعد ذلك فاُولئك هم الفاسقون » ظاهر السياق كون « ذلك » إشارة إلى الموعود والأنسب على ذلك كون « كفر» من الكفران مقابل الشكر ، والمعنى و من كفر ولم يشكرالله بعد تحقّق هذا الوعد بالكفر أوالنفاق أو سائرالمعاصي الموبقة فاُولئك هم الفاسقون الكاملون في الفسق و هو الخروج عن زيّ العبوديّة .

و قد اشتدّالخلاف بين المفسّرين في الآية .

فقيل : إنّها واردة في أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و قد أنجز الله وعده لهم باستخلافهم في الأرض و تمكين دينهم وتبديل خوفهم أمناً بما أعزّالإسلام بعدرحلة النبيّ في أيّام الخلفاء الراشدين ، و المراد باستخلافهم استخلاف الخلفاء الأربعة بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أوالثلاثة الاُول منهم ، و نسبة الاستخلاف إلى جميعهم مع اختصاصه ببعضهم و هم الأربعة أوالثلاثة من قبيل نسبة أمر البعض إلى الكلّ كقولهم : قتل بنوفلان و إنّما قتل بعضهم .

و قيل : هي عامّةلاُمّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ، والمراد باستخلافهم و تمكين دينهم وتبديل خوفهم أمنا إيراثهم الأرض كما أورثها الله الاُمم الّذين كانوا قبلهم أو استخلاف الخلفاء بعدالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على اختلاف التقرير ـ و تمكين الإسلام و انهزام أعداء الدين و قد أنجزالله وعده بما نصرالإسلام و المسلمين بعد الرحلة ففتحوا الأمصار و سخّروا الأقطار .

و على القولين الآية من ملاحم القرآن حيث أخبر بأمر قبل أوان تحقّقه ولم يكن مرجوّا ذلك يومئذ .

وقيل : إنّها في المهديّ الموعود عليه السلام الّذي تواترت الأخبار على أنّه سيظهر

فيملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما و جورا ، و إنّ المراد بالّذين آمنوا و عملوا الصالحات النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم والأئمّة من أهل بيته عليهم السلام .

و الّذي يعطيه سياق الآية الكريمة على ما تقدّم من البحث بالتحرّز عن المسامحات الّتي ربّما يرتكبها المفسّرون في تفسير الآيات هو أنّ الوعد لبعض الأمّة لا لجميعها ولا لأشخاص خاصّة منهم و هم الّذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات فالآية نصّ في ذلك ، ولا قرينة من لفظ أو عقل يدلّ على كونهم هم الصحابة أو النبيّ و أئمّة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام ، ولا على أنّ المراد بالّذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات جميع الأمّة وإنّما صرف الوعد إلى طائفة خاصّة منهم تشريفا لهم أو لمزيد العناية بهم فهذا كلّه تحكّم من غير وجه .

و المراد باستخلافهم في الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم عقد مجتمع مؤمن صالح منهم يرثون الأرض كما ورثها الّذين من قبلهم من الأمم الماضين أولي القوّة والشوكة ، وهذا الاستخلاف قائم بمجتمعهم الصالح من دون أن يختصّ به أشخاص منهم كما كان كذلك في الّذين من قبلهم ، وأمّا إرادة الخلافة الإلهيّة بمعنى الولاية على المجتمع كما كان لداود و سليمان و يوسف عليهم السلام و هي السلطنة الإلهيّة فمن المستبعد أن يعبّر عن أنبيائه الكرام بلفظ « الّذين من قبلهم » وقد وقعت هذه اللفظة أوما بمعناها في أكثر من خمسين موضعا من كلامه تعالى ولم يقصد ولا في واحد منها الأنبياء الماضون مع كثرة ورود ذكرهم في القرآن نعم ذكرهم الله بلفظ « رسل من قبلك » أو « رسل من قبلي » أو نحوهما بالإضافة إلى الضمير الراجع إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم .

والمراد بتمكين دينهم الّذي ارتضى لهم كما مرّ ثبات الدين على ساقه بحيث لا يزلزله اختلافهم في أصوله ، ولا مساهلتهم في إجراء أحكامه ، و العمل بفروعه و خلوص المجتمع من وصمة النفاق فيه .

والمراد من تبديل خوفهم أمنا انبساط الأمن والسلام على مجتمعهم بحيث لا يخافون عدوّا في داخل مجتمعهم أو خارجه متجاهرا أو مستخفيا على دينهم

أو دنياهم .

و قول بعضهم : إنّ المراد الخوف من العدوّ الخارج من مجتمعهم كما كان المسلمون يخافون الكفّار والمشركين القاصدين إطفاء نورالله و إبطال الدعوة .

تحكّم مدفوع بإطلاق اللفظ من غير قرينة معيّنة للمدّعى . على أنّ الآية في مقام الامتنان وأيّ امتنان على قوم لا عدوّ يقصدهم من خارج و قد أحاط بمجتمعهم الفساد و عمّته البليّة لا أمن لهم في نفس ولا عرض ولا مال ، الحرّيّة فيه للقدرة الحاكمة والسبق فيه للفئة الباغية .

و المراد بكونهم يعبدون الله لا يشركون به شيأ ما يعطيه حقيقة معنى اللفظ و هو عموم إخلاص العبادة و انهدام بنيان كلّ كرامة إلّا كرامة التقوى .

و المتحصّل من ذلك كلّه أنّ الله سبحانه يعد الّذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات أن سيجعل لهم مجتمعا صالحا خالصا من وصمة الكفر والنفاق والفسق يرث الأرض لا يحكم في عقائد أفراده عامّة ولا أعمالهم إلّا الدين الحقّ يعيشون آمنين من غير خوف من عدوّ داخل أو خارج ، أحرارا من كيد الكائدين و ظلم الظالمين و تحكّم المتحكّمين .

و هذا المجتمع الطيّب الطاهر على ماله من صفات الفضيلة والقداسة لم يتحقّق ولم ينعقد منذ بعث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى يومنا هذا و إن انطبق فلينطبق على زمن ظهور المهديّ عليه السلام على ماورد من صفته في الأخبار المتواترة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و أئمّة أهل البيت عليهم السلام لكن على أن يكون الخطاب للمجتمع الصالح لا له عليه السلام وحده .

فإن قلت : ما معنى الوعد حينئذ للّذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات وليس المهديّ عليه السلام أحد المخاطبين حين النزول ولا واحد من أهل زمان ظهوره بينهم ؟

قلت : فيه خلط بين الخطابات الفرديّة والاجتماعيّة أعني الخطاب المتوجّه إلى أشخاص القوم بما هم أشخاص بأعيانهم والخطاب المتوجّه إليهم بما هم قوم على نعت كذا فالأوّل لا يتعدّى إلى غير أشخاصهم ولا ما تضمّنه من وعد أو وعيد أو غير ذلك يسري إلى غيرهم ، والثاني يتعدّى إلى كلّ من اتّصف بما ذكر فيه من الوصف

و يسري إليه ما تضمّنه من الحكم ، وخطاب الآية من القبيل الثاني على ماتقدّم .

ومن هذا القبيل أغلب الخطابات القرآنيّة المتوجّهة إلى المؤمنين والكفّار ، و منه الخطابات الذامّة لأهل الكتاب وخاصّة اليهود بما فعله أسلافهم وللمشركين بما صنعه آباؤهم .

و من هذا القبيل خاصّة ما ذكر من الوعد في قوله تعالى : « فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم » الاسراء : ٧ فإنّ الموعودين لم يعيشوا إلى زمن إنجاز هذا الوعد ، و نظيره الوعد المذكور في قول ذي القرنين على ما حكاه الله : « فإذا جاء وعد ربّي جعله دكّا و كان وعد ربّي حقّا » الكهف : ٩٨ و كذا وعده تعالى الناس بقيام الساعة و انطواء بساط الحياة الدنيا بنفخ الصور كما قال : « ثقلت في السماوات والأرض لاتأتيكم إلّا بغتة » الأعراف : ١٨٧ فوعد الصالحين من المؤمنين بعنوان أنّهم مؤمنون صالحون بوعد لايدركه أشخاص زمان النزول بأعيانهم و لمّا يوجد أشخاص المجتمع الّذي يدرك إنجاز الوعد ممّا لاضير فيه البتّة .

فالحقّ أنّ الآية إن اُعطيت حقّ معناها لم تنطبق إلّا على المجتمع الموعود الّذي سينعقد بظهور المهديّ عليه‌السلام و إن سومح في تفسير مفرداتها و جملها و كان المراد باستخلاف الّذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات استخلاف الاُمّة بنوع من التغليب و نحوه ، و بتمكين دينهم الّذي ارتضاه لهم كونهم معروفين في الدنيا بالاُمّة المسلمة وعدّهم الإسلام دينا لهم وإن تفرّقوا فيه ثلاثا و سبعين فرقة يكفّر بعضهم بعضا و يستبيح بعضهم دماء بعض و أعراضهم و أموالهم ، و بتبديل خوفهم أمنا يعبدون الله ولايشركون به شيأ عزّة الاُمّة وشوكتها في الدنيا و انبساطها على معظم المعمورة و ظواهر ما يأتون به من صلاة و صوم و حجّ و إن ارتحل الأمن من بينهم أنفسهم وودّعهم الحقّ والحقيقة ، فالوجه أنّ الموعود بهذا الوعد الاُمّة ، والمراد باستخلافهم ما رزقهم الله من العزّة و الشوكة بعد الهجرة إلى ما بعد الرحلة ولا موجب لقصر ذلك في زمن الخلفاء الراشدين بل يجري فيما بعد ذلك إلى زمن انحطاط الخلافة الإسلاميّة .

وأمّا تطبيق الآية على خلافة الخلفاء الراشدين أو الثلاثة الأُول أو خصوص عليّ عليه‌السلام فلاسبيل إليه البتّة .

قوله تعالى : « و أقيموا الصلاة و آتوا الزكاة و أطيعوا الرسول لعلّكم ترحمون » مناسبة مضمون الآية لما سيقت لبيانه الآيات السابقة تعطي أنّها من تمامها .

فقوله : « وأقيموا الصلاة و آتوا الزكاة » أمر في الحقيقة بطاعته تعالى فيما شرعه لعباده ، وتخصيص الصلاة والزكاة بالذكر لكونهما ركنين في التكاليف الراجعة إلى الله تعالى و إلى الخلق ، و قوله : « و أطيعوا الرسول » إنفاذ لولايته صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في القضاء والحكومة .

و قوله : «لعلّكم ترحمون» تعليل للأمر بما في المأمور به من المصلحة والمعنى - على ما يعطيه السياق - أطيعوا الله و أطيعوا الرسول فانّ في هاتين الطاعتين رجاء أن تشملكم الرحمة الإلهيّة فينجز لكم وعده أو يعجّل لكم إنجازه فانّ ارتفاع النفاق من بين المسلمين و عموم الصلاح والاتّفاق على كلمة الحقّ مفتاح انعقاد مجتمع صالح يدرّ عليهم بكلّ خير .

قوله تعالى : « لا تحسبنّ الّذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار و لبئس المصير » من تمام الآيات السابقة ، و فيها تأكيد ما مرّ من وعد الاستخلاف في الأرض و تمكين الدين و تبديل الخوف أمنا .

يخاطب تعالى نبيّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بعد الوعد - بخطاب مؤكّد - أن لايظنّ أنّ الكفّار معجزون لله في الأرض فيمنعونه بما عندهم من القوّة والشوكة من أن ينجز وعده ، و هذا في الحقيقة بشرى خاصّة بالنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بما أكرم به اُمّته و أنّ أعداءه سينهزمون و يغلبون ولذلك خصّه بالخطاب على طريق الالتفات .

و لكون النهي المذكور في معنى أنّ الكفّار سينتهون عن معارضة الدين و أهله عطف عليه قوله : « ومأواهم النار » الخ كأنّه قيل : هم مقهورون في الدنيا و مسكنهم النار في الآخرة و بئس المصير .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع في قوله تعالى : «و يقولون آمنّا بالله » الآيات قيل : نزلت الآيات في رجل من المنافقين كان بينه و بين رجل من اليهود حكومة فدعاه اليهوديّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و دعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف .

و حكى البلخيّ أنّه كانت بين عليّ وعثمان منازعة في أرض اشتراها من عليّ فخرجت فيها أحجار وأراد ردّها بالعيب فلم يأخذها فقال : بيني و بينك رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال الحكم بن أبي العاص : إن حاكمته إلى ابن عمّه يحكم له فلا تحاكمه إليه فنزلت الآيات ، وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام أوقريب منه .

أقول : وفي تفسير روح المعاني عن الضحّاك أنّ النزاع كان بين عليّ والمغيرة بن وائل وذكر قريبا من القصّة .

و في المجمع في قوله تعالى : « إنّما كان قول المؤمنين » الآية : و روي عن أبي جعفر أنّ المعنيّ بالآية أمير المؤمنين عليه السلام .

و في الدرّ المنثور في قوله تعالى : « فإن تولّوا فإنّما عليه ما حمّل وعليكم ما حمّلتم» الآية أخرج ابن جرير وابن قانع والطبراني عن علقمة بن وائل الحضرميّ عن سلمة بن يزيد الجهنيّ قال : قلت : يا رسول الله أرأيت إن كان علينا اُمراء من بعدك يأخذونا بالحقّ الّذي علينا و يمنعونا الحقّ الّذي جعله الله لنا نقاتلهم و نبغضهم ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : عليهم ما حمّلوا و عليكم ما حمّلتم .

أقول : و في معناه بعض روايات اُخر مرويّة فيه لكن ينبغي أن لا يرتاب في أنّ الإسلام بما فيه من روح إحياء الحقّ و إماتة الباطل يأبى عن إجازة ولاية الظلمة المتظاهرين بالظلم و إباحة السكوت و تحمّل الضيم و الاضطهاد قبال الطغاة والفجرة لمن يجد إلى إصلاح الأمر سبيلا ، و قد اتّضح بالأبحاث الاجتماعيّة اليوم أنّ استبداد الولاة برأيهم و اتّباعهم لأهوائهم في تحكّماتهم أعظم خطرا وأخبث أثرا من إثارة الفتن وإقامة الحروب في سبيل إلجائهم إلى الحقّ والعدل .

وفي المجمع في قوله تعالى : « وعدالله الّذين آمنوا منكم » الآية : و اختلف في الآية والمرويّ عن أهل البيت عليهم السلام أنّها في المهديّ من آل محمّد .

قال : و روى العيّاشيّ بإسناده عن عليّ بن الحسين عليه السلام أنّه قرء الآية و قال : هم والله شيعتنا أهل البيت يفعل ذلك بهم على يدي رجل منّا و هو مهديّ هذه الامّة ، وهوالّذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتّى يلي رجل من عترتي اسمه اسمي يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت ظلما و جورا - و روي مثل ذلك عن أبي جعفر و أبي عبدالله عليهما السلام .

أقول : و بذلك وردت الأخبار عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام ، و قد تقدّم بيان انطباق الآية على ذلك .

و قال في المجمع بعد نقل الرواية : فعلى هذا يكون المراد بالّذين آمنوا و عملوا الصالحات النبيّ وأهل بيته عليهم الصلاة والصلام انتهى و قد عرفت أنّ المراد به عامّ و الرواية لاتدلّ على أزيد من ذلك حيث قال عليه السلام : هم والله شيعتنا أهل البيت يفعل ذلك بهم على يدي رجل منّا الحديث .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن البراء في قوله : « وعدالله الّذين آمنوا منكم » الآية قال : فينا نزلت ونحن في خوف شديد .

أقول : ظاهره أنّ المراد بالّذين آمنوا الصحابة و قد عرفت أنّ الآية لا دلالة فيها عليه بوجه بل الدلالة على خلافه .

و فيه أخرج ابن المنذر و الطبرانيّ في الأوسط و الحاكم و صحّحه و ابن مردويه والبيهقي في الدلائل و الضياء في المختارة عن اُبيّ بن كعب قال : لمّا قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و أصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة فكانوا لايبيتون إلّا في السلاح ولايصبحون إلّا فيه فقالوا : أترون أنّا نعيش حتّى نبيت آمنين مطمئنّين لانخاف إلّا الله فنزلت : « وعدالله الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات » الآية .

أقول : هو لايدلّ على أزيد من سبب النزول و أمّا أنّ المراد بالّذين آمنوا

من هم ؟ وأنّ الله متى أنجز أوينجز هذا الوعد ؟ فلاتعرّض له به .

و نظيرته روايته الاُخرى : لمّا نزلت على النبيّ ﷺ « وعدالله الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات » الآية قال: بشّرهذه الاُمّة بالسنا والرفعة والدين والنصر و التمكين في الأرض فمن عمل منكم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب .

فإنّ تبشير الاُمّة بالاستخلاف لا يستلزم كون المراد بالّذين آمنوا في الآية جميع الاُمّة أوخصوص الصحابة أونفراً معدودا منهم .

و في نهج البلاغة في كلام له لعمر لمّا استشاره لانطلاقه لقتال أهل الفارس حين تجمّعوا للحرب قال عليه السلام : إنّ هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولابقلّة ، و هو دين الله الّذي أظهره ، وجنده الّذي أعزّه وأيّده حتّى بلغ ما بلغ و طلع حيث طلع ، و نحن على موعود من الله تعالى حيث قال عزّ اسمه : وعد الله الّذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض و ليمكّننّ لهم دينهم الّذي ارتضى لهم و ليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمنا .

و الله تعالى منجز وعده وناصرجنده ، ومكان القيّم في الإسلام مكان النظام من الخرز فإن انقطع النظام تفرّق و ربّ متفرّق لم يجتمع ، والعرب اليوم وإن كانوا قليلا فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع فكن قطبا و استدر الرحى بالعرب ، وأصلهم دونك نار الحرب فإنّك إن شخصت من هذه الأرض تنقّضت عليك العرب من أطرافها و أقطارها حتّى يكون ما تدع وراءك من العورات أهمّ إليك ممّا بين يديك ، و كان قد آن للأعاجم أن ينظروا إليك غدا يقولون : هذا أصل العرب فإذا قطعتموه استرحتم فيكون ذاك أشدّ لكلبهم عليك وطمعهم فيك .

فأمّا ما ذكرت من عددهم فإنّا لم نقاتل فيما مضى بالكثرة و إنّما كنّا نقاتل بالنصر والمعونة .

أقول : وقد استدلّ به في روح المعاني على ما ارتضاه من كون المراد بالاستخلاف في الآية ظهور الإسلام و ارتفاع قدره في زمن الخلفاء الراشدين و هو بمعزل عن

ذلك بل دليل على خلافه ، فإنّ ظاهر كلامه أنّ الوعد الإلهي لم يتمّ أمر إنجازه بعد وأنّهم يومئذ في طريقه حيث يقول : والله منجز وعده ، وأنّ الدين لم يمكّن بعد ولا الخوف بدّل أمنا و كيف لا ؟ و هم بين خوفين خوف من تنقّض العرب من داخل و خوف من مهاجمة الأعداء من خارج .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي الشعثاء قال : كنت جالسا مع حذيفة وابن مسعود فقال حذيفة ذهب النفاق إنّما كان النفاق على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، و إنّما هو اليوم الكفر بعد الإيمان فضحك ابن مسعود ثمّ قال : بم تقول ؟ قال : بهذه الآية « وعد الله الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات» إلى آخر الآية .

أقول : ليت شعري أين ذهب منافقوا عهد النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ؟ و شواهد الكتاب العزيز و التاريخ تدلّ على أنّهم ما كانوا بأقلّ من ثلث أهل المدينة و معظمهم بها أصدقوا الإسلام يوم رحلته صلّى الله عليه وآله وسلّم أم تغيّرت آراؤهم في تربّصهم الدوائر وتقليبهم الأمور ؟ .



✡ ✡ ✡

يا ايها الذين آمنوا ليستاذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلوة الفجر و حين تضعون ثيابكم من الظهيرة و من بعد صلوة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الايات والله عليم حكيم (٥٨) و اذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستاذنوا كما استاذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم (٥٩) والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح ان يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة و ان يستعففن خير لهن والله سميع عليم (٦٠) ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على انفسكم ان تاكلوا من بيوتكم او بيوت آبائكم او بيوت امهاتكم او بيوت اخوانكم او بيوت اخواتكم او بيوت اعمامكم او بيوت عماتكم او بيوت اخوالكم او بيوت خالاتكم او ما ملكتم مفاتحه او صديقكم ليس عليكم جناح ان تاكلوا جميعا او اشتاتا فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على انفسكم تحية من عندالله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون (٦١) انما

المؤمنون الّذين آمنوا بالله و رسوله و اذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا حتى يستاذنوه انّ الّذين يستاذنونك اولئك الّذين يؤمنون بالله و رسوله فاذا استاذنوك لبعض شانهم فاذن لمن شئت منهم و استغفر لهم الله انّ الله غفور رحيم (٦٢) لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الّذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الّذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم (٦٣) الا انّ لله ما في السموات والارض قد يعلم ماانتم عليه ويوم يرجعون اليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم (٦٤).

﴿ بيان ﴾

بقيّة الأحكام المذكورة في السورة وتختتم السورة بآخر الآيات و فيها إشارة إلى أنّ الله سبحانه إنّما يشرّع مايشرّع بعلمه وسيظهر و سينكشف لهم حقيقته حين يرجعون إليه .

قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا ليستأذنكم الّذين ملكت أيمانكم » إلى آخر الآية . وضع الثياب خلعها وهو كناية عن كونهم على حال ربّما لايحبّون أن يراهم عليها الأجنبيّ . والظهيرة وقت الظهر والعورة السوآة سمّيت بها لمايلحق الإنسان من انكشافها من العار و كأنّ المراد بها في الآية ما ينبغي ستره .

فقوله : « يا أيّها الّذين آمنوا » الخ تعقيب لقوله سابقا : « يا أيّها الّذين آمنوا لاتدخلوا » الخ القاضي بتوقّف دخول البيت على الإذن و هو كالاستثناء من عمومه في العبيد والأطفال بأنّه يكفيهم الاستيذان ثلاث مرّات في اليوم .

و قوله : « ليستأذنكم الّذين ملكت أيمانكم » أي مرُوهم أن يستأذنوكم للدخول ، و ظاهر الّذين ملكت أيمانكم العبيد دون الإماء وإن كان اللفظ لايأبى

عن العموم بعناية التغليب و به وردت الرواية كما سيجيء .

و قوله : « والّذين لم يبلغوا الحلم منكم » يعني المميّزين من الأطفال قبل البلوغ ، والدليل على تقيّدهم بالتمييز قوله بعد : « ثلاث عورات لكم » .

و قوله : « ثلاث مرّات » أي كلّ يوم بدليل تفصيله بقوله : « من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ـ أي وقت الظهر ـ ومن بعد صلاة العشاء » و قد أشار إلى وجه الحكم بقوله : « ثلاث عورات لكم » أي الأوقات الثلاثة ثلاث عورات لكم لاينبغي بالطبع أن يطّلع عليكم فيها غيركم .

و قوله : « ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهنّ » أي لامانع لكم من أن لا تأمروهم بالاستيذان ولالهم من أن لايستأذنوكم في غير هذه الأوقات ، و قد أشار إلى جهة نفي الجناح بقوله : « طوّافون عليكم بعضكم على بعض » أي هم كثير الطوف عليكم بعضكم يطوف على بعض المخدمة فالاستيذان كلّما دخل حرج عادة فليكتفوا فيه بالعورات الثلاث .

ثمّ قال : « كذلك يبيّن الله الآيات » أي أحكام دينه الّتي هي آيات دالّة عليه « و الله عليم » يعلم أحوالكم و ما تستدعيه من الحكم « حكيم » يراعي مصالحكم في أحكامه .

قوله تعالى : « و إذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا » الخ بيان أنّ حكم الاستيذان ثلاث مرّات في الأطفال مغيّى بالبلوغ فإذا بلغ الأطفال منكم الحلم بأن بلغوا فليستأذنوا كما استأذن الّذين من قبلهم وهم البالغون من الرجال والنساء الأحرار « كذلك يبيّن الله لكم آياته والله عليم حكيم » .

قوله تعالى : « والقواعد من النساء اللّاتي لايرجون نكاحا » إلى آخر الآية. القواعد جمع قاعدة و هي المرأة الّتي قعدت عن النكاح فلا ترجوه لعدم الرغبة في مباشرتها لكبرها فقوله : « اللّاتي لايرجون نكاحا » وصف توضيحيّ ، و قيل : هي الّتي يئست من الحيض والوصف احترازيّ .

و في المجمع : التبرّج إظهار المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره ، وأصله

الظهور و منه البرج البناء العالي لظهوره .

والآية في معنى الاستثناء من عموم حكم الحجاب والمعنى والكبائر المسنّة من النساء فلا بأس عليهنّ أن لا يحتجبن حال كونهنّ غير متبرّجات بزينة .

و قوله : « وأن يستعففن خير لهنّ » كناية عن الاحتجاب أي الاحتجاب خير لهنّ من وضع الثياب ، و قوله : « والله سميع عليم » تعليل لما شرع بالاسمين أي هو تعالى سميع يسمع ما يسألنه بفطرتهنّ عليم يعلم ما يحتجن إليه من الأحكام .

قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج و لا على الأعرج حرج و لا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم - إلى قوله - أو صديقكم » ظاهر الآية أنّ فيها جعل حقّ للمؤمنين أن يأكلوا من بيوت قراباتهم أو الّتي ائتمنوا عليها أو بيوت أصدقائهم فهم مأذونون في أن يأكلوا منها بمقدار حاجتهم من غير إسراف و إفساد .

فقوله : « ليس على الأعمى حرج - إلى قوله - ولا على أنفسكم » في عطف « على أنفسكم » على ما تقدّمه دلالة على أنّ عدّ المذكورين ليس لاختصاص الحقّ بهم بل لكونهم أرباب عاهات يشكل عليهم أن يكتسبوا الرزق بعمل أنفسهم أحيانا و إلّا فلا فرق بين الأعمى والأعرج والمريض و غيرهم في ذلك .

و قوله : « من بيوتكم أو بيوت آبائكم » الخ في عدّ « بيوتكم » مع بيوت الأقرباء و غيرهم إشارة إلى نفي الفرق في هذا الدين المبنيّ على كون المؤمنين بعضهم أولياء بعض بين بيوتهم أنفسهم و بيوت أقربائهم و ما ملكوا مفاتحه و بيوت أصدقائهم .

على أنّ «بيوتكم» يشمل بيت الابن والزوج كما وردت به الرواية وقوله : « أوما ملكتم مفاتحه » المفاتح جمع مفتح وهو المخزن و المعنى أوالبيت الّذي ملكتم أي تسلّطتم على مخازنه الّتي فيها الرزق كما يكون الرجل قيّما على بيت أوو كيلا أو سلّم إليه مفتاحه .

و قوله : « أو صديقكم » معطوف على ما تقدّمه بتقدير بيت على ما يعلم من

سياقه ، والتقدير أو بيت صديقكم .

قوله تعالى : « ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا » الأشتات جمع شتّ و هو مصدر بمعنى التفرّق استعمل بمعنى المتفرّق مبالغة ثمّ جمع أو صفة بمعنى المتفرّق كالحقّ ، والمعنى لا إثم عليكم أن تأكلوا مجتمعين و بعضكم مع بعض أو متفرّقين ، والآية عامّة وإن كان نزولها لسبب خاصّ كما روي .

و للمفسّرين في هذا الفصل من الآية وفي الفصل الّذي قبلها اختلافات شديدة رأينا الصفح عن إيرادها و الغور في البحث عنها أولى ، و ما أوردناه من المعنى في الفصلين هو الّذي يعطيه سياقهما .

قوله تعالى : « فإذا دخلتم بيوتا فسلّموا على أنفسكم تحيّة من عند الله مباركة طيّبة » الخ لمّا تقدّم ذكر البيوت فرّع عليه ذكر أدب الدخول فيها فقال : « فإذا دخلتم بيوتا » .

فقوله : « فسلّموا على أنفسكم » المراد فسلّموا على من كان فيها من أهلها و قد بدّل من قوله : «على أنفسكم» للدلالة على أنّ بعضهم من بعض فإنّ الجميع إنسان وقد خلقهم الله من ذكر و أُنثى على أنّهم مؤمنون والإيمان يجمعهم ويوحّدهم أقوى من الرحم وأيّ شيء آخر .

وليس ببعيد أن يكون المراد بقوله : «فسلّموا على أنفسكم » أن يسلّم الداخل على أهل البيت و يردّوا السلام عليه .

و قوله : « تحيّة من عند الله مباركة طيّبة » أي حال كون السلام تحيّة من عند الله شرّعها الله و أنزل حكمها ليحيّي بها المسلمون و هو مبارك ذو خير كثير باق وطيّب يلائم النفس فإنّ حقيقة هذه التحيّة بسط الأمن و السلامة على المسلّم عليه و هو أطيب أمر يشترك فيه المجتمعان .

ثمّ ختم سبحانه الآية بقوله : « كذلك يبيّن الله لكم الآيات » وقد مرّ تفسيره « لعلّكم تعقلون » أي تعلموا معالم دينكم فتعملوا بها كما قيل .

قوله تعالى : « إنّما المؤمنون الّذين آمنوا بالله ورسوله و إذا كانوا معه

على أمر جامع لم يذهبوا حتّى يستأذنوه » ذكر قوله « الّذين آمنوا بالله ورسوله » بيانا للمؤمنين على ظهور معناه للدلالة على اتّصافهم بحقيقة المعنى أي إنّما المؤمنون الّذين آمنوا بالله ورسوله بحقيقة الإيمان وأيقنوا بتوحّده تعالى واطمأنّت نفوسهم وتعلّقت قلوبهم برسوله .

و لذلك عقّبه بقوله : « و إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتّى يستأذنوه » والأمر الجامع هوالّذي يجمع الناس للتدبّر في أطرافه والتشاوروالعزم عليه كالحرب ونحوها .

والمعنى و إذا كانوا مع الرسول بالاجتماع عنده على أمر من الاُمور العامّة لم يذهبوا ولم ينصرفوا من عند الرسول حتّى يستأذنوه للذهاب .

و لذلك أيضا عقّبه بقوله : « إنّ الّذين يستأذنونك اُولئك الّذين يؤمنون بالله و رسوله » وهو بمنزلة عكس صدر الآية للدلالة على الملازمة و عدم الانفكاك .

وقوله : « فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم » تخيير منه تعالى لرسوله في أن يأذن لمن شاء ولا يأذن لمن لم يشأ .

و قوله : « واستغفر لهم الله إنّ الله غفور رحيم » أمر له بالاستغفار لهم تطييبا لنفوسهم ورحمة بهم .

قوله تعالى : «لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » إلى آخر الآية . دعاء الرسول هو دعوته الناس إلى أمر من الاُمور كدعوتهم إلى الإيمان والعمل الصالح ، و دعوتهم ليشاورهم في أمر جامع ، و دعوتهم إلى الصلاة جامعة ، وأمرهم بشيء في أمر دنياهم أو اُخراهم فلكلّ ذلك دعاء و دعوة منه صلى الله عليه وآله وسلم .

ويشهد بهذا المعنى قوله ذيلا : « قد يعلم الله الّذين يتسلّلون منكم لواذا » وما يتلوه من تهديد مخالفي أمره صلى الله عليه وآله وسلم كما لا يخفى . وهو أنسب لسياق الآية السابقة فإنّها تمدح الّذين يلبّون دعوته و يحضرون عنده ولا يفارقونه حتّى يستأذنوه و هذه تذمّ و تهدّد الّذين يدعوهم فيتسلّلون عنه لواذا غير مهتمّين بدعائه ولا معتنين .

و من هنا يعلم عدم استقامة ما قيل : إنّ المراد بدعاء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم خطابه فيجب أن يفخّم ولا يساوى بينه وبين غيره من الناس فلا يقال له يا محمد ويا ابن عبدالله بل : يا رسول الله .

و كذا ما قيل : إنّ المراد بالدعاء دعاؤه عليهم لو أسخطوه فهو نهي عن التعرّض لدعائه عليهم بإسخاطه فإنّ الله تعالى لا يردّ دعاءه هذا ، وذلك لأنّ ذيل الآية لا يساعد على شيء من الوجهين .

و قوله : « قد يعلم الله الّذين يتسلّلون منكم لواذا » التسلّل الخروج من البين برفق واحتيال من سلّ السيف من غمده ، واللواذ الملاوذة وهو أن يلوذ الإنسان ويلتجيء إلى غيره فيستتر به و المعنى أنّ الله يعلم منكم الّذين يخرجون من بين الناس والحال أنّهم يلوذون بغيرهم و يستترون به فينصرفون فلا يهتمّون بدعاء الرسول ولا يعتنون به .

وقوله : « فليحذر الّذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » ظاهر سياق الآية بما تقدّم من المعنى أنّ ضمير « عن أمره » للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وهو دعاؤه ، ففي الآية تحذير لمخالفي أمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ودعوته من أن تصيبهم فتنة وهي البليّة أو يصيبهم عذاب أليم .

وقيل : ضمير « عن أمره » راجع إلى الله سبحانه و الآية و إن لم يقع فيها أمر منه تعالى لكن نهيه المذكور بقوله : « لا تجعلوا دعاء الرسول » الخ في معنى أجيبوا دعاء الرسول ، وهو أمر وأوّل الوجهين أوجه .

قوله تعالى : « ألا إنّ لله ما في السماوات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه » اختتام للسورة ناظر إلى قوله في مفتتحها : « سورة أنزلناها و فرضناها و أنزلنا فيها آيات بيّنات » فما في مختتمها كالتعليل لما في مفتتحها .

فقوله : « ألا إنّ لله ما في السماوات والأرض » بيان لعموم الملك وأنّ كلّ شيء مملوك لله سبحانه قائم به فهي معلومة له بجميع خصوصيّات وجودها فيعلم ما تحتاج إليه ، و الناس من جملة ما يعلم بحقيقة حاله وما يحتاج إليه فالّذي يشرّعه لهم من

الدين ممّا يحتاجون إليه في حياتهم كما أنّ ما يرزقهم من المعيشة ممّا يحتاجون إليه في بقائهم .

فقوله : « قد يعلم ما أنتم عليه » ـ أي من حقيقة الحال المنبئة عن الحاجة ـ بمنزلة النتيجة المترتّبة على الحجّة أي ملكه لكم ولكلّ شيء يستلزم علمه بحالكم و بما تحتاجون إليه من شرائع الدين فيشرّعه لكم ويفرضه عليكم .

وقوله : «ويوم يرجعون إليه فينبّئهم بما عملوا والله بكلّ شيء عليم »معطوف على قوله : « ما أنتم عليه » أي ويعلم يوما يرجعون إليه و هو يوم القيامة فيخبرهم بحقيقة ما عملوا والله بكلّ شيء عليم .

وفي هذا الذيل حثّ على الطاعة والانقياد لما شرّعه و فرضه من الأحكام والعمل به من جهة أنّه سيخبرهم بحقيقة ما عملوا به كما أنّ في الصدر حثّا على القبول من جهة أنّ الله إنّما شرّعها لعلمه بحاجتهم إليها و أنّها الّتي ترفع بها حاجتهم .

﴿بحث روائي﴾

في الدرّ المنثور في قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا ليستأذنكم » الآية أخرج سعيد بن منصور و ابن أبي شيبة وأبوداود وابن مردويه والبيهقيّ فيسننه عن ابن عبّاس قال : آية لم يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن ، و إنّي لآمر جاريتي هذه ـ لجارية قصيرة قائمة على رأسه ـ أن يستأذن عليّ .

وفي تفسير القمّيّ في الآية قال : إنّ الله تبارك و تعالى نهى أن يدخل أحد في هذه الثلاثة الأوقات على أحد لا أب ولا اُخت ولا اُمّ ولا خادم إلّا بإذن ، والأوقات بعد طلوع الفجر ونصف النهار و بعد العشاء الآخرة . ثمّ أطلق بعد هذه الثلاثة الأوقات فقال : « ليس عليكم ولاعليهم جناح بعدهنّ » يعني بعد هذه الثلاثة الأوقات « طوّافون عليكم بعضكم على بعض» .

و في الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : «ملكت أيمانكم» قال : هي خاصّة في الرجال دون النساء . قلت : فالنساء يستأذنّ في هذه الثلاث ساعات ؟ قال : لا ولكن يدخلن ويخرجن «والّذين لم يبلغوا الحلم منكم» قال : من أنفسكم ، قال : عليكم [1] استيذان كاستيذان من قد بلغ في هذه الثلاث ساعات .

أقول : وروى فيه روايات اُخرى غيرها في كون المراد بالّذين ملكت أيمانكم الذكور دون الإناث عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام .

و في المجمع في الآية : معناه مروا عبيدكم و إماءكم أن يستأذنوا عليكم إذا أرادوا الدخول إلى موضع خلواتكم عن ابن عبّاس وقيل : أراد العبيد خاصّة عن ابن عمر وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام .

أقول : و بهذه الأخبار وبظهور الآية يضعّف ما رواه الحاكم عن عليّ عليه السلام في الآية قال : النساء فإنّ الرجال يستأذنون .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن أبي شيبة و ابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لاتغلبنّكم الأعراب على اسم صلاتكم العشاء فإنّما هي في كتاب الله العشاء و إنّما يعتم بحلاب الإبل .

أقول : و روى مثله عن عبدالرحمان بن عوف ولفظه : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : لا يغلبنّكم الأعراب على اسم صلاتكم قال الله : «ومن بعد صلاة العشاء» وإنّما العتمة عتمة الإبل .

و في الكافي بإسناده عن حريز عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قرء «أن يضعن من ثيابهنّ» قال : الجلباب و الخمار إذا كانت المرأة مسنّة .

اقول : وفي معناه أخبار اُخر .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحّاك قال : كان أهل المدينة قبل أن يبعث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا مريض ولا

---

(١) عليهم ظ .

أعرج لأنّ الأعمى لا يبصر طيّب الطعام ، والمريض لا يستوفي الطعام كما يستوفي الصحيح ، والأعرج لايستطيع المزاحمة على الطعام فنزلت رخصة فيمواكلتهم .

و فيه أخرج الثعلبيّ عن ابن‌عبّاس قال : خرج الحارث غازيا مع رسول‌الله صلّى الله عليه وآله وخلّف على أهله خالد بن زيد فحرج أن يأكل من‌طعامه وكان مجهودا فنزلت .

و فيه أخرج عبد بن حميد و ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : كان هذا الحيّ من بني كنانة بن خزيمة يرى أحدهم أنّ عليه مخزاة أن يأكل وحده في الجاهليّة حتّى أن كان الرجل يسوق الذود الحفل وهو جائع حتّى يجد من يؤاكله ويشاربه فأنزل‌الله : « ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا » .

أقول : وفي معنى هذه الروايات روايات اُخر .

و في الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي‌عبدالله عليه‌السلام في قول‌الله عزّوجلّ : « أو ما ملكتم مفاتحة أو صديقكم » قال : هؤلاء الّذين سمّى‌الله عزّوجلّ في هذه الآية يأكل بغير إذنهم من التمر والمأدوم و كذلك تطعم المرأة من منزل زوجها بغير إذنه فأمّا ماخلا ذلك من الطعام فلا .

و فيه بإسناده عن أبي حمزة الثماليّ عن أبي جعفر عليه‌السلام قال : قال رسول الله صلّى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلّم لرجل : أنت و مالك لأبيك ، ثمّ قال أبو جعفر عليه‌السلام : وما اُحب له أن يأخذ من مال ابنه إلّا ما احتاج إليه ممّا لابدّ له منه إنّ‌الله لايحبّ الفساد .

و فيه بإسناده عن محمّد بن مسلم عن أبي‌عبدالله عليه‌السلام قال : سألته عن رجل لابنه مال فيحتاج الأب قال : يأكل منه فأمّا الاُمّ فلا تأكل منه إلّا قرضا على نفسها .

وفيه بإسناده عن جميل بن درّاج عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال : للمرأة أن‌تأكل وأن تصدّق وللصديق أن يأكل من منزل أخيه ويتصدّق .

و فيه بإسناده عن ابن أبي عمير عمّن ذكره عن أبي‌عبدالله عليه‌السلام في قول الله عزّوجلّ : « أو ما ملكتم مفاتحه » قال : الرجل يكون له وكيل يقوم في ماله

فيأكل بغير إذنه .

وفي المجمع في قوله تعالى : « أن تأكلوا من بيوتكم » : وقيل : معناه من بيوت أولادكم ويدلّ عليه قوله عليه‌السلام . أنت و مالك لأبيك . وقوله عليه‌السلام : إنّ أطيب ما يأكل المرء من كسبه وإنّ ولده من كسبه .

أقول : و في هذه المعاني روايات كثيرة اُخرى .

و في المعاني باسناده عن أبي الصباح قال : سألت أبا جعفر عليه‌السلام عن قول‌الله عزّوجلّ : « فاذا دخلتم بيوتا فسلّموا على أنفسكم » الآية فقال : هو تسليم الرجل على أهل البيت حين يدخل ثمّ يردّون عليه فهو سلامكم على أنفسكم .

أقول : وقد تقدّمت الاشارة إلى هذا المعنى في تفسير الآية .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : « إنّما المؤمنون الّذين ـ إلى قوله ـ حتّى يستأذنوه » فانّها نزلت في قوم كانوا إذا جمعهم رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لأمر من الاُمور في بعث يبعثه أو حرب قد حضرت يتفرّقون بغير إذنه فنهاهم‌الله عزّوجلّ عن ذلك .

و فيه في قوله تعالى : « فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم » قال : نزلت في حنظلة بن‌أبي‌عيّاش وذلك أنّه تزوّج في الليلة الّتي كان في صبيحتها حرب اُحد فاستأذن رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن يقيم عندأهله فأنزل‌الله عزّوجلّ هذه‌الآية « فأذن لمن شئت منهم » فأقام عند أهله ثمّ أصبح وهو جنب فحضر القتال فاستشهد فقال رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : رأيت الملائكة تغسل حنظلة بماء المزن في صحائف فضّة بين السماء والأرض فكان يسمّى غسيل الملائكة .

و فيه في قوله تعالى : « لا تجعلوا دعاء الرسول كدعاء بعضكم بعضا » قال : لاتدعوا رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كما يدعو بعضكم بعضا ، و في رواية أبي الجارود عن أبي ـ جعفر عليه‌السلام في قوله عزّوجلّ : « لاتجعلوا دعاء الرسول كدعاء بعضكم بعضا » يقول لاتقولوا : يا محمّد ولا يا أبا القاسم لكن قولوا : يا نبيّ‌الله ويا رسول‌الله .

أقول : و روي مثله عن ابن عبّاس ، وقد تقدّم أنّ ذيل الآية لا يلائم هذا المعنى تلك الملائمة .

سورة الفرقان مكّيّة وهي سبع و سبعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلٰى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (١) اَلَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّموٰاتِ وَالْاَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (٢) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِاَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيٰوةً وَلَا نُشُوراً (٣) .

﴿ بيان ﴾

غرض السورة بيان أنّ دعوة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم دعوة حقّة عن رسالة من جانب الله تعالى و كتاب نازل من عنده وفيها عناية بالغة بدفع ما أورده الكفّار على كون النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم رسولا من جانب الله و كون كتابه نازلا من عنده و رجوع إليه كرّة بعد كرّة .

وقد استتبع ذلك شيئًا من الاحتجاج على التوحيد ونفي الشريك و ذكر بعض أوصاف يوم القيامة و ذكر نبذة من نعوت المؤمنين الجميلة ، والكلام فيها جارعلى سياق الإنذار والتخويف دون التبشير .

والسورة مكّيّة على ما يشهد به سياق عامّة آياتها نعم ربّما استثني منها ثلاث آيات و هي قوله تعالى : « و الّذين لا يدعون مع الله إلها آخر - إلى قوله - غفورا رحيما » .

و لعلّ الوجه فيه اشتمالها على تشريع حرمة الزنا لكنّك قد عرفت فيما أوردناه من أخبار آية الخمر من سورة المائدة أنّ الزنا والخمر كانا معروفين

بالتحريم في الإسلام من أوّل ظهور الدعوة الإسلاميّة .

ومن العجيب قول بعضهم : إنّ السورة مدنيّة كلّها إلّا ثلاث آيات من أوّلها « تبارك الّذي ـ إلى قوله ـ نشورا » .

قوله تعالى : « تبارك الّذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » البركة بفتحتين ثبوت الخير في الشيء كثبوت الماء في البركة بالكسر فالسكون مأخوذ من برك البعير إذا ألقى صدره على الأرض واستقرّ عليها ، ومنه التبارك بمعنى ثبوت الخير الكثيروفي صيغته دلالة على المبالغة على ما قيل ، وهو كالمختصّ به تعالى لم يطلق على غيره إلّا على سبيل الندرة .

والفرقان هو الفرق سمّي به القرآن لنزول آياته متفرّقة أولتمييزه الحقّ من الباطل و يؤيّد هذا المعنى إطلاق الفرقان في كلامه تعالى على التوراة أيضاً مع نزولها دفعة قال الراغب في المفردات : والفرقان أبلغ من الفرق لأنّه يستعمل في الفرق بين الحقّ والباطل ، و تقديره كتقدير رجل قُنعان يقنع به في الحكم ، وهو اسم لا مصدر فيما قيل ، والفرق يستعمل فيه و في غيره ، انتهى .

والعالمون جمع عالم و معناه الخلق قال في الصحاح : العالم الخلق والجمع العوالم ، والعالمون أصناف الخلق انتهى و اللفظة و إن كانت شاملة لجميع الخلق من الجماد والنبات والحيوان و الإنسان والجنّ والملك لكنّ سياق الآية ـ وقد جعل فيها الإنذار غاية لتنزيل القرآن ـ يدلّ على كون المراد بها المكلّفين من الخلق وهم الثقلان : الإنس والجنّ فيما نعلم .

و بذلك يظهر عدم استقامة ما ذكره بعضهم أنّ الآية تدلّ على عموم رسالته صلّى الله عليه وآله وسلّم لجميع ما سوى الله فإنّ فيه غفلة عن وجه التعبير عن الرسالة بالإنذار ونظير الآية قوله تعالى : « واصطفاك على نساء العالمين » آل عمران : ٤٢ و قوله : « و فضّلناهم على العالمين » الجاثية : ١٦ .

و النذير بمعنى المنذر على ما قيل ، والإنذار قريب المعنى من التخويف .

فقوله تعالى : « تبارك الّذي نزّل الفرقان على عبده » أي ثبت و تحقّق خير

كثير فيمن نزّل الفرقان على عبده محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ، و ثبوت الخير الكثير العائد إلى الخلق فيه تعالى كناية عن فيضانه منه على خلقه حيث نزّل على عبده كتابا فارقا بين الحقّ والباطل منقذاً للعالمين من الضلال سائقا لهم إلى الهدى .

والجمع في الآية بين نزول القرآن من عنده تعالى و كون النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً منه نذيراً للعالمين مع تسمية القرآن فرقانا بين الحقّ والباطل و توصيف النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بكونه عبداً له نذيراً للعالمين المشعر بكونه مملوكاً مأموراً لا يملك من نفسه شيئًا كلّ ذلك تمهيد لما سيحكي ـ عن المشركين من طعنهم في القرآن بأنّه افتراء على الله اختلقه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأعانه على ذلك قوم آخرون ، ومن طعنهم في النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بأنّه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق و سائر ما تفوّهوا به ـ و ما يدفع به مطاعنهم .

فالمحصّل أنّه كتاب يفرّق بحجّته الباهرة بين الحقّ و الباطل فلا يكون إلّا حقّاً إذ الباطل لا يفرق بين الحقّ والباطل و إنّما يشبّه الباطل بالحقّ ليلبس على الناس ، وأنّ الّذي جاء به عبد مطيع لله ينذر به العالمين و يدعوهم إلى الحقّ فلا يكون إلّا على الحقّ ولو كان مبطلا لم يدع إلى الحقّ بل حاد عنه و انحرف على أنّ الله سبحانه يشهد في كلامه المعجز بصدق رسالته و أنّ الّذي جاء به من الكتاب منزل من عنده .

ومن هنا يظهر ما في قول بعضهم : إنّ المراد بالفرقان مطلق الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء ، وبعبده عامّة الأنبياء عليهم السلام ، ولا يخفى بعده من ظاهر اللفظ.

و قوله تعالى : « ليكون للعالمين نذيرا » اللاّم للتعليل وتدلّ على أنّ غاية تنزيل الفرقان على عبده أن يكون منذراً لجميع العالمين من الإنس والجنّ ـ والجمع المحلّى باللام يفيد الاستغراق ، ولا يخلو الإتيان بصيغة الجمع المحلّى باللاّم من إشارة إلى أنّ للجميع إلها واحداً لا كما يذهب إليه الوثنيّون حيث يتّخذ كلّ قوم إلهاً غير ما يتّخذه الآخرون .

والاكتفاء بذكر الإنذار دون التبشير لأنّ الكلام في السورة مسوق سوق الإنذار والتخويف.

قوله تعالى: «الّذي له ملك السموات والأرض» إلى آخر الآية. الملك بكسر الميم و فتحها قيام شيء بشيء بحيث يتصرّف فيه كيف شاء سواء كان قيام رقبته به كقيام رقبة المال بمالكه بحيث كان له أنواع التصرّف فيه أو قيامه به باستيلائه عليه بالتصرّف بالأمر والنهي وأنواع الحكم كاستيلاء الملك على الناس من رعيّته و ما في أيديهم، و يطلق على القسم الثاني الملك بضمّ الميم.

فالملك بكسر الميم أعمّ من الملك بضمّها كما قال الراغب الملك ـ بفتح الميم و كسر اللاّم ـ هو المتصرّف بالأمر و النهي في الجمهور، و ذلك يختصّ بسياسة الناطقين، ولهذا يقال: ملك الناس ولا يقال: ملك الأشياء ـ إلى أن قال ـ فالملك بالضّم ـ ضبط الشيء المتصرّف فيه بالحكم، والملك ـ بالكسر ـ كالجنس للملك فكلّ ملك ـ بالضمّ ـ ملك ـ بالكسر ـ و ليس كلّ ملك ـ بالكسر ـ ملكا ـ بالضمّ ـ انتهى.

وربّما يخصّ الملك بالكسر بما يتعلّق بالرقبة، والملك بالضمّ بغيره.

فقوله تعالى: «الّذي له ملك السماوات والأرض» واللاّم للاختصاص ـ يفيد أنّ السماوات والأرض مملوكة له غير مستقلّة بنفسها في جهة من جهاتها ولامستغنية عن التصرّف فيها بالحكم وأنّ الحكم فيها وإدارة رحاها يختصّ به تعالى فهو المليك المتصرّف بالحكم فيها على الإطلاق.

و بذلك يظهر ترتّب قوله: «ولم يتّخذ ولدا» على ما تقدّمه فإنّ الملك على الإطلاق لا يدع حاجة إلى اتّخاذ الولد إذ اتّخاذ الولد لأحد أمرين إمّا لكون الشخص لا يقوى على إدارة رحى جميع اُموره ولا يملك تدبيرها جميعا فيتّخذ الولد ليستعين به على بعض حوائجه والله سبحانه يملك كلّ شيء و يقوى على ما أراد. و إمّا لكون الشخص محدود البقاء لا يملك ما يملك إلّا في أمد محدود فيتّخذ الولد ليخلفه فيقوم على اُموره بعده و الله سبحانه يملك كلّ شيء سرمدا ولا يعتريه فناء

و زوال فلا حاجة له إلى اتّخاذ الولد البتّة وفيه ردّ على المشركين والنصارى .

وكذا قوله تعالى بعده : « ولم يكن له شريك في الملك » فإنّ الحاجة إلى الشريك إنّما هي فيما إذا لم يستوعب الملك الاُمور كلّها و ملكه تعالى عامّ لجميع الأشياء محيط بجميع جهاتها لايشذّ منه شاذّ ، وفيه ردّ على المشركين .

و قوله تعالى : « و خلق كلّ شيء فقدّره تقديرا » بيان لرجوع تدبير عامّة الاُمور إليه تعالى وحده بالخلق والتقدير فهو ربّ العالمين لاربّ سواه .

بيان ذلك أنّ الخلقة لمّا كانت بتوسيط الأسباب المتقدّمة على الشيء والمقارنة له استلزم ذلك ارتباط وجودات الأشياء بعضها ببعض فيتقدّر وجود كلّ شيء وآثار وجوده حسب ما تقدّره العلل والعوامل المتقدّمة عليه و المقارنة له فالحوادث الجارية في العالم على النظام المشهود مختلطة بالخلقة تابعة للعلل و العوامل المتقدّمة والمقارنة و إذ لاخالق غيرالله سبحانه فلا مدبّر للأمر غيره فلا ربّ يملك الأشياء ويدبّر أمرها غيره .

فكونه تعالى له ملك السماوات والأرض حاكما متصرّفا فيها على الإطلاق يستلزم قيام الخلقة به إذلو قامت بغيره كان الملك لذلك الغير ، وقيام الخلقة به يستلزم قيام التقدير به ، لكون التقدير متفرّعا على الخلقة ، و قيام التقدير به يستلزم قيام التدبير به فله الملك والتدبير فهو الربّ عزّ شأنه .

وملكه تعالى للسماوات والأرض وإن استلزم استناد الخلق والتقدير إليه لكن لمّا كان الوثنيّون مع تسليمهم عموم ملكه يرون أنّ ملكه للجميع وربوبيّته للكلّ لاينافي ملك آلهتهم وربوبيّتهم للبعض بتفويضه تعالى ذلك إليهم فكلّ من الآلهة مليك في صقع اُلوهيّته ربّ لمربوبيه و الله سبحانه ملك الملوك و ربّ الأرباب و إله الآلهة .

فلذلك لم يكف قوله : « الّذي له ملك السماوات والأرض» لإثبات اختصاص الربوبيّة به تعالى قبالهم بل احتيج إلى الإتيان بقوله : « و خلق كلّ شيء فقدّره تقديرا » .

فكأنّ قائلا يقول : هب أنّ ملكه للسماوات والأرض يغنيه عن اتّخاذ الولد والشريك الموجب لسلب ملكه عن بعض الأشياء لكن لم لايجوز أن يتّخذ بعض خلقه شريكا لنفسه بتفويض بعض اُمور العالم إليه مع كونه مالكاله ولما فوّضه إليه وهذا هو الّذي كانت تراه المشركون فقد كانوا يقولون في تلبية الحجّ : لبيّك لا شريك لك إلّا شريكا هو لك تملكه وما ملك .

فاجيب عنه بأنّ الخلق له سبحانه و التقدير يلازمه و إذا اجتمعا لزمهما التدبير فله سبحانه تدبير كلّ شيء فليس مع ملكه ملك ولامع ربوبيّته ربوبيّة .

فقد تحصّل أنّ قوله : « الّذي له ملك السماوات والأرض ولم يتّخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك » مسوق لتوحيد الربوبيّة ونفي الولد والشريك من طريق إثبات الملك المطلق . وأنّ قوله : « و خلق كلّ شيء فقدّره تقديرا» تقرير و بيان لمعنى عموم الملك وأنّه ملك متقوّم بالخلق و التقدير موجب لتصدّيه تعالى لكلّ حكم وتدبير من غير أن يفوّض شيئاً من الأمر إلى أحد من الخلق .

وفي الآية والّتي قبلها لهم أقوال اُخر أغمضنا عن إيرادها لخلوّها عن الجدوى.

قوله تعالى : « و اتّخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون» الخ لمّا نعت نفسه بأنّه خالق كلّ شيء و مقدّره و أنّ له ملك السماوات والأرض وهكذا كان يجب أن يكون الإله المعبود ، أشار إلى ضلالة المشركين حيث عبدوا أصناما ليست بخالقة شيئاً بل هي مخلوقة مصنوعة لهم ولا مالكة شيئاً لأنفسهم ولا لغيرهم .

و ضمير « و اتّخذوا » للمشركين على ما يفيده السياق و إن لم يسبق لهم ذكر و مثل هذا التعبير يفيد التحقير والاستهانة .

وقوله : « من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً و هم يخلقون » يريد به أصنامهم الّتي صنعوها بأيديهم بنحت أو نحوه ، وتوصيفها بالآلهة مع تعقيبها بمثل قوله : «لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون » إشارة إلى أن ليس لها من الاُلوهيّة إلّا اسم سمّوها به من غير أن تتحقّق من حقيقتها بشيء كما قال تعالى : «إن هي إلّا أسماء سمّيتموها أنتم و آباؤكم» النجم : ٢٣ .

و وضع النكرة في قوله : لا يخلقون شيأ » في سياق النفي مبالغة في تقريعهم حيث أعرضوا عن الله سبحانه وهو خالق كلّ شيء و تعلّقوا بأصنام لا يخلقون ولا شيئاً من الأشياء بل هم أردء حالا من ذلك حيث إنّهم مصنوعون لعبّادهم مخلوقون لأوهامهم ، و نظير الكلام جار في قوله : « ضرّا ولا نفعا » و قوله : « موتا ولاحياة ولا نشورا » .

وقوله : « ولا يملكون لأنفسهم ضرّا ولانفعا» نفي للملك عنهم وهوضروري في الإله إذكان عبّادهم إنّما يعبدونهم ليدفعوا عنهم الضرّ ويجلبوا إليهم النفع و إذ كانوا لا يملكون ضرّا ولا نفعا حتّى لأنفسهم لم تكن عبادتهم إلّا خبلا و ضلالا .

و بذلك يظهر أنّ في وقوع « لأنفسهم » في السياق زيادة تقريع و الكلام في معنى الترقّي أي لا يملكون لأنفسهم ضرّا حتّى يدفعوه ولا نفعا حتّى يجلبوه فكيف لغيرهم ؟ وقد قدّم الضرّ على النفع لكون دفع الضرر أهمّ من جلب النفع .

وقوله : « ولايملكون موتا ولا حياة ولا نشورا » أي لايملكون موتا حتّى يدفعوه عن عبّادهم أو عمّن شاؤا ولا حياة حتّى يسلبوها عمّن شاؤا أو يفيضوها لمن شاؤا ولا نشورا حتّى يبعثوا الناس فيجازوهم على أعمالهم ، وملك هذه الأمور من لوازم الألوهيّة .

﴿ بحث روائى ﴾

في الكافي بإسناده عن ابن سنان عمّن ذكره قال : سألت أباعبدالله عليه السلام عن القرآن والفرقان هماشيآن أو شيء واحد ؟ فقال : القرآن جملة الكتاب والفرقان المحكم الواجب العمل به .

و في الاختصاص للمفيد ، في حديث عبدالله بن سلام لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال :

فأخبرني هل أنزل الله عليك كتابا ؟ قال : نعم، قال : وأيّ كتاب هو؟ قال: الفرقان . قال ولم سمّاه ربّك فرقانا ؟ قال : لأنّه متفرّق الآيات والسور أُنزل في غير الألواح و غيره من الصحف و التوراة و الإنجيل و الزبور أُنزلت كلّها جملة في الألواح والأوراق . قال : صدقت يا محمد .

أقول : كلّ من الروايتين ناظرة إلى واحد من معنيي الفرقان المتقدّمين .



❁❁❁

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا اِنْ هٰذَا اِلَّا اِفْكٌ افْتَرٰاهُ وَ اَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُا ظُلْماً وَ زُوراً (۴) وَ قَالُوا اَسَاطِيرُ الْاَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلٰى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (۵) قُلْ اَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْاَرْضِ اِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (٦) وَ قَالُوا مَالِ هٰذَا الرَّسُولِ يَاْكُلُ الطَّعَامَ وَ يَمْشِى فِى الْاَسْوَاقِ لَوْلَا اُنْزِلَ اِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (٧) اَوْ يُلْقٰى اِلَيْهِ كَنْزٌ اَوْ يَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَاْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ اِنْ تَتَّبِعُونَ اِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً (٨) اُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْاَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِى اِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ وَ يَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَاَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (١١) اِذَا رَاَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَ زَفِيراً (١٢) وَ اِذَا اُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَ ادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (١۴) قُلْ اَذٰلِكَ خَيْرٌ اَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً (١۵) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُنَ خَالِدِينَ كَانَ عَلٰى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلًا (١٦) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ فَيَقُولُ ءَاَنْتُمْ اَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هٰؤُلَاءِ اَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِى لَنَا اَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ اَوْلِيَاءَ وَلٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ

وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً (١٩) وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَ كَانَ رَبُّكَ بَصِيراً (٢٠) .

﴿ بيان ﴾

تحكي الآيات عن المشركين ما طعنوا به في القرآن الكريم في النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و تجيب عنه .

قوله تعالى : « قال الّذين كفروا إن هذا إلاّ إفك افتراه و أعانه عليه قوم آخرون » الخ في التعبير بمثل قوله : « و قال الّذين كفروا » من غير أن يقال : وقالوا ، مع تقدّم ذكر الكفّار في قوله : « واتّخذوا من دونه آلهة » تلويح إلى أنّ القائلين بهذا القول هم كفّار العرب دون مطلق المشركين .

والمشار إليه بقولهم : « إن هذا » القرآن الكريم ، و إنّما اكتفوا بالإشارة دون أن يذكروه باسمه أو بشيء من أوصافه إزراء به وحطّا لقدره .

والإفك هو الكلام المصروف عن وجهه ، و مرادهم بكونه إفكا افتراه كونه كذبا اختلقه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و نسبه إلى الله سبحانه .

والسياق لا يخلو من إيماء إلى أنّ المراد بالقوم الآخرين بعض أهل الكتاب وقد ورد في بعض الآثار أنّ القوم الآخرين هم عداس مولى حويطب بن عبدالعزّى ويسار مولى العلاء بن الحضرميّ و جبر مولى عامر كانوا من أهل الكتاب يقرؤن التوراة أسلموا وكان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يتعهّدهم فقيل ما قيل .

وقوله : «فقد جاؤا ظلما و زورا » قال في مجمع البيان : إنّ جاء و أتى ربّما

كانا بمعنى فعل فيتعدّيان مثله فمعنى الآية فقد فعلوا ظلما و كذبا ، و قيل : إنّ ظلما منصوب بنزع الخافض والتقدير فقد جاؤا بظلم ، و قيل : حال و التقدير فقد جاؤا ظالمين وهو سخيف .

وفيه أيضا : ومتى قيل : كيف اكتفى بهذا القدر في جوابهم ؟ قلنا : لمّا تقدّم التحدّي وعجزهم عن الإتيان بمثله اكتفى ههنا بالتنبيه على ذلك . انتهى والظاهر أنّ الجواب عن قولهم : « إن هذا إلاّ إفك افتراه » ـ الخ وقولهم : « أساطير الأوّلين اكتتبها » الخ جميعا هو قوله تعالى : «قل أنزله الّذي يعلم السرّ» الخ على ما سنبيّن والجملة أعني قوله : «فقد جاؤا ظلما و زورا » ردّ مطلق لقولهم و هو في معنى المنع مع السند و سنده الآيات المشتملة على التحدّي .

وبالجملة معنى الآية : وقال الّذين كفروا من العرب ليس هذا القرآن إلاّ كلاما مصروفا عن وجهه ـ حيث إنّه كلام محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وقد نسبه إلى الله ـ افترى به على الله و أعانه على هذا الكلام قوم آخرون وهم بعض أهل الكتاب فقد فعل هؤلاء الّذين كفروا بقولهم هذا ظلما و كذبا .

قوله تعالى : «وقالوا أساطير الأوّلين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا» الأساطير جمع اُسطورة بمعنى الخبر المكتوب ويغلب استعماله في الأخبار الخرافيّة والاكتتاب هو الكتابة و نسبته إليه صلى الله عليه وآله وسلم مع كونه اُمّيّا لايكتب إنّما هي بنوع من التجوّز ككونه مكتوبا باستدعاء منه كما يقول الأمير كتبت إلى فلان كذا و كذا و إنّما كتبه كاتبه بأمره ، والدليل على ذلك قوله بعد : «فهي تملى عليه بكرة وأصيلا » إذ لو كان هو الكاتب لم يكن معنى للإملاء ، و قيل : الاكتتاب بمعنى الاستكتاب .

والإملاء إلقاء الكلام إلى المخاطب بلفظه ليحفظه ويعيه أو إلى الكاتب ليكتبه ، و المراد به في الآية هو المعنى الأوّل على ما يعطيه سياق « اكتتبها فهي تملى عليه » ـ إذ ظاهره تحقّق الاكتتاب دفعة و الإملاء تدريجا على نحو الاستمرار فهي مكتوبة مجموعة عنده تقرء عليه وقتا بعد وقت وهو يعيها فيقرء على الناس ما وعاه وحفظه .

والبكرة والأصيل الغداة والعشي ، وهو كناية عن الوقت بعد الوقت ، وقيل المراد أوّل النهار قبل خروج الناس من منازلهم وآخر النهار بعد دخولهم في منازلهم وهو كناية عن أنّها تملى عليه خفية .

والآية بمنزلة التفسير للآية السابقة فكأنّهم يوضحون قولهم : إنّه إفك افتراه و أعانه عليه قوم آخرون بأنّهم كتبوا له أساطير الأوّلين ثمّ يملونها عليه وقتا بعد وقت بقراءة شيء بعد شيء عليه ، وهو يقرؤها على النّاس و ينسبها إلى الله سبحانه .

فالآية بتمامها من كلام الّذين كفروا ، وربّما قيل : إنّ قوله : « اكتتبها فهي تملى عليه » إلى آخر الآية من كلام الله سبحانه لامن تمام كلامهم ، و هو استفهام إنكاريّ لقولهم : أساطير الأوّلين ، والسياق لا يساعد عليه .

قوله تعالى : « قل أنزله الّذي يعلم السرّ في السماوات والأرض إنّه كان غفورا رحيما » أمر للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بردّ قولهم و تكذيبهم فيما رموا به القرآن أنّه إفك مفترى و أنّه أساطير الأوّلين اكتتبها فهي تملى عليه وقتا بعد وقت .

و توصيفه تعالى بأنّه يعلم السرّ أي خفيّات الاُمور و بواطنها في السماوات والأرض للإيذان بأنّ هذا الكتاب الّذي أنزله منطو على أسرار مطويّة عن عقول البشر ، وفيه تعريض بمجازاتهم على جناياتهم الّتي منها رميهم القرآن بأنّه إفك مفترى وأنّه من الأساطير وهو ممّا يعلمه تعالى .

وقوله : « إنّه كان غفورا رحيما » تعليل لما هو المشاهد من إمهالهم و تأخير عقوبتهم على جناياتهم و تكذيبهم للحقّ و جرأتهم على الله سبحانه .

والمعنى قل إنّ القرآن ليس إفكا مفترى ولا من الأساطير كما يقولون بل كتاب منزل من عندالله سبحانه ضمّنه أسرارا خفيّة لا تصل إلى كنهها عقولكم ولا تحيط بها أحلامكم ، و رميكم إيّاه بالإفك والأساطير و تكذيبكم لحقائقه جناية عظيمة تستحقّون بها العقوبة غير أنّ الله سبحانه أمهلكم وأخّر عقوبة جنايتكم لأنّه

متّصف بالمغفرة والرحمة و ذلك يستتبع تأخير العذاب ، هذا ملخّص ما ذكروه في معنى الآية .

وفيه أنّ السياق لا يساعد عليه فإنّ محصّل معنى الآية على ما فسّروه يرجع إلى ردّ دعوى الكفّار كون القرآن إفكا مفترى و من الأساطير بدعوى أنّه منزل من عندالله منطو على أسرار خفيّة لا سبيل لهم إلى الوقوف عليها لامساغ في مقام المخاصمة لردّ الدعوى بدعوى اُخرى مثلها أو هي أخفى منها .

على أنّ التعليل بقوله : « إنّه كان غفورا رحيما » إنّما يناسب انتفاء العقوبة من أصلها دون الإمهال والتأخير و إنّما المناسب للإمهال و التأخير من الأسماء هو مثل الحليم والعليم والحكيم دون الغفور الرحيم .

والأوفق لمقام المخاصمة والدفاع بإبانة الحقّ والتعليل بالمغفرة والرحمة أن يكون قوله : «إنّه كان غفورا رحيما » تعليلا لإنزال الكتاب و قد ذكر قبل ذلك أنّه أنزله على عبده ليكون للعالمين نذيرا و هذه هي النبوّة ، ويكون حينئذ وصفه تعالى بعلم السرّ في السماوات والأرض للإيماء إلى أنّ في سرّهم ما يستدعي شمول المغفرة والرحمة الإلهيّتين لحالهم وهو طلبهم بفطرتهم وجبلّتهم للسعادة والعاقبة الحسنى الّتي ليست حقيقتها إلّا السعادة الإنسانيّة بشمول المغفرة و الرحمة و إن أخطأ كثير منهم في تطبيقها على التمتّع بالحياة الدنيا و زينتها الداثرة فيكون حجّة برهانيّة على حقّيّة الدعوة النبويّة المشتملة عليها القرآن ، وبطلان دعوى كونه إفكا من أساطير الأوّلين .

و تقرير الحجّة أنّ الله سبحانه يعلم السرّ في السماوات والأرض وهو يعلم أنّ في سرّكم المستقرّ في سرائركم المجبولة عليه فطرتكم حبّا للسعادة و طلبا و انتزاعا للعاقبة الحسنى و حقيقتها فوز الدنيا والآخرة ، وكان سبحانه غفورا رحيما ومقتضى ذلك أن يجيبكم إلى ما تسألونه في سرّكم و بلسان فطرتكم فيهديكم إلى سبيله الّتي تضمن لكم السعادة .

وهذا كتاب ينطق عليكم بسبيله فليس إفكا مفترى على الله ولا من قبيل

الأساطير بل هو كتاب يتضمّن ما تسألونه بفطرتكم و تستدعونه في سرّكم فإن استجبتم لداعيه شملتكم المغفرة والرحمة وإن تولّيتم حرمتم ذلك فهو كتاب منزل من عندالله ولو لم يكن نازلا من عنده كما يخبر عنه لم يهد إلى حقيقة السعادة ولم يدع إلى محض الحقّ ولاختلفت بياناته فدعاكم تارة إلى ما فيه خيركم و نفعكم وهو الّذي يجلب إليكم المغفرة والرحمة ، و تارة إلى ما هو شرّ لكم وضارّ و هو الّذي يثير عليكم السخط الإلهي و يستوجب لكم العقوبة .

قوله تعالى : « و قالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام و يمشي في الأسواق، لولا اُنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا أو يُلقى إليه كنز أو يكون له جنّة يأكل منها » هذه حكاية ما طعنوا به في الرسول بعد ما حكى طعنهم في القرآن بقوله : « و قال الّذين كفروا إن هذا إلّا إفك افتراه » الخ .

و تعبيرهم عنه ﷺ بقولهم : « هذا الرسول » مع تكذيبهم برسالته مبنيّ على التهكّم والاستهزاء .

وقولهم : «ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق» استفهام للتعجيب والوجه فيه أنّ الوثنيّين يرون أنّ البشر لا يسوغ له الاتّصال بالغيب وهو متعلّق الوجود بالمادّة منغمر في ظلماتها ، و متلوّث بقذاراتها ، ولذا يتوسّلون في التوجّه إلى للاّهوت بالملائكة فيعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله و يقرّبوهم من الله زلفى فالملائكة هم المقرّبون عندالله المتّصلون بالغيب المتعيّنون للرسالة لو كانت هناك رسالة ، وليس للبشر شيء من ذلك .

و من هنا يظهر معنى قولهم : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام و يمشي في الأسواق » و أنّ المراد أنّ الرسالة لا تجامع أكل الطعام و المشي في الأسواق لاكتساب المعاش فإنّها اتّصال غيبيّ لا يجامع التعلّقات المادّيّة ، وليست إلّا من شؤون الملائكة ولذا قالوا في غير موضع على ماحكاه الله تعالى : « لو شاء الله لأنزل ملائكة » المؤمنون : ٢٤ أو ما في معناه .

و من هنا يظهر أيضا أنّ قولهم : « لولا اُنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا »

تنزّل من المشركين في الاقتراح أي كيف يكون هذا المدّعي للرسالة رسولا و هو يأكل الطعام و يمشي في الأسواق والرسول لا يكون إلّا ملكا منزّها عن هذه الخصال المادّيّة ، فإن تنزّلنا وسلّمنا رسالته وهو بشر فلينزل إليه ملك يكون معه نذيرا ليتّصل الإنذار وتبليغ الرسالة بالغيب بتوسّط الملك .

و كذا قولهم : « أو يلقى إليه كنز » تنزّل عمّا قبله من الاقتراح أي إن لم ينزل إليه ملك و استقلّ بالرسالة و هو بشر فليُلق إليه من السماء كنز حتّى يصرف منه في وجوه حوائجه المادّيّة ولا يكدح في الأسواق في اكتساب ما يعيش به ، ونزول الكنز إليه أسهل من نزول الملك إليه ليعينه في تبليغ الرسالة .

و كذا قولهم : « أو يكون له جنّة يأكل منها » تنزّل عمّا قبله في الاقتراح والمعنى وإن لم يلق إليه كنز فليكن له جنّة يأكل منها ولا يحتج إلى كسب المعاش وهذا أسهل من إلقاء الكنز إليه .

قوله تعالى : «وقال الظالمون إن تتّبعون إلّا رجلا مسحورا» المراد بالظالمين هم المقترحون السابقو الذكر - كما قيل - فهو من وضع الظاهر موضع المضمر ووصفهم بالظلم للدلالة على بلوغهم في الظلم والاجتراء على الله و رسوله .

وقولهم : « إن تتّبعون » الخ خطاب منهم للمؤمنين تعييرا لهم و إغواء عن طريق الحقّ ، ومرادهم بالرجل المسحور النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يريدون أنّه مسحور سحره بعض السحرة فصار يخيّل إليه أنّه رسول يأتيه ملك الوحي بالرسالة والكتاب .

قوله تعالى : « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلا » الأمثال الأشباه وربّما قيل : إنّ المثل هنا بمعنى الوصف على حدّ قوله تعالى : «مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون فيها أنهار من ماء غير آسن» سورة محمّد: ١٥ والمحصّل : انظر كيف وصفوك فضلّوا فيك ضلالا لا يرجى معه اهتداؤهم إلى الحقّ كقولهم إنّه يأكل الطعام و يمشي في الأسواق فلا يصلح للرسالة لأنّ الرسول يجب أن يكون شخصا غيبيّا لا تعلّق له بالمادّة ولا أقلّ من عدم احتياجه إلى الأسباب العاديّة في تحصيل المعاش ، و كقولهم : إنّه رجل مسحور .

وقوله : « فضلّوا فلا يستطيعون سبيلا » أي تفرّع على هذه الأمثال الّتي ضربوها لك أنّهم ضلّوا ضلالا لايستطيعون معه أن يردوا سبيل الحقّ ولا يرجى لهم معه الاهتداء فإنّ من أخطأ الطريق ربّما أخطأها بانحراف يسير يرجى معه ركوبها ثانيا ، وربّما استدبرها فصار كلّما أمعن في مسيره زاد منها بعدا ، و من سمّى كتاب الله بالأساطير ووصف رسوله بالمسحور ولم يزل يزيد تعنّتا و لجاجا و استهزاء بالحقّ كيف يرجى اهتداؤه وحاله هذه ؟

قوله تعالى : « تبارك الّذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنّات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا » الإشارة في قوله : «من ذلك» إلى ما اقترحوه من قولهم : « أو يكون له جنّة يأكل منها » أو إلى مجموع ما ذكروه من الكنز والجنّة .

والقصور جمع قصر وهو البيت المشيّد العالي ، و تنكير « قصورا » للدلالة على التعظيم والتفخيم .

والآية بمنزلة الجواب عن طعنهم بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم واقتراحهم أن ينزل إليه ملك أو يلقى إليه كنز أو يكون له جنّة غير أنّ فيها التفاتا من التكلّم إلى الغيبة فلم يقل : قل إن شاء ربّي جعل لي كذا و كذا بل عدل إلى قوله : « تبارك الّذي إن شاء جعل لك » الخ .

وفيه تلويح إلى أنّهم لا يستحقّون جوابا ولا يصلحون لأن يخاطبوا لأنّهم على علم بفساد ما اقترحوا به عليه فالنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يذكر لهم إلّا أنّه بشر مثلهم يوحى إليه ، ولم يدّع أنّ له قدرة غيبيّة و سلطنة إلهيّة على كلّ ما يريد أو يراد منه ، كما قال تعالى بعد ما حكى بعض اقتراحاتهم في سورة الإسراء ، « قل سبحان ربّي هل كنت إلّا بشراً رسولا » أسرى : ٩٣ .

فأعرض سبحانه عن مخاطبتهم وعن الجواب عمّا اقترحوه ، وإنّما ذكر لنبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّ ربّه الّذي اتّخذه رسولا وأنزل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيرا قادر على أعظم ممّا يقترحونه فإن شاء جعل له خيرا من ذلك جنّات تجري من تحتها

الأنهار و يجعل له قصورا لا يبلغ وصفها واصف و ذلك خير من أن يكون له جنّة يأكل منها أو يلقى إليه كنز ليصرفه في حوائجه .

و بهذا المقدار يتحصّل جوابهم فيما اقترحوه من الكنز والجنّة ، و أمّا نزول الملك إليه ليشاركه في الإنذار و يعينه على التبليغ فلم يذكر جواب عنه لظهور بطلانه ، وقد أجاب تعالى عنه في مواضع من كلامه بأجوبة مختلفة كقوله : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا و للبسنا عليهم ما يلبسون » الانعام : ٨ و قوله : « قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنّين لنزّلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » أسرى : ٩٥ ، وقوله : « ما ننزّل الملائكة إلّا بالحقّ و ما كانوا إذا منظرين » الحجر : ٨ و قد تقدّم تقرير حجّة كلّ من الآيات في ضمن تفسيرها .

و من هذا يظهر أنّ المراد بجعل الجنّات والقصور له صلى الله عليه وآله وسلم جعله في الدنيا على ما يقتضيه مقام المخاصمة وردّ قولهم فإنّ المحصّل من السياق أنّهم يقترحون عليك كيت و كيت وهم يريدون تعجيزك و تبكيتك و إنّ ربّك قادر على أعظم من ذلك فإن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنّات تجري من تحتها الأنهار الخ و هي لا محالة في الدنيا وإلّا لم ينقطع به الخصام .

و بذلك يتبيّن فساد ما نقل عن بعضهم أنّ المراد جنّات الآخرة و قصورها وأفسد منه قول آخرين إنّ المراد جعل جنّات تجري من تحتها الأنهار في الدنيا وجعل القصور في الآخرة ، وربّما استونس لذلك بأنّ التعبير في الجنّات بقوله : «إن شاء جعل » وهو صيغة ماض مفيدة للتحقّق مناسبة للدنيا ، و في القصور بقوله : « يجعل » و هو صيغة مستقبل مناسبة للآخرة هذا مع أنّ الفعل الواقع في حيّز الشرط منسلخ عن الزمان ، والاختلاف في التعبير تفنّن فيه وتجديد لصورة الكلام والله العالم .

قوله تعالى : « بل كذّبوا بالساعة و أعتدنا لمن كذّب بالساعة سعيرا » إضراب عن طعنهم فيه صلى الله عليه وآله وسلم واعتراضهم عليه بأكل الطعام والمشي في الأسواق بما يتضمّن معنى التكذيب أي ما كذّبوك وردّوا نبوّتك لأنّك تأكل الطعام ويمشي

في الأسواق فإنّما هو كلام منهم صوريّ بل السبب الأصليّ في إنكارهم نبوّتك و طعنهم فيك أنّهم كذّبوا بالساعة و أنكروا المعاد . ومن المعلوم أن لا وقع للنبوّة مع إنكار الساعة ولا معنى للدين والشريعة لولا المحاسبة والمجازاة .

فالإشارة إلى السبب الأصليّ بعد ذكر الاعتراض والاقتراح والجواب ههنا نظير ما وقع في سورة الإسراء بعد ذكر الاقتراحات ثمّ الجواب من ذكر السبب الأصليّ في قوله : « قل سبحان ربّي هل كنت إلّا بشرا رسولا و ما منع الناس أن يؤمنوا إلّا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا » .

و ذكر جمع من المفسّرين أنّ قوله : « بل كذّبوا بالساعة » حكاية لبعض آخر من أباطيلهم كما حكى بعضا آخر منها متعلّقا بالتوحيد والكتاب والرسالة في قوله : « واتّخذوا من دونه آلهة » و قوله : « و قال الّذين كفروا إن هذا إلّا إفك» الخ و قوله : « و قالوا ما لهذا الرسول يأكل » الخ .

ثمّ تشعّبوا في نكتة الإضراب ، فذكر بعضهم أنّ الوجه فيه كون المعاد لا ريب فيه ، و قال بعضهم : إنّ إنكاره أعظم ، وقال بعضهم : إنّه أعجب إلى غير ذلك.

والحقّ أنّ السياق لا يساعد عليه فإنّ السياق المتعرّض لطعنهم في الرسول صلى الله عليه و آله والجواب عنه لم يتمّ بعد بشهادة قوله بعد : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلّا أنّهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق» الخ وما يتلوه من الآيات فلا معنى لاعتراض حكاية تكذيبهم بالساعة بين الآيات الحاكية لتكذيبهم بالرسول والمجيبة عنه ، وهو ظاهر .

وقوله تعالى : « وأعتدنا لمن كذّب بالساعة سعيرا » وضع الموصول والصلة مكان الضمير الراجع للدلالة على أنّ الجزاء بالسعير ثابت في حقّ كلّ من كذّب بالساعة هم وغيرهم فيه سواء ، وعلى أنّ سبب إعتاد السعير عليه فيهم تكذيبهم بالساعة.

و وضع الساعة ثانيا موضع ضميرها ليكون أنصّ و أصرح فهو المناسب لمقام التهديد ، والسعير النار المشتعلة الملتهبة .

قوله تعالى : « إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظا وزفيرا » في المفردات:

الغيظ أشدّ غضب - إلى أن قال - و التغيّظ هو إظهار الغيظ ، وقد يكون ذلك مع صوت مسموع كما قال : « سمعوا لها تغيّظا و زفيرا » انتهى ، و فيه أيضا : الزفير تردّد النفس حتّى تنتفخ الضلوع منه - انتهى .

والآية تمثّل حال النار بالنسبة إليهم إذابرزوا لهايوم الجزاء أنّها تشتدّ إذا ظهروا لهاكالأسد يزأر إذا رآى فريسته .

قوله تعالى : « وإذا اُلقوا منهامكانا ضيّقاً مقرّنين دعوا هنالك ثبوراً» «مكانا» منصوب بتقدير في ، والثبور الويل و الهلاك .

والتقرين التصفيد بالأغلال والسلاسل وقيل : هو جعلهم مع قرناء الشياطين و هو بعيد من اللفظ . و المعنى و إذا اُلقوا يوم الجزاء في مكان ضيّق من النار وهم مصفّدون بالأغلال دعوا هنالك ثبوراً لايوصف و هو قولهم : و اثبوراه .

قوله تعالى: « لاتدعوا اليوم ثبوراً واحدا وادعوا ثبوراً كثيراً » الاستغاثة بالويل و الثبور نوع احتيال للتخلّص من الشدّة و إذكان اليوم يوم الجزاء فحسب لاينفع فيه عمل ولا يجدي فيه سبب البتّة لم ينفعهم الدعاء بالثبور أصلاً ولذا قال تعالى : «لاتدعوا اليوم» الخ فهو كناية عن أنّ الثبور لاينفعكم اليوم سواءاستقللتم منه أو استكثرتم . فهو في معنى قوله تعالى : « اصلوها فاصبروا أولاتصبروا سواء عليكم» الطور:١٦،وقوله حكاية عنهم : «سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنامن محيص» إبراهيم : ٢١ .

وقيل : المراد أنّ عذا بكم طويل مؤبّد لاينقطع بثبور واحد بل يحتاج إلى ثبورات كثيرة . وهو بعيد .

قوله تعالى : « قل أذلك خير أم جنّة الخلد الّتي وعد المتّقون - إلى قوله- مسؤلا » الإشارة إلى السعير بماله من الوصف ، أمر نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أن يسألهم أيّهما أرجح السعير أم جنّة الخلد ؟ و السؤال سؤال في أمر بديهيّ لايتوقّف في جوابه عاقل وهو دائر في المناظرة والمخاصمة يردّد الخصم بين أمرين أحدهما بديهيّ الصحّة

و الآخر بديهيّ البطلان فيكلّف أن يختار أحدهما فإن اختار الحقّ فقد اعترف بماكان ينكره ، وإن اختار الباطل افتضح .

وقوله : « أم جنّة الخلد » إضافة الجنّة إلى الخلد وهو الدوام للدلالة على كونها في نفسها خالدة لاتفنى كما أنّ قوله بعد : «خالدين » للدلالة على أنّ أهلها خالدون فيها لاسبيل للفناء إليهم .

وقوله : « وعدالمتّقون » تقديره وعدها المتّقون لأنّ وعد يتعدّى لمفعولين و المتّقون مفعول ثان ناب مناب الفاعل .

و قوله : «كانت لهم جزاء و مصيراً » أي جزاء لتقواهم و منقلبا ينقلبون إليه بماهم متّقون كما قال تعالى : « إنّ المتّقين في جنّات وعيون إلى أن قال ـ وماهم منها بمخرجين» الحجر : ٤٨ وهومن الأقضية الّتي قضاها يوم خلق آدم وأمرالملائكة و إبليس بالسجود له ، و يتعيّن بهجزاء المتّقين ومصيرهم كما تقدّم في تفسير سورة الحجر .

وقوله : « لهم فيها مايشاؤن خالدين » أي إنّهم يملكون فيها بتمليك من الله لهم كلّ ماتتعلّق به مشيّتهم ، ولاتتعلّق مشيّتهم إلّا بمايحبّونه ويشتهونه على خلاف أهل النار كما قال تعالى فيهم : « و حيل بينهم و بين مايشتهون » سبأ : ٥٤ ، ولا يحبّون ولا يشتهون إلّا مامن شأنه أن يتعلّق به الحبّ واقعا وهوالّذي يحبّه الله لهم وهو ما يستحقّونه من الخير والسعادة ممّا يستكملون به ولا يستضرّون به لاهم ولا غيرهم فافهم ذلك .

و بهذا البيان يظهر أنّ لهم إطلاق المشيّة يعطون ما شاؤا و أرادوا غير أنّهم لايشاؤن إلّا ما فيه رضى ربّهم ، و يندفع بهما استشكل على الآيات الناطقة بإطلاق المشيّة كهذه الآية أنّ لازم إطلاق المشيّة أن يجوزلهم أن يريدوا بعض المعاصي والقبائح والشنائع واللغو ، وأن يريدوا بعض مايسوء سائر أهل الجنّة ، وأن يريدوا نجاة بعض المخلّدين في النار ، وأن يريدوا مقامات الأنبياء و المخلصين من الأولياء

ممّن هم فوقهم درجة إلى غير ذلك .

كيف ؟ وقد قال تعالى : « يا أيّتها النفس المطمئنّة ارجعي إلى ربّك راضية مرضيّة فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي » الفجر : ٢٧ ـ ٣٠ فهم راضون بمارضي به الله ومرضيّون لا يريدون إلّا مايرتضيه فلايريدون معصية ولاقبيحاولاشنيعا ولالغواً ولا كذّابا ، ولايريدون مالايرتضيه غيرهم من أهل الجنّة ، ولايريدون ارتفاع العذاب ممّن يريد ربّهم عذابه ، ولا يشاؤن ولا يتمنّون مقام من هو أرفع درجة منهم لأنّ الّذي خصّهم بها هو ربّهم وقد رضوا بما فعل وأحبّوا ما أحبّه .

وقوله تعالى : « كان على ربّك وعدا مسؤلا » أي كان هذا الوعد الّذي وعده المتّقون وعداً على ربّك يجب عليه أن يفي به ، و إنّما أوجبه هو تعالى على نفسه حيث قضى بذلك أوّل يوم ، وأخبر عن ذلك بمثل قوله : « و أنّ للمتّقين لحسن مآب جنّات عدن ـ إلى أن قال ـ هذا ما توعدون ليوم الحساب » ص : ٥٣ .

ووجه اتّصاف هذا الوعد بكونه مسؤلا أنّ المتّقين سألوا ربّهم ذلك بلسان حالهم و استعدادهم ، أو سألوه ذلك في دعائهم ، أو الملائكة سألوا ذلك كما فيما يحكيه الله عنهم : « ربّنا و أدخلهم جنّات عدن » ـ الخ المؤمن : ١٨ أو جميع هذه الأسئلة .

و ذكر الطبرسيّ ره في الآية أنّ قوله : « كانت لهم جزاء و مصيرا » حال من ضمير الجنّة المقدّر في «وعد المتّقون » ، وأنّ قوله : « لهم فيها ما يشاؤن » حال من « المتّقون » و هو أقرب إلى الذهن من قول غيره أنّ الجملتين استينافان في موضع التعليل كالجواب لسؤال مقدّر .

قوله تعالى : « و يوم يحشرهم و ما يعبدون من دون الله » إلى آخر الآية ضمائر الجمع الأربعة عائدة إلى الكفّار ، و المراد بما يعبدون الملائكة و المعبودون من البشر و الأصنام إن كان « ما » أعمّ من غير اُولي العقل ، و إلّا فالأصنام فقط .

والمشار إليهم المعنيّون بقوله : « عبادي هؤلاء » الكفّار ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتّخذ من دونك من أولياء» الخ جواب المعبودين عن قوله : « ءأنتم أضللتم عبادي هؤلاء » الخ وقد بدؤا بالتسبيح على ما هو من أدب العبوديّة في موارد يذكر فيها شرك أهل الشرك أو مايوهم ذلك بوجه .

و قوله : « ما كان ينبغي لنا أن نتّخذ من دونك من أولياء » أي ما صحّ وما استقام لنا أن نتجاوزك إلى غيرك فنتّخذ من دونك من أولياء وهم الّذين عبدونا و اتّخذونا أولياء من دونك و قوله : « ولكن متّعتهم و آباءهم حتّى نسوا الذكر و كانوا قوما بورا » البور جمع بائر وهو الهالك وقيل : الفاسد .

لمّا نفى المعبودون المسؤلون عن سبب ضلال عبّادهم نسبة الإضلال إلى أنفسهم أخذوا في نسبته إلى الكفّار أنفسهم مع بيان السبب الّذي أضلّهم و هو أنّهم كانوا قوما هالكين أوفاسدين وقد متّعتهم و آباءهم من أمتعة الحياة الدنيا و نعمها حتّى طال عليهم التمتيع امتحانا و ابتلاء فتمتّعوا منها و اشتغلوا بها حتّى نسوا الذكر الّذي جاءت به الرسل فعدلوا عن التوحيد إلى الشرك .

فكونهم قوما هالكين أو فاسدين بسبب انكبابهم على الدنيا و انهماكهم في الشهوات هوالسبب في استغراقهم في التمتّع و انصراف هممهم إلى الاشتغال بالأسباب وهو السبب لنسيانهم الذكر و العدول عن التوحيد إلى الشرك .

فتبيّن بذلك أنّ قوله : « وكانوا قوما بورا » من تمام الجواب وأمّا من جعل الجملة اعتراضا تذييليّا مقرّرا لمضمون ما قبله و استفاد منه أنّ السبب الأصليّ في ضلالهم أنّهم كانوا بحسب ذواتهم أشقياء هالكين ، و ليس ذلك إلّا بقضاء حتم منه تعالى في سابق علمه فهو المضلّ لهم حقيقة ، و إنّما نسب إلى أنفسهم أدبا .

ففيه أوّلا أنّه إفساد لمعنى الآية إذلاموجب حينئذ لإيراد الاستدراك بقوله : « ولكن متّعتهم وآباءهم حتّى نسوا الذكر » لكونه فضلا لاحاجة إليه .

وثانيا أنّ نسبة البوار و الشقاء إلى ذوات الأشياء ينافي ما أطبق عليه العقلاء بفطرتهم من تأثير التعليم و التربية ، والحسّ والتجربة يؤيّدان ذلك ، وهو يناقض

القول بالاختيار و الجبر معا ، أمّا مناقضة القول بالاختيار فظاهر ، و أمّا مناقضة القول بالجبر فلأنّ الجبريّ يقصر العلّيّة في الواجب تعالى و ينفيه عن غيره و يناقضه نسبة الاقتضاء الضروريّ إلى ذوات الأشياء وما هيّاتها .

وثالثا أنّ فيه خلطاً في معنى القضاء من حيث متعلّقه فكون القضاء حتماً لا يوجب خروج الفعل الّذي تعلّق به من الاختيار إلى الاجبار فانّ القضاء إنّما تعلّق بالفعل بحدوده وهو صدوره عن اختيار الفاعل من حيث إنّه صادر عن اختياره فتعلّقه يوجب تأكّد كونه اختياريّاً لا أنّه يزيل عنه وصف الاختيار .

و رابعا أنّ قولهم : إنّ المضلّ بالحقيقة هو الله و إنّما نسبوا الضلال إلى الكفّار أنفسهم تأدّبا وبمثله صرّحوا في نسبة المعاصي و الأعمال القبيحة الشنيعة و الفجائع الفظيعة إلى فواعلها أنّها في عين أنّها من أفعاله تعالى إنّما تنسب إلى غيره تأدّباً كلام متهافت فانّ الأدب - كما تقدّم تفصيل القول فيه في الجزء السادس من الكتاب - هو الهيئة الحسنة الّتي ينبغي أن يقع عليها فعل ما ، و بعبارة اُخرى ظرافة الفعل ، و إذ كان الحقّ الصريح في الفعل غير الجميل أنّه فعل الله سبحانه ولا يشاركه في فعله غيره بأيّ وجه فرض كانت نسبته إلى غيره تعالى نسبة باطلة غير حقّ و كذبا و فرية لا تطابق الواقع فليت شعري أيّ أدب جميل في إماطة حقّ صريح و إحياء باطل ؟ و أيّ ظرافة و لطف في الكذب و الفرية باسناد الفعل إلى غير فاعله ؟

و الله سبحانه أجلّ من أن يعظّم بباطل أو بالستر على بعض أفعاله أو بالكذب والفرية باسناد بعض ما يفعله إلى غيره ، و إذ كان جميلا لا يفعل إلّا الجميل فما معنى التأدّب بنفي بعض أفعاله عنه ؟.

قوله تعالى : « فقد كذّبوكم بما تقولون فلا تستطيعون صرفا ولا نصرا » إلى آخر الآية . كلام له تعالى يلقيه إلى المشركين بعد براءة المعبودين منهم، وأمّا كلام المعبودين فقد تمّ في قوله : « وكانوا قوما بورا » .

و المعنى فقد كذّبكم المعبودون بما تقولون في حقّهم إنّهم آلهة من دون الله يصرفون عن عبدتهم السوء و ينصرونهم ، و إذ كذّبوكم ونفوا عن أنفسهم الاُلوهيّة

و الولاية فلا تستطيعون أنتم أيّها العبدة أن تصرفوا عن أنفسكم العذاب بسبب عبادتهم ، ولا تستطيعون نصرا لأنفسكم بسببهم .

والترديد بين الصرف والنصر كأنّه باعتبار استقلال المعبودين في دفع العذاب عنهم وهو الصرف . وعدم استقلالهم بأن يكونوا جزء السبب وهو النصر .

وقرء غير عاصم من طريق حفص « يستطيعون » بالياء المثنّاة من تحت و هي قراءة حسنة ملائمة لمقتضى السياق ، و المعنى فقد كذّبكم المعبودون بما تقولون إنّهم آلهة يصرفون عنكم السوء أوينصرونكم و يتفرّع على ذلك أنّهم لايستطيعون لكم صرفا ولا نصرا .

و قوله : « و من يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا » المراد بالظلم مطلق الظلم و المعصية و إن كان مورد الآيات السابقة خصوص الظلم الّذي هو الشرك فقوله : « و من يظلم منكم » الخ من قبيل وضع القانون العامّ موضع الحكم الخاصّ ، ولو كان المراد به الحكم الخاصّ بهم لكان من حقّ الكلام أن يقال : و نذيقكم بما ظلمتم عذابا كبيرا لأنّهم كلّهم ظالمون ظلم الشرك .

و النكتة فيه الإشارة إلى أنّ الحكم الإلهيّ نافذجار لامانع منه ولا معقّب له كأنّه قيل : و إن كذّبكم المعبودون وما استطاعوا صرفا ولا نصرا فالحكم العامّ الإلهيّ « من يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا » على نفوذه و جريانه لامانع منه ولا معقّب له فأنتم ذائقون العذاب البتّة .

قوله تعالى : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلّا أنّهم ليأكلون الطعام و يمشون في الأسواق » إلى آخر الآية . أجاب تعالى عن قولهم : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام و يمشي في الأسواق الخ » أوّلا بقوله : « تبارك الّذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك » الخ مع مايلحقه من قوله : « بل كذّبوا بالساعة » الخ و هذا جواب ثان محصّله أنّ هذا الرسول ليس بأوّل رسول اُرسل إلى الناس بل أرسل الله قبله جمّا غفيرا من المرسلين وقد كانوا على العادة البشريّة الجارية بين الناس يأكلون الطعام و يمشون في الأسواق ولم يخلق لهم جنّة يأكلون منها ولا اُلقي

إليهم كنز ولا اُنزل معهم ملك ، وهذا الرسول إنّما هو كأحدهم ولم يأت بأمر بدع حتّى يتوقّع منه ما لا يتوقّع من غيره .

فالآية في معنى قوله : « قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري مايفعل بي ولا بكم إن أتّبع إلّا مايوحى إليّ » الأحقاف : ٩ و قريبة المعنى من قوله : « قل إنّما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ » الكهف : ١١٠ .

فإن قيل : هذا في الحقيقة دفع للاعتراض عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم خاصّة و توجيهه إلى عامّة الرسل فلهم أن يعترضوا على عامّة الرسل كما وجّهه سابقوهم وقد حكى الله عنهم ذلك قال : « قالوا أبشر يهدوننا » التغابن : ٦ ، و قال : « قالوا إن أنتم إلّا بشر مثلنا » إبراهيم : ١٠ ، و قال : « ما هذا إلّا بشر مثلكم يأكل ممّا تأكلون منه و يشرب ممّا تشربون » المؤمنون : ٣٣ .

قلنا : الجواب مطابق للاعتراض فإنّ قولهم : « ما لهذا الرسول يأكل » الخ يعطي الخصوصيّة بلا إشكال و أمّا تعميم الاعتراض لو عمّم فيدفعه قوله تعالى : « بل كذّبوا بالساعة » الخ وقوله قبل ذلك : « قل أنزل الّذي يعلم السرّ » الخ على ما تقدّم من التقرير .

و من عجيب القول ما عن بعض المفسّرين أنّ الآية تسلية للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كأنّه قيل : إنّ الرسل من قبلك كانوا على الحال الّتي أنت عليها فلك فيهم اُسوة حسنة ، و أمّا كونه جوابا عن تعنّتهم فالنظم لايساعد عليه إذقد اُجيب عنه بقوله : « انظر كيف ضربوا لك الأمثال » هذا وهو خطأ .

وقوله تعالى : « و جعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون » متمّم للجواب السابق بمنزلة التعليل لكون الرسل كسائر الناس في الخواصّ البشريّة من غير أن تتميّز حياتهم أو دعوتهم بخواصّ سماويّة تورث القطع بكونهم حاملين للرسالة الإلهيّة كإنزال ملك عليهم أو إلقاء كنز إليهم أو خلق جنّة لهم فكأنّه قيل : و السبب في كون الرسل جارين في حياتهم على ما يجري عليه الناس أنّا جعلنا بعض الناس لبعض فتنة يمتحنون بها فالرسل فتنة لسائر الناس يمتحنون بهم فيتميّز بهم أهل

الريب من أهل الإيمان و المتّبعون للأهواء الّذين لايصبرون على مرّ الحقّ من طلّاب الحقّ الصابرين في طاعة الله وسلوك سبيله .

و بما مرّ يتبيّن أوّلا أنّ المراد بالصبر هو الصبر بأقسامه وهي الصبر على طاعة الله ، و الصبر عند معصيته ، و الصبر على المصائب .

و ثانيا أنّ قوله : « و جعلنا بعضكم لبعض فتنة » من وضع الحكم العامّ موضع الخاصّ ، و المطلوب الإشارة إلى جعل الرسل - وحالهم هذه الحال ـ فتنة لسائر الناس .

وقوله تعالى : « وكان ربّك بصيرا » أي عالما بالصواب في الاُمور فيضع كلّ أمر في الموضع المناسب له و يجري بذلك أتمّ النظام فهدف النظام الإنسانيّ كمال كلّ فرد بقطعه طريق السعادة أوالشقاوة على حسب ما يستعدّ له و يستحقّه ولازمه بسط نظام الامتحان بينهم ولازمه ارتفاع التمايز بين الرسل وغيرهم .

و في الجملة التفات من التكلّم مع الغير إلى الغيبة ، والنكتة فيه نظيرة ما في قوله السابق : « تبارك الّذي إن شاء » الخ .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدرّ المنثور أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عبّاس أن عتبة و شيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث و أبا البختريّ والأسود بن المطّلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل ابن هشام وعبدالله بن اُميّة واُميّة بن خلف والعاصي بن وائل ونبيه بن الحجّاج اجتمعوا فقال بعضهم لبعض ابعثوا إلى محمّد فكلّموه و خاصموه حتّى تعذروا منه فبعثوا إليه أنّ أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك .

قال : فجاءهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقالوا له : يا محمّد إنّا بعثنا إليك لنعذر منك فإن كنت إنّما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا ، و إن كنت تطلب الشرف فنحن نسوّدك ، وإن كنت تطلب ملكا ملّكناك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما بي ممّا تقولون ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ولكنّ الله بعثني إليكم رسولا ، وأنزل عليّ كتابا ، و أمرني أن أكون لكم بشيرا و نذيراً فبلّغتكم رسالة ربّي و نصحت لكم فإن تقبلوا منّي ما جئتكم به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة ، و إن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتّى يحكم الله بيني و بينكم .

قالوا : يا محمّد فإن كنت غير قابل منّا شيأ عرضناه عليك فسل لنفسك وسل ربّك أن يبعث معك ملكا يصدّقك بما تقول ويراجعنا عنك وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا من ذهب و فضّة يغنيك عمّا تبتغي فإنّك تقوم بالأسواق و تلتمس المعاش كما نلتمسه حتّى نعرف فضلك و منزلتك من ربّك إن كنت رسولا كما تزعم .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما أنا بفاعل . ما أنا بالّذي يسأل ربّه هذا ، و ما بعثت إليكم بهذا ولكنّ الله بعثني بشيرا ونذيرا .

فأنزل الله في قولهم ذلك « و قالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام إلى قوله ـ و جعلنا بعضكم لبعض فتنة . أتصبرون و كان ربّك بصيراً » أي جعلت بعضكم لبعض بلاء لتصبروا ، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسولي فلاتخالفوه لفعلت .

وفيه أخرج الطبرانيّ و ابن مردويه من طريق مكحول عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من كذب عليّ متعمّدا فليتبوّء مقعداً من بين عيني جهنم . قالوا : يا رسول الله وهل لجهنّم من عين ؟ قال : أما سمعتم الله يقول : «إذا رأتهم من مكان بعيد » فهل تراهم إلّا بعينين ؟ .

أقول : و رواه أيضا عن رجل من الصحابة ، و في حجّة الخبر خفاء .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أبي اُسيد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن قول الله : « وإذا اُلقوا منها مكانا ضيّقا مقرّنين » قال : والّذي نفسي بيده إنّهم ليستكرهون في النّار كما يستكره الوتد في الحائط .

✿ ✿ ✿

وَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰئِكَةُ اَوْ نَرٰى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي اَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰئِكَةَ لَا بُشْرٰى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً (٢٢) وَ قَدِمْنَا اِلٰى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً (٢٣) اَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَ اَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤) وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَ نُزِّلَ الْمَلٰئِكَةُ تَنْزِيلاً (٢٥) اَلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ وَ كَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً (٢٦) وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلٰى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتٰى لَيْتَنِي لَمْ اَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ اَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ اِذْ جَاءَنِي وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِلْاِنْسَانِ خَذُولاً (٢٩) وَ قَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ اِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (٣٠) وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَ كَفٰى بِرَبِّكَ هَادِياً وَ نَصِيراً (٣١).

﴿ بيان ﴾

تحكي الآيات اعتراضا آخر من المشركين على رسالة الرسول يردّون به عليه محصّله أنّه لو جاز أن يكون من البشر بما هو بشر رسول تنزل عليه الملائكة بالوحي من الله سبحانه أو يراه تعالى فيكلّمه وحيا لكان الرسول و سائر البشر سواء في هذه الخصيصة فإن كان ما يدّعيه من الرسالة حقّا لكنّا أو كان البعض منّا يرى ما يدّعي رؤيته ويجد من نفسه ما يجده .

و هذا الاعتراض ممّا سبقهم إليه اُمم الأنبياء الماضين كما حكاه الله : « قالوا

إن أنتم إلّا بشر مثلنا » إبراهيم : ١٠ وقد مرّ تقريبه مراراً .

و هذامع ما تقدّم من اعتراضهم بقولهم : «ما لهذا الرسول يأكل الطعام» الخ بمنزلة حجّة واحدة تلزم الخصم بأحد محذورين و محصّل تقريره أنّ الرسالة الّتي يدّعيها هذا الرسول إن كانت موهبة سماويّة و اتّصالا غيبيّا لاحظّ فيها للبشر بما هو بشر فلينزل إليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى إليه كنز أو يجعل له جنّة يأكل منها ، وإن كانت خاصّة من شأن البشر بما هو بشر أن ينالها يتّصف بها فما بالنا لانجدها في أنفسنا ؟ فلولا اُنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا .

و قد أجاب الله سبحانه عن الشقّ الأوّل بما تقدّم تقريره ، و عن الثاني بأنّهم سيرون الملائكة لكن في نشأة غير هذه النشأة الدنيويّة والجواب في معنى قوله : « ما ننزّل الملائكة إلاّ بالحقّ وما كانوا إذا منظرين» الحجر : ٨ وسيجيىء تقريره ، و في الآيات إشارة إلى ما بعد الموت ويوم القيامة .

قوله تعالى : « و قال الّذين لا يرجون لقاءنا لولا اُنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا لقد استكبروا في أنفسهم و عتوا عتوّا كبيرا » قال في مجمع البيان : الرجاء ترقّب الخير الّذي يقوى في النفس وقوعه و مثله الطمع والأمل ، واللقاء المصير إلى الشيء من غير حائل ، والعتوّ الخروج إلى أفحش الظلم . انتهى .

والمراد باللقاء الرجوع إلى الله يوم القيامة سمّي به لبروزهم إليه تعالى بحيث لايبقى في البين حائل جهل أوغفلة لظهور العظمة الإلهيّة كما قال تعالى : «ويعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين » .

فالمراد بعدم رجائهم اللقاء إنكارهم للمعاد و تكذيبهم بالساعة ولم يعبّر عنه بتكذيب الساعة و نحوه كما عبّر في الآيات السابقة لمكان ذكرهم مشاهدة الملائكة و رؤية الربّ تعالى وتقدّس ففيه إشارة إلى أنّهم إنّما قالوا ما قالوا وطلبوا إنزال الملائكة أو رؤية الربّ ليأسهم من اللقاء و زعمهم استحالة ذلك فقد ألزموا بما هو مستحيل على زعمهم .

فقولهم : « لولا اُنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا » اعتراض منهم على رسالة

الرسول أوردوه في صورة التحضيض كقولهم في موضع آخر : «لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين » الحجر : ٧ وتقرير الحجّة كما تقدّمت الإشارة إليه أنّه لو كانت الرسالة ـ و هي نزول الملائكة بالوحي أو تكليمه تعالى البشر بالمشافهة ـ ممّا يتيسّر للبشر نيله و نحن بشر أمثال هذا المدّعي للرسالة فما بالنا لا ينزل علينا الملائكة ولا نرى ربّنا ؟ فهلاّ اُنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا .

و يؤيّد ما ذكرناه من التقرير إطلاق إنزال الملائكة و رؤية الربّ من غير أن يقولوا : لولا اُنزل علينا الملائكة فيصدّقوك أو نرى ربّنا فيصدّقك . على أنّهم ذكروا في اعتراضهم السابق نزول الملك ليكون معه نذيرا وفيه تصديقه .

و في التعبير عنه تعالى بلفظ ربّنا نوع تهكّم منهم فإنّ المشركين ما كانوا يرونه تعالى ربّا لهم بل كان عندهم أنّ أربابهم ما كانوا يعبدونهم و الله سبحانه ربّ الأرباب فكأنّهم قالوا للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : إنّك ترى أنّ الله ربّك وقد حنّ إليك فخصّك بالمشافهة و التكليم ، و أنّه ربّنا ، فليحنّ إلينا و ليشافهنا بالرؤية كما فعل بك .

على أنّهم إنّما عدلوا عن عبادة أرباب الأصنام و هم الملائكة و روحانيّات الكواكب و نحوهم إلى عبادة الأصنام و التماثيل لتكون محسوسة غير غائبة عن المشاهدة عند العبادة و التقرّب بالقرابين .

وقوله تعالى : « لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوّا كبيرا » أي اُقسم لقد طلبوا الكبر لأنفسهم بغير حقّ وطغوا طغيانا عظيما .

قوله تعالى : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين و يقولون حجراً محجورا » في المفردات : الحجر الممنوع منه بتحريمه قال تعالى : « و قالوا هذه أنعام و حرث حجر » « و يقولون حجرا محجورا » كان الرجل إذا لقي من يخاف يقول ذلك فذكر تعالى أنّ الكفّار إذا رأوا الملائكة قالوا ذلك ظنّاً أنّ ذلك ينفعهم. انتهى .

و عن الخليل كان الرجل يرى الرجل الّذي يخاف منه القتل في الجاهليّة

في الأشهر الحرم فيقول : حجرا محجورا أي حرام عليك التعرّض لي في هذا الشهر فلا يبدؤه بشرّ ، و عن أبي عبيدة : هي عوذة للعرب يقولها من يخاف آخر في الحرم أو في شهر حرام إذا لقيه و بينهما ترة .

فقوله : « يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ للمجرمين » يوم - على ماقيل - ظرف لقوله : «لابشرى» وقوله : « يومئذ » تأكيد له ، والمراد بقوله : « لابشرى » نفي الجنس ، و المراد بالمجرمين كلّ متّصف بالإجرام غير أنّ مورد الكلام إجرام الشرك و المجرمون هم الّذين لايرجون اللقاء ، وقد تقدّم ذكرهم والمعنى يوم يرى هؤلاء الّذين لا يرجون لقاءنا الملائكة لابشرى - على طريق نفي الجنس - يومئذ للمجرمين وهم منهم .

وقوله : « و يقولون حجرا محجورا » فاعل يقولون هم المشركون أي يقول المشركون يومئذ للملائكة وهم قاصدوهم بالعذاب : حجرا محجورا أي لنكن في معاذ منكم و قيل : ضمير الجمع للملائكة ، و المعنى و يقول الملائكة للمشركين حراماً محرّماً عليكم سماع البشرى ، أو حراما محرّما عليكم أن تدخلوا الجنّة أو حراما محرّما عليكم أن تتعوّذوا من العذاب إلى شيء فلا معاذ لكم هذا ، والمعنى الأوّل أقرب إلى السياق .

والآية في موضع الجواب عن قولهم: « لولا اُنزل إلينا الملائكة » وقد أعرضت عن جواب قولهم : « أو نرى ربّنا » فإنّ الرؤية الّتي كانوا يقصدونها بقولهم هي الرؤية البصرية الّتي تستلزم التجسّم و المادّية تعالى عن ذلك . و أمّا الرؤية بعين اليقين وهي الرؤية القلبيّة فلم يكونوا ممّن يفقه ذلك وعلى تقديره ماكانوا يقصدونه.

و أمّا توضيح الجواب عن أمر إنزال الملائكة و رؤيتهم فقد اُخذ أصل الرؤية مفروغا منه مسلّما أنّ هناك يوما يرون فيه الملائكة غير أنّه وُضع الإخبار عن وصفهم يوم الرؤية موضع الاخبار عن أصل رؤيتهم للإشارة إلى أنّ طلبهم لرؤية الملائكة ليس يجري على نفعهم فإنّهم لايرون الملائكة إلّا يوم يشافهون عذاب النار و ذلك بعد تبدّل النشأة الدنيويّة من النشأة الاُخرى كما أشار إليه في موضع آخر

بقوله : « ماننزّل الملائكة إلاّ بالحقّ وما كانوا إذا منظرين » الحجر : ٨ . فهم في مسألتهم هذه يستعجلون بالعذاب وهم يحسبون أنّهم يعجزون الله و رسوله بالحجّة .

و أمّا ما هو هذا اليوم الّذي اُشير إليه بقوله : « يوم يرون الملائكة » فقد ذكر المفسّرون أنّه يوم القيامة لكنّ الّذي يعطيه السياق مع ما ينضمّ إليه من الآيات الواصفة ليوم الموت وما بعده كقوله : « ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت و الملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون » الآية الأنعام : ٩٣ ، و قوله : « الّذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنّا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها» النساء : ٩٧ إلى غير ذلك من الآيات .

أنّ المراد به الموت و هو المسمّى في عرف القرآن برزخا فإنّ في الآيات دلالة قاطعة على أنّهم يرون الملائكة و يشافهونهم بعد الموت قبل يوم القيامة ، و المتعيّن - على ما يقتضيه طبع المخاصمة - في جواب من يجحد رؤية الملائكة أن يذكر له أوّل يوم يراهم بما يسوؤه وهو يوم الموت لا أن يخاصم بذكر رؤيتهم يوم القيامة وقوله لهم : حجراً محجورا ، وقد رآهم قبل ذلك وعذّب بأيديهم أمداً بعيدا وهو ظاهر .

فالظاهر أنّ الآية والآيتين التاليتين ناظرة إلى حالهم في البرزخ تصف رؤيتهم للملائكة فيه ، و إحباط أعمالهم فيه ، و حال أهل الجنّة الّتي فيه .

قوله تعالى : « وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » قال الراغب في المفردات : العمل كلّ فعل يكون من الحيوان بقصد فهو أخصّ من الفعل لأنّ الفعل قد ينسب إلى الحيوانات الّتي يقع منها فعل بغير قصد وقد ينسب إلى الجمادات و العمل قلّما ينسب إلى ذلك ، ولم يستعمل العمل في الحيوانات إلّا في قولهم : البقر العوامل . انتهى .

و قال : الهباء دقاق التراب وما انبثّ في الهواء فلا يبدو إلّا في أثناء ضوء الشمس في الكوّة . انتهى . والنثر التفريق .

و المعنى و أقبلنا إلى كلّ عمل عملوه - و العمل هو الّذي يعيش به الإنسان بعد الموت - ففرّقناه تفريقا لاينتفعون به كالهباء المنثور ، والكلام مبنيّ على التمثيل مثّل به استيلاء القهر الإلهيّ على جميع أعمالهم الّتي عملوها لسعادة الحياة و إبطالها بحيث لايؤثّر في سعادة حياتهم المؤبّدة شيأ بتشبيهه بسلطان غلب عدوّه فحلّ داره بعد ما ظهر عليه فخرّب الدار وهدم الآثار وأحرق المتاع و الأثاث فأفنى منه كلّ عين و أثر .

ولا منافاة بين ما تدلّ عليه الآية من حبط الأعمال يومئذ و بين ما تدلّ عليه آيات اُخر أنّ أعمالهم اُحبطت حينما عملوها في الدنيا بكفرهم و إجرامهم فإنّ معنى الإحباط بعد الموت ظهور الحبط لهم بعد ماكان خفيّا في الدنيا عليهم وقدتقدّم كلام مشبع في معنى الحبط في الجزء الثاني من الكتاب فراجع .

قوله تعالى : « أصحاب الجنّة يومئذ خير مستقرّاً و أحسن مقيلا » المراد بأصحاب الجنّة المتّقون فقد تقدّم قوله قبل آيات : «قل أذلك خير أم جنّة الخلد الّتي وعد المتّقون » ، و المستقرّ و المقيل اسما مكان من الاستقرار ومعناه ظاهر و من القيلولة وهي الاستراحة في منتصف النهار سواءكان معها نوم أم لا - على ماقيل - والجنّة لانوم فيه .

و كلمتا « خير » و« أحسن » منسلخان عن معنى التفضيل كما في قوله تعالى: « وهو أهون عليه » الروم : ٢٧ : وقوله : « ما عند الله خير من اللّهو » الجمعة : ١١ كذا قيل ، وليس يبعد أن يقال : إنّ « أفعل » أوما هو في معناه كخير بناء على ما رجّحنا أنّه صفة مشبهة تدلّ على التفضيل بمادّته لابهيئته في مثل هذه الموارد غير منسلخ عن معنى التفضيل و العناية في ذلك أنّهم لمّا اختاروا الشرك و الإجرام واستحسنوا ذلك ولازمه النار في الآخرة فقد أثبتوا لها خيريّة وحسنا فقوبلوا بأنّ الجنّة وما فيها خير و أحسن حتّى على لازم قولهم فعليهم أن يختاروها على النار و أن يختاروا الإيمان على الكفر على أيّ حال ، و قيل : إنّ التفضيل مبنيّ على التهكّم .

قوله تعالى : « و يوم تشقّق السماء بالغمام ونزّل الملائكة تنزيلا » الظاهر أنّ الظرف منصوب بفعل مقدّر ، و المعنى واذكر يوم كذا و كذا فإنّهم يرون الملائكة فيه أيضاً وهذا اليوم هو يوم القيامة بدليل قوله بعد : « الملك يومئذالحقّ للرحمان » ، و قيل في متعلّق الظرف وجوه اُخر لافائدة في نقلها .

و « تشقّق » أصله تتشقّق من باب التفعّل من الشقّ بمعنى الخرم والتشقّق التفتّح ، والغمام السحاب سمّي بهلستره ضوء الشمس مأخوذ منالغمّ بمعنىالستر .

والباء في قوله : « تشقّق السماء بالغمام » إمّا للملابسة والمعنى تتفتّح السماء متلبّسة بالغمام أي متغيّمة ، و إمّا بمعنى عن و المعنى تتفتّح عن الغمام أي منقبل الغمام أوتشقّقه .

وكيف كان فظاهر الآية أنّ السماء تنشقّ يوم القيامة بما عليها من الغمام الساتر لها ونزّل منها الملائكة الّذين هم سكّانها فيشاهدونهم فالآية قريبة المعنى منقوله في موضع آخر : « وانشقّت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها » الحاقّة : ١٧ .

وليس من البعيد أن يكون الكلام كناية عن انكشاف غمّة الجهل و بروز عالم السماء وهومن الغيب وبروز سكّانها وهم الملائكة ونزولهم إلى العالمالأرضيّ موطن الإنسان .

وقيل المراد أنّالسماء يشقّها الغمام وهوالّذي يذكره في قوله : «هلينظرون إلّا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام و الملائكة وقضي الأمر و إلى الله ترجعالاُمور» البقرة : ٢١٠ . وقد مرّكلام في تفسير الآية .

والتعبير عن الواقعة بالتشقّق دونالتفتّح وما يماثله للتهويل ، و كذاالتنوين في قوله : « تنزيلا » للدلالة على التفخيم .

قوله تعالى : « الملك يومئذ الحقّ للرحمان وكان يوما علىالكافرين عسيرا» أي الملك المطلق يومئذ حقّ ثابت للرحمان و ذلك لبطلان الأسباب و زوال مابينها و بين مسبّباتها من الروابط المتنوّعة ، وقد تقدّم غير مرّة أنّ المراد بذلك فييوم

القيامة هو ظهور أنّ الملك و الحكم لله والأمر إليه وحده ، و أن لااستقلال في شيء من الأسباب على خلاف ما كان يتراءى من ظاهر حالها في نشأة الدنيا قبل قيام الساعة و رجوع كلّ شيء إليه تعالى .

وقوله : « و كان يوماً على الكافرين عسيرا » الوجه فيه ركونهم إلى ظواهر الأسباب و إخلادهم إلى الحياة الأرضيّة البائدة الدائرة و انقطاعهم عن السبب الحقيقيّ الّذي هو مالك الملك بالحقيقة و عن حياتهم الباقية المؤبّدة فيصبحون اليوم ولا ملاذلهم ولا معاذ .

فعلى هذا يكون الملك مبتدء و الحقّ خبره عرّف لإفادة الحصر ، ويومئذ ظرف لثبوت الخبر للمبتدء ، وفائدة التقييد الدلالة على ظهور حقيقة الأمر يومئذ فإنّ حقيقة الملك لله سبحانه دائما ، و إنّما يختلف يوم القيامة مع غيره بزوال الملك الصوريّ عن الأشياء فيه و ثبوته لها في غيره .

وقال بعضهم : الملك بمعنى المالكيّة و يومئذ متعلّق به و الحقّ خبر الملك ، وقيل : يومئذ متعلق بمحذوف هو صفة للحقّ ، و قيل : المراد بيومئذ هو يوم الله و قيل : يومئذ هو الخبر للملك و الحقّ صفة للمبتدء ، و هذه أقوال رديّة لاجدوى لها .

قوله تعالى : « ويوم يعضّ الظالم على يديه يقول ياليتني اتّخذت مع الرسول سبيلا » قال الراغب في المفردات : العضّ أزم بالأسنان قال تعالى : « عضّوا عليكم الأنامل » « و يوم يعضّ الظالم » و ذلك عبارة عن الندم لما جرى به عادة الناس أن يفعلوه عند ذلك . انتهى ولذلك يتمنّى عنده ما فات من واجب العمل كما حكى الله تعالى عنهم قولهم : « يا ليتني لم أتّخذ فلانا خليلا » .

و الظاهر أنّ المراد بالظالم جنسه و هو كلّ من لم يهتد بهدى الرسول ، و كذا المراد بالرسول جنسه و إن انطبق الظالم بحسب المورد على ظالمي هذه الاُمّة والرسول على محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم .

و المعنى واذكر يوم يندم الظالم ندما شديداً قائلا من فرط ندمه ياليتني

اتّخذت مع الرسول سبيلا مّا إلى الهدى أيّ سبيل كانت .

قوله تعالى : « يا ويلتى ليتني لم أتّخذ فلانا خليلا » تتمّة تمنّي الظالم النادم على ظلمه ، و فلان كناية عن العلم المذكّر و فلانة عن العلم المؤنّث قال الراغب : فلان و فلانة كنايتان عن الإنسان ، و الفلان و الفلانة ـ باللّام ـ كنايتان عن الحيوانات . انتهى .

و المعنى يا ويلتى ـ يا هلاكي ـ ليتني لم أتّخذ فلانا ـ وهو من اتّخذه صديقا يشاوره و يسمع منه و يقلّده ـ خليلا .

و ذكر بعضهم أنّ فلانا في الآية كناية عن الشيطان ، وكأنّه نظراً إلى ما في الآية التالية من حديث خذلان الشيطان للإنسان غير أنّ السياق لايساعد عليه .

ومن لطيف التعبير قوله في الآية السابقة : « ياليتني اتّخذت » الخ و في هذه الآية : « يا ويلتى ليتني لم أتّخذ » الخ فانّ في ذلك تدرّجا لطيفا في النداء و الاستغاثة فحذف المنادى في الآية السابقة يلوّح إلى أنّه يريد أيّ منج ينجيه ممّاهو فيه من الشقاء ، و ذكر الويل بعد ذلك ـ في هذه الآية يدلّ على أنّه بان له أن لا يخلّصه من العذاب شيء قطّ إلّا الهلاك و الفنا ، ولذلك نادى الويل .

قوله تعالى : « لقد أضلّني عن الذكر بعد إذجاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا » تعليل للتمنّي السابق ، والمراد بالذكر مطلق ماجاءت به الرسل أوخصوص الكتب السماويّة و ينطبق بحسب المورد على القرآن .

وقوله : « وكان الشيطان للإنسان خذولا» من كلامه تعالى و يمكن أن يكون تتمّة الكلام الظالم ذكره تأسّفا وتحسّرا .

و الخذلان بضمّ الخاء ترك من يظنّ به أن ينصر نصرته ، وخذلانه أنّه يعد الانسان أن ينصره على كلّ مكروه إن تمسّك بالأسباب ونسي ربّه فلمّا تقطّعت الأسباب بظهور القهر الإلهي يوم الموت جزئيّا و يوم القيامة كلّيّا خذله و سلّمه إلى الشقاء قال تعالى : « كمثل الشيطان إذقال للإنسان اكفر فلمّا كفر قال إنّي بريء منك » الحشر : ١٦ ، و قال فيما يحكي عن الشيطان يوم القيامة : « ما أنا

بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ إنّي كفرت بما أشركتمون من قبل » إبراهيم : ٢٢ .

وفي هذه الآيات الثلاث إشعار بل دلالة على أنّ السبب العمدة في ضلال أهل الضلال ولاية أهل الأهواء و أولياء الشيطان ، و المشاهدة يؤيّد ذلك .

قوله تعالى : « وقال الرسول يارب إنّ قومي اتّخذوا هذا القرآن مهجورا » المراد بالرسول محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بقرينة ذكر القرآن ، وعبّر عنه بالرسول تسجيلا لرسالته و إرغاما لاُولئك القادحين في رسالته و كتابه والهجر بالفتح فالسكون الترك .

و ظاهر السياق أنّ قوله : « وقال الرسول » الخ معطوف على « يعضّ الظالم » و القول ممّا يقوله الرسول يوم القيامة لربّه على طريق البثّ و الشكوى ، و على هذا فالتعبير بالماضي بعناية تحقّق الوقوع ، و المراد بالقوم عامّة العرب بل عامّة الامّة باعتبار كفرتهم وعصاتهم .

و أمّا كونه استئنافا أو عطفا على قوله : « وقال الّذين لايرجون لقاءنا » و كون ما وقع بينهما اعتراضا فبعيد من السياق ، و عليه فلفظة قال على ظاهر معناها والمراد بالقوم هم القادحون في رسالته الطاعنون في كتابه .

و نظيره في الضعف قول بعضهم : إنّ المهجور من الهجر بمعنى الهذيان . وهو ظاهر .

قوله تعالى : « و كذلك جعلنا لكلّ نبيّ عدوّا من المجرمين و كفى بربّك هادياً و نصيرا » أي كما جعلنا هؤلاء المجرمين عدوّاً لك كذلك جعلنا لكلّ نبيّ عدوّا منهم أي هذه من سنّتنا الجارية في الأنبياء واُممهم فلا يسوءنّك ماتلقى من عداوتهم ولا يشقّنّ عليك ذلك ، ففيه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم .

و معنى جعل العدوّ من المجرمين أنّ الله جازاهم على معاصيهم بالختم على قلوبهم فعاندوا الحقّ و أبغضوا الداعي إليه و هو النبيّ فلعداوتهم نسبة إليه تعالى بالمجازاة .

و قوله : « و كفى بربّك هاديا و نصيرا » معناه - على ما يعطيه السياق -

لايهولنّك أمر عنادهم و عداوتهم ولا تخافنّهم على اهتداء الناس و نفوذ دينك فيهم و بينهم فحسبك ربّك كفى به هاديا يهدي من استحقّ من الناس الهداية واستعدّ له و إن كفر هؤلاء وعتوا فليس اهتداء الناس منوطا باهتدائهم و كفى به نصيرا ينصرك وينصر دينك الّذي بعثك به وإن هجره هؤلاء ولم ينصروك ولا دينك فالجملة مسوقة لإظهار الاستغناء عنهم .

فظهر أنّ صدر الآية مسوق لتسلّي النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وذيله للاستغناء عن المجرمين من قومه ، و في قوله : « و كفى بربّك » حيث اُخذ بصفة الربوبيّة : مضافة إلى ضمير الخطاب ولم يقل : و كفى بالله تأييد له .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير البرهان عن كتاب الجنّة والنار بإسناده عن جابر بن يزيد الجعفيّ عن أبي جعفر عليه السلام في حديث يذكر فيه قبض روح الكافر قال : فإذا بلغت الحلقوم ضربت الملائكة وجهه و دبره و قيل : « أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحقّ و كنتم عن آياته تستكبرون » و ذلك قوله : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا » فيقولون حراما عليكم الجنّة محرّما[1] .

وفي الدرّ المنثور أخرج عبد الرزّاق و الفاريابيّ و ابن المنذر و ابن أبي ـ حاتم عن عليّ بن أبي طالب قال : الهباء ريح الغبار يسطع ثمّ يذهب فلا يبقى منه شيء فجعل الله أعمالهم كذلك .

و فيه أخرج سمويه في فوائده عن سالم مولى أبي حذيفة قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : ليجاء يوم القيامة بقوم معهم حسنات مثال جبال تهامة حتّى إذا جيء بهم جعل الله تعالى أعمالهم هباء ثمّ قذفهم في النار .

قال سالم : بأبي و اُمّي يا رسول الله حل لنا هؤلاء القوم قال : كانوا يصلّون

(١) محرمة ظ .

و يصومون و يأخذون سنّة من الليل ولكن كانوا إذا عرض عليهم شيء من الحرام وثبوا عليه فأدحض الله تعالى أعمالهم .

و في الكافي بإسناده عن سليمان بن خالد قال : سألت أبا عبدالله عليه‌السلام عن قول الله عزّ وجلّ : « و قدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » قال : أما والله لقد كانت أعمالهم أشدّ بياضا من القباطي ولكن كانوا إذا عرض لهم حرام لم يدعوه .

أقول : و هذا المعنى مرويّ فيه و في غيره عنه و عن أبيه عليهما‌السلام بغير واحد من الطرق .

و في الكافي أيضا بإسناده عن عبدالأعلى و بإسناد آخر عن سويد بن غفلة قال قال أميرالمؤمنين عليه‌السلام في حديث وضع المؤمن في قبره : ثمّ يفسحان يعني الملكين في قبره مدّ بصره ثمّ يفتحان له بابا إلى الجنّة و يقولان له : نم قرير العين نوم الشابّ الناعم فإنّ الله يقول : «أصحاب الجنّة يومئذ خير مستقرّا وأحسن مقيلا » .

أقول : والرواية - كما ترى - تجعل الآية من آيات البرزخ ، و تشير بقوله : و يقال له : نم الخ إلى نكتة التعبير في الآية بالمقيل فليتنبّه .

و في الدرّ المنثور أخرج أبو نعيم من طريق الكلبيّ عن أبي صالح عن ابن عبّاس قال : كان عقبة بن أبي معيط لا يقدم من سفر إلّا صنع طعاما فدعا إليه أهل مكّة كلّهم و كان يكثر مجالسة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم و يعجبه حديثه و غلب عليه الشقاء .

فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاما ثمّ دعا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى طعامه فقال ما أنا بالّذي آكل من طعامك حتّى تشهد أن لا إله إلّا الله و أنّي رسول الله فقال : اطعم يا ابن أخي . قال : ما أنا بالّذي أفعل حتّى تقول ، فشهد بذلك و طعم من طعامه .

فبلغ ذلك اُبيّ بن خلف فأتاه فقال : أصبوت يا عقبة ؟ - و كان خليله - فقال لا والله ما صبوت ولكن دخل عليّ رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلّا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي قبل أن يطعم فشهدت له فطعم فقال : ما أنا بالّذي

أرضى عنك حتّى تأتيه فتبزق في وجهه ففعل عقبة فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لاألقاك خارجا من مكّة إلاّ علوت رأسك بالسيف فاُسر عقبة يوم بدر فقتل صبرا ولم يقتل من الاُسارى يومئذ غيره .

أقول : و قد ورد في غير واحد من الروايات في قوله تعالى : « يقول ياليتني اتّخذت مع الرسول سبيلا » أنّ السبيل هو علي عليه السلام و هو من بطن القرآن أو من قبيل الجري وليس من التفسير في شيء .



✡ ✡ ✡

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٣٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ جَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَ جَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً (٣٧) وَعَاداً وَ ثَمُودَ وَ أَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيراً (٣٨) وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً (٤٠) .

﴿بيان﴾

نقل لطعن آخر ممّا طعنوا به في القرآن و هو أنّه لم ينزل جملة واحدة و الجواب عنه .

قوله تعالى : « و قال الّذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة » المراد بهم مشركوا العرب الرادّون لدعوة القرآن كما في قدحهم السابق المحكيّ بقوله : « وقال الّذين كفروا إن هذا إلّا إفك افتراه » الخ .

و قوله : « لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة » قد تقدّم أنّ الإنزال و التنزيل إنّما يفترقان في أنّ الإنزال يفيد الدفعة و التنزيل يفيد التدريج لكن ذكر بعضهم أنّ التنزيل في هذه الآية منسلخ عن معنى التدريج لإدّائه إلى التدافع إذ يكون المعنى على تقدير إرادة التدريج : لولا فرّق القرآن جملة واحدة والتفريق ينافي الجمليّة بل المعنى هلّا اُنزل القرآن عليه دفعة غير مفرّق كما اُنزل التوراة و الإنجيل و الزبور .

لكن ينبغي أن يعلم أنّ نزول التوراة مثلا كما هو الظاهر المستفاد من القرآن كانت دفعة في كتاب مكتوب في ألواح والقرآن إنّما كان ينزل عليه ﷺ بالتلقّي من عند الله بتوسّط الروح الأمين كما يتلقّى السامع الكلام من المتكلّم ، و الدفعة في إيتاء كتاب مكتوب وتلقّيه تستلزم المعيّة بين أوّله وآخره لكنّه إذا كان بقراءة و سماع لم يناف التدريج بين أجزائه و أبعاضه بل من الضروري أن يؤتاه القارىء و يتلقّاه السامع آخذا من أوّله إلى آخره شيأ فشيأ .

وهؤلاء إنّما كانوا يقترحون نزول القرآن جملة واحدة على ما كانوا يشاهدون أو يسمعون من كيفيّة نزول الوحي على النبيّ ﷺ و هو تلقّي الآيات بألفاظها من لسان ملك الوحي فكان اقتراحهم أنّ الّذي يتلوه ملك الوحي على النبيّ ﷺ سورة بعد سورة و آية بعد آية و يتلقّاه هو كذلك فليقرء جميع ذلك مرّة واحدة وليتلقّه هو مرّة واحدة ولو دامت القراءة والتلقّي مدّة من الزمان ، وهذا المعنى أوفق بالتنزيل الدالّ على التدريج .

و أمّا كون مرادهم من اقتراح نزوله جملة واحدة أن ينزل كتابا مكتوبا دفعة كما نزلت التوراة و كذا الإنجيل و الزبور على ما هو المعروف عندهم فلا دلالة في الكلام المنقول عنهم على ذلك . على أنّهم ما كانوا مؤمنين بهذه الكتب السماوية حتّى يسلّموا نزولها دفعة .

و كيف كان فقولهم : « لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة » اعتراض منهم على القرآن من جهة نحو نزوله ، يريدون به أنّه ليس بكتاب سماويّ نازل من

عندالله سبحانه إذلو كان كتابا سماوياً متضمّنا لدين سماوي يريده الله من الناس وقد بعث رسولا يبلّغه الناس لكان الدين المضمّن فيه المراد من الناس دينا تامّة أجزاؤه معلومة اُصوله وفروعه مجموعة فرائضه و سننه و كان الكتاب المشتمل عليه منظّمة أجزاؤه مركّبة بعضه على بعض .

وليس كذلك بل هو أقوال متفرّقة يأتي بها في وقائع مختلفة وحوادث متشتّتة ربّما وقع واقع فأتى عند ذلك بشيء من الكلام مرتبط به يسمّى جملها المنضودة آيات إلهيّة ينسبها إلى الله ويدّعي أنّها قرآن منزّل إليه من عندالله سبحانه وليس إلّا أنّه يتعمّل حينا بعد حين عند وقوع وقائع فيختلق قولا يفتريه على الله ، وليس إلّا رجلا صابئا ضلّ عن السبيل . هذا تقرير اعتراضهم على ما يستفاد من مجموع الاعتراض والجواب .

قوله تعالى « كذلك لنثبّت به فؤادك و رتّلناه ترتيلا ولا يأتونك بمثل إلّا جئناك بالحقّ وأحسن تفسيرا » الثبات ضدّ الزوال، والإثبات والتثبيت بمعنى واحد والفرق بينهما بالدفعة و التدريج ، و الفؤاد القلب و المراد به كما مرّ غير مرّة الأمر المدرك من الإنسان وهو نفسه ، والترتيل - كما قالوا - الترسيل والإتيان بالشيء عقيب الشيء ، و التفسير - كما قال الراغب - المبالغة في إظهار المعنى المعقول كما أنّ الفسر بالفتح فالسكون إظهار المعنى المعقول .

وظاهر السياق أنّ قوله : « كذلك » متعلّق بفعل مقدّر يعلّله قوله : « لنثبّت » و يعطف عليه قوله : « و رتّلناه » و التقدير نزّلناه أي القرآن كذلك أي نجوماً متفرّقة لاجملة واحدة لنثبّت به فؤادك ، وقول بعضهم : إنّ « كذلك » من تمام قول الّذين كفروا سخيف جدّاً .

فقوله : « كذلك لنثبّت به فؤادك » بيان تامّ لسبب تنزيل القرآن نجوما متفرّقة و بيان ذلك أنّ تعليم علم من العلوم و خاصّة ما كان منها مرتبطا بالعمل بإلقاء المعلّم مسائله واحدة بعد واحدة إلى المتعلّم حتّى تتمّ فصوله وأبوابه إنّما يفيد حصولا مّا لصور مسائله عند المتعلّم و كونها مذخورة بوجه ما عنده يراجعها عند مسيس

الحاجة إليها، و أمّا استقرارها في النفس بحيث تنمو النفس عليها و تترتّب عليها آثارها المطلوبة منها فيحتاج إلى مسيس الحاجة و الإشراف على العمل وحضور وقته.

ففرق بيّن بين أن يلقي الطبيب المعلّم مثلا مسألة طبّيّة إلى متعلّم الطبّ إلقاء فحسب و بين أن يلقيها إليه و عنده مريض مبتلى بما يبحث عنه من الداء وهو يعالجه فيطابق بين ما يقول وما يفعل.

ومن هنا يظهر أنّ إلقاء أيّ نظرة علميّة عند مسيس الحاجة وحضور وقت العمل إلى من يراد تعليمه وتربيته أثبت في النفس وأوقع في القلب وأشدّ استقراراً و أكمل رسوخا في الذهن و خاصّة في المعارف الّتي تهدي إليها الفطرة فإنّ الفطرة إنّما تستعدّ للقبول وتتهيّؤ للإذعان إذا أحسّت بالحاجة.

ثمّ إنّ المعارف الّتي تتضمّنها الدعوة الإسلاميّة الناطق بها القرآن إنّما هي شرائع وأحكام عمليّة وقوانين فرديّة و اجتماعيّة تسعد الحياة الإنسانيّة مبنيّة على الأخلاق الفاضلة المرتبطة بالمعارف الكلّيّة الإلهيّة الّتي تنتهي بالتحليل إلى التوحيد كما أنّ التوحيد ينتهي بالتركيب إليها ثمّ إلى الأخلاق والأحكام العمليّة.

فأحسن التعليم و أكمل التربية أن تلقى هذه المعارف العالية بالتدريج موزّعة على الحوادث الواقعة المتضمّنة لمساس أنواع الحاجات مبيّنة لما يرتبط بها من الاعتقاد الحقّ و الخلق الفاضل و الحكم العمليّ المشروع مع ما يتعلّق بها من أسباب الاعتبار و الاتّعاظ بين قصص الماضين و عاقبة أمر المسرفين و عتوّ الطاغين و المستكبرين.

وهذه سبيل البيانات القرآنيّة المودعة في آياته النازلة كما قال تعالى: «و قرآنا فرّقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزّلناه تنزيلا» أسرى: ١٠٦ وهذا هو المراد بقوله تعالى: «كذلك لنثبّت به فؤادك» والله أعلم.

نعم يبقى عليه شيء وهو أنّ تفرّق أجزاء التعليم و إلقاءها إلى المتعلّم على

التمهّل و التؤدة يفسد غرض التعليم لانقطاع أثر السابق إلى أن يلحق به اللاّحق و سقوط الهمّة و العزيمة عن ضبط المطالب ففي اتّصال أجزاء العلم الواحد بعضها ببعض إمداد للذهن وتهيئة للفهم على التفقّه و الضبط لايحصل بدونه البتّة .

وقد أجاب تعالى عنه بقوله : « و رتّلناه ترتيلا » فمعناه على ما يعطيه السياق أنّ هذه التعليمات على نزولها نجوما متفرّقة عقّبنا بعضها ببعض و نزّلنا بعضها إثر بعض بحيث لاتبطل الروابط ولا تنقطع آثار الأبعاض فلا يفسد بذلك غرض التعليم بل هي سور و آيات نازلة بعضها أثر بعض مترتّبة مرتّلة .

على أنّ هناك أمرا آخر وهو أنّ القرآن كتاب بيان و احتجاج يحتجّ على المؤالف و المخالف فيما أشكل عليهم أو استشكلوه على الحقّ والحقيقة بالتشكيك و الاعتراض ، و يبيّن لهم ما التبس عليهم أمره من المعارف والحكم الواقعة في الملل و الأديان السابقة وما فسّرها به علماؤهم بتحريف الكلم عن مواضعه كما يظهر بقياس ما كان يعتقده الوثنيّون في الله تعالى والملائكة و الجنّ وقدّيسي البشر وما وقع في العهدين من أخبار الأنبياء وما بثّوه من معارف المبدء والمعاد ، إلى ما يبيّنه القرآن في ذلك .

وهذا النوع من الاحتجاج و البيان لايستوفي حقّه إلّا بالتنزيل التدريجيّ على حسب ما كان يبدو من شبههم و يرد على النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم من مسائلهم تدريجا ، و يورد على المؤمنين أوعلى قومهم من تسويلاتهم شيأ بعد شيء وحينا بعد حين .

و إلى هذا يشير قوله تعالى : « ولا يأتونك بمثل إلّا جئناك بالحقّ و أحسن تفسيراً » ـ والمثل الوصف ـ أي لايأتونك بوصف فيك أو في غيرك حادوا به عن الحقّ أو أساؤا تفسيره إلاّ جئناك بما هو الحقّ فيه أوما هوأحسن الوجوه في تفسيره فإنّ ما أتوا به إمّا باطل محض فالحقّ يدفعه أوحقّ محرّف عن موضعه فالتفسير الأحسن يردّه إلى مستواه و يقوّمه .

فتبيّن بما تقدّم أنّ قوله : « كذلك لنثبّت به فؤادك ـ إلى قوله ـ وأحسن تفسيرا » جواب عن قولهم: « لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة » بوجهين :

أحدهما بيان السبب الراجع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم و هو تثبيت فؤاده بالتنزيل التدريجي.

وثانيهما بيان السبب الراجع إلى الناس وهو بيان الحق فيما يوردون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المثل والوصف الباطل، والتفسير بأحسن الوجوه فيما يوردون عليه من الحق المغير عن وجهه المحرف عن موضعه.

و يلحق بهذا الجواب قوله تلواً: «الّذين يحشرون على وجوههم إلى جهنّم اُولئك شرّ مكانا وأضلّ سبيلا» فهو كالمتمّم للجواب على ما سيجيء بيانه.

و تبيّن أيضاً أنّ الآيات الثلاث مسوقة جميعا لغرض واحد وهو الجواب عمّا أوردوه من القدح في القرآن هذا، و المفسّرون فرّقوا بين مضامين الآيات الثلاث فجعلوا قوله: «كذلك لنثبّت به فؤادك» جوابا عن قولهم: «لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة»، و قوله: «و رتّلناه ترتيلا» خبرا عن ترسيله في النزول أو في القراءة على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من غير ارتباط بما تقدّمه.

و جعلوا قوله: «ولا يأتونك بمثل» الخ كالبيان لقوله: «كذلك لنثبّت به فؤادك» و إيضاحا لكيفيّة تثبيت فؤاده صلى الله عليه وآله، و جعله بعضهم ناظرا إلى خصوص المثل الّذي ضربوه للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، و أنّ الله بيّن الحقّ فيه وجاء بأحسن التفسير و قيل غير ذلك، وجعلوا قوله: «الّذين يحشرون» الآية أجنبيّا عن غرض الآيتين السابقتين بالكلّيّة.

و التأمّل فيما قدّمناه في توجيه مضمون الآيتين الاُولين وما سيأتي من معنى الآية الثالثة يوضح فساد جميع ذلك، و يظهر أنّ الآيات الثلاث جميعا ذات غرض واحد وهو الجواب عمّا أوردوه من الطعن في القرآن من جهة نزوله التدريجيّ.

و ذكروا أيضا أنّ الجواب عن قدحهم و اقتراحهم بقوله: «كذلك لنثبّت به فؤادك» جواب بذكر بعض مالتفريق النزول من الفوائد وأنّ هناك فوائد اُخرى غير ما ذكره الله تعالى، وقد أوردوا فوائد اُخرى أضافوها إلى ما وقع في الآية:

منها أنّ الكتب السماويّة السابقة على القرآن إنّما اُنزلت جملة واحدة لأنّها اُنزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤن فنزلت عليهم جملة واحدة مكتوبة والقرآن إنّما نزّل على نبيّ اُمّيّ لايكتب ولا يقرء ولذلك نزّل متفرّقاً .

ومنها : أنّ الكتب المتقدّمة لم يكن شاهد صحّتها و دليل كونها من عندالله تعالى إعجازها ، وأمّاالقرآن فبيّنة صحّته وآية كونه من عندالله تعالى نظمه المعجز الباقي على مرّ الدهورالمتحقّق في كلّ جزء من أجزائه المقدّر بمقدار أقصر السور حسبما وقع به التحدّي .

ولا ريب أنّ مدار الإعجاز هو المطابقة لما تقتضيه الأحوال ، و من ضرورة تجدّدها تجدّد ما يطابقها .

ومنها أنّ في القرآن ناسخا ومنسوخا ولايتيسّر الجمع بينهما لمكان المضادّة و المنافاة ، و فيه ما هو جواب لمسائل سألوا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عنها ، و فيه ما هو إنكار لبعض ما كان ، و فيه ما هو حكاية لبعض ما جرى ، و فيه ما فيه إخبار عمّا سيأتي في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كالإخبار عن فتح مكّة و دخول المسجد الحرام ، و الإخبار عن غلبة الروم على الفرس إلى غير ذلك من الفوائد فاقتضت الحكمة تنزيله متفرّقا .

وهذه وجوه ضعيفة لاتقتضي امتناع النزول جملة واحدة :

أمّا الوجه الأوّل فكون النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم اُمّيّاً لايقرء ولا يكتب لايمنع النزول جملة واحدة ، وقدكان معه من يكتبه و يحفظه . على أنّ الله سبحانه وعده أن يعصمه من النسيان و يحفظ الذكر النازل عليه كما قال : « سنقرئك فلا تنسى » الأعلى :٦ وقال : « إنّا نحن نزّلنا الذكر و إنّا له لحافظون » الحجر : ٩ ، و قال : « إنّه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » حمٓ السجدة : ٤٢ و قدرته تعالى على حفظ كتابه مع نزوله دفعة أوتدريجا سواء .

و أمّا الوجه الثاني فكما أنّ الكلام المفرّق يقارنه أحوال تقتضي في نظمه اُمورا إن اشتمل عليها الكلام كان بليغا و إلّا فلا ، كذلك الكلام الجمليّ و إن كان

كتابا يقارنه بحسب فصوله و أجزائه أحوال لها اقتضاءات إن طابقها كان بليغا وإلّا فلا فالبلاغة غير موقوفة على غير الكتاب النازل دفعة والكلام المجموع جملة واحدة .

و أمّا الوجه الثالث فالنسخ ليس إبطالاللحكم السابق و إنّما هو بيان انتهاء أمده فمن الممكن الجمع بين الحكمين المنسوخ والناسخ بالإشارة إلى أنّ الحكم الأوّل محدود موقّت إن اقتضت المصلحة ذلك .

ومن الممكن أيضاأن يقدّم بيان المسائل الّتي سيسألون عنها حتّى لايحتاجوا فيها إلى سؤال ولو سألوا عن شيء منها اُرجعوا إلى سابق البيان ، و كذا من الممكن أن يقدّم ذكر ما هو إنكار لما كان أو حكاية لما جرى أو إخبار عن بعض المغيبات فشيء من ذلك لا يمتنع تقديمه كما هو ظاهر .

على أنّ تفريق النزول لبعض هذه الحكم والمصالح من تثبيت الفؤاد فليست هذه الوجوه المذكورة وجوها على حدتها .

فالحقّ أنّ البيان الواقع في الآية بيان تامّ جامع لا حاجة معه إلى شيء من هذه الوجوه البتّة .

قوله تعالى : « الّذين يحشرون على وجوههم إلى جهنّم هم شرّ مكانا وأضلّ سبيلا » اتّصال الآية بما قبلها من الآيات على مالها من السياق يعطي أنّ هؤلاء القادحين في القرآن استنتجوا من قدحهم مالا يليق بمقام النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فذكروه واصفين له بسوء المكانة و ضلال السبيل فلم يذكره الله تعالى في ضمن ما حكى من قولهم في القرآن صونا لمقام النبوّة أن يذكر بسوء ، و إنّما أشار إلى ذلك في ما أورد في هذه الآية من الردّ عليهم بطريق التكنية .

فقوله : « الّذين يحشرون على وجوههم إلى جهنّم » كناية عن الّذين كفروا القادحين في القرآن الواصفين للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بماوصفوا ، والكناية أبلغ من التصريح.

فالمراد أنّ هؤلاء القادحين في القرآن الواصفين لك هم شرّ مكانا و أضلّ سبيلا لا أنت فالكلام مبنيّ على قصر القلب ، و لفظتا « شرّ » و« أضلّ » منسلختان عن معنى التفضيل أو مفيدتان على التهكّم و نحوه .

و قد كنّى عنهم بالمحشورين على وجوههم إلى جهنّم وهو وصف من أضلّه الله من المتعنّتين المنكرين للمعاد كما قال تعالى : « ومن يهد الله فهو المهتد و من يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا و بكما و صمّا مأواهم جهنّم كلّما خبت زدناهم سعيرا ذلك جزاؤهم بأنّهم كفروا بآياتنا » الخ أسرى : ٩٨ .

ففي هذه التكنية مضافا إلى كونها أبلغ، تهديد لهم بشرّ المكان و أليم العذاب وأيضا هي في معنى الاحتجاج على ضلالهم إذ لاضلال أضلّ من أن يسير الإنسان على وجهه و هو لايشعر بما في قدّامه ، وهذا الضلال الّذي في حشرهم على وجوههم إلى جهنّم ممثّل للضلال الّذي كان لهم في الدنيا فكأنّه قيل : إنّ هؤلاء هم الضالّون فإنّهم محشورون على وجوههم ، ولا يبتلي بذلك إلّا من كان ضالاً في الدنيا .

وقد اختلفت كلماتهم في وجه اتّصال الآية بما قبلها فسكت عنه بعضهم ، و ذكر في مجمع البيان أنّهم قالوا لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين : انّهم شرّ خلق الله فقال الله تعالى : « اُولئك شرّ مكانا و أضلّ سبيلا » و ذكر بعضهم أنّها متّصلة بقوله قبل آيات : « أصحاب الجنّة يومئذ خير مستقرّا و أحسن مقيلا » و قد عرفت ما يلوح من السياق .

وقد اختلفوا أيضا في المراد بحشرهم على وجوههم فقيل : هو على ظاهره وهو الانتقال مكبوبا ، وقيل : هو السحب .

وقيل: هو الانتقال من مكان إلى مكان منكوسا وهو خلاف المشي على الاستقامة وفيه أنّ الأولى حينئذ التعبير بالحشر على الرؤس لاعلى الوجوه ، وقد قال تعالى في موضع آخر وهو كتوصيف ما يجري بعد هذا الحشر : « يوم يسحبون في النّار على وجوههم » القمر : ٤٨ .

وقيل : المراد به فرط الذلّة والهوان والخزي مجازا . و فيه أنّ المجاز إنّما يصار إليه إذا لم يمكن حمل اللفظ على الحقيقة .

و قيل : هو من قول العرب : مرّ فلان على وجهه إذا لم يدر أين ذهب؟ وفيه أنّ مرجعه إلى الجهل بالمكان المحشور إليه ولا يناسب ذلك تقييد الحشر في الآية بقوله : « إلى جهنّم » .

و قيل : الكلام كناية أو استعارة تمثيليّة ، و المراد أنّهم يحشرون و قلوبهم متعلّقة بالسفليّات من الدنيا و زخارفها متوجّهة وجوههم إليها . واُورد عليه أنّهم هناك في شغل شاغل عن التوجّه إلى الدنيا وتعلّق القلوب بها ، ولعلّ المراد به بقاء آثار ذلك فيهم و عليهم .

و فيه أنّ مقتضى آيات تجسّم الأعمال كون العذاب ممثّلا للتعلّق بالدنيا و التوجّه نحوها فهم في الحقيقة لاشغل لهم يومئذ إلّا ذلك .

قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب و جعلنا معه أخاه هارون وزيراً » استشهاد على رسالة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و نزول الكتاب عليه قبال تكذيب الكفّار به و بكتابه برسالة موسى و إيتائه الكتاب و إشراك هارون في أمره للتخلّص إلى ذكر تعذيب آل فرعون و إهلاكهم ، و معنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « فقلنا اذهبا إلى القوم الّذين كذّبوا بآياتنا فدمّرناهم تدميرا » قال في مجمع البيان : التدمير الإهلاك لأمر عجيب ، و منه التنكيل يقال : دمّر على فلان إذا هجم عليه بالمكروه انتهى .

و المراد بالآيات آيات الآفاق و الأنفس الدالّة على التوحيد الّتي كذّبوا بها ، و ذكر أبو السعود في تفسيره أنّ الآيات هي المعجزات التسع المفصّلات الظاهرة على يدي موسى عليه السلام ولم يوصف القوم لهماعند إرسالهما إليهم بهذا الوصف ضرورة تأخّر تكذيب الآيات عن إظهارها المتأخّر عن ذهابهما المتأخّر عن الأمر به بل إنّما وصفوا بذلك عندالحكاية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بياناً لعلّة استحقاقهم لمايحكى بعده من التدمير أي فذهبا إليهم فأرياهم آياتنا كلّها فكذّبوها تكذيبا مستمرّاً فدمّرناهم . انتهى وهو حسن لو تعيّن حمل الآيات على آيات موسى عليه السلام .

و وجه اتّصال الآيتين بما قبلهما هو تهديد القادحين في كتاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

و رسالته بتنظير الأمر بأمر موسى حيث آتاه الله الكتاب و أرسله مع أخيه إلى قوم فرعون فكذّبوه فدمّرهم تدميراً .

و لهذه النكتة قدّم ذكر إيتاء الكتاب على إرسالهما إلى القوم و تدميرهم مع أنّ التوراة إنّما نزلت بعد غرق فرعون و جنوده فلم يكن الغرض من القصّة إلّا الإشارة إلى إيتاء الكتاب و الرسالة لموسى و تدمير القوم بالتكذيب .

وقيل : الآيتان متّصلتان بقوله تعالى قبل : « و كفى بربّك هادياً و نصيراً » وهو بعيد.

قوله تعالى : « و قوم نوح لمّا كذّبوا الرسل أغرقناهم و جعلناهم للناس آية و أعتدنا للظالمين عذابا أليما » الظاهر أنّ قوله : « قوم نوح » منصوب بفعل مقدّر يدلّ عليه قوله : « أغرقناهم » .

و المراد بتكذيبهم الرسل تكذيبهم نوحا فإنّ تكذيب الواحد من رسل الله تكذيب للجميع لاتّفاقهم على كلمة الحقّ . على أنّ هؤلاء الاُمم كانوا أقواماً وثنيّين و هم ينكرون النبوّة و يكذّبون الرسالة من رأس .

و قوله : « و جعلناهم للناس آية » أي لمن بقي بعدهم من ذراريهم ، و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « و عاداً و ثمود و أصحاب الرسّ و قرونا بين ذلك كثيرا » قال في مجمع البيان : الرسّ البئر الّتي لم تطو ذكروا أنّهم كانوا قوما بعد ثمود نازلين على بئر أرسل الله إليهم رسولا فكذّبوا به فأهلكهم الله ، و قيل هو اسم نهر كانوا على شاطئه و في روايات الشيعة ما يؤيّد ذلك .

و قوله : « و عاداً » الخ معطوف على « قوم نوح » و التقدير : و دمّرنا أو وأهلكنا عاداً و ثمود و أصحاب الرسّ الخ .

وقوله : « و قرونا بين ذلك كثيرا » القرن أهل عصر واحد و ربّما يطلق على نفس العصر والإشارة بذلك إلى من مرّ ذكرهم من الأقوام أوّلهم قوم نوح و آخرهم أصحاب الرسّ أو قوم فرعون و المعنى و دمّرنا أو و أهلكنا عاداً وهم قوم هود ، و

ثمود وهم قوم صالح ، و أصحاب الرسّ ، و قرونا كثيرا متخلّلين بين هؤلاء الّذين ذكرناهم وهم قوم نوح فمن بعدهم .

قوله تعالى : « و كلاّ ضربناله الأمثال و كلا تبّرنا تتبيرا » كلاّ منصوب بفعل يدلّ عليه قوله : « ضربنا له الأمثال » فإنّ ضرب الأمثال في معنى التذكير والموعظة و الإنذار ، و التتبير التفتيت ، و معنى الآية .

قوله تعالى : « ولقد أتوا على القرية الّتي اُمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لايرجون نشورا » هذه القرية هي قرية قوم لوط أمطر الله عليهم حجارة من سجّيل وقد مرّ تفصيل قصصهم في السور السابقة .

و قوله : « أفلم يكونوا يرونها » استفهام توبيخيّ فإنّ القرية كانت على طريق أهل الحجاز إلى الشام .

و قوله : « بل كانوا لايرجون نشورا » أي لايخافون معاداً أو كانوا آئسين من المعاد ، و هذا كقوله تعالى فيما تقدّم : « بل كذّبوا بالساعة » و المراد به أنّ المنشأ الأصيل لتكذيبهم بالكتاب و الرسالة و عدم اتّعاظهم بهذه المواعظ الشافية و عدم اعتبارهم بما يعتبر به المعتبرون أنّهم منكرون للمعاد فلا ينجح فيهم دعوة ولا تقع في قلوبهم حكمة ولا موعظة .

﴿بحث روائي﴾

في العيون بإسناده عن أبي الصلت الهرويّ عن الرضا عن أميرالمؤمنين عليهما السلام حديث طويل يذكر فيه قصّة أصحاب الرسّ ملخّصه أنّهم كانوا قوما يعبدون شجرة صنوبرة يقال لها شاه درخت كان يافث بن نوح غرسها بعد الطوفان على شفير عين يقال لها : روشن آب و كان لهم اثنتا عشرة قرية معمورة على شاطىء نهر يقال له الرسّ يسمّين بأسماء : أبان ، آذر ، دي ، بهمن ، اسفندار ، فروردين ، اُردي بهشت خرداد ، مرداد ، تير ، مهر ، شهريور ، ومنها اشتقّ العجم أسماء شهورهم .

وقد غرسوا في كلّ قرية منها من طلع تلك الصنوبرة حبّة . أجروا عليها نهراً من العين الّتي عند الصنوبرة ، وحرّموا شرب مائها على أنفسهم و أنعامهم ومن شرب منه قتلوه و يقولون : إنّه حياة الآلهة فلا ينبغي لأحد أن ينقص حياتها .

وقد جعلوا في كلّ شهر من السنة يوما في كلّ قرية عيدا يخرجون فيه إلى الصنوبرة الّتي خارج القرية يقرّبون إليها القرابين و يذبحون الذبائح ثمّ يحرقونها في نار أضرموها فيسجدون للشجرة عند ارتفاع دخانها و سطوعه في السماء ويبكون و يتضرّعون و الشيطان يكلّمهم من الشجرة .

و هذا دأبهم في القرى حتّى إذا كان يوم عيد قريتهم العظمى الّتي كان يسكنها ملكهم و اسمها إسفندار اجتمع إليها أهل القرى جميعا و عيّدوا اثني عشر يوما ، و جاؤا بأكثر ما يستطيعونه من القرابين و العبادات للشجرة و كلّمهم إبليس و هو يعدهم و يمنّيهم أكثر ممّا كان من الشياطين في سائر الأعياد من سائر الشجر .

و لمّا طال منهم الكفر بالله وعبادة الشجرة بعث الله إليهم رسولا من بني إسرائيل من ولد يهودا فدعاهم إلى عبادة الله وترك الشرك برهة فلم يؤمنوا فدعا على الشجرة فيبست فلمّا رأوا ذلك ساءهم فقال بعضهم : إنّ هذا الرجل سحر آلهتنا ، و قال آخرون : إنّ آلهتنا غضبت علينا بذلك لمّا رأت هذا الرجل يدعونا إلى الكفر بها فتركناه و شأنه من غير أن نغضب عليه لآلهتنا .

فاجتمعت آراؤهم على قتله فحفروا بئرا عميقا و ألقوه فيها وشدّوا رأسها فلم يزالوا عليها يسمعون أنينه حتّى مات فأتبعهم الله بعذاب شديد أهلكهم عن آخرهم .

و في نهج البلاغة قال عليه‌السلام : أين أصحاب مدائن الرسّ الّذين قتلوا النبيّين و أطفأوا سنن المرسلين و أحيوا سنن الجبّارين .

و في الكافي بإسناده عن محمّد بن أبي حمزة و هشام وحفص عن أبي عبدالله عليه‌السلام أنّه دخل عليه نسوة فسألته امرأة منهنّ عن السحق فقال : حدّها حدّ الزاني فقالت المرأة : ما ذكره الله عزّ وجلّ في القرآن ، فقال : بلى فقالت : و أين هو ؟ قال : هنّ الرسّ .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن أبي الدنيا في ذمّ الملاهي والبيهقيّ وابن عساكر عن جعفر بن محمّد بن عليّ أنّ امرأتين سألتاه : هل تجد غشيان المرأة المرأة محرّماً في كتاب الله ؟ قال : نعم هنّ اللّواتي كنّ على عهد تبّع ، وهنّ صواحب الرسّ ، و كلّ نهر وبئر رسّ .

قال : يقطع لهنّ جلباب من نار ، و درع من نار ، و نطاق من نار ، و تاج من نار ، و خفّان من نار ، و من فوق ذلك ثوب غليظ جاف جاسف منتن من نار . قال جعفر : علّموا هذا نساءكم

أقول : و روى القمّي عن أبيه عن ابن أبي عمير ، عن جميل عن أبي عبدالله عليه السلام مافي معناه .

و في تفسير القمّي بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى : « و كلّاً تبّرنا تتبيرا » يعني « كسّرنا تكسيرا » قال : هي لفظة بالنبطيّة .

و فيه و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : و أمّا القرية الّتي اُمطرت مطر السوء فهي سدوم قرية قوم لوط أمطر الله عليهم حجارة من سجّيل يعني من طين .



☆ ☆ ☆

وَ اِذَا رَاَوْكَ اِنْ يَتَّخِذُونَكَ اِلَّا هُزُواً اَهٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللّٰهُ رَسُولاً (٤١)
اِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا اَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ
الْعَذَابَ مَنْ اَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) اَرَاَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ اِلٰهَهُ هَوٰيهُ اَفَاَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ
وَكِيلًا (٤٣) اَمْ تَحْسَبُ اَنَّ اَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ اَوْ يَعْقِلُونَ اِنْ هُمْ اِلَّا كَالْاَنْعَامِ
بَلْ هُمْ اَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤) اَلَمْ تَرَ اِلٰى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً
ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ اِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً (٤٦) وَ هُوَ
الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَ النَّوْمَ سُبَاتاً وَ جَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً (٤٧) وَ هُوَ
الَّذِى اَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً (٤٨)
لِنُحْيِىَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَ نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا اَنْعَاماً وَ اَنَاسِىَّ كَثِيراً (٤٩) وَ لَقَدْ
صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَاَبٰى اَكْثَرُ النَّاسِ اِلَّا كُفُوراً (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا
فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَ جَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (٥٢)
وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَ هٰذَا مِلْحٌ اُجَاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا
بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً (٥٣) وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً
وَ صِهْراً وَ كَانَ رَبُّكَ قَدِيراً (٥٤) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا
يَضُرُّهُمْ وَ كَانَ الْكَافِرُ عَلٰى رَبِّهِ ظَهِيراً (٥٥) وَمَا اَرْسَلْنَاكَ اِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً (٥٦)

قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَ كَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَ زَادَهُمْ نُفُوراً (٦٠) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَ جَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَ قَمَراً مُنِيراً (٦١) وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً (٦٢) .

﴿ بيان ﴾

تذكر الآيات بعض صفات اُولئك الكفّار القادحين في الكتاب و الرسالة و المنكرين للتوحيد و المعاد ممّا يناسب سنخ اعتراضاتهم و اقتراحاتهم كاستهزائهم بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم واتّباعهم الهوى وعبادتهم لما لاينفعهم ولا يضرّهم و استكبارهم عن السجود لله سبحانه .

قوله تعالى : « و إذا رأوك إن يتّخذونك إلّا هزؤا أهذا الّذي بعث الله رسولا » ضمير الجمع للّذين كفروا السابق ذكرهم ، و الهزؤ الاستهزاء و السخريّة فالمصدر بمعنى المفعول ، و المعنى : و إذا رآك الّذين كفروا لايتّخذونك إلّا مهزوّا به .

و قوله : « أهذا الّذي بعث الله رسولا » بيان لاستهزائهم أي يقولون كذا استهزاء بك .

قوله تعالى : « إن كاد ليضلّنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها » الخ « إن »

مخفّفة من الثقيلة ، والإضلال كأنّه مضمّن معنى الصرف ولذا عدّي بعن ، وجواب لولا محذوف يدلّ عليه ما تقدّمه ، و المعنى أنّه قرب أن يصرفنا عن آلهتنا مضلاً لنا لولا أن صبرنا على آلهتنا أي على عبادتها لصرفنا عنها .

وقوله : « وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضلّ سبيلا » توعّد وتهديد منه تعالى لهم و تنبيه أنّهم على غفلة ممّا سيستقبلهم من معاينة العذاب و اليقين بالضلال و الغيّ .

قوله تعالى : « أرأيت من اتّخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا» الهوى ميل النفس إلى الشهوة من غير تعديله بالعقل ، و المراد باتّخاذ الهوى إلهاً طاعته و اتّباعه من دون الله وقد أكثر الله سبحانه في كلامه ذمّ اتّباع الهوى و عدّ طاعة الشيء عبادة له في قوله : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لاتعبدوا الشيطان إنّه لكم عدوّ مبين و أن اعبدوني » يس : ٦١ .

و قوله : « أفأنت تكون عليه وكيلا » استفهام إنكاريّ أي لست أنت وكيلا عليه قائما على نفسه و بأُموره حتّى تهديه إلى سبيل الرشد فليس في مقدرتك ذلك و قد أضلّه الله و قطع عنه أسباب الهداية وفي معناه قوله : « إنّك لاتهدي من أحببت » القصص : ٥٦ و قوله : « وما أنت بمسمع من في القبور » الفاطر : ٢٢ ، و الآية كالإجمال للتفصيل الّذي في قوله : « أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه و أضلّه الله على علم و ختم على سمعه و قلبه و جعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله » الجاثية : ٢٣ .

ويظهر ممّا تقدّم من المعنى أنّ قوله : «اتّخذ إلهه هواه» على نظمه الطبيعيّ أي إنّ « اتّخذ » فعل متعدّ إلى مفعولين و« إلهه » مفعوله الأوّل و« هواه »مفعول ثان له فهذا هوالّذي يلائم السياق وذلك أنّ الكلام حول شرك المشركين وعدولهم عن عبادةالله إلى عبادة الأصنام ، و إعراضهم عن طاعة الحقّ الّتي هي طاعةالله إلى طاعة الهوى الّذي يزيّن لهم الشرك ، وهؤلاء يسلّمون أنّ لهم إلها مطاعا وقد أصابوا في ذلك ، لكنّهم يرون أنّ هذا المطاع هو الهوى فيتّخذونه مطاعا بدلا من أن

يتّخذوا الحقّ مطاعا فقد وضعوا الهوى موضع الحقّ لا أنّهم وضعوا المطاع موضع غيره فافهم .

ومن هنا يظهر ما في قول عدّة من المفسّرين أنّ « هواه » مفعول أوّل لقوله « اتّخذ » و « إلهه » مفعول ثان مقدّم ، وإنّما قدّم للاعتناء به من حيث إنّه الّذي يدور عليه أمر التعجيب في قوله : «أرأيت من اتّخذ » الخ كما قاله بعضهم ، أو إنّما قدّم للحصر على ما قاله آخرون ، ولهم في ذلك مباحثات طويلة أغمضنا عن إيرادها و فيما ذكرناه كفاية إن شاء الله .

قوله تعالى : «أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا » أم منقطعة ، و الحسبان بمعنى الظنّ و ضمائر الجمع راجعة إلى الموصول في الآية السابقة باعتبار المعنى . و الترديد بين السمع والعقل من جهة أنّ وسيلة الإنسان إلى سعادة الحياة أحد أمرين إمّا أن يستقلّ بالتعقّل فيعقل الحقّ فيتّبعه أو يرجع إلى قول من يعقله وينصحه فيتّبعه إن لم يستقلّ بالتعقّل فالطريق إلى الرشد سمع أو عقل فالآية في معنى قوله : «وقالوا لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير » الملك : ١٠ .

والمعنى بل أتظنّ أنّ أكثرهم لهم استعداد استماع الحقّ ليتّبعه أو استعداد عقل الحقّ ليتّبعه فترجو اهتداءهم فتبالغ في دعوتهم .

و قوله : « إن هم إلّا كالأنعام » بيان للجملة السابقة فإنّه في معنى أنّ أكثرهم لا يسمعون ولا يعقلون فتنبّه أنّهم ليسوا إلّا كالأنعام والبهائم في أنّها لا تعقل ولا تسمع إلّا اللفظ دون المعنى .

و قوله : « بل هم أضلّ سبيلا » أي من الأنعام و ذلك أنّ الأنعام لا تقتحم على ما يضرّها وهؤلاء يرجّحون ما يضرّهم على ما ينفعهم ، وأيضا الأنعام إن ضلّت عن سبيل الحقّ فإنّها لم تجهّز في خلقتها بما يهديها إليه و هؤلاء مجهّزون و قد ضلّوا .

و استدلّ بعضهم بالآية على أنّ الأنعام لا علم لها بربّها . و فيه أنّ الآية

لاتنفي عنها ولا عن الكفّار أصل العلم بالله و إنّما تنفي عن الكفّار اتّباع الحقّ الّذي يهدي إليه عقل الإنسان الفطري لاحتجابه باتّباع الهوى ، وتشبّههم في ذلك بالأنعام الّتي لم تجهّز بهذا النوع من الإدراك .

و أمّا ما أجاب به بعضهم أنّ الكلام خارج مخرج الظاهر فقول لا سبيل إلى إثباته بالاستدلال .

قوله تعالى : « ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظلّ ولو شاء لجعله ساكنا ثمّ جعلنا الشمس عليه دليلا ثمّ قبضناه إلينا قبضا يسيرا » هاتان الآيتان و ما بعدهما إلى تمام تسع آيات في معنى التنظير لما تضمّنته الآيتان السابقتان بل الآيات الأربع السابقة من أنّ الله سبحانه جعل رسالة الرسول لهداية الناس إلى سبيل الرشد وإنقاذهم من الضلال فيهتدي بها بعضهم ممّن شاء الله وأمّا غيرهم ممّن اتّخذ إلهه هواه فصار لا يسمع ولا يعقل فليس في وسع أحد أن يهديهم من بعد الله .

فهي تبيّن أن ليس هذا ببدع من الله سبحانه ففي عجائب صنعه و بيّنات آياته نظائر لذلك ففعله متشابه وهو على صراط مستقيم ، وذلك كمدّ الظلّ وجعل الشمس دليلا عليه تنسخه ، و كجعل الليل لباسا والنوم سباتا والنهار نشورا ، و كجعل الرياح بشرا و إنزال المطر و إحياء الأرض الميتة به و إرواء الأنعام والأناسيّ به .

ثمّ ما مثل المؤمن و الكافر في اهتداء هذا و ضلال ذاك - وهم جميعا عباد الله يعيشون في أرض واحدة - إلّا كمثل المائين العذب الفرات و الملح الاُجاج مرجهما الله تعالى لكن جعل بينهما برزخا و حجرا محجورا ، و كالماء خلق الله سبحانه منه بشرا ثمّ جعله نسبا و صهرا فاختلف بذلك المواليد و كان ربّك قديرا .

هذا ما يهدي إليه التدبّر في مضامين الآيات وخصوصيّات نظمها ، وبه يظهر وجه اتّصالها بما تقدّمها ، و أمّا ما ذكروه من أنّ الآيات مسوقة لبيان بعض أدلّة التوحيد إثر بيان جهالة المعرضين عنها و ضلالهم فالسياق لا يساعد عليه وسنزيد ذلك إيضاحا .

فقوله : « ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظلّ ولو شاء لجعله ساكنا » تنظير

ـ كما تقدّمت الإشارة إليه ـ لشمول الجهل و الضلال للناس و رفعه تعالى ذلك بالرسالة و الدعوة الحقّة كما يشاء ولازم ذلك أن يكون المراد بمدّ الظلّ مايعرض الظلّ الحادث بعد الزوال من التمدّد شيأً فشيأً من المغرب إلى المشرق حسب اقتراب الشمس من الاُفق حتّى إذا غربت كانت فيه نهاية الامتداد وهوالليل ، وهو في جميع أحواله متحرّك ولوشاءالله لجعله ساكنا .

وقوله : « ثمّ جعلنا الشمس عليه دليلا » و الدليل هي الشمس من حيث دلالتها بنورها على أنّ هناك ظلّاً و بانبساطه شيأً فشيأً على تمدّد الظلّ شيأً فشيأً ولولاها لم يتنبّه لوجود الظلّ فإنّ السبب العامّ لتمييز الإنسان بعض المعاني من بعض تحوّل الأحوال المختلفة عليه من فقدان و وجدان فإذا فقد شيأً كان يجده تنبّه لوجوده وإذا وجد ماكان يفقده تنبّه لعدمه ، وأمّا الأمر الثابت الّذي لاتتحوّل عليه الحال فليس إلى تصوّره بالتنبّه سبيل .

و قوله : « ثمّ قبضناه إلينا قبضا يسيرا » أي أزلنا الظلّ بإشراق الشمس و ارتفاعها شيأً فشيأً حتّى ينسخ بالكلّيّة ، و في التعبير عن الإزالة والنسخ بالقبض ، و كونه إليه ، و توصيفه باليسير دلالة على كمال القدرة الإلهيّة و أنّها لايشقّ عليها فعل ، وأنّ فقدان الأشياء بعد وجودها ليس بالانعدام و البطلان بل بالرجوع إليه تعالى .

وماتقدّم من تفسير مدّ الظلّ بتمديد الفيء بعد زوال الشمس و إن كان معنى لم يذكره المفسّرون لكنّ السياق ـ على ما أشرنا إليه ـ لايلائم غيره ممّا ذكره المفسّرون كقول بعضهم : إنّ المراد بالظلّ الممدود ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، و قول بعض : ما بين غروب الشمس و طلوعها ، و قول بعض : ما يحدث من مقابلة كثيف كجبل أو بناء أو شجر للشمس بعد طلوعها ، و قول بعض ـ و هو أسخف الأقوال ـ هو ما كان يوم خلق الله السماء وجعلها كالقبّة ثمّ دحا الأرض من تحتها فألقت ظلّها عليها .

وفي الآية أعني قوله : « ألم تر إلى ربّك » الخ التفات من سياق التكلّم بالغير

في الآيات السابقة إلى الغيبة ، و النكتة فيه أنّ المراد بالآية وما يتلوها من الآيات بيان أنّ أمر الهداية إلى الله سبحانه وليس للنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من الأمر شيء وهو تعالى لا يريد هدايتهم و أنّ الرسالة و الدعوة الحقّة في مقابلتها للضلال المنبسط على أهل الضلال و نسخها ما تنسخ منه من شعب السنّة العامّة الإلهيّة في بسط الرحمة على خلقه نظير إطلاع الشمس على الأرض و نسخ الظلّ الممدود فيها بها ، و من المعلوم أنّ الخطاب المتضمّن لهذه الحقيقة ممّا ينبغي أن يختصّ به صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وخاصّة من جهة سلب القدرة على الهداية عنه ، وأمّا الكفّار المتّخذون إلههم هواهم وهم لا يسمعون ولا يعقلون فلا نصيب لهم فيه .

وفي قوله : « ثمّ جعلنا الشمس عليه دليلا ثمّ قبضناه إلينا » رجوع إلى السياق السابق ، و في ذلك مع ذلك من إظهار العظمة و الدلالة على الكبرياء ما لا يخفى .

و الكلام في قوله الآتي : « وهو الّذي جعل لكم الليل » الخ وقوله : « وهو الّذي أرسل الرياح » و قوله : « و هو الّذي مرج البحرين » وقوله : « وهو الّذي خلق من الماء بشرا » كالكلام في قوله : « ألم تر إلى ربّك » و الكلام في قوله : « وأنزلنا من السماء ماء » الخ و قوله : « ولقد صرّفناه بينهم » و قوله : « ولو شئنا لبعثنا » كالكلام في قوله : « ثمّ جعلنا الشمس » .

قوله تعالى : « و هو الّذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا » كون الليل لباسا إنّما هو ستره الإنسان بغشيان الظلمة كما يستر اللباس لابسه .

و قوله : « والنوم سباتا » أي قطعا للعمل ، وقوله : « وجعل النهار نشورا » أي جعل فيه الانتشار و طلب الرزق على ما ذكره الراغب في معنى اللفظتين .

و حال ستره تعالى الناس بلباس الليل و قطعهم به عن العمل و الحركة ثمّ نشرهم للعمل و السعي بإظهار النهار و بسط النور كحال مدّ الظلّ ثمّ جعل الشمس عليه دليلا وقبض الظلّ بها إليه .

قوله تعالى : « و هو الّذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته و أنزلنا من

السماء ماء طهورا » البشر بالضمّ فالسكون مخفّف بشر بضمّتين جمع بشور بمعنى مبشّر أي هو الّذي أرسل الرياح مبشّرات بين يدي رحمته وهي المطر .

وقوله : « وأنزلنا من السماء ماء طهورا » أي من جهة العلو وهي جوّ الأرض ماء طهورا أي بالغا في طهارته فهو طاهر في نفسه مطهّر لغيره يزيل الأوساخ ويذهب بالأرجاس و الأحداث ـ فالطهور على ماقيل صيغة مبالغة ـ .

قوله تعالى : « لنحيي به بلدة ميتا و نسقيه ممّا خلقنا أنعاما وأناسيّ كثيرا » البلدة معروفة قيل : و اُريد بها المكان كما في قوله : « والبلد الطيّب يخرج نباته باذن ربّه » الأعراف : ٥٨ ، و لذا اتّصف بالميت و هو مذكّر و المكان الميت ما لانبات فيه و إحياؤه إنباته ، و الأناسيّ جمع إنسان ، و معنى الآية ظاهر .

وحال شمول الموت للأرض والحاجة إلى الشرب و الريّ للأنعام والأناسيّ ثمّ إنزاله تعالى من السماء ماء طهورا ليحيي به بلدة ميتا و يسقيه أنعاما و أناسيّ كثيرا من خلقه كحال مدّ الظلّ ثمّ الدلالة عليه بالشمس ونسخه بها كما تقدّم .

قوله تعالى : « ولقد صرّفناه بينهم ليذّكّروا فأبى أكثر الناس إلّا كفورا » ظاهر اتّصال الآية بما قبلها أنّ ضمير « صرّفناه » للماء و تصريفه بينهم صرفه من قوم إلى غيرهم تارة و من غيرهم إليهم اُخرى فلا يدوم في نزوله على قوم فيهلكوا ولا ينقطع عن قوم دائما فيهلكوا بل يدور بينهم حتّى ينال كلّ نصيبه بحسب المصلحة ، وقيل : المراد بالتصريف التحويل من مكان إلى مكان .

وقوله : « ليذّكّروا فأبى أكثر الناس إلّا كفورا » تعليل للتصريف أي واُقسم لقد صرّفنا الماء بتقسيمه بينهم ليتذكّروا فيشكروا فأبى و امتنع أكثر الناس إلّا كفران النعمة .

قوله تعالى : « ولو شئنا لبعثنا في كلّ قرية نذيرا » أي لوأردنا أن نبعث في كلّ قرية نذيرا ينذرهم و رسولا يبلّغهم رسالاتنا لبعثنا ولكن بعثناك إلى القرى كلّها نذيرا و رسولا لعظيم منزلتك عندنا . هكذا فسّرت الآية ولا تخلو الآية التالية من تأييد لذلك ، وهذا المعنى لما وجّهنا به اتّصال الآيات أنسب .

أو أنّ المراد أنّا قادرون على أن نبعث في كلّ قرية رسولا و إنّما اخترناك لمصلحة في اختيارك .

قوله تعالى : « فلا تطع الكافرين و جاهدهم به جهادا كبيرا » متفرّع على معنى الآية السابقة ، و ضمير « به » للقرآن بشهادة سياق الآيات ، و المجاهدة و الجهاد بذل الجهد و الطاقة في مدافعة العدوّ و إذ كان بالقرآن فالمراد تلاوته عليهم و بيان حقائقه لهم و إتمام حججه عليهم .

فمحصّل مضمون الآية أنّه إذا كان مثل الرسالة الإلهيّة في رفع حجاب الجهل و الغفلة المضروب على قلوب الناس بإظهار الحقّ لهم و إتمام الحجّة عليهم مثل الشمس في الدلالة على الظلّ الممدود و نسخه بأمر الله ، و مثل النهار بالنسبة إلى الليل وسبته ، و مثل المطر بالنسبة إلى الأرض الميتة و الأنعام و الأناسيّ الظامئة ، وقد بعثناك لتكون نذيراً لأهل القرى فلا تطع الكافرين لأنّ طاعتهم تبطل هذا الناموس العامّ المضروب للهداية . وابذل مبلغ جهدك و وسعك في تبليغ رسالتك و إتمام حجّتك بالقرآن المشتمل على الدعوة الحقّة و جاهدهم به مجاهدة كبيرة .

قوله تعالى : « و هو الّذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح اُجاج و جعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » المرج الخلط و منه أمر مريج أي مختلط ، و العذب من الماء ما طاب طعمه ، والفرات منه ما كثر عذوبته ، والملح هو الماء المتغيّر طعمه ، و الاُجاج شديد الملوحة ، و البرزخ هو الحدّ الحاجز بين شيئين . وحجرا محجورا أي حراماً محرّماً أن يختلط أحد الماءين بالآخر .

وقوله : « و جعل بينهما » الخ قرينة على أنّ المراد بمرج البحرين إرسال الماءين متقارنين لاالخلط بمعنى ضرب الأجزاء بعضها ببعض .

والكلام معطوف على ما عطف عليه قوله : « و هو الّذي أرسل الرياح » الخ وفيه تنظير لأمر الرسالة من حيث تأديتها إلى تمييز المؤمن من الكافر مع كون الفريقين يعيشان على أرض واحدة مختلطين وهما مع ذلك غيرمتمازجين كما تقدّمت

الإشارة إليه في أوّل الآيات التسع .

قوله تعالى : « وهو الّذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربّك قديرا » الصهر على ما نقل عن الخليل الختن و أهل بيت المرأة فالنسب هو التحرّم من جهة الرجل و الصهر هو التحرّم من جهة المرأة - كما قيل - و يؤيّده المقابلة بين النسب و الصهر .

وقد قيل : إنّ كلّاً من النسب والصهر بتقدير مضاف والتقدير فجعله ذا نسب وصهر ، والضمير للبشر ، والمراد بالماء النطفة ، وربّما احتمل أن يكون المراد به مطلق الماء الّذي خلق الله منه الأشياء الحيّة كما قال : « و جعلنا من الماء كلّ شيء حيّ » .

و المعنى و هو الّذي خلق من النطفة - و هي ماء واحد - بشرا فقسّمه قسمين ذا نسب وذا صهر يعني الرجل و المرأة و هذا تنظير آخر يفيد ما تفيده الآية السابقة أنّ لله سبحانه أن يحفظ الكثرة في عين الوحدة و التفرّق في عين الاتّحاد و هكذا يحفظ اختلاف النفوس والآراء بالإيمان والكفر مع اتّحاد المجتمع البشريّ الّذي بعث الله الرسل لكشف حجاب الضلال الّذي من شأنه غشيانه لولا الدعوة الحقّة .

وقوله : « وكان ربّك قديراً » في إضافة الربّ إلى ضمير الخطاب من النكتة نظير ما تقدّم في قوله : « ألم تر إلى ربك » .

قوله تعالى : « و يعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرّهم و كان الكافر على ربّه ظهيرا » معطوف على قوله : « و إذا رأوك إن يتّخذونك إلّا هزوًا » . والظهير بمعنى المظاهر على ماقيل والمظاهرة المعاونة .

و المعنى و يعبدون - هؤلاء الكفّار المشركون - من دون الله ما لا ينفعهم بإيصال الخير على تقدير العبادة ولا يضرّهم بإيصال الشرّ على تقدير ترك العبادة وكان الكافر معاونا للشيطان على ربّه .

و كون هؤلاء المعبودين و هم الأصنام ظاهرا لا ينفعون ولا يضرّون لا ينافي كون عبادتهم مضرّة فلا يستلزم نفي الضرر عنهم أنفسهم حيث لا يقدرون على شيء

نفي الضرر عن عبادتهم المضرّة المؤدّية للإنسان إلى شقاء لازم وعذاب دائم .

قوله تعالى : « وما أرسلناك إلّا مبشّرا ونذيرا » أي لم نجعل لك في رسالتك إلّا التبشير والإنذار وليس لك وراء ذلك من الأمر شيء فلا عليك إن كانوا معاندين لربّهم مظاهرين لعدوّه عليه فليسوا بمعجزين لله ومايمكرون إلّا بأنفسهم ، هذا هو الّذي يعطيه السياق .

وعليه فقوله : « وما أرسلناك إلّا مبشّرا ونذيرا » هذا الفصل من الكلام نظير قوله : «أفأنت تكون عليهم وكيلا » في الفصل السابق .

ومنه يظهر أنّ أخذ بعضهم الآية تسلية منه تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال و المراد ماأرسلناك إلّا مبشّرا للمؤمنين ونذيراً للكافرين فلاتحزن على عدم إيمانهم. غير سديد .

قوله تعالى : « قل ما أسألكم عليه من أجر إلّا من شاء أن يتّخذ إلى ربّه سبيلا » ضمير « عليه » للقرآن بما أنّ تلاوته عليهم تبليغ للرسالة كما قال تعالى : « إنّ هذه تذكرة فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلا» المزّمّل١٩ الدهر:٢٩ ، وقال : « قل ماأسألكم عليه أجرا وما أنا من المتكلّفين إن هو إلّا ذكر للعالمين » ص : ٨٧ .

وقوله : « إلّا من شاء أن يتّخذ إلى ربّه سبيلاً » استثناء منقطع في معنى المتّصل فإنّه في معنى إلّا أن يتّخذ إلى ربّه سبيلا من شاء ذلك على حدّ قوله تعالى : «يوم لاينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم » الشعراء : ٨٩ أي إلّا أن يأتي الله بقلب سليم من أتاه به .

ففيه وضع الفاعل وهو من اتّخذ السبيل موضع فعله و هو اتّخاذ السبيل شكراً له ففي الكلام عدّ اتّخاذهم سبيلا إلى الله سبحانه باستجابة الدعوة أجراً لنفسه ففيه تلويح إلى نهاية استغنائه عن أجر ماليّ أو جاهيّ منهم ، و أنّه لايريد منهم وراء استجابتهم للدعوة واتّباعهم للحقّ شيأ آخر من مال أوجاه أو أيّ أجر مفروض فليطيبوا نفسا ولا يتّهموه في نصيحته .

وقد علّق اتّخاذ السبيل على مشيّتهم للدلالة على حرّيّتهم الكاملة عن قبله

صلى الله عليه وآله فلا إكراه ولا إجبار إذلاوظيفة له عن قبل ربّه وراء التبشير والإنذار وليس عليهم توكيل بل الأمر إلى الله يحكم فيهم مايشاء.

فقوله «قل ما أسألكم عليه من أجر إلّا من شاء أن يتّخذ» الخ بعد ماسجّل لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أن ليس له إلّا الرسالة بالتبشير والإنذار يأمره أن يبلّغهم أن لا بغية له في دعوتهم إلّا أن يستجيبوا له ويتّخذوا إلى ربّهم سبيلا من غير غرض زائد من الأجر أيّاًمّا كان، وأنّ لهم الخيرة في أمرهم من غير أيّ إجبار وإكراه فهم والدعوة إن شاؤا فليؤمنوا وإن شاؤا فليكفروا.

هذا ما يرجع إليه صلى الله عليه وآله وسلم وهو تبليغ الرسالة فحسب من غير طمع في أجر ولا تحميل عليهم بإكراه أو انتقام منهم بنكال، وأمّا ما وراء ذلك فهو لله فليرجعه إليه وليتوكّل عليه كما أشار إليه في الآية التالية: «وتوكّل على الحيّ الّذي لايموت».

وذكر جمهور المفسّرين أنّ الاستثناء منقطع والمعنى لكن من شاء أن يتّخذ إلى ربّه سبيلا أي بالإنفاق القائم مقام الأجر كالصدقة والإنفاق في سبيل الله فليفعل، وهو ضعيف لادليل عليه لامن جهة لفظ الجملة ولا من جهة السياق.

وقال بعضهم: إنّه متّصل والكلام بحذف مضاف والتقدير إلّا فعل من شاء أن يتّخذ إلى ربّه سبيلا بالإيمان والطاعة حسبما أدعو إليهما. وفيه أخذاستجابتهم له أجراً لنفسه وقطعا لشائبة الطمع بالكلّيّة وتطييباً لأنفسهم، ويرجع هذا الوجه بحسب المعنى إلى ما قدّمناه ويمتاز منه بتقدير مضاف والتقدير خلاف الأصل.

وقال آخرون: إنّه متّصل بتقدير مضاف والتقدير لاأسألكم عليه من أجر إلّا أجر من شاء الخ أي إلّا الأجرالحاصل لي من إيمانه فإنّ الدالّ على الخير كفاعله. وفيه أنّ مقتضى هذا المعنى أن يقال: إلّا من اتّخذ إلى ربّه سبيلا فلا حاجة إلى تعليق الاتّخاذ بالمشيّة والأجر إنّما يترتّب على العمل دونمشيّته.

قوله تعالى: «وتوكّل على الحيّ الذي لايموت وسبّح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا» لمّا سجّل على نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أن ليس له من أمرهم شيء إلّا

الرسالة و أمره أن يبلّغهم أن لا بغية له في دعوتهم إلاّ الاستجابة لها و أنّهم على خيرة من أمرهم إن شاؤا آمنوا و إن شاؤا كفروا تمّم ذلك بأمره صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن يتّخذه تعالى وكيلا في أمرهم فهو تعالى عليهم و على كلّ شيء وكيل و بذنوب عباده خبير .

فقوله : « و توكّل على الحيّ الّذي لايموت » أي اتّخذه وكيلا في أمرهم يحكم فيهم ما يشاء و يفعل بهم ما يريد فإنّه الوكيل عليهم و على كلّ شيء وقد عدل عن تعليق التوكّل بالله إلى تعليقه بالحيّ الّذي لايموت ليفيد التعليل فإنّ الحيّ الّذي لايموت لايفوته فائت فهو المتعيّن لأن يكون وكيلا .

وقوله : « و سبّح بحمده » أي نزّهه عن العجز و الجهل و كلّ مالايليق بساحة قدسه مقارنا ذلك للثناء عليه بالجميل فإن أمهلهم واستدرجهم بنعمه فليس عن عجز فعل بهم ذلك ولا عن جهل بذنوبهم و إن أخذهم بذنوبهم فبحكمة اقتضته و باستحقاق منهم استدعى ذلك فسبحانه و بحمده .

وقوله : « و كفى به بذنوب عباده خبيرا » مسوق للدلالة على توحيده في فعله وصفته فهو الوكيل المتصرّف في اُمور عباده وحده هو خبير بذنوبهم وحاكم فيهم وحده من غير حاجة إلى من يعينه في علمه أو في حكمه .

ومن هنا يظهر أنّ الآية التالية : « الّذي خلق السماوات و الأرض » متمّمة لقوله : « و توكّل على الحيّ الّذي لايموت » الخ لاشتمالها على توحيده في ملكه و تصرّفه كما يشتمل قوله : « و كفى به » الخ على علمه وخبرته و بالحياة و الملك و العلم معا يتمّ معنى الوكالة وسنشير إليه .

قوله تعالى : « الّذي خلق السماوات و الأرض في ستّة أيّام ثمّ استوى على العرش الرحمان فاسأل به خبيرا » ظاهر السياق أنّ الموصول صفة لقوله في الآية السابقة : « الحيّ الّذي لايموت » و بهذه الآية يتمّ البيان في قوله : « وتوكّل على الحيّ الّذي لايموت» فإنّ الوكالة كما تتوقّف على حياة الوكيل تتوقّف على العلم وقد ذكره في قوله : « و كفى به بذنوب عباده خبيرا » و تتوقّف على السلطنة على

الحكم والتصرّف وهو الّذي تتضمّنه هذه الآية بما فيها من حديث خلق السماوات والأرض والاستواء على العرش .

وقد تقدّم تفسير صدر الآية في مواضع من السور السابقة ، و أمّا قوله : «الرحمان فاسأل به خبيرا» فالّذي يعطيه السياق ويهدي إليه النظم أن يكون الرحمان خبراً لمبتدء محذوف والتقدير هو الرحمان ، و قوله : « فاسأل » متفرّعا عليه و الفاء للتفريع ، و الباء في قوله : « به » للتعديه مع تضمين السؤال معنى الاعتناء . و قوله: « خبيرا » حال من الضمير .

والمعنى هو الرحمان ـ الّذي استوى على عرش الملك والّذي برحمته و إفاضته يقوم الخلق و الأمر و منه يبتدي كلّ شيء و إليه يرجع ـ فاسأله عن حقيقة الحال يخبرك بها فإنّه خبير .

فقوله : « فاسأل به خبيرا » كناية عن أنّ الّذي أخبر به حقيقة الأمر الّتي لا معدل عنها و هذا كما يقول من سئل عن أمر : سلني اُجبك إنّ كذا كذا و من هذا الباب قولهم : على الخبير سقطت .

ولهم في قوله : « الرحمان فاسأل به خبيرا » أقوال اُخرى كثيرة : فقيل : إنّ الرحمان مرفوع على القطع للمدح ، وقيل : مبتدء خبره قوله : «فاسأل به » ، وقيل خبر مبتدؤه «الّذي » في صدر الآية ، وقيل : بدل من الضمير المستكنّ في «استوى».

و قيل في « فاسأل به » إنّه خبر للرحمان كما تقدّم والفاء فصيحة ، و قيل : جملة مستقلّة متفرّعة على ما قبلها والفاء للتفريع ثمّ الباء في « به » للصلة أو بمعنى عن والضمير راجع إليه تعالى أو إلى ما تقدّم من الخلق والاستواء .

و قيل : « خبيرا » حال عن الضمير وهو راجع إليه تعالى والمعنى فاسأل الله حال كونه خبيرا ، و قيل : مفعول فاسأل والباء بمعنى عن والمعنى فاسأل عن الرحمان أو عن حديث الخلق والاستواء خبيرا ، والمراد بالخبير هو الله سبحانه ، وقيل جبريل وقيل : محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، و قيل : من قرء الكتب السماوية القديمة و وقف على صفاته

و أفعاله تعالى و كيفيّة الخلق والإيجاد ، و قيل : كلّ من كان له وقوف على هذه الحقائق .

و هذه الوجوه المتشتّتة جلّها أو كلّها لاتلائم ما يعطيه سياق الآيات الكريمة ولا موجب للتكلّم عليها والغور فيها .

قوله تعالى : « و إذا قيل لهم اسجدوا للرحمان قالوا و ما الرحمان أنسجد لما تأمرنا و زادهم نفورا » هذا فصل آخر من معاملتهم السوء مع الرسول و دعوته الحقّة يذكر فيه استكبارهم عن السجود لله سبحانه إذا دعوا إليه و نفورهم منه وللآية اتّصال خاصّ بما قبلها من حيث ذكر الرحمان فيها و قد وصف في الآية السابقة بماوصف و لعلّ اللاّم فيه للعهد .

فقوله : « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمان» الضمير للكفّار ، والقائل هوالنبيّ صلى الله عليه و آله بدليل قوله بعد : « أنسجد لما تأمرنا » ولم يذكر اسمه ليتوجّه استكبارهم إلى الله سبحانه وحده .

و قوله : « قالوا و ما الرحمان » سؤال منهم عن هويّته و مائيّته مبالغة منهمفي التجاهل به استكباراً منهم علىالله ولولا ذلك لقالوا : و من الرحمان ، و هذا كقول فرعون لموسى لمّا دعاه إلى ربّ العالمين : « و ما ربّ العالمين » الشعراء : ٢٣ وقول إبراهيم لقومه : « ما هذه التماثيل الّتي أنتم لها عاكفون » الأنبياء : ٥٢ و مراد السائل في مثل هذا السؤال أنّه لا معرفة له من المسؤل عنه بشيء أزيد من اسمه كقول هود لقومه : «أتجادلونني في أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم» الأعراف: ٧١.

و قوله حكاية عنهم : «أنسجد لما تأمرنا » في تكرارالتعبير عنه تعالى بماإصرار على الاستكبار ، والتعبير عن طلبه عنهم السجدة بالأمر لا يخلو من تهكّم واستهزاء.

و قوله : « و زادهم نفورا » معطوف على جواب إذا والمعنى و إذا قيل لهم اسجدوا استكبروا و زادهم ذلك نفورا ففاعل « زادهم » ضمير راجع إلى القول المفهوم من سابق الكلام .

وقول بعضهم : إنّ الفاعل ضمير راجع إلى السجود بناء على ما رووا أنّه

صلى الله عليه وآله و سلّم و أصحابه سجدوا فتباعدوا عنهم مستهزئين ليس بسديد فإن وقوع واقعة مّا لا يؤثّر في دلالة اللفظ ما لم يتعرّض له لفظا . ولا تعرّض في الآية لهذه القصّة أصلا .

قوله تعالى : « تبارك الّذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا » الظاهر أنّ المراد بالبروج منازل الشمس والقمر من السماء أو الكواكب الّتي عليها كما تقدّم في قوله : « ولقد جعلنا في السماء بروجا و زيّنّاها للناظرين وحفظناها من كلّ شيطان رجيم » الحجر : ١٧ ، و إنّما خصّت بالذكر في الآية للإشارة إلى الحفظ و الرجم المذكورين .

والمراد بالسراج الشمس بدليل قوله : « و جعل القمر فيهنّ نورا و جعل الشمس سراجا » نوح : ١٦ .

وقد قرّروا الآية أنّها احتجاج بوحدة التدبير العجيب السماوي والأرضيّ على وحدة المدبّر فيجب التوجّه بالعبادات إليه و صرف الوجه عن غيره .

والتدبّر في اتّصال الآيتين بما قبلهما و سياق الآيات لا يساعد عليه لأنّ مضمون الآية السابقة من استكبارهم على الرحمان إذا اُمروا بالسجود له واستهزائهم بالرسول لا نسبة كافية بينه وبين الاحتجاج على توحيد الربوبيّة حتّى يعقّب به ، و إنّما المناسب لهذا المعنى إظهار العزّة و الغنى و أنّهم غير معجزين لله بفعالهم هذا ولا خارجون عن ملكه و سلطانه .

و الّذي يعطيه التدبّر أنّ قوله : « تبارك الّذي جعل في السماء بروجا» الخ مسوق سوق التعزّز والاستغناء ، وأنّهم غير معجزين باستكبارهم على الله واستهزائهم بالرسول بل هؤلاء ممنوعون عن الاقتراب من حضرة قربه والصعود إلى سماء جواره والمعارف الإلهيّة مضيئة مع ذلك لأهله و عباده بما نوّرها الله سبحانه بنور هدايته وهو نور الرسالة .

و على هذا فقد أثنى الله سبحانه على نفسه بذكر تباركه بجعل البروج

المحفوظة الراجمة للشياطين بالشهب في السماء المحسوسة و جعل الشمس المضيئة و القمر المنير فيها لإضاءة العالم المحسوس ، و أشار بذلك إلى ما يناظره في الحقيقة من إضاءة العالم الإنساني بنور الهداية من الرسالة ليتبصّر به عباده كما يذكر حالهم بعد هذه الآيات و دفع أولياء الشياطين عن الصعود إليه بما هيّأ لدفعهم من بروج محفوظة راجمة .

هذا ما يعطيه السياق، و على هذا النمط من البيان سيقت هذه الآيات و الّتي قبلها كما تقدّمت الإشارة إليه في تفسير قوله : « ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظلّ » فليس ما ذكرناه من التأويل بمعنى صرف الآيات عن ظاهرها .

قوله تعالى : « وهو الّذي جعل الليل و النهار خلفة لمن أراد أن يذّكّر أو أراد شكورا » الخلفة هي الشيء يسدّ مسدّ شيء آخر و بالعكس و كأنّه بناء نوع اُريد به معنى الوصف فكون الليل و النهار خلفة أنّ كلاّ منهما يخلف الآخر ، و تقييد الخلفة بقوله : « لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكورا » للدلالة على نيابة كلّ منهما عن الآخر في التذكّر و الشكر .

و المقابلة بين التذكّر و الشكر يعطي أنّ المراد بالتذكّر الرجوع إلى ما يعرفه الإنسان بفطرته من الحجج الدالّة على توحيد ربّه وما يليق به تعالى من الصفات و الأسماء و غايته الإيمان بالله ، و بالشكور القول أو الفعل الّذي ينبيء عن الثناء عليه بجميل ما أنعم ، و ينطبق على عبادته وما يلحق بها من صالح العمل.

و على هذا فالآية اعتزاز أو امتنان بجعله تعالى الليل و النهار بحيث يخلف كلّ صاحبه فمن فاته الإيمان به في هذه البرهة من الزمان تداركه في البرهة الاُخرى منه ، و من لم يوفّق لعبادة أو لأيّ عمل صالح في شيء منهما أتى به في الآخر .

هذا ما تفيده الآية و لها مع ذلك ارتباط بقوله في الآية السابقة : « و جعل فيها سراجا و قمرا منيرا » ففيه إشارة إلى أنّ الله سبحانه و إن دفع اُولئك المستكبرين عن الصعود إلى ساحة قربه لكنّه لم يمنع عباده عن التقرّب إليه و

الاستضاءة بنوره فجعل نهاراً ذاشمس طالعة وليلا ذاقمر منير وهما ذوا خلفة من فاته ذكر أو شكر في أحدهما أتى به في الآخر .

وفسّر بعضهم التذكّر بصلاة الفريضة والشكور بالنافلة و الآية تقبل الانطباق على ذلك و إن لم يتعيّن حملها عليه .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور في قوله تعالى : «أرأيت من اتّخذ إلهه هواه» أخرج الطبرانيّ عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ماتحت ظلّ السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عندالله من هوى متّبع .

و في تفسير القمّيّ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: «ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظلّ» فقال : الظلّ ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

و في المجمع في قوله تعالى : «و هو الّذي خلق من الماء» الآية قال ابن سيرين : نزلت في النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ بن أبي طالب زوّج فاطمة عليّاً فهو ابن عمّه و زوج ابنته فكان نسبا وصهرا .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عبّاس في قوله : «وكان الكافر على ربّه ظهيرا» يعني أبا الحكم الّذي سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أباجهل ابن هشام .

أقول : و الروايتان بالجري و التطبيق أشبه .

و في تفسير القمّيّ في رواية أبي الجارور عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تبارك و تعالى : «تبارك الّذي جعل في السماء بروجا» فالبروج الكواكب و البروج الّتي للربيع و الصيف الحمل و الثور و الجوزاء و السرطان و الأسد و السنبلة ، و

بروج الخريف و الشتاء الميزان و العقرب و القوس و الجدي والدلو و الحوت وهي اثنا عشر برجا .

و في الفقيه قال الصادق عليه السلام : كلما فاتك بالليل فاقضه بالنهار قال الله تبارك و تعالى : « وهو الذي جعل الليل و النهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » يعني أن يقضي الرجل ما فاته بالليل بالنهار وما فاته بالنهار بالليل .



☆ ☆ ☆

وَ عِبادُ الرَّحمنِ الَّذينَ يمشونَ علَى الأرضِ هَوناً وَ اذا خاطبهم الجاهلونَ قالُوا سلاماً (٦٣) وَ الَّذينَ يبيتونَ لربّهم سُجَّداً وَ قياماً (٦٤) وَ الَّذينَ يَقولُونَ رَبَّنَا اصرف عنّا عذابَ جهنَّم انَّ عذابها كانَ غراماً (٦٥) انَّها ساءَت مُستقراً وَ مُقاماً (٦٦) وَ الَّذينَ اذا انفقوا لَم يُسرفُوا ولَم يقتُروا وَ كانَ بينَ ذلكَ قواماً (٦٧) وَ الَّذينَ لايدعُونَ مع اللهِ الهاً آخرَ ولا يَقتلُونَ النَّفسَ الَّتي حرَّمَ اللهُ الَّا بِالحقِّ وَلا يزنُونَ وَ من يفعل ذلك يلقَ اثاماً (٦٨) يُضاعَف لَهُ العذابُ يومَ القيمة وَ يخلُد فيه مُهاناً (٦٩) الَّا مَن تابَ وَآمنَ وعَملَ عملاً صالحاً فاولئكَ يُبدِّلُ اللهُ سيّئاتِهم حسَنات وكانَ اللهُ غفوراً رحيما (٧٠) وَمَن تابَ وعَملَ صالحاً فانَّهُ يتوبُ الى اللهِ متاباً (٧١) وَ الَّذينَ لايشهَدونَ الزُّورَ وَ اذا مرُّوا باللَّغوِ مرُّوا كراماً (٧٢) وَ الَّذينَ اذا ذُكِّرُوا بآياتِ ربِّهم لم يَخرُّوا عَلَيها صُمّاً وَ عُمياناً (٧٣) وَ الَّذينَ يَقولُونَ رَبَّنا هَب لَنا مِن ازواجِنا وَ ذرّيّاتنا قُرَّة اعيُن وَاجعَلنا للمُتَّقينَ اماماً (٧٤) اولئكَ يُجزَونَ الغُرفَةَ بما صبَرُوا وَ يُلقَّونَ فيها تحيَّةً وَ سلاماً (٧٥) خالدينَ فيها حسُنَت مُستقراً وَ مُقاماً (٧٦) قُل ما يَعبؤُا بِكُم ربّي لَولا دُعاؤُكم فقد كذَّبتُم فسوفَ يكُونُ لِزاما (٧٧) .

﴿بيان﴾

تذكر الآيات من محاسن خصال المؤمنين مايقابل ما وصف من صفات الكفّار السيّئة و يجمعها أنّهم يدعون ربّهم و يصدّقون رسوله و الكتاب النازل عليه قبال تكذيب الكفّار لذلك و إعراضهم عنه إلى اتّباع الهوى ، و لذلك تختتم الآيات بقوله : « قل ما يعبؤ بكم ربّي لولا دعاؤكم فقد كذّبتم فسوف يكون لزاما » و به تختتم السورة .

قوله تعالى : «وعباد الرحمان الّذين يمشون على الأرض هونا و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » لمّا ذكر في الآية السابقة استكبارهم على الله سبحانه و إهانتهم بالاسم الكريم : الرحمان، قابله في هذه الآية بذكر ما يقابل ذلك للمؤمنين و سمّاهم عبادا و أضافهم إلى نفسه متسمّيا باسم الرحمان الّذي كان يحيد عنه الكفّار و ينفرون .

وقد وصفتهم الآية بوصفين من صفاتهم :

أحدهما ما اشتمل عليه قوله : « الّذين يمشون على الأرض هونا » و الهون على ما ذكره الراغب التذلّل ، والأشبه حينئذ أن يكون المشي على الأرض كناية عن عيشتهم بمخالطة الناس و معاشرتهم فهم في أنفسهم متذلّلون لربّهم و متواضعون للناس لما أنّهم عبادالله غيرمستكبرين على الله ولامستعلين على غيرهم بغير حقّ ،وأمّا التذلّل لأعداءالله ابتغاء ما عندهم من العزّة الوهميّة فحاشاهم وإن كان الهون بمعنى الرفق واللين فالمراد أنّهم يمشون من غير تكبّر و تبختر .

و ثانيهما ما اشتمل عليه قوله : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » أي إذا خاطبهم الجاهلون خطابا ناشياً عن جهلهم ممّا يكرهون أن يخاطبوا به أو يثقل عليهم كما يستفاد من تعلّق الفعل بالوصف أجابوهم بما هو سالم من القول و قالوا لهم قولا سلاما خاليا عن اللّغو والإثم قال تعالى :«لايسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلاّ

قيلا سلاما سلاما » الواقعة ٢٦ ويرجع إلى عدم مقابلتهم الجهل بالجهل .

و هذه ـ كما قيل ـ صفة نهارهم إذا انتشروا في الناس و أمّا صفة ليلهم فهي الّتي تصفها الآية التالية .

قوله تعالى : والّذين يبيتون لربّهم سجّدا وقياما » البيتوتة إدراك الليل سواء نام أم لا ، و «لربّهم» متعلّق بقوله : « سجّدا » والسجّد والقيام جمعا ساجد و قائم ، والمراد عبادتهم له تعالى بالخرور على الأرض والقيام على السوق ، و من مصاديقه الصلاة .

والمعنى و هم الّذين يدركون الليل حالكونهم ساجدين فيه لربّهم و قائمين يتراوحون سجوداً و قياما ، ويمكن أن يراد به التهجّد بنوافل الليل .

قوله تعالى : « والّذين يقولون ربّنا اصرف عنّا عذاب جهنّم إنّ عذابها كان غراما » الغرام ما ينوب الإنسان من شدّة أو مصيبة فيلزمه ولا يفارقه والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « إنّها ساءت مستقرّا ومقاما » الضمير لجهنّم والمستقرّ والمقام اسما مكان من الاستقرار و الإقامة ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : «والّذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما» الإنفاق بذل المال و صرفه في رفع حوائج نفسه أو غيره ، والإسراف الخروج عن الحدّ ولا يكون إلّا في جانب الزيادة ، وهو في الإنفاق التعدّي عمّا ينبغي الوقوف عليه في بذل المال ، والقتر بالفتح فالسكون التقليل في الإنفاق و هو بإزاء الإسراف على ما ذكره الراغب ، والقتر والإقتار والتقتير بمعنى .

والقوام بالفتح الواسط العدل ، وبالكسر ما يقوم به الشيء ، و قوله : « بين ذلك » متعلّق بالقوام ، والمعنى و كان إنفاقهم وسطاً عدلاً بين ما ذكر من الإسراف والقتر فقوله : «وكان بين ذلك قواما » تنصيص على ما يستفاد من قوله : « إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا » فصدر الآية ينفي طرفي الإفراط والتفريط في الإنفاق ، و ذيلها يثبت الوسط .

قوله تعالى: « والّذين لا يدعون مع الله إلها آخر » إلى آخر الآية هذا هو الشرك و اُصول الوثنيّة لاتجيز دعاءه تعالى و عبادته أصلالاوحده ولا مع آلهتهم وإنّما توجب دعاء آلهتهم و عبادتهم ليقرّبوهم إلى الله زلفى ويشفعوا لهم عنده .

فالمراد بدعائهم مع الله إلها آخر إمّا التلويح إلى أنّه تعالى إله مدعوّ بالفطرة على كلّ حال فدعاء غيره دعاء إله آخر معه وإن لم يذكر الله .

أو أنّه تعالى ثابت في نفسه سواء دعي غيره أم لا فالمراد بدعاء غيره دعاء إله آخر مع وجوده وبعبارة اُخرى تعدّيه إلى غيره .

أو إشارة إلى ما كان يفعله جهلة مشركي العرب فإنّهم كانوا يرون أنّ دعاء آلهتهم إنّما ينفعهم في البرّ و أمّا البحر فإنّه لله لا يشاركه فيه أحد فالمراد دعاؤه تعالى في مورد كما عند شدائد البحر من طوفان و نحوه و دعاء غيره معه في مورد وهو البرّ ، وأحسن الوجوه أوسطها .

و قوله : « ولا يقتلون النفس الّتي حرّم الله إلّا بالحقّ » أي لايقتلون النفس الإنسانيّة الّتي حرّم الله قتلها في حال من الأحوال إلّا حال تلبّس القتل بالحقّ كقتلها قصاصا و حدّا .

و قوله تعالى : « ولا يزنون » أي لا يطؤن الفرج الحرام وقد كان شائعا بين العرب في الجاهليّة ، و كان الإسلام معروفا بتحريم الزنا و الخمر من أوّل ما ظهرت دعوته .

و قوله : « و من يفعل ذلك يلق أثاما » الإشارة بذلك إلى ما تقدّم ذكره وهو الشرك و قتل النفس المحترمة بغير حقّ والزنا ، والأثام الإثم و هو وبال الخطيئة وهو الجزاء بالعذاب الّذي سيلقاه يوم القيامة المذكور في الآية التالية .

قوله تعالى : « يضاعف له العذاب يوم القيامة و يخلد فيه مهانا » بيان للقاء الأثام ، وقوله : « ويخلد فيه مهانا » أي يخلد في العذاب وقد وقعت عليه الإهانة .

والخلود في العذاب في الشرك لا ريب فيه ، و أمّا الخلود فيه عند قتل النفس المحترمة والزنا وهما من الكبائر وقد صرّح القرآن بذلك فيهما و كذا في أكل

الربا فيمكن أن يحمل على اقتضاء طبع المعصية ذلك كما ربّما استفيد من ظاهر قوله: «إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء».

أو يحمل الخلود على المكث الطويل أعمّ من المنقطع و المؤبّد أو يحمل قوله: «و من يفعل ذلك» على فعل جميع الثلاثة لأنّ الآيات في الحقيقة تنزّه المؤمنين عمّا كان الكفّار مبتلين به وهو الجميع دون البعض.

قوله تعالى: «إلّا من تاب وآمن و عمل عملاصالحا فاُولئك يبدّل الله سيّآتهم حسنات و كان الله غفورا رحيما» استثناء من لقى الأثام والخلود فيه، و قد اُخذ في المستثنى التوبة و الإيمان و إتيان العمل الصالح أمّا التوبة و هي الرجوع عن المعصية و أقلّ مراتبها الندم فلولم يتحقّق لم ينتزع العبد عن المعصية ولم يزل مقيما عليها، و أمّا إتيان العمل الصالح فهوممّا تستقربه التوبة وبه تكون نصوحا.

و أمّا أخذ الإيمان فيدلّ على أنّ الاستثناء إنّما هو من الشرك فتختصّ الآية بمن أشرك و قتل وزنا أو بمن أشرك سواء أتى معه بشيء من القتل المذكور والزنا أولم يأت، وأمّا من أتى بشيء من القتل والزنا من غير شرك فالمتكفّل لبيان حكم توبته الآية التالية.

وقوله: «فاُولئك يبدّل الله سيّآتهم حسنات» تفريع على التوبة والإيمان و العمل الصالح يصف ما يترتّب على ذلك من جميل الأثر و هو أنّ الله يبدّل سيّآتهم حسنات.

و قد قيل في معنى ذلك أنّ الله يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة و يثبت مكانها لواحق طاعاتهم فيبدّل الكفر إيمانا والقتل بغيرحقّ جهاداً وقتلاً بالحقّ والزناعفّة و إحصانا.

وقيل: المراد بالسيّآت والحسنات ملكاتهما لا نفسهما فيبدّل ملكة السيّئة ملكة الحسنة.

و قيل: المراد بهما العقاب والثواب عليهمالا نفسهما فيبدّل عقاب القتل والزنا مثلا ثواب القتل بالحقّ والإحصان.

وأنت خبير بأنّ هذه الوجوه من صرف الكلام عن ظاهره بغير دليل يدلّ عليه .

والّذي يفيده ظاهر قوله : « يبدّل الله سيّآتهم حسنات » وقد ذيّله بقوله : « وكان الله غفورا رحيما » أنّ كلّ سيّئة منهم نفسها تتبدّل حسنة ، وليست السيّئة هي متن الفعل الصادر من فاعله وهو حركات خاصّة مشتركة بين السيّئة والحسنة كعمل المواقعة مثلا المشترك بين الزنا والنكاح ، والأكل المشترك بين أكل المال غصبا وبإذن من مالكه بل صفة الفعل من حيث موافقته لأمر الله ومخالفته له مثلا من حيث إنّه يتأثّر به الإنسان ويحفظ عليه دون الفعل الّذي هو مجموع حركات متصرّمة متقضّية فانية وكذا عنوانه القائم به الفاني بفنائه .

وهذه الآثار السيّئة الّتي يتبعها العقاب أعني السيّآت لازمة للإنسان حتّى يؤخذ بها يوم تبلى السرائر .

ولولاشوب من الشقوة والمساءة في الذات لم يصدر عنها عمل سيّىء إذ الذات السعيدة الطاهرة من كلّ وجه لا يصدر عنها سيّئة قذرة فالأعمال السيّئة إنّما تلحق ذاتا شقيّة خبيثة بذاتها أو ذاتا فيها شوب من شقاء وخباثة .

ولازم ذلك إذا تطهّرت بالتوبة وطابت بالإيمان والعمل الصالح فتبدّلت ذاتا سعيدة ما فيها شوب من قذارة الشقاء أن تتبدّل آثارها اللازمة الّتي كانت سيّآت قبل ذلك فتناسب الآثار للذات بمغفرة من الله ورحمة وكان الله غفورا رحيما .

وإلى مثل هذا يمكن أن تكون الإشارة بقوله : « فاُولئك يبدّل الله سيّآتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما » .

قوله تعالى : « ومن تاب وعمل صالحا فإنّه يتوب إلى الله متابا » المتاب مصدر ميميّ للتوبة ، وسياق الآية يعطي أنّها مسوقة لرفع استغراب تبدّل السيّآت حسنات بتعظيم أمر التوبة وأنّها رجوع خاصّ إلى الله سبحانه فلا بدع في أن يبدّل السيّآت حسنات وهو الله يفعل ما يشاء .

وفي الآية مع ذلك شمول للتوبة من جميع المعاصي سواء قارنت الشرك أم

فارقته ، والآية السابقة ـ كما تقدّمت الإشارة إليه ـ كانت خفيّة الدلالة على حال المعاصي إذا تجرّدت من الشرك .

قوله تعالى : « والّذين لا يشهدون الزور و إذا مرّوا باللغو مرّوا كراما » قال في مجمع البيان : أصل الزور تمويه الباطل بمايوهم أنّه حقّ . انتهى فيشمل الكذب و كلّ لهو باطل كالغناء والفحش والخناء بوجه ، و قال ايضا : يقال : تكرّم فلان عمّا يشينه إذا تنزّه وأكرم نفسه منه انتهى .

فقوله : « والّذين لا يشهدون الزور » إن كان المراد بالزور الكذب فهو قائم مقام المفعول المطلق والتقدير لا يشهدون شهادة الزور ، وإن كان المراد اللهوالباطل كالغناء و نحوه كان مفعولا به والمعنى لا يحضرون مجالس الباطل و ذيل الآية يناسب ثاني المعنيين .

و قوله : « و إذا مرّوا باللّغو مرّوا كراما » اللغو ما لا يعتدّ به من الأفعال والأقوال لعدم اشتماله على غرض عقلائيّ ويعمّ ـ كماقيل ـ جميع المعاصي ، والمراد بالمرور باللّغو المرور بأهل اللّغو وهم مشتغلون به .

و المعنى: و إذا مرّوا بأهل اللّغو و هم يلغون مرّوا معرضين عنهم منزّهين أنفسهم عن الدخول فيهم والاختلاط بهم ومجالستهم .

قوله تعالى « والّذين إذا ذكّروا بآيات ربّهم لم يخرّوا عليها صمّاً وعمياناً » الخرورعلى الأرض السقوط عليها و كأنّها في الآية كناية عن لزوم الشيء والانكباب عليه .

والمعنى والّذين إذا ذكّروا بآيات ربّهم من حكمة أوموعظة حسنة من قرآن أو وحي لم يسقطوا عليه وهم صمّ لا يسمعون وعميان لا يبصرون بل تفكّروا فيها و تعقّلوها فأخذوا بها عن بصيرة فآمنوا بحكمتها واتّعظوا بموعظتها وكانوا على بصيرة من أمرهم و بيّنة من ربّهم .

قوله تعالى : « والّذين يقولون ربّنا هب لنا من أزواجنا وذرّيّاتنا قرّة أعين واجعلنا للمتّقين إماماً» قال الراغب في المفردات : قرّت عينه تقرُّ سُرّت قال تعالى :

« كي تقرّ عينها » وقيل لمن يسرّ به قرّة عين قال : « قرّة عين لي و لك » و قوله تعالى : « هب لنا من أزواجنا وذرّياتنا قرّة أعين » قيل : أصله من القرّ أي البرد فقرّت عينه قيل : معناه بردت فصحّت ، وقيل : بل لأنّ للسرور دمعة باردة قارّة وللحزن دمعة حارّة ولذلك يقال فيمن يدعى عليه : أسخن الله عينه ، وقيل : هو من القرار والمعنى أعطاه الله ما يسكن به عينه فلا تطمح إلى غيره انتهى .

و مرادهم بكون أزواجهم و ذريّاتهم قرّة أعين لهم أن يسرّوهم بطاعة الله والتجنّب عن معصيته فلا حاجة لهم في غير ذلك ولا إربة و هم أهل حقّ لا يتّبعون الهوى .

وقوله: « واجعلنا للمتّقين إماماً» أي متسابقين إلى الخيرات سابقين إلى رحمتك فيتّبعنا غيرنا من المتّقين كما قال تعالى : « فاستبقوا الخيرات » البقرة : ١٤٨ ، و قال : « سابقوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة » الحديد : ٢١ ، و قال : « والسابقون السابقون اُولئك المقرّبون » الواقعة : ٩ . و كأنّ المراد أن يكونوا صفّاً واحداً متقدّماً على غيرهم من المتّقين ولذا جيىء بالإمام بلفظ الإفراد .

وقال بعضهم : إنّ الإمام ممّا يطلق على الواحد والجمع ، وقيل : إنّ إمام جمع آمّ بمعنى القاصد كصيام جمع صائم والمعنى اجعلنا قاصدين للمتّقين مقتدين بهم ، وفي قراءة أهل البيت « واجعل لنا من المتّقين إماماً »

قوله تعالى : « اُولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقّون فيها تحيّة وسلاماً خالدين فيها حسنت مستقرّاً ومقاما» الغرفة ـ كما قيل ـ البناء فوق البناء فهو الدرجة العالية من البيت ، وهي كناية عن الدرجه العالية في الجنّة ، والمراد بالصبر الصبر على طاعة الله وعن معصيته فهذان القسمان من الصبر هما المذكوران في الآيات السابقة لكن لا ينفكّ ذلك عن الصبر عند النوائب والشدائد .

و المعنى اُولئك الموصوفون بما وصفوا يجزون الدرجة الرفيعة من الجنّة يلقّون فيها أي يتلقّاهم الملائكة بالتحيّة وهو ما يقدّم للإنسان ممّا يسرّه و بالسلام وهو كلّ ما ليس فيه ما يخافه ويحذره ، و في تنكير التحيّة والسلام دلالة على التفخيم

والتعظيم ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « قل ما يعبؤ بكم ربّي لولا دعاؤكم فقد كذّبتم فسوف يكون لزاما » قال في المفردات : ما عبأت به أي لم اُبال به ، وأصله من العبء أي الثقل كأنّه قال : ما أرى له وزناً وقدرا قال تعالى : « قل مايعبؤ بكم ربّي لولا دعاؤكم » وقيل : من عبأت الطيب كأنّه قيل : ما يبقيكم لولا دعاؤكم . انتهى .

قيل: « دعاؤكم » من إضافة المصدر إلى المفعول وفاعله ضمير راجع إلى « ربّي » و على هذا فقوله : « فقد كذّبتم » من تفريع السبب على المسبّب بمعنى انكشافه بمسبّبه ، و قوله : « فسوف يكون لزاما » أي سوف يكون تكذيبكم ملازماً لكم أشدّ الملازمة فتجزون بشقاء لازم وعذاب دائم .

و المعنى قل لا قدر و لا منزلة لكم عند ربّي فوجودكم وعدمكم عنده سواء لأنّكم كذّبتم فلا خير يرجى فيكم فسوف يكون هذا التكذيب ملازماً لكم أشدّ الملازمة إلّا أنّ الله يدعوكم ليتمّ الحجّة عليكم أو يدعوكم لعلّكم ترجعون عن تكذيبكم . وهذا معنى حسن .

وقيل: « دعاؤكم » من إضافة المصدر إلى الفاعل، والمراد به عبادتهم لله سبحانه والمعنى ما يبالي بكم ربّي أو مايبقيكم ربّي لولا عبادتكم له .

وفيه أنّ هذا المعنى لا يلائم تفرّع قوله : « فقد كذّبتم » عليه وكان عليه من حقّ الكلام أن يقال : و قد كذّبتم ! على أنّ المصدر المضاف إلى فاعله يدلّ على تحقّق الفعل منه وتلبسّه به و هم غير متلبّسين بدعائه وعبادته تعالى فكان من حقّ الكلام على هذا التقدير أن يقال لولا أن تدعوه فافهم .

والآية خاتمة السورة وتنعطف إلى غرض السورة ومحصّل القول فيه وهو الكلام على اعتراض المشركين على الرسول وعلى القرآن النازل عليه وتكذيبهما .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « الّذين يمشون على الأرض هونا » قال أبوعبدالله عليه السلام : هو الرجل يمشي بسجيّته الّتي جبل عليها لايتكلّف ولايتبختر .

وفي الدرّ المنثور أخرج عبد بن حميد عن أبي سعيد الخدريّ عن رسول الله ﷺ في قوله : « إنّ عذابها كان غراما » قال : الدائم .

و في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « إنّ عذابها كان غراما » يقول : ملازماً لا ينفكّ . وقوله عزّ وجلّ : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا و لم يقتروا » و الإسراف الإنفاق في المعصية في غير حقّ « و لم يقتروا » لم يبخلوا في حقّ الله عزّ وجلّ « وكان بين ذلك قواما » القوام العدل والانفاق فيما أمر الله به .

و في الكافي : أحمد بن محمّد بن علي عن محمّد بن سنان عن أبي الحسن عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : « وكان بين ذلك قواما » قال : القوام هو المعروف على الموسع قدره و على المقتر قدره على قدر عياله و مؤنتهم الّتي هي صلاح له و لهم لايكلّف الله نفسا إلّا ما آتاها .

و في المجمع روي عن معاذ أنّه قال : سألت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن ذلك فقال : من أعطى في غير حقّ فقد أسرف ، ومن منع من حقّ فقد قتر .

أقول : و الأخبار في هذه المعاني كثيرة جدّاً .

و في الدرّ المنثور أخرج الفاريابيّ و أحمد وعبد بن حميد و البخاريّ ومسلم والترمذيّ و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال : سئل النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : أيّ الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قلت : ثمّ أيّ ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثمّ أيّ ؟ قال: أن تزاني حليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك « والّذين

لايدعون مع الله إلها آخرو لايقتلون النفس الّتي حرّم الله إلّا بالحقّ ولايزنون» .

أقول : لعلّ المراد الانطباق دون سبب النزول .

وفيه أخرج عبدبن حميد عن علي بن الحسين « يبدّل الله سيّآتهم حسنات» قال: في الآخرة ، وقال الحسن : في الدنيا .

و فيه أخرج أحمد وهنّاد ومسلم والترمذيّ وابن جرير و البيهقيّ في الأسماء و الصفات عن أبي ذرّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه فتعرض عليه صغارها وينحّى عنه كبارها فيقال : عملت يوم كذا و كذا كذا و كذا وهو مقرّ ليس ينكر وهو مشفق من الكبار أن تجيء فيقال : أعطوه مكان كلّ سيّئة عملها حسنة .

أقول : هو من أخبار تبديل السيّآت حسنات يوم القيامة وهي كثيرة مستفيضة من طرق أهل السنّة والشيعة مرويّة عن النبيّ والباقر و الصادق والرضا عليه وعليهم الصلاة و السلام .

وفي روضة الواعظين قال صلى الله عليه وآله : ماجلس قوم يذكرون الله إلّا نادى بهم مناد من السماء قوموا فقد بدّل الله سيّآتكم حسنات و غفر لكم جميعا .

و في الكافي باسناده عن أبي الصباح عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله عزّوجلّ : «لايشهدون الزور» قال : الغناء .

أقول : وفي المجمع أنّه مرويّ عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام ورواه القمّي مسنداومرسلا .

وفي العيون باسناده إلى محمّد بن أبي عباد وكان مشتهرا بالسماع ويشرب النبيذ قال : سألت الرضا عليه السلام عن السماع فقال : لأهل الحجاز رأي فيه وهو في حيّز الباطل و اللهو أما سمعت الله عزّوجلّ يقول: « و إذا مرّوا باللغو مرّوا كراما »

وفي روضة الكافي باسناده عن أبي بصير قال : سألت أباعبدالله عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ : « و الّذين إذا ذكّروا بآيات ربّهم لم يخرّوا عليها صمّاً وعميانا» قال: مستبصرين ليسوا بشكّاك .

و في جوامع الجامع عن الصادق عليه السلام في قوله : « واجعلنا للمتقين إماما » قال : إيّانا عنى .

أقول : و هناك عدّة روايات في هذا المعنى واُخرى تتضمّن قراءتهم عليهم السلام : « واجعل لنا من المتّقين إماما» .

و في الدّر المنثور أخرج ابن أبي حاتم و أبونعيم في الحلية عن أبي جعفر في قوله : « اُولئك يجزون الغرفة بماصبروا » قال : على الفقر في الدنيا .

وفي المجمع روى العيّاشيّ بإسناده عن بريد بن معاوية العجلي قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : كثرة القراءة أفضل أو كثرة الدعاء ؟ قال : كثرة الدعاء أفضل وقرء هذه الآية .

أقول : و في انطباق الآية على مافي الرواية إبهام .

وفي تفسيرالقمى في رواية أبي الجارود عنأبى جعفر عليه السلام فيقوله عزّوجلّ : « قل مايعبؤبكم ربّي لولا دعاؤكم » يقول : مايفعل ربّي بكم فقد كذّبتم فسوف يكون لزاما .



✿ ✿ ✿

سورة الشعراء مكّيّة و هي مائتان وسبع و عشرون آية .

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ طسٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) اِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ اِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبٰؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٦) أَوَ لَمْ يَرَوْا اِلَى الْاَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) اِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَ اِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) .

﴿ بيان ﴾

غرض السورة تسلية النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قبال ما كذّب به قومه و كذّبوا بكتابه النازل عليه من ربّه ـ على ما يلوّح إليه صدر السورة : تلك آيات الكتاب المبين ـ و قد رموه تارة بأنّه مجنون و اُخرى بأنّه شاعر ، و فيها تهديدهم مشفّعا ذلك بإيراد قصص جمع من الأنبياء وهم موسى و إبراهيم و نوح و هود و صالح و لوط وشعيب عليهم السلام و ما انتهت إليه عاقبة تكذيبهم لتتسلّى به نفس النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ولا يحزن بتكذيب أكثر قومه وليعتبر المكذّبون

والسورة من عتائق السور المكّيّة وأوائلها نزولا وقد اشتملت على قوله تعالى: « وأنذر عشيرتك الأقربين » . و ربّما أمكن أن يستفاد من وقوع هذه الآية في هذه السورة و وقوع قوله : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » في سورة الحجر

وقياس مضمونيهما كلّ مع الاُخرى أنّ هذه السورة أقدم نزولاً من سورة الحجر وظاهر سياق آيات السورة أنّها جميعاً مكّيّة واستثنى بعضهم الآيات الخمس الّتي في آخرها، وبعض آخر قوله: « أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » و سيجيىء الكلام فيهما.

قوله تعالى: « طسم تلك آيات الكتاب المبين » الإشارة بتلك إلى آيات الكتاب ممّا سينزل بنزول السورة وما نزل قبل، وتخصيصها بالإشارة البعيدة للدلالة على علوّ قدرها ورفعة مكانتها، والمبين من أبان بمعنى ظهر وانجلى.

والمعنى تلك الآيات العالية قدرا الرفيعة مكاناً آيات الكتاب الظاهر الجليّ كونه من عند الله سبحانه بما فيه من سمة الإعجاز و إن كذّب به هؤلاء المشركون المعاندون و رموه تارة بأنّه من إلقاء شياطين الجنّ و اُخرى بأنّه من الشعر.

قوله تعالى: « لعلّك باخع نفسك ألّا يكونوا مؤمنين » البخوع هو إهلاك النفس عن وجد، وقوله: « أن لا يكونوا مؤمنين » تعليل للبخوع، والمعنى يرجى منك أن تهلك نفسك بسبب عدم إيمانهم بآيات هذا الكتاب النازل عليك.

والكلام مسوق سوق الإنكار والغرض منه تسلية النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: « إن نشأ ننزّل عليهم من السماء آية فظلّت أعناقهم لها خاضعين » متعلّق المشيّة محذوف لدلالة الجزاء عليه، و قوله: « فظلّت » الخ ظلّ فعل ناقص اسمه « أعناقهم » و خبره « خاضعين » و نسب الخضوع إلى أعناقهم و هو وصفهم أنفسهم لأنّ الخضوع أوّل ما يظهر في عنق الإنسان حيث يطأطىء رأسه تخضّعا فهو من المجاز العقليّ.

و المعنى إن نشأ أن ننزّل عليهم آية تخضعهم و تلجئهم إلى القبول و تضطرّهم إلى الإيمان ننزّل عليهم آية كذلك فظلّوا خاضعين لها خضوعا بيّنا بانحناء أعناقهم.

وقيل: المراد بالأعناق الجماعات وقيل: الرؤساء والمقدّمون منهم و قيل:

هو على تقدير مضاف و التقدير فظلّت أصحاب أعناقهم خاضعين لها . و هو أسخف الوجوه .

قوله تعالى : « وما يأتيهم من ذكر من الرحمان محدث إلّا كانوا عنه معرضين» بيان لاستمرارهم على تكذيب آيات الله وتمكّن الإعراض عن ذكر الله في نفوسهم بحيث كلّما تجدّد عليهم ذكر من الرحمان و دعوا إليه دفعوه بالإعراض .

فالغرض بيان استمرارهم على الإعراض عن كلّ ذكر أتاهم لأنّهم يعرضون عن محدث الذكر و يقبلون إلى قديمه و في ذكر صفة الرحمان إشارة إلى أنّ الذكر الّذي يأتيهم إنّما ينشأ عن صفة الرحمة العامّة الّتي بها صلاح دنياهم وأُخراهم .

وقد تقدّم في تفسير أوّل سورة الأنبياء كلام في معنى الذكر المحدث فراجع .

قوله تعالى : «فقد كذّبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن » تفريع على ما تقدّم من استمرار إعراضهم ، وقوله : «فسيأتيهم» الخ تفريع على التفريع والأنباء جمع نبأ وهو الخبر الخطير ، والمعنى لمّا استمرّ منهم الإعراض عن كلّ ذكر يأتيهم تحقّق منهم و ثبت عليهم أنّهم كذّبوا ، و إذ تحقّق منهم التكذيب فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن من آيات الله ، و تلك الأنباء العقوبات العاجلة و الآجلة الّتي ستحيق بهم .

قوله تعالى : « أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كلّ زوج كريم» الاستفهام للإنكار التوبيخيّ والجملة معطوف على مقدّر يدلّ عليه المقام والتقدير أصرّوا واستمرّوا على الإعراض و كذّبوا بالآيات ولم ينظروا إلى هذه الأزواج الكريمة من النباتات الّتي أنبتناها في الأرض .

فالرؤية في قوله : « أولم يروا » مضمّنة معنى النظر و لذا عدّيت بإلى ، و الظاهر أنّ المراد بالزوج الكريم . وهو الحسن على ما قيل ـ النوع من النبات وقد خلق الله سبحانه أنواعه أزواجا ، و قيل : المراد بالزوج الكريم الّذي أنبته الله يعمّ الحيوان وخاصّة الإنسان بدليل قوله : « والله أنبتكم من الأرض نباتا » .

قوله تعالى : « إنّ في ذلك لآية و ما كان أكثرهم مؤمنين » الإشارة بذلك

إلى ما ذكر في الآية السابقة من إنبات كلّ زوج كريم حيث أنّ فيه إيجاداً لكلّ زوج منه و تتميم نقائص كلّ من الزوجين بالآخر و سوقهما إلى الغاية المقصودة من وجودهما و فيه هداية كلّ إلى سعادته الأخيرة و من كانت هذه سنّته فكيف يهمل أمر الانسان ولا يهديه إلى سعادته ولا يدعوه إلى ما فيه خير دنياه و آخرته . هذا ما تدلّ عليه آية النبات .

و قوله : « و ما كان أكثرهم مؤمنين » أي لم يكن المترقّب من حال أكثرهم بما عندهم من ملكة الإعراض وبطلان الاستعداد أن يؤمنوا فظاهر الآية نظيرظاهر قوله : «فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا به من قبل» يونس:٧٣. وتعليل الكفروالفسوق برسوخ الملكات الرذيلة واستحكام الفساد في السريرة من قبل في كلامه تعالى أكثر من أن تحصى .

ومن هنا يظهر أنّ قول بعضهم : إنّ المراد ما كان في علم الله أن لا يؤمنوا غير سديد لأنّه مضافا إلى كونه خلاف المتبادر من الجملة ، ممّا لا دليل على أنّه المراد من اللفظ بل الدليل على خلافه لسبق الدلالة على أنّ ملكة الإعراض راسخة لم تزل في نفوسهم .

و عن سيبويه أنّ «كان» في قوله : « وما كان أكثرهم مؤمنين » صلة زائدة والمعنى و ما أكثرهم مؤمنين . و فيه أنّه معنى صحيح في نفسه لكنّ المقام بماتقدّم من المعنى أوفق .

قوله تعالى : « و إنّ ربّك لهو العزيز الرحيم » فهو تعالى لكونه عزيزا غير مغلوب يأخذ المعرضين عن ذكره المكذّبين لآياته المستهزئين بها و يجازيهم بالعقوبات العاجلة و الآجلة و لكونه رحيما ينزّل عليهم الذكر ليهديهم و يغفر للمؤمنين به ويمهل الكافرين .

﴿ بحث عقلي متعلق بالعلم ﴾

قال في روح المعاني في قوله تعالى : «وما كان أكثرهم مؤمنين» : قيل : أي وما كان في علم الله تعالى ذلك ، واعترض ـ بناء على أنّه يفهم من السياق العلّيّة ـ بأنّ علمه تعالى ليس علّة لعدم إيمانهم لأنّ العلم تابع للمعلوم لا بالعكس .

ورد بأنّ معنى كون علمه تعالى تابعاً للمعلوم أنّ علمه سبحانه في الأزل بمعلوم معيّن حادث تابع لماهيّته بمعنى أنّ خصوصيّة العلم وامتيازه عن سائر العلوم باعتبار أنّه علم بهذه الماهية ، وأمّا وجود الماهيّة فيما لا يزال فتابع لعلمه تعالى الأزليّ التابع لماهيّته بمعنى أنّه تعالى لمّا علمها في الأزل على هذه الخصوصيّة لزم أن يتحقّق ويوجد فيما لا يزال كذلك فنفس موتهم على الكفر وعدم إيمانهم متبوع لعلمه الأزليّ ووقوعه تابع له . انتهى .

وهذه حجّة كثيرة الورود في كلام المجبّرة وخاصّة الإمام الرازيّ في تفسيره الكبير يستدلّون بها على إثبات الجبر ونفي الاختيار ومحصّلها أنّ الحوادث ومنها أفعال الإنسان معلومة لله سبحانه في الأزل فهي ضروريّة الوقوع وإلّا كان علمه جهلا ـ تعالى عن ذلك ـ فالإنسان مجبر عليها غير مختار . واعترض عليه بأنّ العلم تابع للمعلوم لا بالعكس واُجيب بما ذكره من أنّ علمه في الأزل تابع لماهيّة المعلوم لكنّ المعلوم تابع في وجوده للعلم .

والحجّة مضافاً إلى فساد مقدّماتها بناء ومبنى مغالطة بيّنة . ففيها أوّلا أنّ فرض ثبوت مّا للماهيّة في الأزل ووجودها فيها لا يزال يقضي بتقدّم الماهيّة على الوجود وأنّى للماهيّة هذه الأصالة والتقدّم ؟

وثانياً أنّ مبنى الحجّة وكذا الاعتراض والجواب على كون علمه تعالى بالأشياء علماً حصوليّاً نظير علومنا الحصوليّة المتعلّقة بالمفاهيم وقد اُقيم البرهان في محلّه على بطلانه وأنّ الأشياء معلومة له تعالى علما حضوريّاً وعلمه علمان : علم

حضوري بالأشياء قبل الإيجاد وهو عين الذات و علم حضوري بها بعد الايجاد وهو عين وجود الأشياء . وتفصيل الكلام في محلّه .

وثالثاً أنّ العلم الأزلي بمعلومه فيما لا يزال إنّما يكون علماً بحقيقة معنى العلم إذا تعلّق به على ماهو عليه أي بجميع قيوده ومشخصّاته وخصوصيّاته الوجوديّة ومن خصوصيّات وجود الفعل أنّه حركات خاصّة إراديّة اختياريّة صادرة عن فاعله الخاصّ مخالفة لسائر الحركات الاضطراريّة القائمة بوجوده .

و إذا كان كذلك كانت الضرورة اللاّحقة للفعل من جهة تعلّق العلم به صفة للفعل الخاصّ الاختياري بما هو فعل خاصّ اختياري لا صفة للفعل المطلق إذ لا وجود له أي كان من الواجب أن يصدر الفعل عن إرادة فاعله واختياره و إلّا تخلّف المعلوم عن العلم لا أن يتعلّق العلم بالفعل الإختياري ثمّ يدفع صفة الاختيار عن متعلّقه و يقيم مقامها صفة الضرورة والإجبار .

فقد وضع في الحجّة الفعل المطلق مكان الفعل الخاصّ فعدّ ضروريّاً مع أنّ الضروري تحقّق الفعل بوصف الاختيار نظير الممكن بالذات الواجب بالغير ففي الحجّة مغالطة بالخلط بين الفعل المطلق والفعل المقيّد بالاختيار .

ومن هنا يتبيّن عدم استقامة تعليل ضرورة عدم إيمانهم بتعلّق العلم الأزلي به فان تعلّق العلم الأزلي بفعل إنّما يوجب ضرورة وقوعه بالوصف الّذي هو عليه فان كان اختياريّاً وجب تحقّقه اختياريّاً و إن كان غير اختياري وجب تحقّقه كذلك .

على أنّه لو كان معنى قوله : « وما كان أكثرهم مؤمنين» امتناع إيمانهم لتعلّق العلم الأزلي بعدمه لاتّخذوه حجّة على النبي ﷺ و عدّوه عذراً لأنفسهم في استنكافهم عن الإيمان كما اعترف به بعض المجبّرة .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : « إن نشأ ننزّل عليهم من السماء آية فظلّت أعناقهم لها خاضعين » حدّثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال : تخضع رقابهم يعني بني اُميّة وهي الصيحة من السماء باسم صاحب الأمر .

أقول : وهذا المعنى رواه الكلينيّ في روضة الكافي والصدوق في كمال الدين والمفيد في الإرشاد والشيخ في الغيبة ، والظاهر أنّه من قبيل الجري دون التفسير لعدم مساعدة سياق الآية عليه .



* * *

وَاِذْ نَادٰى رَبُّكَ مُوسٰى اَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ اَلاٰ يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ اِنّي اَخَافُ اَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَ يَضِيقُ صَدْرِى وَلاٰ يَنْطَلِقُ لِسَانِى فَاَرْسِلْ اِلٰى هٰرُونَ (١٣) وَ لَهُمْ عَلَىَّ ذَنْبٌ فَاَخَافُ اَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا اِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاٰ اِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) اَنْ اَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى اِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ اَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فَعَلْتَ وَ اَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا اِذاً وَ اَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ اَنْ عَبَّدْتَ بَنِى اِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْاَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا اِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ اَلاٰ تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْاَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ اِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى اُرْسِلَ اِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا اِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ اِلٰهاً غَيْرِى لَاَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ اَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ اِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَاَلْقٰى عَصَاهُ فَاِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَاِذَا هِىَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَاءِ حَوْلَهُ اِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ اَنْ يُخْرِجَكُمْ

من ارضكم بسحره فما ذا تأمرون (٣٥) قالوا أرجه واخاه وابعث في المدائن حاشرين (٣٦) يأتوك بكل سحار عليم (٣٧) فجمع السحرة لميقات يوم معلوم (٣٨) وقيل للناس هل انتم مجتمعون (٣٩) لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين (٤٠) فلما جاء السحرة قالوا لفرعون ائن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين (٤١) قال نعم و انكم لمن المقربين (٤٢) قال لهم موسى القوا ما انتم ملقون (٤٣) فالقوا حبالهم و عصيهم و قالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون (٤٤) فالقى موسى عصاه فاذا هي تلقف ما يافكون (٤٥) فالقى السحرة ساجدين (٤٦) قالوا آمنا برب العالمين(٤٧) رب موسى وهرون (٤٨) قال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لاقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ولاصلبنكم اجمعين (٤٩) قالوا لا ضير انا الى ربنا منقلبون (٥٠) انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا ان كنا اول المؤمنين (٥١) و اوحينا الى موسى ان اسر بعبادى انكم متبعون (٥٢) فارسل فرعون في المدائن حاشرين (٥٣) ان هؤلاء لشرذمة قليلون (٥٤) وانهم لنا لغائظون (٥٥) و انا لجميع حاذرون (٥٦) فاخرجناهم من جنات و عيون (٥٧) وكنوز و مقام كريم (٥٨) كذلك واورثناها بني اسرائيل (٥٩) فاتبعوهم مشرقين(٦٠) فلما تراء الجمعان قال اصحاب موسى انا لمدركون(٦١) قال كلا ان معي ربي سيهدين (٦٢) فاوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك

الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)

﴿ بيان ﴾

شروع في ذكر قصص عدّة من أقوام الأنبياء الماضين موسى وهارون وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام ليظهر أن قوم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم سائرون مسيرهم وسيردون موردهم، لا يؤمن أكثرهم فيؤاخذهم الله تعالى بعقوبة العاجل والآجل، والدليل على ذلك ختم كلّ واحدة من القصص بقوله: « وما كان أكثرهم مؤمنين وإنّ ربّك لهو العزيز الرحيم » كما ختم به الكلام الحاكي لإعراض قوم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم في أوّل السورة، وليس ذلك إلّا لتطبيق القصّة على القصّة.

كلّ ذلك ليتسلّى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ولا يضيق صدره ويعلم أنّه ليس بدعاً من الرسل ولا المتوقّع من قومه غير ما عامل به الاُمم الماضون رسلهم، وفيه تهديد ضمنيّ لقومه ويؤيّده تصدير قصّة إبراهيم عليه السلام بقوله: « واتل عليهم نبأ إبراهيم ».

قوله تعالى: « وإذ نادى ربّك موسى - إلى قوله - ألا يتّقون » أي واذكر وقتاً نادى فيه ربّك موسى وبعثه بالرسالة إلى قوم فرعون لانجاء بني إسرائيل على ما فصّله في سورة طه وغيرها.

وقوله: « أن ائت القوم الظالمين » نوع تفسير للنداء، وتوصيفهم أوّلا بالظالمين ثمّ بيانه ثانياً بقوم فرعون للإشارة إلى حكمة الإرسال وهي ظلمهم بالشرك وتعذيب بني إسرائيل كما في سورة طه من قوله: « اذهبا إلى فرعون إنّه طغى - إلى أن قال - فأتياه فقولا إنّا رسولا ربّك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذّبهم » طه: ٤٧.

وقوله: « ألا يتّقون » بصيغة الغيبة، وهو توبيخ غيابيّ منه تعالى لهم و

إيراده في مقام عقد الرسالة لموسى عليه السلام في معنى قولنا : قل لهم إنّ ربّي يوبّخكم على ترك التقوى و يقول : ألا تتّقون .

قوله تعالى : « قال ربّ إنّي أخاف أن يكذّبون ـ إلى قوله ـ فأرسل إلى هارون » قال في مجمع البيان : الخوف انزعاج النفس بتوقّع الضرّ و نقيضه الأمن وهو سكون النفس إلى خلوص النفع انتهى وأكثر ما يطلق الخوف على إحساس الشرّ بحيث يؤدّي إلى الاتّقاء عملا و إن لم تضطرب النفس ، والخشية على تأثّر النفس من توقّع الشرّ بحيث يورث الاضطراب والقلق ، و لذا نفى الله الخشية من غيره عن أنبيائه و ربّما أثبت الخوف فقال : « ولا يخشون أحداً إلّا الله » الاحزاب : ٤٠ وقال : « وإمّا تخافنّ منهم خيانة » الانفال : ٦٠ .

وقوله :«إنّي أخاف أن يكذّبون» أي ينسبني قوم فرعون إلى الكذب ، وقوله : « و يضيق صدري ولا ينطلق لساني » الفعلان مرفوعان و هما معطوفان على قوله : « أخاف » فالّذي اعتلّ به اُمور ثلاثة : خوف التكذيب وضيق الصدر وعدم انطلاق اللّسان . و في قراءة يعقوب وغيره يضيق وينطلق بالنصب عطفاً على « يكذّبون » و هو أوفق بطبع المعنى ، وعليه فالعلّة واحدة وهي خوف التكذيب الّذي يترتّب عليه ضيق الصدر وعدم انطلاق اللّسان . ويطابق ما سيجيىء من آية القصص من ذكر علّة واحدة هي خوف التكذيب .

و قوله : « فأرسل إلى هارون » أي أرسل ملك الوحي إلى هارون ليكون معيناً لي على تبليغ الرسالة يقال لمن نزلت به نائبة أو أشكل عليه أمر : أرسل إلى فلان أي استمدّ منه واتّخذه عونا لك .

فالجملة أعني قوله : « فأرسل إلى هارون » متفرّعة على قوله : « إنّي أخاف » الخ وذكر خوف التكذيب مع ما معه من ضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان توطئة وتقدمة لذكرها وسؤال موهبة الرسالة لهارون .

وإنّما اعتلّ بما اعتلّ به وسأل الرسالة لأخيه ليكون شريكاً له في أمره ، معينا مصدّقاً له في التبليغ لا فراراً عن تحمّل أعباء الرسالة واستعفاءً منها ، قال في روح

المعاني: ومن الدليل على أنّ المعنى على ذلك لأنّه تعلّل وقوع «فأرسل» بين الأوائل وبين الرابعة أعني قوله: «ولهم عليّ ذنب» الخ فآذن بتعلّقه بها ولو كان تعللاً لأُخر انتهى.

و هو حسن وأوضح منه قوله تعالى في سورة القصص في القصّة: «قال ربّ إنّي قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون وأخي هارون هو أفصح منّي لسانا فأرسله معي ردءا يصدّقني إنّي أخاف أن يكذّبون» القصص: ٣٤.

قوله تعالى: «ولهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون» قال الراغب في المفردات الذنب في الأصل الأخذ بذنب الشيء يقال: ذنبته أصبت ذنبه، ويستعمل في كلّ فعل يستوخم عقباه اعتباراً لما يحصل من عاقبته. انتهى.

وفي الآية إشارة إلى قصّة قتله عليه السلام، و كونه ذنبا لهم عليه إنّما هو بالبناء على اعتقادهم أو الاعتبار بمعناه اللغويّ المذكور آنفا، وأمّا كونه ذنبا بمعنى معصية الله تعالى فلا دليل عليه وسيوافيك فيه كلام عند تفسير سورة القصص إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: «قال كلّا فاذهبا بآياتنا إنّا معكم مستمعون» كلّا للردع وهو متعلّق بما ذكره من خوف القتل، ففيه تأمين له وتطييب لنفسه أنّهم لا يصلون إليه و أمّا سؤاله الإرسال إلى هارون فلم يذكر ما اُجيب به عنه غير أنّ قوله: «فاذهبا بآياتنا» دليل على إجابة مسؤله.

وقوله: «فاذهبا بآياتنا» متفرّع على الردع فيفيد أن اذهبا إليه بآياتنا ولا تخافا، وقد علّل ذلك بقوله: «إنّا معكم مستمعون» و المراد بضمير الجمع موسى و هارون و القوم الّذين اُرسلا إليهم، ولا يعبؤ بقول من قال: إنّ المراد به موسى و هارون بناء على كون أقلّ الجمع اثنين فإنّه مع فساده في أصله لا تساعد عليه ضمائر التثنية قبله وبعده كما قيل.

و الاستماع هو الإصغاء إلى الكلام و الحديث و هو كناية عن الحضور وكمال العناية بما يجري بينهما و بين فرعون وقومه عند تبليغ الرسالة كما قال في القصّة من سورة طه: «لا تخافا إنّني معكما أسمع وأرى» طه: ٤٦.

و محصّل المعنى كلّا لايقدرون على قتلك فاذهبا إليهم بآياتنا ولاتخافا إنّا حاضرون عندكم شاهدون عليكم معتنون بمايجري بينكم .

قوله تعالى : « فأتيا فرعون فقولا إنّارسول ربّ العالمين أنأرسل معنا بني إسرائيل » بيان لقوله في الآية السابقة : « فاذهبا إليهم بآياتنا » .

وقوله : « فقولا إنّا رسولربّ العالمين » تفريع على إتيان فرعون ، والتعبير بالرسول بلفظ المفرد إمّا باعتبار كلّ واحد منهما أو باعتبار كون رسالتهما واحدة وهي قولهما : « أن أرسل » الخ أوباعتبار أنّ الرسول مصدر في الأصل فالأصل أن يستوي فيه الواحد والجمع ، و التقدير إنّا ذوا رسول ربّ العالمين أي ذوارسالته كما قيل .

وقوله : « أن أرسل معنا بنيإسرائيل » تفسير للرسالة المفهومة من السياق و المراد بإرسالهم إطلاقهملكن لمّا كان المطلوبأن يعودوا إلى الأرض المقدسة الّتي كتب الله لهم وهي أرض آبائهم إبراهم وإسحاق و يعقوب عليهم السلام سمّيإطلاقهم ليعودوا إليها إرسالامنهلهم إليها .

قوله تعالى : «قال ألمنربّك فيناوليداً ولبثت فينا منعمرك سنين» الاستفهام للإنكار التوبيخيّ ، و «نربّك» من التربية ، و الوليد الصبيّ .

لمّا أقبل فرعون على موسى و هارون وسمع كلامهما عرف موسى و خصّه بالخطاب قائلا ألم نربّك الخ و مراده الاعتراض عليه أوّلا من جهة دعواه الرسالة يقول : أنتالّذيربيّناك وأنت وليد ولبثت فينامن عمرك سنين عديدة نعرفكباسمك ونعتك ولم ننس شيأً من أحوالك فمن أين لك هذه الرسالة و أنت من نعرفك ولا نجهل أصلك ؟

قوله تعالى : « وفعلت فعلتك الّتي فعلت وأنت من الكافرين » الفعلة بفتح الفاء بناء مرّة من الفعل ، وتوصيف الفعلة بقوله : « الّتي فعلت » للدلالة على عظم خطره و كثرة شناعته و فظاعته نظير ما في قوله : « فغشيهم من اليمّماغشيهم » طه : ٧٨ و مراده بهذه الفعلة قتله عليه السلام القبطيّ .

وقوله : « وأنت من الكافرين » ظاهر السياق على ما سيأتي الإشارة إليه أنّ مراده بالكفر كفران النعمة وأنّ قتله القبطيّ و إفساده في أرضه كفران لنعمته عليه بالخصوص بماله عنده من الصنيعة حيث كفّ عن قتله كسائر المواليد من بني إسرائيل وربّاه في بيته بل لأنّه من بني إسرائيل وهو يراهم عبيدا لنفسه ويرى نفسه ربّا منعما عليهم فقتل الواحد منهم رجلاً من قومه و إفساده في الأرض خروج من طور العبوديّة و كفر بنعمته .

فمحصّل اعتراضه المشار إليه في الآيتين أنّك الّذي ربّيناك صبيّاً صغيرا ولبثت فينا من عمرك سنين وأفسدت في الأرض بقتل النفس فكفرت بنعمتي وأنت من عبيدي الإسرائيليّين فمن أين جاءتك هذه الرسالة ؟ و كيف تكون رسولاً وأنت هذا الّذي نعرفك ؟ .

و بذلك يظهر عدم استقامة تفسير بعضهم الكفر بالكفر المقابل للإيمان، وأنّ المعنى وأنت من الكافرين بالُوهيّتي أو أنت من الكافرين بالله على زعمك حيث خالطتنا سنين وأنت في ملّتنا ، و كذا قول بعضهم : إنّ المراد وأنت من الكافرين بنعمتي عليك خاصّة .

قوله تعالى : « قال فعلتها إذا وأنا من الضالّين ففرت منكم لمّا خفتكم فوهب لي ربّي حكماً وجعلني من المرسلين وتلك نعمة تمنّها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل» ضمير « فعلتها » راجع إلى الفعلة ، والظاهر أنّ « إذاً » مقطوع عن الجواب والجزاء و يفيد معنى حينئذ كما قيل ، وعبّده تعبيداً وأعبده إعباداً إذا اتّخذه عبداً لنفسه .

والآيات الثلاث جواب موسى عليه السلام عمّا اعترض به فرعون، والتطبيق بين جوابه عليه السلام وما اعترض به فرعون يعطي أنّه عليه السلام حلّل كلام فرعون إلى القدح في دعواه الرسالة من ثلاثة أوجه: أحدها استغراب رسالته واستبعادها وهو الّذي يعلم حاله وقد أشار إليه بقوله: «ألم نربّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين » والثاني استقباح فعلته ورميه بالإفساد والجرم بقوله : « وفعلت فعلتك الّتي فعلت» والثالث المنّ عليه

بأنّه من عبيده ويستفاد ذلك من قوله : « وأنت من الكافرين » وقد اقتضى طبع ما يذكره في الجواب أن يغيّر الترتيب في الجواب فيجيب أوّلا عن اعتراضه الثاني ثمّ عن الأوّل ثمّ عن الثالث .

فقوله : « فعلتها إذاً و أنا من الضالّين » جواب عن اعتراضه بقتل القبطيّ وقد استعظمه حيث لم يصرّح باسمه بل كنّى عنه بالفعلة الّتي فعلت صوناً للأسماع أن تقرع باسمه فتتألّم .

والتدبّر في متن الجواب ومقابلته الاعتراض يعطي أنّ قوله : « ففررت منكم لمّا خفتكم فوهب لي ربّي حكماً » من تمام الجواب عن القتل فيتقابل الحكم والضلال ويتّضح حينئذ أنّ المراد بالضلال الجهل المقابل للحكم والحكم إصابة النظر في حقيقة الأمر وإتقان الرأي في تطبيق العمل عليه فيرجع معناه إلى القضاء الحقّ في حسن الفعل وقبحه وتطبيق العمل عليه ، وهذا هو الّذي كان يؤتاه الأنبياء قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلّا ليطاع بإذن الله »

فالمراد أنّي فعلتها حينئذ والحال أنّي في ضلال من الجهل بجهة المصلحة فيه والحقّ الّذي يجب أن يتّبع هناك فأقدمت على الدفاع عمّن استنصرني ولم أعلم أنّه يؤدّي إلى قتل الرجل و يؤدّي ذلك إلى عاقبة وخيمة تحوجني إلى خروجي من مصر وفراري إلى مدين والتغرّب عن الوطن سنين .

و من هنا يظهر ما في قول بعضهم : إنّ المراد بالضلال الجهل بمعنى الافدام على الفعل من غير مبالاة بالعواقب كما في قوله :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

و كذا قول بعض آخر : إنّ المراد بالضلال المحبّة كما فسّر به قول بني يعقوب لأبيهم : « تالله إنّك لفي ضلالك القديم » أي في محبّتك القديمة ليوسف فالمعنى فعلتها حينئذ و أنا من المحبّين لله لا ألوي عن محبّته إلى شيء .

أمّا الوجه الأوّل ففيه أنّه اعتراف بالجرم و المعصية و آيات سورة القصص ناصّة على أنّ الله سبحانه آتاه حكماً وعلما قبل واقعة القتل وهذا لا يجامع الضلال

بهذا المعنى من الجهل .

وأمّا الوجه الثاني ففيه مضافاً إلى عدم مساعدة السياق أنّ من الممتنع من أدب القرآن أن يسمّي محبّة الله سبحانه ضلالا

و أمّا قول القائل : إنّ المراد بالضلال الجهل بمعنى عدم التعمّد و أنّه إنّما فعل ذلك جاهلا به غير متعمّد إيّاه فإنّه عليه السلام إنّما تعمّد وكز القبطيّ للتأديب فأدّى إلى ماأدّى .

وكذا قول القائل : إنّ المراد بالضلال الجهل بالشرائع كما فسّر به بعضهم قوله : « ووجدك ضالاّ فهدى » .

وكذا قول القائل إنّ المراد بالضلال النسيان كما فسّر به قوله تعالى : « أن تضلّ إحداهما فتذكّر إحداهما الاُخرى » البقرة : ٢٨٣ . وأنّ المعنى فعلتها ناسيا حرمتها أو ناسيا أنّ الوكز ممّا يفضي إلى القتل عادة .

فوجوه يمكن أن يوجّه كلّ منها بما يرجع به إلى ماقدّمناه .

وقوله : « ففررت منكم لمّا خفتكم فوهب لي ربّي حكما » متفرّع على قصّة القتل، والسبب في خوفه وفراره ما أخبر الله به في سورة القصص بقوله : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنّي لك من الناصحين فخرج منها خائفاً يترقّب » القصص : ٢١ .

وأمّا الحكم فالمراد به ـ كما استظهرناه ـ إصابة النظر في حقيقة الأمر وإتقان الرأي في العمل به .

فإن قلت صريح الآية أنّ موهبة الحكم كانت بعد واقعة القتل ومفاد آيات سورة القصص أنّه عليه السلام اُعطي الحكم قبلها قال تعالى: « ولمّا بلغ أشدّه واستوى آتيناه حكماً وعلما وكذلك نجزي المحسنين ودخل المدينة » الخ القصص : ١٥ ثمّ ساق القصّة وذكر القتل والفرار .

قلت : إنّما ورد لفظ الحكم ههنا وفي سورة القصص منكّرا وهو مشعر بمغايرة كلّ منهما الآخر و قد ورد في خصوص التوراة أنّها متضمّنة للحكم قال تعالى :

« وعندهم التوراة فيها حكم الله » المائدة : ٤٧ ، وقد نزلت التوراة بعد غرق فرعون وإنجاء بني إسرائيل .

فمن الممكن أن يقال : إنّ موسى عليه‌السلام اُعطي مراتب من الحكم بعضها فوق بعض قبل قتل القبطيّ و بعد الفرار قبل العود إلى مصر و بعد غرق فرعون ، وقد خصّه‌الله في كلّ مرّة بمرتبة من الحكم حتّى تمّت له الحكمة بنزول التوراة ، و هذا بحسب التمثيل نظير ما يرزق بعض الناس أوان صباه سلامة في فطرته قلّما يميل معها طبعه إلى الشرّ والفساد ثمّ إذا نشأ يعطى اعتدالا في التعقّل وجودة في التدبير فينبعث إلى اكتساب الفضائل فيرزق ملكة التقوى والصفات الثلاث في الحقيقة سنخ واحد ينمو ويزيد حالا بعد حال .

و يظهر بما تقدّم عدم استقامة تفسير بعضهم الحكم بالنبوّة لعدم دليل عليه من جهة اللفظ ولا المقام .

على أنّ الله سبحانه ذكر الحكم والنبوّة في مواضع من كلامه و فرّق بينهما كقوله : « أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة » آل عمران : ٧٩ ، و قوله : « اُولئك الّذين آتيناهم الكتاب و الحكم و النبوّة » يوسف : ٤٠ ، و قوله : ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوّة » الجاثية : ١٦ إلى غير ذلك .

و قوله : « وجعلني من المرسلين » جواب عن الاعتراض الأوّل وهو استغراب رسالته واستبعادها و هم يعرفونه ، وقد شاهدوا أحواله حينما كانوا يربّونه فيهم وليدا ولبث فيهم من عمره سنين ، و تقريره أنّ استغرابهم واستبعادهم رسالته استنادا إلى سابق معرفتهم بحاله إنّما يستقيم لو كانت الرسالة أمراً اكتسابيّاً يمكن أن يحدس به أو يتوقّع حصوله بحصول مقدّماته الاختياريّة وليس الأمر كذلك بل هي أمر وهبيّ لا تأثير للأسباب العاديّة فيها وقد جعله الله من المرسلين كما وهب له الحكم بغير اكتساب هذا ما يعطيه التدبّر في السياق .

وأمّا ما ذكروه من أنّ قوله : « ألم نربّك فينا وليدا » الخ مسوق للمنّ على موسى عليه‌السلام دون الاستغراب والاستبعاد كما ذكرناه فالآية في نفسها و إن لم

تأب الحمل على ذلك لكن سياق مجموع الجواب لا يساعد عليه ، و ذلك أنّ فيه إفساد السياق من حيث يتعيّن أن يجعل قوله : « وتلك نعمة تمنّ عليّ » الخ جوابا عن المنّ و هولاينطبق عليه ، ويجعل قوله : « فعلتها إذا » الخ جوابا عن الاعتراض بالقتل و يبقى قوله : « وجعلني من المرسلين » فضلا لاحاجة إليه فافهم ذلك .

و قوله : « وتلك نعمة تمنّها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل » جواب عن منّه عليه و تقريعه بأنّه من عبيده وقد كفر نعمته و تقرير الجواب أنّ هذا الّذي تعدّه نعمة و تقرّعني بكفرانها سلطة ظلم و تغلّب إذ عبّدت بني إسرائيل و التعبيد ظلما وتغلّبا ليس من النعمة في شيء .

فالجملة استفهاميّة مسوقة للإنكار و «أن عبّدت بني إسرائيل » بيان لما اُشير إليه بقوله : « تلك » والمحصّل أنّ الّذي تشير إليه بقولك : « وأنت من الكافرين» من أنّ لك عليّ نعمة كفرتها إذكنت وليّ نعمتي و سائر بنى إسرائيل ـ أو إذكنت وليّ نعمتنا معشر بني إسرائيل ـ ليس بحقّ إذ كونك وليّا منعما ليس إلّا استنادا إلى التعبيد و التعبيد ظلم والولاية المستندة إليه أيضا ظلم و حاشا أن يكون الظالم وليّاً منعما له على من عبّده نعمة و إلّا كان التعبيد نعمة وليس نعمة ففي قوله : «أن عبّدت بنى إسرائيل » وضع السبب موضع المسبّب .

والقوم حلّلوا كلام فرعون : « ألم نربّك » الخ إلى اعتراضين ـ كما أشرنا إليه ـ المنّ عليه بتربيته وليدا و كفرانه النعمة و إفساده في الأرض بقتل القبطيّ فأشكل عليهم الأمر من جهتين ـ كما أشرنا إليه .

إحداهما صيرورة قوله : « وجعلني من المرسلين » فضلا لاحاجة إليه في سوق الجواب .

و الثـانية عدم صلاحية قوله : « و تلك نعمة تمنّهـا عليّ أن عبّدت بني إسرائيل » جوابا عن منّه على موسى عليه السلام بتربيته في بيته وليدا .

و قد ذكروا في توجيهه وجوها :

منها أنّه مسوق للاعتراف بأنّ تربيته لموسى كانت نعمة عليه وإنكار أن يكون

ترك استعباده نعمة وهمزة الانكار مقدّرة فكأنّه يقول : أوتلك نعمة تمنّها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل و لم تعبّدني هذا ، وأنت ترى أنّ فيه تقديراً لما لادليل عليه من جهة اللفظ ولا إشارة .

ومنها أنّه إنكار لأصل النعمة عليه لمكان تعبيده بني إسرائيل كأنّه يقول : إنّ تربيتك لي ليست نعمة يمنّ بها عليّ لأنّك عبّدت قومي فأحبطت به عملك فقوله: «أن عبّدت الخ في مقام التعليل للانكار هذا ، وهذا الوجه وإن كان أقرب إلى الذهن من سابقه لكن هذا الجواب غير تامّ معنى فإنّ تعبيده لبني إسرائيل لا يغيّر حقيقة ما له من الصنيعة عند موسى في تربيته وليدا .

و منها أنّ المعنى أنّ هذه النعمة الّتي تمنّ بها عليّ من التربية إنّما سببه ظلمك بني إسرائيل بتعبيدهم فاضطرّت اُمّي لذلك أن ألقتني في اليمّ فأخذتني فربّيتني فإذ كانت هذه التربية مسبّبة عن ظلمك بالتعبيد فليست بنعمة هذا والشأن في استفادة هذا المعنى من لفظ الآية .

ومنها أنّ الّذي ربّاني اُمّي وغيرها من بني إسرائيل حيث استعبدتهم فأمرتهم فربّوني فليست هذه التربية نعمة منك تمنّها عليّ لانتهائها إلى التعبيد ظلما هذا و هذا الوجه أبعد من سابقه من لفظ الآية .

و منها أنّ ذلك اعتراف منه عليه السلام بنعمة فرعون عليه والمعنى و تلك التربية نعمة منك تمنّها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل وتركت تعبيدي هذا وأنت خبير بأن لادليل على ماقدّره من قوله : وتركت تعبيدي .

قوله تعالى : « قال فرعون و ماربّ العالمين - إلى قوله - من المسجونين » لمّا كلّم فرعون موسى عليه السلام في معنى رسالته قادحاً فيها فتلقّى الجواب بما كان فيه إفحامه أخذ يكلّمه في خصوص مرسله وقد أخبره أنّ الّذي أرسله هو ربّ العالمين فراجعه فيه واستوضحه بقوله : « و ماربّ العالمين » ؟ إلى تمام سبع آيات .

و اتّضاح المراد منها يتوقّف على تذكّر اُصول مذاهب الوثنيّة في أمر

الربوبيّة - وقد تقدّمت الإشارة إليها في خلال الأبحاث السابقة من هذا الكتاب كرارا .

فهؤلاء يرون أنّ وجود الأشياء ينتهي إلى موجد واجب الوجود هو واحد لاشريك له في وجوب وجوده هو أجلّ من أن يحدّه حدّ في وجوده وأعظم من يحيط بهفهم أوينالـه إدراك ولذلك لايجوز عبادته لأنّ العبادة نوع توجّه إلى المعبود و التوجّه إدراك .

ولذلك بعينه عدلوا عن عبادته و التقرّب إليه إلى التقرّب إلى أشياء من خلقه ذوي وجودات شريفة نوريّة أو ناريّة هي مقرّبة إليه فانية فيه من الملائكة والجنّ و القدّيسين من البشر المتخلّصين من ألواث المادّة الفانين في اللاّهوت الباقين بها ومنهم الملوك العظام أو بعضهم عند قدماء الوثنيّة و كان من جملتهم فرعون موسى و بالجملة كانوا يعبدونهم بعبادة أصنامهم ليقرّبوهم إلى الله زلفى ويشفعوا لهم بمعنى أن يفيضوا إليهم من الخير الّذي يفيض عنهم كما في الملائكة أولا يصيبوهم بالشرّ الّذي يترشّح عنهم كما في الجنّ فانّ كلاّ من هؤلاء المعبودين يرجع إليه تدبير أمر من اُمور العالم الكلّيّة كالحبّ و البغض و السلم و الحرب و الرفاهية وغيرها أوصقع من أصقاعه كالسماء و الأرض والإنسان ونحوها .

فهناك أرباب وآلهة يتصرّف كلّ منهم في العالم الّذي يرجع إليه تدبيره كإله عالم الأرض و إله عالم السماء و هؤلاء هم الملائكة والجنّ وقدّيسوا البشر ، وإله عالم الآلهة و هو الله سبحانه فهو إله الآلهة وربّ الأرباب .

إذا عرفت ما ذكرناه بان لك أن لامعنى صحيحا لقولنا : ربّ العالمين عند الوثنيّين نظراً إلى اُصولهم إذ لو اُريد به بعض هذه الموجودات الشريفة الممكنة بأعيانهم فهو ربّ عالم من عوالم الخلقة و هو العالم الّذي يباشر التصرّف فيه كعالم السماء و عالم الأرض مثلاً ولو اُريد به الله سبحانه فهو ربّ عالم الأرباب و إله عالم الآلهة فقط دون جميع العالمين ولو اُريد غير الطائفتين من الربّ الواجب الوجود والأرباب الممكنة الوجود فلا مصداق له معقولا .

فقوله ، « قال فرعون و مارب العالمين » سؤال منه عن حقيقة ربّ العالمين بيانه أنّ فرعون كان وثنيّاً يعبد الأصنام وهو مع ذلك يدّعي الاُلوهيّة أمّا عبادته الأصنام فلقوله تعالى: «ويذرك وآلهتك» الاعراف : ١٢٧ وأمّا دعواه الاُلوهيّة فللآية المذكورة ولقوله تعالى : « فقال أنا ربّكم الأعلى » النازعات : ٢٤ .

ولا منافاة عند الوثنيّة بين كون الشيء إلها ربّا وبين كونه مربوباً لربّ آخر لأنّ الربوبيّة هو الاستقلال في تدبير شيء من العالم وهو لاينافي الامكان و المربوبيّة لشيء آخر و كلّ ربّ عندهم مربوب لآخر إلّا الله سبحانه فهو ربّ الأرباب لاربّ فوقه وإله الآلهة لاإله له .

وكان المُلك عند الوثنيّة ظهوراً من اللاّهوت في بعض النفوس البشريّة بالسلطة و نفوذ الحكم فكان يعبد الملوك كما يعبد أرباب الأصنام و كذلك رؤساء البيوت في بيوتهم ، وكان فرعون وثنيّا يعبد الآلهة وهو ملك القبط يعبده قومه كسائر الآلهة .

فلمّا سمع من موسى وهارون قولهما : «إنّا رسول ربّ العالمين» تعجّب منه إذ لم يعقل له معنى محصّلا إذ لو اُريد به الواجب و هو الله سبحانه فهو عنده ربّ عالم الأرباب دون جميع العالمين ولو اُريد به بعض الممكنات الشريفة من الآلهة كبعض الملائكة وغيرهم فهو أيضا عنده ربّ عالم من عوالم الخلقة دون جميع العالمين فما معنى ربّ العالمين .

و لذلك قال : « وما ربّ العالمين » فسأل عن حقيقة الموصوف بهذه الصفة بما هو موصوف بهذة الصفة ولم يسأل عن حقيقة الله سبحانه فإنّه لوثنيّته كان معتقداً بوجوده مذعناً له و هو يرى كسائر الوثنيّين أنّه لاسبيل إلى إدراك حقيقته كيف؟ و هو أساس مذهبهم الّذي يبنون عليه عبادة سائر الآلهة و الأرباب كما سمعت .

وقوله : « قال ربّ السماوات و الأرض وما بينهما إن كنتم موقنين » جواب موسى عليه‌السلام عن سؤاله : «وما ربّ العالمين» وهو خبر لمبتدء محذوف و محصّل المعنى على ما يعطيه المطابقة بين السؤال و الجواب : هو ربّ السماوات والأرض وما بينهما الّتي تدلّ بوجود التدبير فيها و كونه تدبيرا واحدا متّصلا مرتبطا على أنّ لها

مدبّراً - ربّاً - واحداعلى مايراه الموقنون السالكون سبيل اليقين من البرهان والوجدان .

وبتعبير آخر مرادي بالعالمين السماوات والأرض وما بينهما الّتي تدلّ بالتدبير الواحد الّذي فيها على أنّ لها ربّاً مدبّراً واحداً ، ومرادي برب ّ العالمين ذلك الربّ الواحد الّذي تدلّ عليه وهذه دلالة يقينيّة يجدها أهل اليقين الّذين يتعاطون البرهان و الوجدان .

فان قلت : لم يطلب فرعون من موسى عليه السلام إلّا أن يعرّفه ما هذا الّذي يسمّيه ربّ العالمين ؟ وماحقيقته ؟ لكونه غيرمعقول عنده فلم يسأل إلّا التصوّر فما معنى قوله : « إن كنتم موقنين ؟ و اليقين علم تصديقي لاتوقّف للتصوّر عليه أصلاً .

على أنّه عليه السلام لم يأت في جواب فرعون بشيء غير أنّه وضع لفظ السماوات والأرض و مابينهما موضع لفظ العالمين فكان تفسيراً للفظ الجمع بأسماء آحاده كتفسير الرجال بزيد و عمرو وبكر فلم يفدبالأخرة إلّا التصوّر الأوّل ولا تأثير لليقين في ذلك .

قلت : كون فرعون يسأله أن يصوّر له « ربّ العالمين » تصويراً مسلّم لاشكّ فيه لكنّ موسى بدّل القول بوضع « السماوات والأرض ومابينهما » مكان العالمين و هو يدلّ على ارتباط بعض الأجزاء ببعض و الاتّصال بينها بحيث يؤدّي إلى وحدة التدبير الواقع فيها والنظام الجاري عليها ثمّ قيّده بقوله : «إن كنتم موقنين» ليدلّ على أنّ أهل اليقين يصدّقون من ذلك بوجود مدبّر واحد لجميع العالمين .

فكأنّه قيل له : ماتريد بربّ العالمين ؟ فقال : أُريد بهما يريده أهل اليقين إذ يستدلّون بارتباط التدبير و اتّصاله في عوالم السماوات و الأرض ومابينهما على أنّ لجميع هذه العوالم مدبّراً واحداً وربّاً لاشريك له في ربوبيّته لها وإذكانوا يصدّقون بوجود ربّ واحد للعالمين فهم يتصوّرونه بوجه تصوّراً إذلا معنى للتصديق بلا تصوّر .

و بعبارة موجزة : ربّ العالمين هو الّذي يوقن الموقنون بربوبيّته لجميع

السماوات و الأرض و ما بينهما إذا نظروا إليها وشاهدوا وحدة التدبير الّذي فيها .

والاحتجاج بتحقّق التصديق على تحقّق التصوّر قبله أقوى ما يمكن أن يحتجّ به على أنّه تعالى مدرك بوجه ومتصوّر تصوّرا صحيحا وإن استحال أن يدرك بكنهه ولا يحيطون به علما .

وقدظهر بذلك كلّه أوّلا أنّ الجواب إنّماهو باحالته فيمسؤله إلىمايتصوّره منه الموقنون إذ يصدّقون بوجوده .

وثانياً أنّ الّذياُشير إليه منالحجّة فيالآية هوالبرهانعلىتوحيدالربوبيّة الماخوذ من وحدة التدبير إذ هوالّذي يمسّهالحاجة قبال الوثنيّة المدّعين للشركاء في الربوبيّة .

و بذلك يظهر فساد ماذكروا أنّالعلم بحقيقة الذات لمّاكان ممتنعا عدلموسى عليهالسلامعن تعريف الحقيقة بالحدّإلى تعريفهتعالى بصفاته فقال : ربّ السماوات والأرض و مابينهما و أشار بقوله : « إن كنتم موقنين » إلى دلالتها بحدوثها على أنّ محدثها ذات واحدة واجبة الوجود لايشاركها في وجوبوجودها شيء غيرها .

وجه الفساد ما عرفت أنّ الوثنيّة قائلون باستحالة العلم بحقيقة الذات وكنهها ، وأنّالموجد ذات واجبة الوجودلايشاركها في وجوب وجودها غيره ، وأنّ الآلهة من دونالله موجودات ممكنة الوجود كلّ منها مدبّر لجهة من جهات العالم وهي جميعا مخلوقة لله فما قرّروه في معنى الآية لايجدي في مقام المخاصمة معهم شيأ .

و قوله : « قال لمن حوله ألاتستمعون » أي ألاتصغون إلى مايقول موسى والاستفهام للتعجيب يريد أن يصغوا إليه فيتعجّبوا من قوله حيث يدّعي رسالة ربّ العالمين وإذا سئلماربّالعالمين؟ أعاد الكلمة ثانياً ولم يزد علىمابدء بهشيأ.

و هذا تمويه منه عليهم يريد به الستر على الحقّ الّذي لاح من كلام موسى عليه السلامفإنّه إنّماقال : إنّ جميع العالمين تدلّ بوحدةالتدبيرالّذييشاهده أهل

اليقين فيها على أنّ لها ربّا مدبّرا واحدا هوالّذي تسألني عنه ، وهو يفسّر كلامه أنّه يقول : أنا رسول ربّ العالمين ، فإذا سألته ما ربّ العالمين ؟ يجيبني بأنّه ربّ العالمين .

و بما تقدّم بان عدم سداد قولهم في تفسير هذا التعجيب إنّ مراده أنّي سألته عن الذات فأجاب بالصفة و ذلك أنّ السؤال إنّما هو عن الذات من حيث صفته على ما تقدّم بيانه ، ولم يفسّر موسى الذات بالوصف بل غيّر قوله : ربّ العالمين إلى قوله : « ربّ السماوات والأرض » فوضع ثانيا قوله : « السماوات والأرض » مكان قوله أوّلا : « العالمين » كأنّه يؤمي إلى أنّ فرعون لم يفهم معنى العالمين .

وقوله : « قال ربّكم و ربّ آبائكم الأوّلين » جواب موسى عليه السلام ثانيا فإنّه لمّا رآى تمويه فرعون على من حوله و قد كان أجاب عن سؤاله « و ما ربّ العالمين » بتفسير العالمين من العالم الكبير كالسماوات والأرض وما بينهما عدل ثانيا إلى ما يكون أصرح في المقصود فذكر ربوبيّته تعالى لعالمي الإنسانيّة فإنّ العالم الجماعة من الناس أوالأشياء فعالمو الإنسان هو الجماعات من الحاضرين والماضين ولذلك قال : «ربّكم وربّ آبائكم الأوّلين » .

فإنّ فرعون ما كان يدافع في الحقيقة إلّا عن نفسه لما كان يدّعي الأُلوهيّة فكان يحتال في أن يبطل تعلّق ربوبيّة الربّ به في ضمن تعلّقه بالعالمين لاستلزام ذلك بطلان ربوبيّة الأرباب وهو من جملتهم و إن كان يرى أنّه أعلاهم و أهمّهم كما حكى الله تعالى عنه : « فقال أنا ربّكم الاعلى »النازعات : ٢٤ . « قال يا أيّها الملأ ماعلمت لكم من إله غيري» القصص : ٤ .

فكأنّه كان يقول : إن أردت بربّ العالمين الله تعالى فهو ربّ الأرباب لاغير وإن أردت غيره من الآلهة فكلّ منهم ربّ عالم خاصّ فما معنى ربّ العالمين فأجاب موسى بما حاصله أن ليس في الوجود إلّارب واحد فيكون ربّ العالمين فهو ربّكم وقد أرسلني إليكم .

وكان محصّل تمويه فرعون أنّ موسى لم يجبه بشيء إذ كرّر اللفظ فأجابه

موسى ثانيا بالتصريح على أنّ ربّ العالمين هو ربّ عالمي الإنسانيّة من الحاضرين والماضين وبذلك تنقطع حيلته .

وقوله : «قال إنّ رسولكم الّذي اُرسل إليكم لمجنون» قول فرعون ثانيا وقد سمّى موسى رسولا تهكّما واستهزاء وأضافه إلى من حوله ترفّعا من أن يكون رسولا إليه ، وقد رماه بالجنون مستندا إلى قوله عليه‌السلام : « ربّكم وربّ آبائكم » الخ .

كأنّه يقول : إنّه لمجنون لما في كلامه من الاختلال الكاشف عن الاختلال في تعقّله يدّعي رسالة ربّ العالمين فأسأله ما ربّ العالمين ؟ فيكرّر اللفظ تقريبا أوّلاً ثمّ يفسّره بأنّه ربّكم وربّ آبائكم الأوّلين .

وقوله : « قال ربّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » ظاهر السياق أنّ المراد بالمشرق جهة شروق الشمس وسائر الأجرام النيّرة السماويّة وطلوعها وبالمغرب الجهة الّتي تغرب فيها بحسب الحسّ ، وبما بينهما ما بين الجهتين فيشمل العالم المشهود ويساوي السماوات و الأرض وما بينهما .

فيكون إعادة لمعنى الجواب الأوّل بتقرير آخر وهو مشتمل على ما اشتمل عليه من نكتة اتّصال التدبير واتّحاده فإنّ للشروق ارتباطا بالغروب و المشرق و المغرب يتحقّقان طرفين لوسط بينهما كما أنّ للسماء أرضا ولهما أمر بينهما وهذا النوع من الاتّحاد لا يقبل إلّا تدبيراً متّصلاً واحداً ، و كما أنّ كلّ اُمّة حاضرة لها ارتباط وجوديّ بالاُمم الماضية ارتباط الأخلاف بالأسلاف فالنوع واحد و التدبير واحد فالمدبّر واحد .

وقد بدّل قوله في الجواب الأوّل : « إن كنتم موقنين » من قوله ههنا : «إن كنتم تعقلون » تعريضا له حيث قال لمن حوله : «ألا تستمعون » استهزاء به وإهانة له ثمّ رماه ثانياً بالجنون واختلال الكلام فأشار عليه‌السلام بقوله : « إن كنتم تعقلون » إلى أنّهم هم المحرومون من نعمة التعقّل و التفقّه ولو كانوا يعقلون لفهموا أنّ جوابه الأوّل ليس بتكرار غير مفيد و لكفاهم حجّة على توحيد الربّ و أنّ القائم

بتدبير جميع العالمين من السماوات و الأرض ومابينهما مدبّر واحد لا مدبّر سواه ولارب غيره .

وقدتبيّن بما ذكر أنّ الآية أعني قوله : « ربّ المشرق » الخ تقرير آخر لقوله في الجواب الأوّل : « ربّ السماوات و الأرض ومابينهما » وأنّه برهان على وحدة المدبّر من طريق وحدة التدبير و في ذلك تعريف لربّ العالمين بأنّه المدبّر الواحد الّذي يدلّ عليه التدبير الواحد في جميع العالمين ، نعم البيان الّذي يشير إليه هذه الآية أوضح لاشتماله على معنى الشروق و الغروب و كونهما من التدبير ظاهر .

وقد ذكروا أنّ الحجج المودعة في الآيات حجج على وحدانيّة ذات الواجب بالذات و نفي الشريك في وجوب الوجود وقد تقدّم عدم استقامته البتّة .

وقوله : « قال لئن اتّخذت إلها غيري لأجعلنّك من المسجونين » تهديد منه لموسى عليه السلام لودام على مايقول به من ربوبيّة ربّ العالمين مدّعيا أنّه رسول منه وهذادأب الجاهل المعاند إذا انقطع عن الحجّة أخذ في التهديد وتشبّث بالوعيد .

و اتّخاذ إله غيره كناية عن القول بربوبيّة ربّ العالمين الّذي يدعو إليه موسى وإنّما لم يذكره صونا للسانه عن التفوّه باسمه ، ولم يعبأ بسائر الآلهة الّتي كانوا يعبدونها استكباراً و علوّا ، و كأنّ السجن كان جزاء المعرضين عنه المنكرين لاُلوهيّته .

والظاهر أنّ اللاّم في المسجونين للعهد ، والمعنى لودمت على ماتقول لأجعلنّك في زمرة الّذين في سجني على ماتعلم من سوء حالهم وشدّة عذابهم ، ولهذا لم يعدل عن هذا التعبير إلى مثل قولنا : لأسجننّك مع اختصاره .

قوله تعالى : « قال أو لوجئتك بشيء مبين » القائل هو موسى عليه السلام والمراد بشيء مبين شيء يبين ويظهر صحّة دعواه و هو آية الرسالة الّتي تدلّ على صحّة دعوى الرسالة من مدّعيه فإنّ الآية المعجزة إنّما تدلّ على صدق الرسول في دعواه الرسالة وأمّا المعارف الإلهيّة الّتي يدعو إليها كالتوحيد و المعاد ومايتعلّق بهما فالسبيل إلى إثباته الحجّة البرهانيّة وعلى ذلك كانت تجري سيرة الأنبياء في دعوتهم وقد

تقدّم كلام فيه في الجزء الأوّل من الكتاب .

والمعنى قال موسى : أتجعلني من المسجونين ولو أتيتك بشيء يوضح صدقي فيما ادّعيت من الرسالة .

قوله تعالى : « قال فأت به إن كنت من الصادقين » القائل فرعون وقد فرّع أمره بإتيانه على استفهام موسى المشعر بأنّه يدّعي أنّ عنده شيأ مبينا ولذا قيّد الأمر بالإتيان بقوله : « إن كنت من الصادقين » أي إن كنت صادقا في أنّ عندك شيأ كذلك .

قوله تعالى : « فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين » هاتان الآيتان اللتان اُوتيهما موسى ليلة الطور ، والثعبان الحيّة العظيمة وكونه مبينا ظهور واقعيّته بحيث لا يرتاب فيه ، والمراد بنزع يده نزعه من جيبه بعد وضعها فيه كما في سورتي : النمل الآية ١٢ والقصص الآية ٣٢ .

قوله تعالى : « قال للملاء حوله إنّ هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون » القائل فرعون وقد قال لموسى : « فأت به إن كنت من الصادقين » رجاء أن يأتي بأمر فيه موضع معارضة ومناقشة فلمّا أتى بما لا مغمض فيه لم يجد بدّاً دون أن يبهته بأنّه ساحر عليم .

ولذا أتبع رميه بالسحر بقوله : « يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره » إغراء لهم عليه وحثّاً لهم على أن يتّفقوا معه على دفعه بأيّ وسيلة ممكنة .

وقوله : « فما ذا تأمرون » لعلّ المراد بالأمر الإشارة عليه لما أنّ المشير يشير على من يستشيره بلفظ الأمر فالمعنى إذا كان الشأن هذا فما ذا تشيرون عليّ أن اُعامله به حتّى أعمل به وذلك أنّه كان يرى نفسه ربّهم الأعلى ويراهم عبيده ولا يناسب ذلك حمل الأمر على معناه المتعارف .

ويؤيّد هذا المعنى أنّه تعالى حكى في موضع آخر هذا الكلام عن الملاء أنفسهم إذ قال : « قال الملأ من قوم فرعون إنّ هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فما ذا تأمرون » الأعراف : ١١٠ . وظاهر أنّ المراد بأمرهم إشارتهم

على فرعون أن افعل بهما كذا .

و قيل : إنّ سلطان المعجزة بهره وأدهشه فضلّ عن عجبه وتكبّره و غشيته المسكنة فلم يدرماذا يقول ؟ ولا كيف يتكلّم؟

قوله تعالى : « قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكلّ سحّار عليم » القائلون هم الملأ حوله وهم أشراف قومه ، وقوله : « أرجه » بسكون الهاءعلى القراءة الدائرة وهو أمرمن الإرجاء بمعنى التأخيرأي أخّر موسى وأخاه وأمهلهما ولا تعجل إليهما بسياسة أوسجن و نحوه حتّى تعارض سحرهما بسحرمثله.

و قرىء « أرجه » بكسرالهاء و «أرجئه» بالهمزة وضمّ الهاء و هما أفصح من القراءة الدائرة ، و المعنى واحد على أيّ حال .

و قوله : « و ابعث في المدائن حاشرين » المدائن جمع مدينة وهي البلدة والحاشر من الحشر و هو إخراج إلى مكان بإزعاج أي ابعث في البلاد عدّة من شرطائك وجنودك يحشرون كلّ سحّار عليم فيها و يأتوك بهم لتعارضهما بسحرهم.

و التعبير بالسحّاردون الساحر للإشارة إلى أنّ هناك من هو أعلم منه بفنون السحر و أكثر عملاً .

قوله تعالى : « فجمع السحرة لميقات يوم معلوم» هو يوم الزينة الّذي اتّفق موسى و فرعون على جعله ميقاتا للمعارضة كما في سورة طه ففي الكلام إيجاز و تلخيص .

قوله تعالى : « وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلّنا نتّبع السحرة إن كانوا هم الغالبين » الاستفهام لحثّ الناس وترغيبهم على الاجتماع .

قال في الكشّاف ماحاصله أنّ المراد باتّباع السحرة اتّباعهم في دينهم -وكانوا متظاهرين بعبادة فرعون كما يظهر من سياق الآيات التالية - وليس مرادهم بذلك إلّا أن لايتّبعوا موسى لااتّباع السحرة وإنّما ساقوا كلامهم مساق الكناية ليحملوا به السحرة على الاهتمام و الجدّ في المغالبة .

قوله تعالى : « فلمّا جاء السحرة قالوا لفرعون أئنّ لنا لأجرا إن كنا نحن

الغالبين قال نعم و إنّكم إذاً لمن المقرّبن » الاستفهام في معنى الطلب ، وقد قالوا : « إن كنّا » ولم يقولوا ، إذا كنا نحن الغالبين ليفيد القطع بالغلبة كما يفيده قولهم بعد : « بعزّة فرعون إنّا لنحن الغالبون » بل ألقوه في صورة الشكّ ليكون أدعى لفرعون إلى جعل الأجر .

وقد أثّر ذلك أثره حيث جعل لهم أجرا وزاد عليه الوعد بجعلهم من المقرّبين .

قوله تعالى : « قال لهم موسى ألقوا ـ إلى قوله ـ تلقف ما يأفكون » الحبال جمع حبل ، والعصيّ جمع عصى ، و اللقف الابتلاع بسرعة ، و ما يأفكون من الإفك بمعنى صرف الشيء عن وجهه سمّي السحر إفكا لأنّ فيه صرف الشيء عن صورته الواقعيّة إلى صورة خياليّة ، و معنى الآيات ظاهر .

قوله تعالى : «فاُلقي السحرة ساجدين قالوا آمنّا بربّ العالمين ربّ موسى وهارون» يريد أنّ السحرة لمّا رأوا ما رأوا من الآيات الباهرة بهرهم وأدهشهم ذلك فلم يتمالكوا أنفسهم دون أن خرّوا على الأرض ساجدين لله سبحانه فاستعير الإلقاء لخرورهم على الأرض للدلالة على عدم تمالك أنفسهم كأنّهم قد طرحوا على الأرض طرحا .

و قوله : « قالوا آمنّا بربّ العالمين » فيه إيمان بالله سبحانه إيمان توحيد لما تقدّم أنّ الاعتراف بكونه تعالى ربّ العالمين لا يتمّ إلّا مع التوحيد ونفي الآلهة من دونه .

وقوله : « ربّ موسى وهارون » فيه إشارة إلى الإيمان بالرسالة مضافا إلى التوحيد .

قوله تعالى : «قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنّه لكبيركم الّذي علّمكم السحر فلسوف تعلمون» إلى آخر الآية، القائل فرعون ، والمراد بقوله : « آمنتم له قبل أن آذن لكم » آمنتم من دون إذن منّي كما في قوله تعالى : «لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي » وليس مفاده أنّ الإذن كان ممكنا أو متوقّعا منه كما قيل .

وقوله : «إنّه لكبيركم الّذي علّمكم السحر» بهتان آخر يبهت به موسى عليه السلام ليصرف به قلوب قومه وخاصّة ملأهم عنه .

و قوله : « فلسوف تعلمون » تهديد لهم في سياق الإبهام للدلالة على أنّه في غنى عن ذكره وأمّا هم فسوف يعلمونه.

وقوله : « لاُقطّعنّ أيديكم و أرجلكم من خلاف ولاُصلّبنّكم أجمعين » القطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى مع الرِّجل اليسرى أو بالعكس و التصليب جعل المجرم على الصليب ، وقد تقدّم نظير الآية في سورتي الأعراف وطه .

قوله تعالى : «قالوا لاضير إنّا إلى ربّنا منقلبون» الضير هو الضرر ، وقوله: « إنّا إلى ربّنا منقلبون » تعليل لقولهم : لاضير أي إنّا لانستضرّ بهذا العذاب الّذي توعدنا به لأنّا نصبر و نرجع بذلك إلى ربّنا وما أكرمه من رجوع ! .

قوله تعالى : « إنّا نطمع أن يغفر لنا ربّنا خطايانا أن كنّا أوّل المؤمنين » تعليل لما يستفاد من كلامهم السابق أنّهم لايخافون الموت و القتل بل يشتاقون إلى لقاء ربّهم يقولون : لانخاف من عذابك شيئاً لأنّا نرجع به إلى ربّنا ولانخاف الرجوع لأنّا نطمع أن يغفر لنا ربّنا خطايانا بسبب كوننا أوّل المؤمنين بموسى و هارون رسولي ربّنا .

وفتح الباب في كلّ خير له أثر من الخير لايرتاب فيه العقل السليم فلو أنّ الله سبحانه أكرم مؤمنا لإيمانه بالمغفرة والرحمة لم تطفر مغفرته ورحمته أوّل الفاتحين لهذا الباب و الواردين هذا المورد .

قوله تعالى : « و أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنّكم متّبعون » شروع في سرد الشطر الثاني من القصّة و هو وصف عذاب آل فرعون بسبب ردّهم دعوة موسى و هارون عليهما السلام و قد كان الشطر الأوّل رسالة موسى وهارون إليهم و دعوتهم إلى التوحيد ، و الإسراء و السرى السير بالليل ، و المراد بعبادي بنو إسرائيل و في هذا التعبير نوع إكرام لهم .

و قوله : « إنّكم متّبعون » تعليل للأمر أي سر بهم ليلا ليتّبعكم آل فرعون

وفيه دلالة على أنّ لله في اتّباعهم أمرا وأنّ فيه فرج بني إسرائيل وقد صرّح بذلك في قوله : «فأسر بعبادي ليلا إنّكم متّبعون واترك البحر رهوا إنّهم جند مغرقون» الدخان : ٢٤

قوله تعالى : « فأرسل فرعون في المدائن حاشرين ـ إلى قوله ـ ثمّ أغرقنا الآخرين» قصّة غرق آل فرعون و إنجاء بني إسرائيل في أربع عشرة آية وقد أوجز في الكلام بحذف بعض فصول القصّة لظهوره من سياقها كخروج موسى و بني إسرائيل ليلاً من مصر لدلالة قوله : « أن أسر بعبادي » عليه وعلى هذا القياس .

فقال تعالى : «فأرسل فرعون» أي فأسرى موسى بعبادي فلمّا علم فرعون بذلك أرسل « في المدائن » الّتي تحت سلطانه رجالا « حاشرين» يحشرون الناس ويجمعون الجموع قائلين للناس « إنّ هؤلاء » بني إسرائيل « لشرذمة قليلون » و الشرذمة من كلّ شيء بقيّته القليلة فتوصيفها بالقلّة تأكيد « و إنّهم لنا لغائظون » يأتون من الأعمال ما يغيظوننا به « و إنّا لجميع » مجموع متّفق فيما نعزم عليه « حاذرون » نحذر العدوّ أن يغتالنا أو يمكر بنا و إن كان ضعيفا قليلاً ، و المطلوب بقولهم هذا وهو لا محالة بلاغ من فرعون حثّ الناس عليهم .

« فأخرجناهم من جنّات وعيون و كنوز ومقام كريم » فيه قصورهم المشيدة وبيوتهم الرفيعة ، ولمّا كان خروجهم عن مكر إلهيّ بسبب داعية الاستعلاء والاستكبار الّتي فيهم نسب إلى نفسه أنّه أخرجهم « كذلك » أي الأمر كذلك « وأورثناها » أي تلك الجنّات و العيون والكنوز و المقام الكريم « بني إسرائيل » حيث أهلكنا فرعون و جنوده وأبقينا بني إسرائيل بعدهم فكانوا هم الوارثين .

« فأتبعوهم » أي لحقوا ببني إسرائيل « مشرقين » أي داخلين في وقت شروق الشمس وطلوعها « فلمّا تراآى الجمعان » أي دنا بعضهم من بعض فرآى كلّ من الجمعين جمع فرعون وجمع موسى الآخر « قال أصحاب موسى » من بني إسرائيل خائفين فزعين « إنّا لمدركون » سيدركنا جنود فرعون .

« قال موسى كلاّ » لن يدركونا «إنّ معي ربّي سيهدين » والمراد بهذه المعيّة

معيّة الحفظ و النصرة وهي الّتي وعدهاله ربّه أوّل مابعثه وأخاه إلى فرعون : «إنّني معكما» وأمّامعيّة الايجاد و التدبير فالله سبحانه مع موسى وفرعون على نسبة سواء ، و قوله : « سيهدين » أي سيدلّني على طريق لايدركني فرعون معها .

« فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق » و الانفلاق انشقاق الشيء و بينونة بعضه من بعض «فكان كلّ فرق» أي قطعة منفصلة من الماء «كالطود» و هو القطعة من الجبل « العظيم » فدخلها موسى و من معه من بني إسرائيل .

« وأزلفنا ثمّ » أي وقرّبنا هناك « الآخرين » وهم فرعون وجنوده « وأنجينا موسى و من معه أجمعين » بحفظ البحر على حاله وهيئته حتّى قطعوه وخرجوا منه « ثمّ أغرقنا الآخرين » بإطباق البحر عليهم و هم في فلقه .

قوله تعالى : « إنّ في ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين و إنّ ربّك لهو العزيز الرحيم» ظاهر السياق - ويؤيّده سياق القصص الآتية - أنّ المشار إليه مجموع ماذكر في قصّة موسى من بعثه ودعوته فرعون وقومه و إنجاء بني إسرائيل وغرق فرعون وجنوده ففي ذلك كلّه آية تدلّ على توحّده تعالى بالربوبيّة وصدق الرسالة لمن تدبّر فيها .

و قوله : « وماكان أكثرهم مؤمنين » أي وماكان أكثر هؤلاء الّذين ذكرنا قصّتهم مؤمنين مع ظهورمادلّ عليه من الآية و على هذا فقوله بعد كلّ من القصص الموردة في السورة : «وماكان أكثرهم مؤمنين » بمنزلة أخذ النتيجة وتطبيق الشاهد على المستشهدله كأنّه يقال بعدإيراد كلّ واحدة من القصص : هذه قصّتهم المتضمّنة لآيته تعالى وماكان أكثرهم مؤمنين كما لم يؤمن أكثر قومك فلاتحزن عليهم فهذادأب كلّ من الاُمم الّتي بعثنا إليهم رسولاً فدعاهم إلى توحيد الربوبيّة .

وقيل : إنّ الضمير في « أكثرهم » راجع إلى قوم النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم و المعنى أنّ في هذه القصّة آية وماكان أكثر قومك مؤمنين بها ولا يخلومن بعد .

و قوله : « و إنّ ربّك لهو العزيز الرحيم » تقدّم تفسيره في أوّل السورة .

✿✿✿

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ

شافعين(١٠٠)ولا صديق حميم (١٠١) فلو أنّ لنا كرّة فنكون من المؤمنين(١٠٢) إنّ في ذلك لآية و ما كان أكثرهم مؤمنين (١٠٣) وإنّ ربّك لهو العزيز الرّحيم (١٠٤) .

(بيان)

تشير الآيات بعد الفراغ عن قصّة موسى إلى نباء إبراهيم عليه السلام و هو خبره الخطير إذ انتهض لتوحيد الله سبحانه بفطرته الزاكية الطاهرة من بين قومه المطبقين على عبادة الأصنام فتبرّء منهم و دافع عن الحقّ ثمّ كان من أمره ما قد كان ففي ذلك آية ولم يؤمن به أكثر قومه كما سيشير إلى ذلك في آخر الآيات .

قوله تعالى : « واتل عليهم نبأ إبراهيم » غيّر السياق عمّا كان عليه أوّل القصّة « و إذ نادى ربّك موسى » الخ لمكان قوله : « عليهم » فإنّ المطلوب تلاوته على مشركي العرب وعمدتهم قريش و إبراهيم هذا أبوهم وقد قام لنشر التوحيد و إقامة الدين الحقّ ولم يكن بينهم يومئذ من يقول : لا إله إلّا الله فنصر الله و نصره حتّى ثبتت كلمة التوحيد في الأرض المقدّسة و في الحجاز.

فلم يكن ذلك كلّه إلّا عن دعوة من الفطرة وبعث من الله سبحانه ففي ذلك آية لله فليعتبروا به وليتبرّؤا من دين الوثنيّة كما تبرّء منه ومن أبيه وقومه المنتحلين به أبوهم إبراهيم عليه السلام .

قوله تعالى : « إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون » مخاصمته و مناظرته عليه السلام مع أبيه غير مخاصمته مع قومه واحتجاجه عليهم كما حكاه الله تعالى في سورة الأنعام وغيرها لكنّ البناء ههنا على الإيجاز والاختصار ولذا جمع بين المحاجّتين وسبكهما محاجّة واحدة أورد فيها ماهو القدر المشترك بينهما .

وقوله : « ماتعبدون » سؤال عن الحقيقة بوضع نفسه موضع من لايعرف شيئاً

من حقيقتها و سائر شؤونها وهذا من طرق المناظرة سبيل من يريد أن يبيّن الخصم حقيقة مدّعاه و سائر شؤونه حتّى يأخذه بما سمع من اعترافه .

على أنّ هذه المحاجّة كانت من إبراهيم أوّل ماخرج من كهفه و دخل في مجتمع أبيه وقومه ولم يكن شهد شيأ من ذلك قبل اليوم فحاجّهم عن فطرة ساذجة طاهرة كما تقدّم تفصيل القول فيه في تفسير سورة الأنعام .

قوله تعالى : « قالوا نعبد أصناما فنظلّ لها عاكفين » ظلّ بمعنى دام ، و العكوف على الشيء ملازمته والإقامة عنده ، واللّام في «لها» للتعليل أي ندوم عاكفين عليها لأجلها وهو تفريع على عبادة الأصنام .

و الصنم جثّة مأخوذة من فلزّ أو خشب أو غير ذلك على هيئة خاصّة يمثّل بها ما في المعبود من الصفات ، وهؤلاء كانو يعبدون الملائكة و الجنّ وهم يرون أنّها روحانيّات خارجة عن عالم الأجسام منزّهة عن خواصّ المادّة وآثارها ، ولمّا كان من الصعب عليهم التوجّه العباديّ إلى هذه الروحانيّات باستحضارها للإدراك توسّلوا إلى ذلك باتّخاذ صور وتماثيل جسمانيّة تمثّل بأشكالها وهيآتها ماهناك من المعنويّات .

و كذلك الحال في عبادة عبّاد الكواكب لها فإنّ المعبود الأصليّ هناك روحانيّات الكواكب ثمّ اتّخذ أجرام الكواكب أصناما لروحانيّاتها ثمّ لمّا اختلفت أحوال الكواكب بالحضور و الغيبة والطلوع والغروب اتّخذوا لها أصناما تمثّل ماللكواكب من القوى الفعّالة فيما دونها من عالم العناصر كالقوّة الفاعلة للطرب و السرور والنشاط في الزهرة فيصوّرونها في صورة فتاة ، ولسفك الدماء في المرّيخ ، و للعلم و المعرفة في عطارد و على هذا القياس الأمر في أصنام القدّيسين من الإنسان .

فالأصنام إنّما اتّخذت ليكون الواحد منها مرآتا لربّ الصنم من ملك أوجنّ أو إنسان غير أنّهم يعبدون الصنم نفسه بتوجيه العبادة إليه والتقرّب منه ولوتعدّوا عن الصنم إلى ربّه عبدوه دون الله سبحانه .

و هذا هو الّذي يكذّب قول القائل منهم : إنّ الصنم إنّما هي قبلة لم تتّخذ إلّا جهة للتوجّة العبادي لامقصودة بالذات كالكعبة عند المسلين وذلك أنّ القبلة هي ما يستقبل في العبادة ولايستقبل بالعبادة وهم يستقبلون الصنم في العبادة وبالعبادة وبعبارة اُخرى التوجّه إلى القبلة و العبادة لربّ القبلة و هوالله عزّ اسمه و أمّا الصنم فالتوجّه إليه و العبادة له لالربّه ولوفرض أنّ العبادة لربّه وهو شيء من الروحانيّات كانت له لالله فالله سبحانه غير معبود في ذلك على أيّ حال .

و بالجملة فجوابهم عن سؤال إبراهيم : « ما تعبدون » بقولهم : « نعبد أصناما » إبانة أنّ هذه الأجسام المعبودة ممثّلات مقصودة لغيرهالالنفسها ، وقد أخذ إبراهيم قولهم : « نعبد » و خاصمهم به فإنّ استقلال الأصنام بالمعبوديّة لا يجامع كونها أصناما ممثّلة للغير فإذكانت مقصودة بالعبادة فمن الواجب أن يشتمل على ما هو الغرض المقصود منها من جلب نفع أو دفع ضرّ بالتوجّه العباديّ والدعاء والمسألة والأصنام بمعزل من أن تعلم بمسألة أو تجيب مضطرّا بإيصال نفع أو صرف ضرّ ولذلك سألهم إبراهيم بقوله : « هل يسمعونكم » الخ .

قوله تعالى : «قال هل يسمعونكم إذ تدعون أوينفعونكم أويضرّون» اعترض عليه السلام عليهم في عبادتهم الأصنام من جهتين :

إحداهما أنّ العبادة تمثيل لذلّةالعابد و حاجته إلى المعبود فلايخلو من دعاء من العابد للمعبود ، والدعاء يتوقّف على علم المعبود بذلك و سمعه ما يدعوه به ، والأصنام أجسام جماديّة لاسمع لها فلا معنى لعبادتها .

و الثانية أنّ الناس إنّما يعبدون الإله إمّا طمعا في خيره و نفعه و إمّا اتّقاء من شرّه و ضرّه والأصنام جمادات لا قدرة لها على إيصال نفع أو دفع ضرر.

فكلّ من الآيتين يتضمّن جهة من جهتي الاعتراض ، وقد أوردهما في صورة الاستفهام ليضطرّهم على الاعتراف .

قوله تعالى : « قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » كان مقتضى المقام أن يجيبوا عن سؤاله عليه السلام بالنفي لكنّه لمّا كان ينتج خلاف ماهم عليه من الانتحال

بالوثنيّة أضربوا عنه إلى التشبّث بذيل التقليد فذكروا أنّهم لامستند لهم في عبادتها إلّا تقليد الآباء محضا .

وقوله : « وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » أي ففعلنا كما كانوا يفعلون وعبدناهم كما كانوا يعبدون ، ولم يعدل عن قوله : « كذلك يفعلون» إلى مثل قولنا : يعبدونها ليكون أصرح في التقليد كأنّهم لايفهمون من هذه العبادات إلّا أنّها أفعال كأفعال آبائهم من غير أن يفقهوا منها شيأ أزيد من أشكالها وصورها .

قوله تعالى : «قال أفرأيتم ماتعبدون أنتم و آباؤكم الأقدمون فإنّهم عدوّ لي إلّا ربّ العالمين » لمّا انتهت محاجّته مع أبيه و قومه إلى أن لاحجّة لهم في عبادتهم الأصنام إلّا تقليد آبائهم محضا تبرّء عليه السلام من آلهتهم و من أنفسهم و آبائهم **بقوله** : « أفرأيتم » الخ .

فقوله : « أفرأيتم ما تعبدون » أنتم و آباؤكم الأقدمون » تفريع على ماظهر ممّا تقدّم من عدم الدليل على عبادة الأصنام إلّا التقليد بل بطلانها من أصلها أي فإذا كانت باطلة لاحجّة لكم عليها إلّا تقليد آبائكم فهذه الأصنام الّتي رأيتموها أي هذه بأعيانها الّتي تعبدونها أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنّها عدوّ لي لأنّ عبادتها ضارّة لديني مهلكة لنفسي فليست إلّا عدوّاً لي.

وذكر آبائهم الأقدمين للدلالة على أنّه لايأخذ بالتقليد كما أخذوا و أن لا وقع عنده عليه السلام لتقدّم العهد ، ولا أثر للسبق الزمانيّ في إبطال حقّ أو إحقاق باطل ، وإرجاع ضمير اُولي العقل إلى الأصنام لمكان نسبة العبادة إليها وهي تستلزم الشعور والعقل ، وهو كثير الوقوع في القرآن .

وقوله : « إلّا ربّ العالمين » استثناء منقطع من قوله : « فإنّهم عدوّ لي » أي لكنّ ربّ العالمين ليس كذلك .

قوله تعالى : « الّذي خلقني فهو يهدين ـ إلى قوله ـ يوم الدين » لمّا استثنى ربّ العالمين جلّ اسمه وصفه بأوصاف تتمّ بها الحجّة على أنّه تعالى ليس عدوّاً له بل ربّ رحيم ذوعناية بحاله منعم عليه بكلّ خيردافع عنه كلّ شرّ فقال : «الّذي

خلقني » الخ و أمّا قول القائل : إنّ قوله : « الّذي خلقني » الخ استيناف من الكلام لايعبأ به .

فقوله : « الّذي خلقني فهو يهدين » بدء بالخلق لأنّ المطلوب بيان استناد تدبير أمره إليه تعالى بطريق إعطاء الحكم بالدليل ، والبرهان على قيام التدبير به تعالى قيام الخلق والإيجاد به لوضوح أنّ الخلق و التدبير لاينفكّان في هذه الموجودات الجسمانيّة التدريجيّة الوجود الّتي تستكمل الوجود على التدريج فليس من المعقول أن يقوم الخلق بشيء والتدبير بشيء وإذكان الخلق والإيجاد لله سبحانه فالتدبير له أيضا .

ولهذا عطف الهداية على الخلق بفاء التفريع فدلّ على أنّه تعالى هو الهادي لأنّه هو الخالق .

وظاهر قوله : « فهو يهديني » - وهو مطلق - أنّ المراد به مطلق الهداية إلى المنافع دنيويّة كانت أو اُخرويّة والتعبير بلفظ المضارع لإفادة الاستمرار فالمعنى أنّه الّذي خلقني ولايزال يهديني إلى ما فيه سعادة حياتي منذ خلقني ولن يزال كذلك . فيكون الآية في معنى ما حكاه الله عن موسى إذ قال لفرعون : « ربّنا الّذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى » طه : ٥٠ ، أي هداه إلى منافعه و هي الهداية العامّة .

و هذا هو الّذي اُشير إليه في أوّل السورة بقوله : « أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كلّ زوج كريم إنّ في ذلك لآية » وقدمرّ تقرير الحجّة فيه .

وعلى هذا فما سيأتي في قوله : « والّذي هو يطعمني » الخ من الصفات المعدودة من قبيل ذكر الخاصّ بعد العامّ فإنّها جميعا من مصاديق الهداية العامّة بعضها هداية إلى منافع دنيويّة وبعضها هداية إلى ما يرجع إلى الآخرة .

ولو كان المراد بالهداية الهداية الخاصّة الدينيّة فالصفات المعدودة على رسلها وذكر الهداية بعد الخلقة و تقديمها على سائر النعم والمواهب لكونها أفضل النعم بعد الوجود .

و قوله : « والّذي هو يطعمني ويسقين و إذا مرضت فهو يشفين » هو كالكناية عن جملة النعم المادّيّة الّتي يرزقه الله إيّاها لتتميم النواقص ورفع الحوائج الدنيويّة وقد خصّ بالذكر منها ما هو أهمّها و هو الإطعام والسقي والشفاء إذا مرض .

ومن هنا يظهر أنّ قوله : « وإذا مرضت » توطئة وتمهيد لذكر الشفاء فالكلام في معنى يطعمني ويسقيني ويشفين ، ولذا نسب المرض إلى نفسه لئلّا يختلّ المراد بذكر ما هو سلب النعمة بين النعم ، وأمّا قول القائل : إنّه إنّما نسب المرض إلى نفسه مع كونه من الله للتأدّب فليس بذاك .

و إنّما أعاد الموصول فقال : « الّذي هو يطعمني » الخ ولم يعطف الصفات على ما في قوله : « الّذي خلقني فهو يهدين » للدلالة على أنّ كلّاً من الصفات المذكورة في هذه الجمل المترتّبة كان في إثبات كونه تعالى هو الربّ المدبّر لأمره والقائم على نفسه المجيب لدعوته .

وقوله : « والّذي هو يميتني ثمّ يحيين » يريد الموت المقضيّ لكلّ نفس المدلول عليه بقوله : « كلّ نفس ذائقة الموت » الأنبياء : ٣٥ وليس بانعدام وفناء بل انتقال من دار إلى دار من جملة التدبير العامّ الجاري ، والمراد بالإحياء إفاضة الحياة بعد الموت .

و قوله « والّذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين » أي يوم الجزاء و هو يوم القيامة ، ولم يقطع بالمغفرة كما قطع في الاُمور المذكورة قبلها لأنّ المغفرة ليست بالاستحقاق بل هي فضل من الله فليس يستحقّ أحد على الله سبحانه شيأ لكنّه سبحانه قضى على نفسه الهداية والرزق والإماتة والإحياء لكلّ ذي نفس ولم يقض المغفرة لكلّ ذي خطيئة فقال : « فورب السماء والأرض إنّه لحقّ » الذاريات : ٢٣ وقال : « كلّ نفس ذائقة الموت » الأنبياء : ٣٥ ، وقال : « إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقّاً » يونس: ٤ وقال في المغفرة : « إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » النساء : ٤٨ .

و نسبة الخطيئة إلى نفسه وهو عليه‌السلام نبيّ معصوم من المعصية دليل على أنّ

المراد بالخطيئة غير المعصية بمعنى مخالفة الأمر المولوي فإنّ للخطيئة والذنب مراتب تتقدّر حسب حال العبد في عبوديّته كما قيل : حسنات الأبرار سيّآت المقرّبين وقد قال تعالى لنبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم : « واستغفر لذنبك » .

فالخطيئة من مثل إبراهيم عليه السلام اشتغاله عن ذكر الله محضا بما تقتضيه ضروريّات الحياة كالنوم والأكل والشرب ونحوها وإن كانت بنظر آخر طاعة منه عليه السلام كيف ؟ وقد نصّ تعالى على كونه عليه السلام مخلصا لله لا يشاركه تعالى فيه شيء إذ قال : « إنّا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار » صّ : ٤٦ وقد قدّمنا كلاما له تعلّق بهذا المقام في آخر الجزء السادس وفي قصص إبراهيم في الجزء السابع من الكتاب.

قوله تعالى : « ربّ هب لي حكما وألحقني بالصالحين » لمّا ذكر عليه السلام نعم ربّه المستمرّة المتوالية المتراكمة عليه منذ خلق إلى ما لا نهاية له من أمد البقاء وصوّر بذلك شمول اللطف والحنان الإلهيّ أخذته جاذبة الرحمة الملتئمة بالفقر العبوديّ فدعته إلى إظهار الحاجة وبثّ المسألة فالتفت من الغيبة إلى الخطاب فسأل ما سأل .

فقوله : « ربّ » أضاف الربّ إلى نفسه بعد ما كان يصفه بما أنّه ربّ العالمين إثارة للرحمة الإلهيّة وتهييجا للعناية الربّانيّة لاستجابة دعائه ومسألته .

وقوله : « هب لي حكما » يريد بالحكم ما تقدّم في قول موسى عليه السلام : « فوهب لي ربّي حكما » الآية ٢١ من السورة وهو - كما تقدّم - إصابة النظر والرأي في المعارف الاعتقاديّة والعمليّة الكليّة وتطبيق العمل عليها كما يشير إليه قوله تعالى « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلّا نوحي إليه أنّه لا إله إلّا أنا فاعبدون » الأنبياء : ٢٥ وهو وحي المعارف الاعتقاديّة والعمليّة الّتي يجمعها التوحيد والتقوى ، وقوله تعالى : « وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » الأنبياء : ٧٣ وهو وحي التسديد والهداية إلى الصلاح في مقام العمل ، وتنكير الحكم لتفخيم أمره .

وقوله : « وألحقني بالصالحين » الصلاح - على ما ذكره الراغب - يقابل الفساد

الّذي هو تغيّر الشيء عن مقتضى طبعه الأصليّ فصلاحه كونه على مقتضى الطبع الأصليّ فيترتّب عليه من الخير والنفع ما من شأنه أن يترتّب عليه من غير أن يفسد فيحرم من آثاره الحسنة .

وإذ كان « الصالحين » غير مقيّد بالعمل و نحوه فالمراد به الصالحون ذاتا لاعملا فحسب و إن كان صلاح الذات لاينفكّ عنه صلاح العمل قال تعالى : « البلد الطيب يخرج نباته باذن ربّه » الأعراف :٥٨

فصلاح الذات كونها تامّة الاستعداد لقبول الرحمة الإلهيّة و إفاضة كلّ خير و سعادة من شأنها أن تتلبّس به من غير أن يقارنها ما يفسدها من اعتقاد باطل أوعمل سيّىء و بذلك يتبيّن أنّ الصلاح الذاتيّ من لوازم موهبة الحكم بالمعنى الّذي تقدّم وإن كان الحكم أخصّ مورداً من الصلاح وهو ظاهر .

فمسألته الإلحاق بالصالحين من لوازم مسألة موهبة الحكم وفروعها المترتّبة عليها فيعود معنى قوله : « ربّ هب لي حكما وألحقني بالصالحين » إلى مثل قولنا : ربّ هب لي حكما و تمّم أثره فيّ وهو الصلاح الذاتيّ .

وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى : « و إنّه في الآخرة لمن الصالحين » البقرة : ١٣٠ في الجزء الأوّل من الكتاب كلام له تعلّق بهذا المقام .

قوله تعالى : « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » إضافة اللسان إلى الصدق لاميّة تفيد اختصاصه بالصدق بحيث لا يتكلّم إلّا به ، وظاهر جعل هذا اللسان له أن يكون مختصّا به كلسانه لايتكلّم إلّا بما في ضميره ممّا يتكلّم هو به فيؤل المعنى إلى مسألة أن يبعث الله في الآخرين من يقوم بدعوته و يدعو الناس إلى ملّته و هي دين التوحيد .

فتكون الآية في معنى قوله في سورة الصافّات بعد ذكر إبراهيم عليه‌السلام : « وتركنا عليه في الآخرين » الصافّات ١٠٨ ، وقد ذكر هذه الجملة بعد ذكر عدّة من الأنبياء غيره كنوح و موسى وهارون وإلياس ، و كذا قال تعالى في سورة مريم بعد ذكر زكريّا ويحيى و عيسى و إبراهيم و موسى وهارون : « وجعلنا لهم لسان صدق

عليّاً» مريم : ٥٠ فالمراد على أيّ حال إبقاء دعوتهم بعدهم ببعث رسل أمثالهم .

و قيل : المراد به بعث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و قد روي عنه أنّه قال : أنا دعوة أبي إبراهيم و يؤيّده تسمية دينه في مواضع من القرآن ملّة إبراهيم ، و يرجع معنى الآية حينئذ إلى معنى قوله حكاية عن إبراهيم و إسماعيل حين بناء الكعبة : «ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيّتنا اُمّة مسلمة لك - إلى أن قال - ربّنا وابعث فيهم رسولامنهم يتلوعليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم» البقرة:١٢٩.

وقيل : المراد به أن يجعل الله له ذكراً جميلا وثناء حسنا بعده إلى يوم القيامة وقد استجاب الله دعاءه فأهل الأديان يثنون عليه و يذكرونه بالجميل .

وفي صدق لسان الصدق على الذكر الجميل خفاء ، و كذا كون هذا الدعاء والمحكيّ في سورة البقرة دعاء واحدا لايخلو من خفاء .

قوله تعالى : « واجعلني من ورثة جنّة النعيم » تقدّم معنى وراثة الجنّة في تفسير قوله تعالى : «اُولئك هم الوارثون» المؤمنون: ١١.

قوله تعالى : « واغفر لأبي إنّه كان من الضالّين » استغفار لأبيه حسب ما وعده في قوله : « سلام عليك سأستغفر لك ربّي » مريم ٤٩ وليس ببعيد أن يستفاد من قوله تعالى : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلّا عن موعدة وعدها إيّاه فلمّا تبيّن له أنّه عدوّ لله تبرّء منه » التوبة : ١١٤ أنّه دعا لأبيه بهذا الدعاء وهو حيّ بعد ، وعلى هذا فمعنى قوله : « إنّه كان من الضالّين » أنّه كان قبل الدعاء بزمان من أهل الضلال .

قوله تعالى : « ولا تخزني يوم يبعثون يوم لاينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم» الخزي عدم النصر ممّن يؤمّل منه النصر ، و الضمير في «يبعثون» للناس ولايضرّه عدم سبق الذكر لكونه معلومامن خارج .

ويعلم من سؤاله عدم الإخزاء يوم القيامة أنّ الإنسان في حاجة إلى النصر الإلهيّ يومئذ فهذه البنية الضعيفة لاتقوم دون الأهوال الّتي تواجهها يوم القيامة إلّابنصر وتأييد منه تعالى .

وقوله: « يوم لاينفع مال ولابنون » الظرف بدل من قوله: « يوم يبعثون » وبه يندفع قول من قال: إنّ قول إبراهيم قد انقطع في « يبعثون » والآية إلى تمام خمسة عشر آية من كلام الله تعالى.

والآية تنفي نفع المال والبنين يوم القيامة وذلك أنّ رابطة المال والبنين الّتي هي المناط في التناصر و التعاضد في الدنيا هي رابطة وهميّة اجتماعيّة لاتؤثّر أثراً في الخارج من ظرف الاجتماع المدنيّ ويوم القيامة يوم انكشاف الحقائق وتقطّع الأسباب فلاينفع فيه مال بماليّته ولابنون بنسبة بنوّتهم وقرابتهم قال تعالى: « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرّة وتركتم ماخوّلناكم وراء ظهوركم » الأنعام: ٩٤، وقال: « يوم ينفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون » المؤمنون: ١٠١.

فالمراد بنفي نفع المال والبنين يوم القيامة نفي سببيّتهما الوضعيّة الاعتبارية في المجتمع الإنسانيّ في الدنيا فإنّ المال نعم السبب و الوسيلة في المجتمع للظفر بالمقاصد الحيويّة، وكذا البنون نعمت الوسيلة للقوّة و العزّة و الغلبة والشوكة فالمال و البنون عمدة مايركن إليهما و يتعلّق بهما الإنسان في الحياة الدنيا فنفي نفعهما يوم القيامة كالكناية عن نفي نفع كلّ سبب وضعيّ اعتباريّ في المجتمع الإنسانيّ يتوسّل به إلى جلب المنافع المادّيّة كالعلم و الصنعة و الجمال وغيرها.

وبعبارة اُخرى نفي نفعهما في معنى الإخبار عن بطلان الاجتماع المدنيّ بما يعمل فيه من الأسباب الوضعيّة الاعتباريّة كما يشير إليه قوله تعالى: « مالكم لاتناصرون بل هم اليوم مستسلمون ».

وقوله: « إلّا من أتى الله بقلب سليم » قال الراغب: السلم و السلامة التعرّي من الآفات الظاهرة و الباطنة. انتهى و السياق يعطي أنّه عليه‌السلام في مقام ذكر معنى جامع يتميّز به اليوم من غيره وقد سأل ربّه أوّلا أن ينصره ولايخزيه يوم لاينفعه ماكان ينفعه في الدنيا من المال و البنين، و مقتضى هذه التوطئة أن يكون المطلوب بقوله: « إلّا من أتى الله بقلب سليم » بيان ما هو النافع يومئذ وقد ذكر فيه الإتيان

بالقلب السليم .

فالاستثناء منقطع والمعنى لكنّ من أتى الله بقلب سليم فإنّه ينتفع به ، والمحصّل أنّ مدار السعادة يومئذ على سلامة القلب سواء كان صاحبه ذامال وبنين في الدنيا أولم يكن .

و قيل : الاستثناء متّصل والمستثنى منه مفعول ينفع المحذوف و التقدير يوم لاينفع مال ولابنون أحدا إلاّ من أتى الله بقلب سليم .

وقيل : الاستثناء متّصل والكلام بتقدير مضاف والتقدير لاينفع مال ولابنون إلّا مال وبنو من أتى الخ .

وقيل : المال والبنون في معنى الغنى والاستثناء منه بحذف مضاف من نوعه والتقدير يوم لاينفع غنى إلّا غنى من أتى الله بقلب سليم ، و سلامة القلب من الغنى فالاستثناء متّصل ادّعاء لاحقيقة .

وقيل : الاستثناء منقطع وهناك مضاف محذوف والتقدير لاينفع مال ولابنون إلّا حال من أتى الخ .

و الأقوال الثلاثة الاُول توجب اختصاص تميّز اليوم بمن له مال و بنون فقط فإنّ الكلام عليها في معنى قولنا : يوم لاينفع المال و البنون أصحابهما إلّا ذا القلب السليم منهم و أمّا من لامال له ولا ولد فمسكوت عنه و السياق لايساعده ، و أمّا القول الرابع فمبنيّ على تقدير لاحاجه إليه .

و الآية قريبة المعنى من قوله تعالى : « المال و البنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربّك ثوابا وخير أملا » الكهف : ٤٦ ، غير أنّها تسند النفع إلى القلب السليم و هو النفس السالمة من وصمة الظلم وهو الشرك و المعصية كما قال تعالى في وصف اليوم : « وعنت الوجوه للحيّ القيّوم وقدخاب من حمل ظلما » : طه : ١١١ .

قال بعضهم : وفي الآيتين تأييد لكون استغفاره عليه السلام لأبيه طلبا لهدايته إلى الإيمان لاستحالة طلب مغفرته بعد موته كافرا مع علمه بعدم نفعه لأنّه من باب

الشفاعة انتهى .

و هذا على تقدير أخذ الاستثناء متّصلا كما ذهب إليه هذا القائل مبنيّ على كون إبراهيم عليه السلام ابن آزر لصلبه وقد تقدّم في قصّته عليه السلام من سورة الأنعام فساد القول به و أنّ الآيات ناصّة على خلافه .

و أما إذا اُخذ الاستثناء منقطعا فقوله: « إلّا من أتى الله بقلب سليم » بضميمة قوله تعالى : «ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى »الأنبياء : ٢٨. دليل على كون الاستغفار قبل موته كما لا يخفى :

قوله تعالى : « و اُزلفت الجنّة للمتّقين و برّزت الجحيم للغاوين » الازلاف التقريب ، و التبريز الاظهار ، وفي المقابلة بين المتّقين و الغاوين و اختيار هذين الوصفين لهاتين الطائفتين إشارة إلى ماقضى به الله سبحانه يوم رجم إبليس عند إبائه أن يسجد لآدم كما ذكر في سورة الحجر « إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلّا من اتّبعك من الغاوين و إنّ جهنّم لموعدهم أجمعين - إلى أن قال - إنّ المتّقين في جنات و عيون » الحجر : ٤٥ .

قوله تعالى : « وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون » أي هل يدفعون الشقاء و العذاب عنكم أوعن أنفسهم ، و المحصّل أنّه يتبيّن لهم أنّهم ضلّوا في عبادتهم غير الله .

قوله تعالى : « فكبكبوا فيها هم و الغاون وجنود إبليس أجمعون » يقال : كبّه فانكبّ أي ألقاه على وجهه و كبكبه أي ألقاه على وجهه مرّة بعد اُخرى فهو يفيد تكرار الكبّ كدبّ ودبدب وذبّ وذبذب و زلّ و زلزل ودكّ ودكدك .

وضمير الجمع في قوله : « فكبكبوا فيها هم » للأصنام كما يدلّ عليه قوله : « إنّكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنّم » الأنبياء :٩٩ وهؤلاء إحدى الطوائف الثلاث الّتي تذكر الآية أنّها تكبكب في جهنّم يوم القيامة ، و الطائفة الثانية الغاون المقضيّ عليهم ذلك كما في آية الحجر المنقولة آنفا، والطائفة الثالثة جنود إبليس و هم قرناء الشياطين الّذين يذكر القرآن أنّهم لا يفارقون أهل الغواية

حتّى يدخلوا النار ، قال تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمان نقيّض له شيطانا فهو له قرين - إلى أن قال - ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنّكم في العذاب مشتركون » الزخرف : ٣٩ .

قوله تعالى : « قالوا وهم فيها يختصمون - إلى قوله - إلاّ المجرمون » الظاهر أنّ القائلين هم الغاون ، والاختصام واقع بينهم يخاصمون أنفسهم و الشياطين على ماذكره الله سبحانه في مواضع من كلامه .

و قوله : « تالله إن كنّا لفي ضلال مبين » اعتراف منهم بالضلال ، و الخطاب في قوله : «إذ نسوّيكم بربّ العالمين » للآلهة من الأصنام وهم معهم في النار ، أولهم وللشياطين أولهما و للمتبوعين والرؤساء من الغاوين وخير الوجوه أوّلها .

وقوله : «وما أضلّنا إلاّ المجرمون» الظاهر أنّ كلاّ من القائلين يريد بالمجرمين غيره من إمام ضلال اقتدى به في الدنيا وداع دعاه إلى الشرك فاتّبعه و آباء مشركين قلّدهم فيه و خليل تشبّه به ، و المجرمون على مايستفاد من آيات القيامة هم الّذين ثبت فيهم الإجرام وقضي عليهم بدخول النار قال تعالى : « و امتازوا اليوم أيّها المجرمون » يس : ٦٠.

قوله تعالى : « فما لنا من شافعين ولاصديق حميم» الحميم على ماذكره الراغب القريب المشفق .

وهذا الكلام تحسّر منهم على حرمانهم من شفاعة الشافعين و إغاثة الأصدقاء وفي التعبير بقوله : « فما لنا من شافعين » إشارة إلى وجود شافعين هناك يشفعون بعض المذنبين ، ولولا ذلك لكان من حقّ الكلام أن يقال: فما لنا من شافع إذلانكتة تقتضي الجمع ، وقد روي أنّهم يقولون ذلك لما يرون الملائكة و الأنبياء والمؤمنين يشفعون .

قوله تعالى : « فلو أنّ لنا كرّة فنكون من المؤمنين » تمنّ منهم أن يرجعوا إلى الدنيا فيكونوا من المؤمنين حتّى ينالوا مانالهالمؤمنون من السعادة .

قوله تعالى : « إنّ في ذلك لآية » إلى آخر الآيتين أي في قصّة إبراهيم

عليه السلام ولزومه عن فطرته الساذجة دين التوحيد وتوجيه وجهه نحو ربّ العالمين وتبرّيه من الأصنام واحتجاجه على الوثنيّين وعبدة الأصنام آية لمن تدبّر فيها على أنّ في سائر قصصه من محنه و ابتلاءآته الّتي لم تذكرههنا كإلقائه في النار ونزول الضيف من الملائكة عليه وقصّة إسكانه إسماعيل واُمّه بوادي مكّة وبناء الكعبة وذبح إسماعيل آيات لاُولي الألباب .

وقوله : « وماكان أكثرهم مؤمنين » أي وماكان أكثر قوم إبراهيم مؤمنين والباقي ظاهر ممّا تقدّم .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » قال: هو أمير المؤمنين عليه السلام .

أقول : يحتمل التفسير و الجري .

وفي الكافي بإسناده عن يحيى عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام ولسان الصّدق للمرء يجعله الله في الناس خير من المال يأكله و يورثه . الحديث .

وفي الدّرّ المنثور في قوله تعالى : « واغفر لأبي » أخرج عبد بن حميد وابن المنذر و ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : « ولاتخزني يوم يبعثون » قال : ذكر لنا أنّ نبيّ الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : ليجيئنّ رجل يوم القيامة من المؤمنين آخذاً بيد أب له مشرك حتّى يقطعه النار ويرجو أن يدخله الجنّة فيناديه مناد إنّه لايدخل الجنّة مشرك فيقول : ربّي أبي ووعدت أن لاتخزيني .

قال : فما يزال متشبّثاً به حتّى يحوّله الله في صورة سيّئة و ريح منتنة في صورة ضبعان فإذا رآه كذلك تبرّء منه و قال : لست بأبي . قال : فكنّا نرى أنّه يعني إبراهيم وما سمّي به يومئذ .

وفيه أخرج البخاريّ والنسائيّ عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : يلقى

إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة يقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لاتعصني ؟ فيقول أبوه : فاليوم لاأعصيك .

فيقول إبراهيم : ربّ إنّك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون فأيّ خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله : إنّي حرّمت الجنّة على الكافرين ثمّ يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فإذا هو بذيخ متلطّخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار .

أقول : الخبران من أخبار بنوّة إبراهيم لآزر لصلبه وقدمرّ في قصص إبراهيم من سورة الأنعام أنّها مخالفة للكتاب و كلامه تعالى نصّ في خلافه .

وفي الكافي بإسناده عن سفيان بن عيينة قال : سألته عن قول الله عزّوجلّ : « إلّامن أتى الله بقلب سليم » قال : السليم الّذي يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه . قال وكلّ قلب فيه شرك أو شكّ فهو ساقط و إنّما أرادوا بالزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم إلى الآخرة .

وفي المجمع و روي عن الصادق عليه السلام أنّه قال : هوالقلب الّذي سلم من حبّ الدنيا . ويؤيّده قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة .

و في الكافي بإسناده عن محمّد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث « و جنود إبليس أجمعون » جنود إبليس ذرّيّته من الشياطين .

قال : وقولهم : « وما أضلّنا إلّا المجرمون » إذ دعونا إلى سبيلهم ذلك قول الله عزّوجلّ فيهم إذجمعهم إلى النار : « وقالت اُولاهم لاُخراهم ربّنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عذابا ضعفامن النار» وقوله : « كلّمادخلت اُمّة لعنت اُختهاحتّى إذا ادّاركوا فيها جميعا» برىء بعضهم من بعض ولعن بعضهم بعضا يريد بعضهم أن يحجّ بعضا رجاء الفلج فيفلتوا جميعا من عظيم ما نزل بهم وليس بأوان بلوى ولا اختبار ولا قبول معذرة ولاحين نجاة .

وفي الكافي أيضا بسندين عن أبي بصير عن أبي جعفر و أبي عبدالله عليهما السلام في قول الله عزّوجلّ : « فكبكبوا فيها هم والغاون» هم قوم وصفوا عدلا بألسنتهم ثمّ خالفوه إلى غيره .

أقول : و روى هذا المعنى القمّي في تفسيره والبرقي في المحاسن عن أبي عبدالله عليه السّلام ، والظاهر أنّ الرواية كانت واردة في ذيل قوله تعالى : « والشعراء يتّبعهم الغاون » لما بعده من قوله تعالى : « وأنّهم يقولون مالا يفعلون » وقد وقع الخطأ في إيرادها في ذيل قوله : « و كبكبوا فيها » الخ وهو ظاهر للمتأمّل .

وفي المجمع و في الخبر المأثور عن جابر بن عبدالله قال سمعت النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول : إنّ الرجل يقول في الجنّة : ما فعل صديقي ؟ و صديقه في الجحيم . فيقول الله : أخرجوا له صديقه إلى الجنّة فيقول من بقي في النار : « فمالنا من شافعين ولا صديق حميم » .

و روي بالإسناد عن حمران بن أعين عن أبي عبدالله عليه السلام قال : والله لنشفعنّ لشيعتنا ثلاث مرّات حتّى يقول الناس : « فما لنا من شافعين ولا صديق حميم - إلى قوله - فنكون من المؤمنين » وفي رواية اُخرى حتّى يقول عدوّنا .

وفي تفسير القمّي « فلو أنّ لنا كرّة فنكون من المؤمنين » قال : من المهتدين قال : لأنّ الإيمان قد لزمهم بالإقرار .

أقول مراده أنّهم يؤمنون يومئذ إيمان إيقان لكنّهم يرون أنّ الإيمان يومئذ لا ينفعهم بل الإيمان النافع هو الإيمان في الدنيا فيتمنّون أن يرجعوا إلى الدنيا ليكون ما عندهم من الإيمان من إيمان المهتدين وهم المؤمنون حقّا المهتدون بإيمانهم يوم القيامة و هذا معنى لطيف ، وإليه يشير قوله تعالى : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربّهم ربّنا أبصرنا و سمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنّا موقنون» :١٣، فلم يقولوا فارجعنا نؤمن ونعمل صالحا بل قالوا فارجعنا نعمل صالحا فافهم ذلك .

☆ ☆ ☆

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) اِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ اَلاَ تَتَّقُونَ (١٠٦) اِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ اَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ اَطِيعُونِ (١٠٨) وَ مَا اَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ اِنْ اَجْرِيَ اِلاَّ عَلٰى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ اَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا اَنُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْاَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) اِنْ حِسَابُهُمْ اِلاَّ عَلٰى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا اَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) اِنْ اَنَا اِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ اِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَاَنْجَيْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) اِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ اَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَ اِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢) .

﴿بيان﴾

تشير الآيات بعد الفراغ عن قصّتي موسى و إبراهيم عليهما السلام و هما من اُولي العزم إلى قصّة نوح عليه السلام و هو أوّل اُولي العزم سادة الأنبياء ، و إجمال ماجرى بينه وبين قومه فلم يؤمن به أكثرهم فأغرقهم الله وأنجى نوحاومن معه من المؤمنين .

قوله تعالى : « كذّبت قوم نوح المرسلين » قال في المفردات : القوم جماعة الرجال في الأصل دون النساء ، ولذلك قال : « لايسخر قوم من قوم »

الآية قال الشاعر : أقوم آل حصن أم نساء ، و في عامّة القرآن اُريد وابه و النساء جميعاً . انتهى .

ولفظ القوم قيل : مذكّر وتأنيث الفعل المسند إليه بتأويل الجماعة وقيل : مؤنّث وقال في المصباح : يذكّر و يؤنّث .

وعدّ القوم مكذّبين للمرسلين مع أنّهم لم يكذّبوا إلّا واحدا منهم وهو نوح عليه السلام إنّما هو من جهة أنّ دعوتهم واحدة و كلمتهم متّفقة على التوحيد فيكون المكذّب للواحد منهم مكذّبا للجميع و لذا عدّ الله سبحانه الإيمان ببعض رسله دون بعض كفرا بالجميع قال تعالى «إنّ الّذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض و يريدون أن يتّخذوا بين ذلك سبيلاً اُولئك هم الكافرون حقّا » النساء : ١٥١ .

وقيل: هو من قبيل قولهم : فلان يركب الدوابّ ويلبس البرود وليس له إلّا دابّة واحدة و بردة واحدة فيكون الجمع كناية عن الجنس ، والأوّل أوجه و نظير الوجهين جار في قوله الآتي : « كذّبت عاد المرسلين » « كذّبت ثمود المرسلين » وغيرهما .

قوله تعالى : « إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتّقون » المراد بالأخ النسيب كقولهم : أخو تميم و أخو كليب والاستفهام للتوبيخ .

قوله تعالى « إنّي لكم رسول أمين » أي رسول من الله سبحانه أمين على ما حمّلته من الرسالة لا اُبلّغكم إلّا ما أمرني ربّي وأراده منكم ، ولذا فرّع عليه قوله: « فاتّقوا الله وأطيعون » فأمرهم بطاعته لأنّ طاعته طاعة الله .

قوله تعالى : « وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلّا على ربّ العالمين » مسوق لنفي الطمع الدنيويّ بنفي سؤال الأجر فيثبت بذلك أنّه ناصح لهم فيما يدعوهم إليه لا يخونهم ولا يغشّهم فعليهم أن يطيعوه فيما يأمرهم ، ولذا فرّع عليه ثانياً قوله : « فاتّقوا الله و أطيعون » .

والعدول في قوله : « إن أجري إلّا على ربّ العالمين » عن اسم الجلالة إلى « ربّ العالمين » للدّلالة على صريح التوحيد فإنّهم كانوا يرون أنّه تعالى إله عالم

الالهة و كانوا يرون لكلّ عالم إلها آخر يعبدونه من دون الله فاثباته تعالى ربّا للعالمين جميعاً تصريح بتوحيد العبادة و نفي الآلهة من دون الله مطلقا .

قوله تعالى : « فاتّقوا الله وأطيعون » قدتقدّم وجه تكرار الآية فهو يفيد أنّ كلاًمن الأمانة وعدم سؤال الأجرسبب مستقلّ في إيجاب طاعته عليهم .

قوله تعالى : « قالوا أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون » الأرذلودن جمع أرذل على الصحّة و هو اسم تفضيل من الرذالة والرذالة الخسّة والدناءة ، و مرادهم بكون متّبعيه أراذل أنّهم ذوو أعمال رذيلة و مشاغل خسيسة ولذا أجاب عليه السلام عنه بمثل قوله : « وما علمي بماكانوا يعملون » .

و الظاهر أنّهم كانوا يرونالشرف والكرامة في الأموال والجموع منالبنين و الأتباع كما يستفاد من دعاء نوح عليه السلام إذيقول : « ربّ إنّهم عصوني واتّبعوا من لم يزده ماله وولده إلاّخسارا » نوح : ٢١ . فمرادهم بالأرذلين من يعدّهم الأشراف والمترفون سفلة يتجنّبون معاشرتهم من العبيد و الفقراء وأرباب الحرف الدنيّة .

قوله تعالى « قال وما علمي بما كانوا يعملون » الضمير لنوح عليه السلام ، و «ما» استفهاميّة وقيل : نافية و عليه فالخبر محذوف لدلالة السياق عليه ، و المراد على أيّ حال نفي علمه بأعمالهم قبل إيمانهم به لمكان قوله : « كانوا يعملون » .

قوله تعالى : « إن حسابهم إلاّ على ربّي لوتشعرون » المراد بقوله : «ربّي» ربّ العالمين فانّه الّذي كان يختصّ نوح بالدعوة إليه من بينهم ، وقوله : «لوتشعرون» مقطوعءن العملأي لوكانلكم شعور ، وقيل : المعنى لوتشعرونبشيء لعلمتم ذلك وهو كماترى .

و المعنى بالنظر إلى الحصر الّذي في صدر الآية أنّه لاعلم لي بسابق أعمالهم وليس عليّ حسابهم حتّى أتجسّس و أبحث عن أعمالهم و إنّما حسابهم على ربّي لوتشعرون فيجازيهم حسب أعمالهم .

قوله تعالى : « وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلّا نذير مبين » الآية الثانية

بمنزلة التعليل للأولى والمجموع متمّم للبيان السابق والمعنى لاشأن لي إلّا الانذار و الدعوة فلست أطرد من أقبل عليّ وآمن بي ولست أتفحّص عن سابق أعمالهم لاُحاسبهم عليها فحسابهم على ربّي وهو ربّ العالمين لاعليّ .

قوله تعالى : « قالوا لئن لم تنته يانوح لتكوننّ من المرجومين » المراد بالانتهاء ترك الدعوة ، و الرجم هو الرمي بالحجارة ، و قيل : المراد به الشتم و هو بعيد ، و هذا ممّا قالوه في آخر العهد من دعوتهم يهدّدونه عليه السلام بقول جازم كما يشهد به ما في الكلام من وجوه التأكيد .

قوله تعالى : « قال ربّ إنّ قومي كذّبون فافتح بيني وبينهم فتحا » الخ هذا استفتاح منه عليه السلام وقدقدّم له قوله : « ربّ إنّ قومي كذّبون » على سبيل التوطئة أي تحقّق منهم التكذيب المطلق الّذي لامطمع في تصديقهم بعده كمايستفاد من دعائه عليهم إذ يقول : « ربّ لاتذر على الأرض من الكافرين ديّارا إنّك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولايلدوا إلّا فاجرا كفّارا » نوح : ٢٧ .

وقوله : «فافتح بيني وبينهم فتحا » كناية عن القضاء بينه وبين قومه كماقال تعالى : « ولكلّ اُمّة رسول فإذاجاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لايظلمون » يونس : ٤٧ .

وأصله من الاستعارة بالكناية كأنّه و أتباعه والكفّار من قومه اختلطوا واجتمعوا من غير تميّز فسأل ربّه أن يفتح بينهم بإيجاد فسحة بينه وبين قومه يبتعد بذلك أحد القبيلين من الآخر وذلك كناية عن نزول العذاب وليس يُهلك إلّا القوم الفاسقين و الدليل عليه قوله بعد : « ونجّني ومن معي من المؤمنين » .

و قيل : الفتح بمعنى الحكم و القضاء من الفتاحة بمعنى الحكومة .

قوله تعالى : « فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون » أي المملوء منهم و من كلّ زوجين اثنين كما ذكره في سورة هود .

قوله تعالى : « ثمّ أغرقنا بعد الباقين » أي أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه .

قوله تعالى : « إنّ في ذلك لآية ـ إلى قوله : ـ العزيز الرحيم » تقدّم الكلام في معنى الآيتين .

﴿بحث روائي﴾

في كتاب كمال الدين و روضة الكافي مسندا عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام في حديث : فمكث نوح ألف سنة إلّا خمسين عاما لم يشاركه في نبوّته أحد ولكنّه قدم على قوم مكذّبين للأنبياء الّذين كانوا بينه و بين آدم وذلك قوله عزّوجلّ : « كذّبت قوم نوح المرسلين » يعني من كان بينه و بين آدم إلى أن انتهى إلى قوله : « وإنّ ربّك لهو العزيز الرحيم » .

وقال فيه أيضاً : فكان بينه وبين آدم عشرة آباء كلّهم أنبياء وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : « واتّبعك الأرذلون » قال : الفقراء .

وفيه وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « الفلك المشحون » : المجهّز الّذي قد فرغ منه ولم يبق إلّا دفعه .



* * *

كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) اِذْقالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ اَلاٰتَتَّقُونَ (١٢٤) اِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ اَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَاَطِيعُونِ (١٢٦) وَمٰا اَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ اِنْ اَجْرِيَ اِلّٰا عَلىٰ رَبِّ الْعٰالَمِينَ (١٢٧) اَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَ تَتَّخِذُونَ مَصٰانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَ اِذٰا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبّٰارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي اَمَدَّكُمْ بِمٰا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِاَنْعٰامٍ وَ بَنِينَ (١٣٣) وَ جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ (١٣٤) اِنِّي اَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قٰالُوا سَوٰاءٌ عَلَيْنٰا اَوَ عَظْتَ اَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوٰاعِظِينَ (١٣٦) اِنْ هٰذٰا اِلّٰا خُلُقُ الْاَوَّلِينَ (١٣٧) وَمٰا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنٰاهُمْ اِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَمٰا كٰانَ اَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَاِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) .

﴿ بيان ﴾

تشير الآيات إلى قصّة هود عليه السلام وقومه وهم قوم عاد .

قوله تعالى : « كذّبت عاد المرسلين » قوم عاد من العرب العاربة الاُولى كانوا يسكنون الأحقاف من جزيرة العرب لهم مدنيّة راقية وأراض خصبة و ديار معمورة فكذّبوا الرسل و كفروا بأنعم الله وطغوا فأهلكهم الله بالريح العقيم وخرّب ديارهم وعفا آثارهم .

وعاد فيما يقال اسم أبيهم فتسميتهم بعاد من قبيل تسمية القوم باسم أبيهم كما يقال تميم و بكر و تغلب و يراد بنو تميم و بنو بكر و بنو تغلب .

وقد تقدّم في نظيرة الآية من قصّة نوح وجه عدّ القوم مكذّبين للمرسلين ولم يكذّبوا ظاهراً إلّا واحداً منهم .

قوله تعالى : «إنّي لكم رسول أمين - إلى قوله - ربّ العالمين» تقدّم الكلام فيها في نظائرها من قصّة نوح عليه‌السلام .

و ذكر بعض المفسّرين أنّ تصدير هذه القصص الخمس بذكر أمانة الرسل وعدم سؤالهم أجراً على رسالتهم وأمرهم الناس بالتقوى والطاعة للتنبيه على أنّ مبنى البعثة هو الدعاء إلى معرفة الحقّ والطاعة فيما يقرّب المدعوّ من الثواب ويبعّده من العقاب وأنّ الأنبياء عليهم‌السلام مجتمعون على ذلك و إن اختلفوا في بعض فروع الشرائع المختلفة باختلاف الأزمنة و الأعصار ، و أنّهم منزّهون عن المطامع الدنيويّة بالكلّيّة انتهى .

ونظيره الكلام في ختم جميع القصص السبع الموردة في السورة بقوله : «إنّ في ذلك لآية و ما كان أكثرهم مؤمنين و إنّ ربّك لهو العزيز الرحيم» ففيه دلالة على أنّ أكثر الامم والأقوام معرضون عن آيات الله وأنّ الله سبحانه عزيز يجازيهم على تكذيبهم رحيم ينجي المؤمنين برحمته ، وقد تقدّمت الإشارة إلى ذلك في الكلام على غرض السورة .

قوله تعالى : «أتبنون بكلّ ريع آية تعبثون» الريع هو المرتفع من الأرض والآية العلامة ، والعبث الفعل الّذي لا غاية له ، و كأنّهم كانوا يبنون على قلل الجبال و كلّ مرتفع من الأرض أبنية كالأعلام يتنزّهون فيها و يفاخرون بها من غير ضرورة تدعوهم إلى ذلك بل لهواً واتّباعا للهوى فوبّخهم عليه .

و قد ذكر للآية معان اُخر لا دليل عليها من جهة اللفظ ولا ملاءمة للسياق أضربنا عنها .

قوله تعالى : «و تتّخذون مصانع لعلّكم تخلدون» المصانع على ما قيل :

الحصون المنيعة والقصور المشيدة والأبنية العالية واحدها مصنع .

وقوله : «لعلّكم تخلدون» في مقام التعليل لما قبله أي تتّخذون هذه المصانع بسبب أنّكم ترجون الخلود ولولا رجاء الخلود ما عملتم مثل هذه الأعمال الّتي من طبعها أن تدوم دهرا طويلا لايفي به أطول الأعمار الإنسانيّة ، وقيل في معنى الآية ومفرداتها وجوه اُخرى أغمضنا عنها .

قوله تعالى : « وإذا بطشتم بطشتم جبّارين » قال في المجمع : البطش العسف قتلا بالسيف وضربا بالسوط ، والجبّار العالي على غيره بعظيم سلطانه . وهو في صفة الله سبحانه مدح وفي صفة غيره ذمّ لأنّ معناه في العبد أنّه يتكلّف الجبريّة . انتهى

فالمعنى وإذا أظهرتم شدّة في العمل وبأسا بالغتم في ذلك كما يبالغ الجبابرة في الشدّة .

ومحصّل الآيات الثلاث أنّكم مسرفون في جانبي الشهوة والغضب متعدّون حدّ الاعتدال خارجون عن طور العبوديّة .

قوله تعالى : « فاتّقوا الله وأطيعون » تفريع على إسرافهم في جانبي الشهوة والغضب وخروجهم عن طور العبوديّة فليتّقوا الله وليطيعوه فيما يأمرهم به من ترك الإتراف والاستكبار .

قوله تعالى : « واتّقوا الّذي أمدّكم بما تعلمون ـ إلى قوله ـ وعيون » قال الراغب : أصل المدّ الجرّ قال : وأمددت الجيش بمدد والإنسان بطعام قال : وأكثر ما جاء الإمداد في المحبوب والمدّ في المكروه قال تعالى : « وأمددناهم بفاكهة » « ونمدّ له من العذاب مدّا » انتهى ملخّصا .

وقوله : « واتّقوا الّذي أمدّكم» الخ في معنى تعليق الحكم بالوصف المشعر بالعلّيّة أي اتّقوا الله الّذي يمدّكم بنعمه لأنّه يمدّكم بها فيجب عليكم أن تشكروه بوضع نعمه في موضعها من غير إتراف واستكبار فإنّ كفران النعمة يستعقب السخط والعذاب قال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد » إبراهيم : ٧ .

وقد ذكر النعم إجمالا بقوله أوّلا : « أمدّكم بما تعلمون » ثمّ فصّلها بقوله ثانيا : « أمدّكم بأموال و بنين وجنّات وعيون » .

و في قوله : « أمدّكم بما تعلمون » نكتة اُخرى هي أنّكم تعلمون أنّ هذه النعم من إمداده تعالى وصنعه لا يشاركه في إيجادها والإمداد بها غيره فهوالّذي يجب لكم أن تتّقوه بالشكر و العبادة دون الأوثان و الأصنام فالكلام متضمّن للحجّة .

قوله تعالى : « إنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » تعليل للأمر بالتقوى أي إنّي آمركم بالتقوى شكرالأنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم إن تكفرواولم تشكروا ، والظاهر أنّ المراد باليوم العظيم يوم القيامة وإن جوّز بعضهم أن يكون المراد به يوم عذاب الاستئصال .

قوله تعالى : « قالواسواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين » نفي لأثر كلامه وإيآس له من إيمانهم بالكلّيّة .

قيل : الكلام لايخلو من مبالغة فقدكان مقتضى الترديد أن يقاله : أوعظت أم لم تعظ فالعدول عنه إلى قوله : « أم لم تكن من الواعظين » النافي لأصل كونه واعظا مالايخفى من المبالغة .

قوله تعالى : «إن هذا إلّا خلق الأوّلين»الخلق بضمّ الخاء واللّام أوسكونها قال الراغب : الخلق و الخلق ـ أي بفتح الخاء وضمّها في الأصل واحد كالشَّرب و الشُرب والصَّرم والصُرم لكن خصّ الخلق ـ بفتح الخاء ـ بالهيئات و الأشكال و الصور المدركة بالبصر ، و خصّ الخلق ـ بضمّ الخاء ـ بالقوى و السجايا المدركة بالبصيرة قال تعالى: «إنّك لعلى خلق عظيم» وقرىء «إن هذا إلّاخلق الأوّلين» انتهى.

والإشارة بهذا إلى ماجاء به هود وقد سمّوه وعظاً و المعنى ليس ما تلبّست به من الدعوة إلى التوحيد والموعظة إلّا عادة البشر الأوّلين الماضين من أهل الأساطير والخرافات ، و هذا كقولهم : إن هذا إلّا أساطير الأوّلين .

ويمكن أن تكون الإشارة بهذا إلى ماهم فيه من الشرك وعبادة الآلهة من

دون الله اقتداء بآبائهم الأوّلين كقولهم : «وجدنا آباءنا كذلك يفعلون» .

واحتمل بعضهم أن يكون المراد ماخلقنا هذا إلّا خلق الأوّلين نحيا كما حيّوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولاحساب ولاعذاب . وهو بعيد من السياق .

قوله تعالى : «ومانحن بمعذّبين» إنكار للمعاد بناء على كون المراد باليوم العظيم في كلام هود عليه السلام يوم القيامة .

قوله تعالى : «فكذّبوه فأهلكناهم إنّ في ذلك لآية ـ إلى قوله ـ الرحيم» معناه ظاهر ممّا تقدّم .

﴿بحث روائي﴾

في كتاب كمال الدين وروضة الكافي مسنداً عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام في حديث : وقال نوح إنّ الله تبارك وتعالى باعث نبيّاً يقال له هود و أنّه يدعو قومه إلى الله عزّ وجلّ فيكذّبونه وأنّ الله عزّ وجلّ يهلكهم بالريح فمن أدركه منكم فليؤمن به وليتّبعه فإنّ الله تبارك وتعالى ينجيه من عذاب الريح .

و أمر نوح ابنه سام أن يتعاهد هذه الوصيّة عند رأس كلّ سنة ويكون يوم عيد لهم فيتعاهدون فيه بعث هود وزمانه الّذي يخرج فيه .

فلمّا بعث الله تبارك وتعالى هوداً نظروا فيما عندهم من العلم والإيمان وميراث العلم والاسم الأكبر وآثار علم النبوّة فوجدوا هوداً نبيّاً وقد بشّرهم أبوهم نوح به فآمنوا به وصدّقوه واتّبعوه فنجوا من عذاب الريح ، و هو قول الله عزّ وجلّ : «وإلى عاد أخاهم هودا» و قوله : «كذّبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتّقون» .

وفي المجمع في قوله تعالى : «آية تعبثون» أي مالا تحتاجون إليه لسكناكم وإنّما تريدون العبث بذلك واللعب واللهو كأنّه جعل بناهم ما يستغنون عنه عبثا منهم عن ابن عبّاس في رواية عطاء ، ويؤيّده الخبر المأثور عن أنس بن مالك أنّ

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج فرآى قبّة فقال : ما هذه ؟ فقالوا له أصحابه : هذا الرجل من الأنصار فمكث حتّى إذا جاء صاحبها فسلّم في الناس أعرض عنه وصنع ذلك مراراً حتّى عرف الرجل الغضب به والإعراض عنه .

فشكى ذلك إلى أصحابه وقال : والله إنّي لأنكر نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أدري ما حدث فيّ و ما صنعت ؟ قالوا : خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرآى قبّتك فقال : لمن هذه ؟ فأخبرناه فرجع إلى قبّته فسوّاها بالأرض فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم فلم ير القبّة فقال : ما فعلت القبّة الّتي كانت ههنا ؟ قالوا : شكى إلينا صاحبها إعراضك عنه فأخبرناه فهدمها .

فقال : إنّ كلّ ما يبنى وبال على صاحبه يوم القيامة إلّا مالا بدّ منه .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : «وإذا بطشتم بطشتم جبّارين» قال : تقتلون بالغضب من غير استحقاق .

✿✿✿

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) .

﴿ بيان ﴾

تشير الآيات إلى إجمال قصّة صالح عليه السلام وقومه وهو من أنبياء العرب ويذكر في القرآن بعد هود عليه السلام .

قوله تعالى : « كذّبت ثمود المرسلين ـ إلى قوله ـ على ربّ العالمين » قد اتّضح معناها ممّا تقدّم .

قوله تعالى : « أتتركون فيما ههنا آمنين » الظاهر أنّ الاستفهام للإنكار و « ما » موصولة والمراد بها النعم الّتي يفصّلها بعد بقوله : « في جنّات و عيون » الخ ، و « ههنا » إشارة إلى المكان الحاضر القريب و هو أرض ثمود و « آمنين » حال من نائب فاعل « تتركون » .

والمعنى لاتتركون في هذه النعم الّتي أحاطت بكم في أرضكم هذه و أنتم مطلقوا العنان لاتسألون عمّاتفعلون آمنون من أيّ مؤاخذة إلهيّة .

قوله تعالى : «في جنّات و عيون وزروع و نخل طلعها هضيم » بيان تفصيليّ لقوله : « فيما ههنا » ، وقد خصّ النخل بالذكر مع دخوله في الجنّات لاهتمامهم به ، والطلع في النخل كالنور في سائر الأشجار والهضيم - على ما قيل - المتداخل المنضمّ بعضه إلى بعض .

قوله تعالى : «وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين» قال الراغب : الفره - بالفتح فالكسر صفة مشبهة - الأشر ، وقوله تعالى : «وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين» أي حاذقين وقيل : معناه أشرين . انتهى ملخّصا ، وعلى ما اختاره تكون الآية من بيان النعمة ، وعلى المعنى الآخر تكون مسوقة لإنكار أشرهم وبطرهم . والآية على أيّ حال في حيّز الاستفهام .

قوله تعالى : «فاتّقوا الله وأطيعون » تفريع على ماتقدّم من الإنكار الّذي في معنى المنفي .

قوله تعالى : «ولا تطيعوا أمر المسرفين الّذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون» الظاهر أنّ المراد بالأمر مايقابل النهي بقرينة النهي عن طاعته وإن جوّز بعضهم كون الأمر بمعنى الشأن وعليه يكون المراد بطاعة أمرهم تقليد العامّة واتّباعهم لهم في أعمالهم وسلوكهم السبيل الّتي يستحبّون لهم سلوكها .

والمراد بالمسرفين على أيّ حال أشراف القوم وعظماؤهم المتبوعون والخطاب للعامّة التابعين لهم وأما السادة الأشراف فقد كانوا مأيوسا من إيمانهم واتّباعهم للحقّ .

ويمكن أن يكون الخطاب للجميع من جهة أنّ الأشراف منهم أيضا كانوا يقلّدون آباءهم ويطيعون أمرهم كما قالوا لصالح عليه السلام : «أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا» هود : ٦٢ فقد كانوا جميعا يطيعون أمر المسرفين فنهوا عنه .

وقد فسّر المسرفين وهم المتعدّون عن الحقّ الخارجون عن حدّ الاعتدال بتوصيفهم بقوله : «الّذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون» إشارة إلى علّة الحكم الحقيقيّة فالمعنى اتّقوا الله ولا تطيعوا أمر المسرفين لأنّهم مفسدون في الأرض غير مصلحين والإفساد لا يؤمن معه العذاب الالهيّ وهو عزيز ذوانتقام .

وذلك أنّ الكون على مابين أجزائه من التضادّ والتزاحم مؤلّف تأليفا خاصّاً يتلاءم معه أجزاؤه بعضها مع بعض في النتائج والآثار كالأمر في كفّتي الميزان فإنّهما على اضطرابهما واختلافهما الشديد بالارتفاع والانخفاض متوافقتان في تعيين وزن المتاع الموزون وهو الغاية والعالم الإنسانيّ الّذي هو جزء من الكون كذلك ثمّ الفرد من الإنسان بماله من القوى والأدوات المختلفة المتضادّة مفطور على تعديل أفعاله وأعماله بحيث تنال كلّ قوة من قواه حظّها المقدّر لها وقد جهّز بعقل يميّز بين الخير والشر ويعطي كلّ ذي حقّ حقّه .

فالكون يسير بالنظام الجاري فيه إلى غايات صالحة مقصودة وهو بما بين أجزائه من الارتباط التامّ يخطّ لكلّ من أجزائه سبيلا خاصّة يسير فيها بأعمال خاصّة من غير أن يميل عن حاقّ وسطها إلى يمين أو يسار أو ينحرف بإفراط أو تفريط فإنّ في الميل والانحراف إفساداً للنظام المرسوم ، ويتبعه إفساد غايته وغاية الكلّ ، ومن الضروريّ أنّ خروج بعض الأجزاء عن خطّه المخطوط له وإفساد النظم المفروض له ولغيره يستعقب منازعة بقية الأجزاء له فإن استطاعت أن تقيمه وتردّه إلى وسط الاعتدال فهو وإلّا أفنته وعفت آثاره حفظا لصلاح الكون واستبقاء لقوامه .

والإنسان الّذي هو أحد أجزاء الكون غير مستثنى من هذه الكلّيّة فإن جرى على ما يهديه إليه الفطرة فاز بالسعادة المقدّرة له وإن تعدّى حدود فطرته

وأفسد في الأرض أخذه الله سبحانه بالسنين والمثلات وأنواع النكال والنقمة لعلّه يرجع إلى الصلاح والسداد قال تعالى : «ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلّهم يرجعون» الروم : ٤١ .

وإن أقاموا مع ذلك على الفساد لرسوخه في نفوسهم أخذهم الله بعذاب الاستئصال وطهّر الأرض من قذارة فسادهم قال تعالى : «ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون» الاعراف : ٩٦ . وقال: «وماكان ربّك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون» هود:١١٧ وقال : إنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون » الأنبياء:١٠٥ وذلك أنّهم إذا صلحوا صلحت أعمالهم وإذا صلحت أعمالهم وافقت النظام العامّ وصلحت بها الأرض لحياتهم الأرضيّة .

فقد تبيّن بما مرّ أوّلا أنّ حقيقة دعوة النبوّة هي إصلاح الحياة الإنسانيّة الأرضيّة قال تعالى حكاية عن شعيب : « إن أريد إلّا الإصلاح ما استطعت » هود : ٨٨ .

وثانيا أنّ قوله : «ولاتطيعوا أمر المسرفين الّذين يفسدون الخ » على سذاجة بيانه معتمد على حجّة برهانيّة .

ولعلّ في قوله : «ولايصلحون» بعد قوله : «الّذين يفسدون في الأرض» إشارة إلى أنّه كان المتوقّع منهم بما أنهّم بشر ذوو فطرة إنسانيّة أن يصلحوا في الأرض لكنّهم انحرفوا عن الفطرة وبدّلوا الإصلاح إفسادا .

قوله تعالى : «قالوا إنّما أنت من المسحّرين» أي ممّن سحر مرّة بعد مرّة حتّى غلب على عقله ، وقيل: إنّ السحر أعلى البطن والمسحّر من له جوف فيكون كناية عن أنّك بشر مثلنا تأكل وتشرب فيكون قوله بعده : «وما أنت إلّا بشر مثلنا» تأكيدا له ، وقيل : المسحّر من له سحر أي رئة كأنّ مرادهم أنّك متنفّس بشر مثلنا .

قوله تعالى : «وما أنت إلّا بشر مثلنا - إلى قوله - عذاب يوم عظيم» الشرب

بكسر الشين النصيب من الماء ، والباقي ظاهر وقد تقدّمت تفصيل القصّة في سورة هود .

قوله تعالى : «فعقروها فأصبحوا نادمين» نسبة العقر إلى الجميع ـ ولم يعقرها إلّا واحد منهم ـ لرضاهم بفعله ، وفي نهج البلاغة : أيّها الناس إنّما يجمع الناس الرضى والسخط وإنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم الله بالعذاب لما عمّوه بالرضا فقال سبحانه : «فعقروها فأصبحوا نادمين» .

وقوله : «فأصبحوا نادمين» لعلّ ندمهم إنّما كان عند مشاهدتهم ظهور آثار العذاب وإن قالوا له بعد العقر تعجيزا واستهزاء : «ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين» الأعراف : ٧٧ .

قوله تعالى : «فأخذهم العذاب ـ إلى قوله ـ العزيز الرحيم» اللام للعهد أي أخذهم العذاب الموعود فإنّ صالحا وعدهم نزول العذاب بعد ثلاثة أيّام كما في سورة هود ، والباقي ظاهر .



❁❁❁

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) .

❁(بيان)❁

تشير الآيات إلى قصّة لوط النبيّ عليه السلام وهو بعد صالح عليه السلام .

قوله تعالى : « كذّبت قوم لوط المرسلين - إلى قوله - ربّ العالمين » تقدّم تفسيره .

قوله تعالى : « أتأتون الذكران من العالمين » الاستفهام للإنكار والتوبيخ والذكران جمع ذكر مقابل الاُنثى وإتيانهم كناية عن اللواط وقد كان شاع فيما بينهم ، والعالمين جمع عالم وهو الجماعة من الناس .

وقوله : « من العالمين » يمكن أن يكون متّصلا بضمير الفاعل في « تأتون » والمراد أتأتون أنتم من بين العالمين هذاالعمل الشنيع ؟ فيكون فيمعنىقوله فيموضع آخر : « ماسبقكم بها منأحد منالعالمين» الاعراف : ٨٠ ، العنكبوت ٢٨ .

ويمكن أن يكون متّصلا بقوله : « الذكران » والمعنى على هذا أتنكحون من بين العالمين ـ على كثرتهم واشتمالهم على النساء ـ الرجال فقط ؟ .

قوله تعالى : « وتذرون ما خلق لكم ربّكم من أزواجكم » الخ « تذرون » بمعنى تتركون ولا ماضي له من مادّته .

والمتأمّل في خلق الإنسان و انقسام أفراده إلى صنفي الذكر والاُنثى و ما جهّز به كلّ من الصنفين من الأعضاء والأدوات وما يختصّ به من الخلقةلايرتاب في أنّ غرض الصنع والإيجاد من هذا التصوير المختلف و إلقاء غريزة الشهوة في القبيلين وتفريق أمرهما بالفعل والانفعال أن يجمع بينهما بالنكاح ليتوسّل بذلك إلى التناسل الحافظ لبقاء النوع حتّى حين .

فالرجل من الإنسان بما هو رجل مخلوق للمرأة منه لالرجل مثله والمرأة من الإنسان بما هي امرأة مخلوقة للرجل منه لا لامرأة مثلها وما يختصّ به الرجل في خلقته للمرأة وما يختصّ به المرأة فيخلقتهاللرجل وهذه هي الزوجيّة الطبيعيّة الّتي عقدها الصنع و الإيجاد بين الرجل والمرأة من الإنسان فجعلهما زوجين .

ثمّ الأغراض والغايات الاجتماعيّة أو الدينيّة سنّت بين الناس سنّة النكاح الاجتماعيّ الاعتباريّ الّذيفيه نوع من الاختصاص بين الزوجين وقسم منالتحديد للزوجيّة الطبيعيّة المذكورة فالفطرة الإنسانيّة والخلقة الخاصّة تهديه إلى ازدواج الرجال بالنساء دون الرجال وازدواج النساء بالرجال دون النساء ، وأنّ الازدواج مبنيّ على أصل التوالد والتناسل دون الاشتراك في مطلق الحياة .

و من هنا يظهر أنّ الأقرب أن يكون المراد بقوله : « ما خلق لكمربّكم »

العضو المباح للرجال من النساء بالازدواج واللّام للملك الطبيعي ، وأنّ « من » في قوله : « من أزواجكم » للتبعيض والزوجيّة هي الزوجيّة الطبيعيّة وإن أمكن أن يراد بها الزوجيّة الاجتماعيّة الاعتباريّة بوجه .

وأمّا تجويز بعضهم أن يراد بلفظة «ما» النساء ويكون قوله : « من أزواجكم» بيانا له فبعيد .

وقوله : « بل أنتم قوم عادون » أي متجاوزون خارجون عن الحدّ الّذي خطّته لكم الفطرة والخلقة فهو في معنى قوله : « إنّكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل » العنكبوت : ٢٩ .

و قد ظهر من جميع ما مرّ أنّ كلامه عليه السلام مبنيّ على حجّة برهانيّة اُشير إليها .

قوله تعالى : « قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكوننّ من المخرجين » أي المبعّدين المنفيّين من قريتنا كما نقل عنهم في موضع آخر : « أخرجوا آل لوط من قريتكم » .

قوله تعالى : « قال إنّي لعملكم من القالين » المراد بعملهم - على ما يعطيه السياق - إتيان الذكران و ترك الإناث . و القالي المبغض ، و مقابلة تهديدهم بالنفي بمثل هذا الكلام من غير تعرّض للجواب عن تهديدهم يفيد من المعنى أنّي لا أخاف الخروج من قريتكم ولا أكترث به بل مبغض لعملكم راغب في النجاة من وباله النازل بكم لا محالة ، ولذا أتبعه بقوله : « ربّ نجّني و أهلي ممّا يعملون » .

قوله تعالى : « ربّ نجّني و أهلي ممّا يعملون » أي من أصل عملهم الّذي يأتون به بمرئى و مسمع منه فهو منزجر منه أو من وبال عملهم والعذاب الّذي سيتبعه لامحالة .

و إنّما لم يذكر إلّا نفسه وأهله إذلم يكن آمن به من أهل القرية أحد قال

تعالى في ذلك : « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين» الذاريات : ٢٦ .

قوله تعالى : « فنجّيناه وأهله أجمعين ـ إلى قوله ـ الآخرين » الغابر كما قيل الباقي بعد ذهاب من كان معه ، والتدمير الإهلاك ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « و أمطرنا عليهم مطرا » الخ و هو السجّيل كما قال تعالى : « وأمطرنا عليهم حجارة من سجّيل » الحجر : ٧٤ .

قوله تعالى : «إنّ في ذلك لآية ـ إلى قوله ـ العزيز الرحيم» تقدّم تفسيره .



✡✡✡

كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) اِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) اِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ اِنْ أَجْرِىَ اِلَّا عَلٰى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوا اِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ اِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَاِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ اِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّى أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ اِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) اِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠) وَاِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١).

﴿ بيان ﴾

إجمال قصّة شعيب عليه السلام وهو من أنبياء العرب ، وهي آخر القصص السبع الموردة في السورة .

قوله تعالى : « كذّب أصحاب لئيكة المرسلين - إلى قوله - ربّ العالمين » الأيكة الغيضة الملتفّ شجرها . قيل : إنّها كانت غيضة بقرب مدين يسكنها طائفة

وكانوا ممّن بعث إليهم شعيب عليه السلام ، وكان أجنبياً منهم ولذلك قيل : «إذ قال لهم شعيب» ولم يقل : أخوهم شعيب بخلاف هود وصالح فقد كانا نسيبين إلى قومهما و كذا لوط فقد كان نسيبا إلى قومه بالمصاهرة ولذا عبّر عنهم بقوله : «أخوهم هود» «أخوهم صالح» «أخوهم لوط» .

وقد تقدّم تفسير باقي الآيات .

قوله تعالى : « أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين و زنوا بالقسطاس المستقيم» الكيل مايقدّربه المتاع من جهة حجمه وإيفاؤه أن لا ينقص الحجم ، والقسطاس الميزان الّذي يقدّربه من جهة وزنه واستقامته أن يزن بالعدل، والآيتان تأمران بالعدل في الأخذ والإعطاء بالكيل والوزن .

قوله تعالى « ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين » البخس النقص في الوزن والتقدير كما أنّ الإخسار النقص في رأس المال .

وظاهر السياق أنّ قوله : «ولا تبخسوا الناس أشياءهم» أي سلعهم وأمتعتهم قيد متمّم لقوله : « وزنوا بالقسطاس المستقيم» كما أنّ قوله : «ولا تكونوا من المخسرين» قيدمتمّم لقوله : «أوفوا الكيل » وقوله: « ولاتعثوا في الأرض مفسدين» تأكيد للنهيين جميعا أعني قوله : «لا تخسروا» وقوله : «لا تبخسوا» وبيان لتبعة التطفيف السيّئة المشومة .

وقوله : « ولا تعثوا في الأرض مفسدين » العثي و العيث الافساد فقوله : «مفسدين» حال مؤكّد وقد تقدّم في قصّة شعيب من سورة هود وفي قوله : «وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا» الآية ٣٥ من سورة الإسراء كلام في كيفيّة إفساد التطفيف المجتمع الإنسانيّ فراجع .

قوله تعالى : « واتّقوا الّذي خلقكم والجبلّة الأوّلين » قال في المجمع : الجبلّة الخليقة الّتي طبع عليها الشيء . انتهى فالمراد بالجبلّة ذووالجبلّة أي اتّقوا الله الّذي خلقكم وآباءكم الأوّلين الّذين فطرهم وقرّر في جبلّتهم تقبيح الفساد والاعتراف بشؤمه .

ولعلّ هذا الّذي أشرنا إليه من المعنى هو الموجب لتخصيص الجبلّة بالذكر وفي الآية على أيّ حال دعوة إلى توحيد العبادة فإنّهم لم يكونوا يتّقون الخالق الّذي هو ربّ العالمين .

قوله تعالى : «قالوا إنّما أنت من المسحّرين - إلى قوله - وإن نظنّك لمن الكاذبين» تقدّم تفسير الصدر ، و«إن» في قوله : «إن نظنّك» مخفّفة من الثقيلة .

قوله تعالى : «فأسقط علينا كسفا من السماء» الخ الكسف بالكسر فالفتح - على ماقيل- جمع كسفة وهي القطعة ، والأمر مبنيّ على التعجيز والاستهزاء .

قوله تعالى : «قال ربّي أعلم بما تعملون» جواب شعيب عن قولهم واقتراحهم منه إتيان العذاب ، وهو كناية عن أنّه ليس له من الأمر شيء وإنّما الأمر إلى الله لأنّه أعلم بمايعملون وأنّ عملهم هل يستوجب عذابا ؟ وماهو العذاب الّذي يستوجبه إذا استوجب ؟ فهو كقول هود لقومه : «إنّما العلم عند الله واُبلّغكم ما اُرسلت به» الاحقاف : ٢٣ .

قوله تعالى : «فكذّبوه فأخذهم عذاب يوم الظلّة» الخ يوم الظلّة يوم عذّب فيه قوم شعيب بظلّة من الغمام ، وقد تقدّم تفصيل قصّتهم في سورة هود .

قوله تعالى : «إنّ في ذلك لآية -إلى قوله - العزيز الرحيم» تقدّم تفسيره.

﴿ بحث روائى ﴾

في جوامع الجامع في قوله تعالى : «إذ قال لهم شعيب» وفي الحديث أنّ شعيبا أخامدين اُرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : «واتّقوا الّذي خلقكم والجبلّة الأوّلين» قال : الخلق الأوّلين ، وقوله : «فكذّبوه» قال : قوم شعيب «فأخذهم عذاب يوم الظلّة» قال : يوم حرّ و سمائم .

٭٭٭

وَ انَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْاَمِينُ (١٩٣) عَلٰى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَ انَّهُ لَفِى زُبُرِ الْاَوَّلِينَ (١٩٦) اَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً اَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمٰؤُا بَنِى اِسْرائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلٰى بَعْضِ الْاَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَاَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتّٰى يَرَوُا الْعَذَابَ الْاَلِيمَ (٢٠١) فَيَاْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) اَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) اَفَرَاَيْتَ اِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا اَغْنٰى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَ مَا اَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ اِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرٰى وَ مَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِى لَهُمْ وَ مَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) اِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللّٰهِ اِلٰهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَ اَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْاَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَاِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ اِنِّى بَرِیٓءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِى يَرٰيكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ (٢١٩) اِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) هَلْ اُنَبِّئُكُمْ عَلٰى مَنْ

تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧) .

﴿ بيان ﴾

تشير الآيات إلى ما هو كالنتيجة المستخرجة من القصص السبع السابقة ويتضمّن التوبيخ والتهديد لكفّار الأمّة .

وفيها دفاع عن نبوّة النبيّ ﷺ بالاحتجاج عليه بذكره في زبر الأوّلين وعلم علماء بني إسرائيل به ، ودفاع عن كتابه بالاحتجاج على أنّه ليس من إلقاءات الشياطين ولا من أقاويل الشعراء .

قوله تعالى : «وإنّه لتنزيل ربّ العالمين» الضمير للقرآن ، وفيه رجوع إلى ما في صدر السورة من قوله : « تلك آيات الكتاب المبين » و تعقيب لحديث كفرهم به كما في قوله بعد ذلك : «وما يأتيهم من ذكر من الرحمان محدث إلّا كانوا عنه معرضين فقد كذّبوا به » الآية .

والتنزيل والإنزال بمعنى واحد غير أنّ الغالب على باب الإفعال الدفعة وعلى باب التفعيل التدريج ، وأصل النزول في الأجسام انتقال الجسم من مكان عال إلى ماهودونه و في غير الأجسام بما يناسبه .

وتنزيله تعالى إخراجه الشيء من عنده إلى موطن الخلق والتقدير وقد سمّى نفسه بالعليّ العظيم والكبير المتعال ورفيع الدرجات والقاهر فوق عباده

فيكون خروج الشيء بإيجاده من عنده إلى عالم الخلق والتقدير ـ وإن شئت فقل : إخراجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ـ تنزيلا منه تعالى له .

وقد استعمل الإنزال و التنزيل في كلامه تعالى في أشياء بهذه العناية كقوله تعالى : «يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم » الأعراف : ٢٦ وقوله : «وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » الزمر : ٦ ، وقوله : «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد» الحديد : ٢٥ ، وقوله : «مايودُّ الّذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزّل عليكم من خير من ربّكم » البقرة : ١٠٥ وقد أطلق القول في قوله : «وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزّله إلّا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ .

ومن الآيات الدالّة على اعتبار هذا المعنى في خصوص القرآن قوله تعالى : «إنّاجعلناه قرآنا عربيّا لعلّكم تعقلون وإنّه في اُمّ الكتاب لدينا لعليّ حكيم » الزخرف : ٤ .

وقد اُضيف التنزيل إلى ربّ العالمين للدلالة على توحيد الربّ تعالى لما تكرّر مراراً أنّ المشركين إنّما كانوا يعترفون به تعالى بما أنّه ربّ الأرباب ولا يرون أنّه ربّ العالمين .

قوله تعالى : «نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربيّ مبين» المراد بالروح الأمين هو جبريل ملك الوحي بدليل قوله : «من كان عدوّا لجبريل فانّه نزّله على قلبك بإذن الله » البقرة : ٩٧ وقد سمّاه في موضع آخر بروح القدس : «قل نزّله روح القدس من ربّك بالحقّ » النحل : ١٠٢ ، وقد تقدّم في تفسير سورتي النحل والإسراء مايتعلّق بمعنى الروح من الكلام .

وقد وصف الروح بالأمين للدلالة على أنّه مأمون في رسالته منه تعالى إلى نبيّه صلى الله عليه وآله لايغيّر شيئاًمن كلامه تعالى بتبديلأوتحريف بعمد أو سهو أونسيان كما أنّ توصيفه في آية اُخرى بالقدس يشير إلى ذلك .

وقوله : «نزل به الروح » الباء للتعدية أي نزّله الروح الأمين ، وأمّا قول

من قال : إنّ الباء للمصاحبة والمعنى نزل معه الروح فلا يلتفت إليه لأنّ العناية في المقام بنزول القرآن لا بنزول الروح مع القرآن .

والضمير في «نزل به» للقرآن بما أنّه كلام مؤلّف من ألفاظ لها معانيها الحقّة فإنّ ألفاظ القرآن نازلة من عنده تعالى كما أنّ معانيها نازلة من عنده على ماهو ظاهر قوله : «فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه» القيامة : ١٨، وقوله : «تلك آيات الله نتلوها عليك بالحقّ» آل عمران : ١٠٨ الجاثية : ٦ إلى غير ذلك .

فلا يعبؤ بقول من قال : إنّ الّذي نزل به الروح الأمين إنّما هو معاني القرآن الكريم ثمّ النبيّ ﷺ كان يعبّر عنها بما يطابقها ويحكيها من الألفاظ بلسان عربيّ .

وأسخف منه قول من قال: إنّ القرآن بلفظه ومعناه من منشآت النبيّ ﷺ ألقته مرتبة من نفسه الشريفة تسمّى الروح الأمين إلى مرتبة منها تسمّى القلب .

والمراد بالقلب المنسوب إليه الإدراك والشعور في كلامه تعالى هو النفس الإنسانيّة الّتي لها الإدراك وإليها تنتهي أنواع الشعور والإرادة دون اللحم الصنوبريّ المعلّق عن يسار الصدر الّذي هو أحد الأعضاء الرئيسة كما يستفاد من مواضع في كلامه تعالى كقوله : «و بلغت القلوب الحناجر » الاحزاب : ١٠ ، أي الأرواح وقوله : «فإنّه آثم قلبه » البقرة : ٢٨٣ ، أي نفسه إذ لا معنى لنسبة الإثم إلى العضو الخاصّ .

ولعلّ الوجه في قوله : «نزل به الروح الأمين على قلبك» دون أن يقول : عليك هو الإشارة إلى كيفيّة تلقّيه ﷺ القرآن النازل عليه ، وأنّ الّذي كان يتلقّاه من الروح هو نفسه الشريفة من غير مشاركة الحواسّ الظاهرة الّتي هي الأدوات المستعملة في إدراك الأمور الجزئيّة .

فكان ﷺ يرى ويسمع حينما كان يوحى إليه من غير أن يستعمل حاسّتي البصر والسمع كما روي أنّه كان يأخذه شبه إغماء يسمّى برحاء الوحي .

فكان ﷺ يرى الشخص ويسمع الصوت مثل ما نرى الشخص ونسمع الصوت

غير أنّه ماكان يستخدم حاسّتي بصره وسمعه المادّيّتين في ذلك كما نستخدمهما .

ولو كان رؤيته وسمعه بالبصر والسمع المادّيّين لكان ما يجده مشتركاً بينه وبين غيره فكان سائر الناس يرون مايراه ويسمعون مايسمعه ، والنقل القطعيّ يكذّب ذلك فكثيراً ماكان يأخذه برحاء الوحي وهو بين الناس فيوحى إليه ومن حوله لا يشعرون بشيء ولا يشاهدون شخصاً يكلّمه ولا كلاماً يلقى إليه .

والقول بأنّ من الجائز أن يصرف الله تعالى حواسّ غيره صلى الله عليه وآله وسلم من الناس عن بعض ماكانت تناله حواسّه وهي الأُمور الغيبيّة المستورة عنّا .

هدم لبنيان التصديق العلميّ إذ لوجاز مثل هذا الخطاء العظيم على الحواسّ وهي مفتاح العلوم الضروريّة والتصديقات البديهيّة وغيرها لم يبق وثوق على شيء من العلوم والتصديقات .

على أنّ هذا الكلام مبنيّ على أصالة الحسّ وأن لا وجود إلّا لمحسوس وهو من أفحش الخطاء وقد تقدّم في تفسير سورة مريم كلام في معنى تمثّل الملك نافع في المقام .

وربّما قيل في وجه تخصيص القلب بالإنزال أنّه لكونه هو المدرك المكلّف دون الجسد وإن كان يتلقّى الوحي بتوسيط الأدوات البدنيّة من السمع والبصر وقد عرفت مافيه .

وربّما قيل : لمّا كان للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم جهتان جهة ملكيّة يستفيض بها وجهة بشريّة يفيض بها جعل الإنزال على روحه لأنّها المتّصفة بالصفات الملكيّة الّتي يستفيض بها من الروح الامين وللإشارة إلى ذلك قيل : « على قلبك » ولم يقل : عليك مع كونه أخصر . انتهى .

وهذا أيضا مبنيّ على مشاركة الحواسّ والقوى البدنيّة في تلقّي الوحي فيرد عليه ماقدّمناه .

وذكر جمع من المفسّرين أنّ المراد بالقلب هو العضو الخاصّ البدنيّ وأنّ الإدراك كيفما كان من خواصّه .

فمنهم من قال : إنّ جعل القلب متعلّق الإنزال مبنيّ على التوسّع لأنّ الله تعالى يُسمع القرآن جبريل بخلق الصوت فيحفظه وينزل به على الرسول ﷺ ويقرؤه عليه فيعيه ويحفظه بقلبه فكأنّه نزل به على قلبه .

ومنهم من قال: إنّ تخصيص القلب بالإنزال لأنّ المعاني الروحانيّة تنزل أوّلا على الروح ثمّ تنتقل منها إلى القلب لما بينهما من التعلّق ثمّ تنتقل منه إلى الدماغ فينتقش بهالوح المتخيّلة .

ومنهم من قال : إنّ تخصيصه به للإشارة إلى كمال تعقّله ﷺ حيث لم يعتبر الوسائط من سمع وبصر وغيرهما .

ومنهم من قال : إنّ ذلك للإشاره إلى صلاح قلبه ﷺ و تقدّسه حيث كان منزلا لكلامه تعالى ليعلم به صلاح سائر أجزائه و أعضائه فإنّ القلب رئيس سائر الأعضاء وملكها و إذا صلح الملك صلحت رعيّته .

ومنهم من قال :إنّ ذلك لأنّ الله تعالى جعل لقلب رسوله ﷺ سمعا و بصراً مخصوصين يسمع ويبصر بهما تميزا لشأنه من غيره كما يشعر به قوله تعالى : «ما كذب الفؤاد مارآى» النجم : ١١ .

وهذه الوجوه مضافا على اشتمال أكثرها على المجازفة مبنيّة على قياس هذه الأمور الغيبيّة على ما عندنا من الحوادث المادّيّة و إجراء حكمها فيها وقد بلغ من تعسّف بعضهم أن قال : إنّ معنى إنزال الملك القرآن أنّ الله ألهمه كلامه و هو في السماء و علّمه قراءته ثمّ الملك أدّاه في الأرض وهو يهبط في المكان وفي ذلك طريقتان : إحداهما أنّ النبيّ ﷺ انخلع من صورة البشريّة إلى صورة الملكيّة فأخذه من الملك ، و ثانيتهما أنّ الملك انخلع إلى صورة البشريّة حتّى يأخذه النبيّ ﷺ والأولى أصعب الحالين . انتهى .

وليت شعري ما الّذي تصوّره من انخلاع الإنسان من صورته إلى صورة الملكيّة وصيرورته ملكا ثمّ عوده إنسانا و من انخلاع الملك إلى صورة الإنسانيّة

وقد فرض لكلّ منهما هويّة مغايرة للآخر لارابطة بين أحدهما والآخر ذاتا وأثرا وفي كلامه مواضع اُخرى للنظر غير خفيّة على من تأمّل فيه .

وللبحث تتمّة لعلّ الله سبحانه يوفّقنا لاستيفائها بإيراد كلام جامع في الملك وآخر في الوحي .

و قوله : « لتكون من المنذرين » أي من الداعين إلى الله سبحانه بالتخويف من عذابه وهو المراد بالإنذار في عرف القرآن دون النبيّ أو الرسول بالخصوص قال تعالى : في مؤمني الجنّ « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن حتّى إذا حضروه قالوا أنصتوا فلمّا قضي ولّوا إلى قومهم منذرين » الأحقاف :٢٩ و قال في المتفقّهين من المؤمنين : « ليتفقّهوا في الدين و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم » براءة : ١٢٢ .

و إنّما ذكر إنذاره صلى الله عليه وآله وسلم غاية لإنزال القرآن دون نبوّته أو رسالته لأنّ سياق آيات السورة سياق التخويف والتهديد .

وقوله « بلسان عربيّ مبين » أي ظاهر في عربيّته أو مبيّن للمقاصد تمام البيان والجارّ والمجرور متعلّق بنزل أي أنزله بلسان عربيّ مبين .

و جوّز بعضهم أن يكون متعلّقا بقوله : « منذرين » والمعنى أنزله على قلبك لتدخل في زمرة الأنبياء من العرب وقد ذكر منهم في القرآن هود وصالح وإسماعيل وشعيب عليهم السلام و أوّل الوجهين أحسنهما .

قوله تعالى : « و إنّه لفي زبر الأوّلين » الضمير للقرآن أو نزوله على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والزبر جمع زبور و هو الكتاب والمعنى و إنّ خبر القرآن أو خبر نزوله عليك في كتب الماضين من الأنبياء .

وقيل : الضمير لما في القرآن من المعارف الكلّيّة أي إنّ المعارف القرآنيّة موجودة مذكورة في كتب الأنبياء الماضين .

و فيه أوّلا أنّ المشركين ماكانوا يؤمنون بالأنبياء و كتبهم حتّى يحتجّ عليهم بما فيها من التوحيد و المعاد وغيرهما ، و هذا بخلاف ذكر خبر القرآن

ونزوله على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في كتب الأوّلين فانّه حينئذ يكون ملحمة تضطرّ النفوس إلى قبولها .

وثانياً أنّه لا يلائم الآية التالية .

قوله تعالى : « أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » ضمير « أن يعلمه » لخبر القرآن أو خبر نزوله على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أي أولم يكن علم علماء بني إسرائيل بخبر القرآن أو نزوله عليك على سبيل البشارة في كتب الأنبياء الماضين آية للمشركين على صحّة نبوّتك و كانت اليهود تبشّر بذلك و تستفتح على العرب به كما مر في قوله تعالى : « وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا » البقرة :٨٩ .

وقد أسلم عدّة من علماء اليهود في عهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم واعترفوا بأنّه مبشّر به في كتبهم ، و السورة من أوائل السور المكّيّة النازلة قبل الهجرة ولم تبلغ عداوة اليهود للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مبلغها بعد الهجرة وكان من المرجوّ أن ينطقوا ببعض ما عندهم من الحقّ ولو بوجه كلّي .

قوله تعالى : « و لو نزّلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين » قال في المفردات : العجمة خلاف الإبانة والإعجام الإبهام - إلى أن قال - والعجم خلاف العرب والعجميّ منسوب إليهم ، والأعجم من في لسانه عجمة عربيّاً كان أو غير عربيّ اعتباراً بقلّة فهمهم عن العجم ، ومنه قيل للبهيمة عجماء والأعجميّ منسوب إليه قال تعالى : « ولو نزّلناه على بعض الأعجمين » على حذف الياءات انتهى .

ومقتضى ماذكره - كماترى - أنّ أصل الأعجمين الأعجميّين ثمّ حذفت ياء النسبة وبه صرّح بعض آخر وذكر بعضهم أنّ الوجه أنّ أعجم مؤنّثه عجماء وأفعل فعلاء لايجمع جمع السلامة لكنّ الكوفيّين من النحاة يجوّزون ذلك وظاهر اللفظ يؤيّد قولهم فلاموجب للقول بالحذف .

وكيف كان فظاهر السياق اتّصال الآيتين بقوله : « بلسانٍ عربيّ مبين »

فتكونان في مقام التعليل له ويكون المعنى نزّلناه عليك بلسان عربيّ ظاهر العربيّة واضح الدلالة ليؤمنوا به ولا يتعلّلوا بعدم فهمهم مقاصده ولو نزّلناه على بعض الأعجمين بلسان أعجميّ ماكانوا به مؤمنين وردّوه بعدم فهم مقاصده

فيكون المراد بنزوله على بعض الأعجمين نزوله أعجميّا وبلسانه و الآيتان والّتي بعدهما في معنى قوله تعالى : «ولو جعلناه قرآنا أعجميّا لقالوا لولا فصّلت آياته ء أعجميّ وعربيّ قل هو للّذين آمنوا هدى وشفاء والّذين لايؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى » حم السجدة : ٤٤ .

وقال بعضهم : إنّ المعنى و لو نزّلناه قرآنا عربيّاً كما هو بنظمه الرائق المعجز على بعض الأعجمين الّذين لايقدرون على التكلّم بالعربيّة فقرأه عليهم قراءة صحيحة خارقة للعادات ماكانوا به مؤمنين مع انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء لفرط عنادهم وشدّة شكيمتهم في المكابرة .

قال : و أمّا قول بعضهم : إنّ المعنى ولو نزّلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم فقرأه عليهم ماكانوا به مؤمنين فليس بذاك فإنّه بمعزل من المناسبة لمقام بيان تماديهم في المكابرة والعناد . انتهى ملخّصاً .

وفيه أنّ اتّصال الآيتين بقوله : « بلسان عربيّ مبين » أقرب إليهما من اتّصالهما بسياق تمادي الكفّار في كفرهم وجحودهم وقد عرفت توضيحه .

ويمكن أن يورد على الوجه السابق أنّ الضمير في قوله : « ولو نزّلناه على بعض الأعجمين » راجع إلى هذا القرآن الّذي هو عربيّ فلو كان المراد تنزيله بلسان أعجميّ لكان المعنى ولو نزّلنا العربيّ غير عربيّ ولامحصّل له .

ويردّه أنّه من قبيل قوله تعالى : «إنّا جعلناه قرآنا عربيّاً لعلّكم تعقلون» الزخرف : ٣ ولا معنى لقولنا : إنّا جعلنا العربيّ عربيّاً فالمراد بالقرآن على أيّ حال الكتاب المقروء .

قوله تعالى : « كذلك نسلكه في قلوب المجرمين» الإشارة بقوله : « كذلك» إلى الحال الّتي عليها القرآن عند المشركين وقد ذكرت في الآيات السابقة وهي أنّهم

معرضون عنه لا يؤمنون به وإن كان تنزيلاً من ربّ العالمين وكان عربيّاً مبيناً غير أعجميّ وكان مذكوراً في زبر الأوّلين يعلمه علماء بني إسرائيل .

و السلوك الإدخال في الطريق والإمرار ، و المراد بالمجرمين هم الكفّار و المشركون وذكرهم بوصف الإجرام للإشارة إلى علّة الحكم وهوسلوكه في قلوبهم على هذه الحال المبغوضة والمنفورة وأنّ ذلك مجازاة إلهيّة جازاهم بها عن إجرامهم وليعمّ الحكم بعموم العلّة .

والمعنى على هذه الحال ـ وهي أن يكون بحيث يعرض عنه ولا يؤمن به ـ ندخل القرآن في قلوب هؤلاء المشركين ونمرّه في نفوسهم جزاء لإجرامهم و كذلك كلّ مجرم .

وقيل: الإشارة إلى ماذكر من أوصاف القرآن الكريمة والمعنى ندخل القرآن ونمرّه في قلوب المجرمين بمثل مابيّنّاله الأوصاف فيرون أنّه كتاب سماويّ ذو نظم معجز خارج عن طوق البشر وأنّه مبشّر به في زبر الأوّلين يعلمه علماء بني إسرائيل وتتمّ الحجّة به عليهم . وهو بعيد من السياق .

وقيل : الضمير في «نسلكه» للتكذيب بالقرآن والكفر به المدلول عليه بقوله : « ماكانوا به مؤمنين » هذا و هو قريب من الوجه الأوّل لكنّ الوجه الأوّل ألطف وأدقّ ، وقد ذكره في الكشّاف .

وقد تبيّن بما تقدّم أنّ المراد بالمجرمين مشركو مكّة غير أنّ عموم وصف الإجرام يعمّم الحكم ، وقال بعضهم : إنّ المراد بالمجرمين غير مشركي مكّة من معاصريهم و من يأتي بعدهم ، و المعنى كما سلكناه في قلوب مشركي مكّة نسلكه في قلوب غيرهم من المجرمين .

ولعلّ الّذي دعاه إلى اختيار هذا الوجه إشكال اتّحاد المشبّه والمشبّه به على الوجه الأوّل مع لزوم المغايرة بينهما فاعتبر المشار إليه بقوله : « كذلك» السلوك في قلوب مشركي مكّة و هو المشبّه به وجعل المشبّه غيرهم من المجرمين وفيه أنّ تشبيه الكلّيّ ببعض أفراده للدلالة على سراية حكمه في جميع الأفراد طريقة شائعة .

ومن هنا يظهر أنّ هناك وجها آخر هو أن يكون المراد بالمجرمين مايعمّ مشركي مكّة و غيرهم بجعل اللاّم فيه لغير العهد ولعلّ الوجه الأوّل أقرب من السياق .

قوله تعالى : « لايؤمنون به حتّى يروا العذاب الأليم ـ إلى قوله ـ منظرون» تفسير وبيان لقوله : « كذلك نسلكه » الخ هذا على الوجه الأوّل و الثالث من الوجوه المذكورة في الآية السابقة وأمّا على الوجه الثاني فهو استئناف غير مرتبط بما قبله .

وقوله : « حتّى يروا العذاب الأليم » أي حتّى يشاهدوا العذاب الأليم فيلجئهم إلى الإيمان الاضطراري الّذي لاينفعهم ، والظاهر أنّ المراد بالعذاب الأليم مايشاهدونه عند الموت و احتمل بعضهم أن يكون المراد به ما أصابهم يوم بدر من القتل لكن عموم الحكم في الآية السابقة لمشركي مكة وغيرهم لايلائم ذلك .

وقوله : « فيأتيهم بغتة وهم لايشعرون » كالتفسير لقوله : «حتّى يروا العذاب الأليم» إذ لو لم يأتهم بغتة و علموا به قبل موعده لاستعدّوا له و آمنوا باختيارهم غير ملجئين إليه .

وقوله : « فيقولوا هل نحن منظرون » كلمة تحسّر منهم .

قوله تعالى : « أفبعذابنا يستعجلون » توبيخ وتهديد .

قوله تعالى : «أفرأيت إن متّعناهم سنين ـ إلى قوله ـ يمتّعون» متّصل بقوله : « فيقولوا هل نحن منظرون » ومحصّل المعنى أنّ تمنّي الإمهال والإنظار تمنّي أمر لاينفعهم لو وقع على مايتمنّونه ولم يغن عنهم شيأ لو اُجيبوا إلى ماسألوه فإنّ تمتيعهم أمداً محدوداً طال أو قصر لايرفع العذاب الخالد الّذي قضي في حقّهم .

و هو قوله : « أفرأيت إن متّعناهم سنين» معدودة ستنقضي «ثمّ جاءهم ماكانوا يوعدون » من العذاب بعد انقضاء سني الإنظار و الإمهال « ما أغنى عنهم ما كانوا يمتّعون » أي تمتيعهم أمداً محدوداً .

قوله تعالى : « وما أهلكنا من قرية إلاّ لها منذرون ذكرى » الخ الأقرب أن يكون قوله : « لها منذرون » حالاً من « قرية » و قوله : « ذكرى » حالاً من ضمير الجمع في « منذرون » أو مفعولاً مطلقاً عامله « منذرون » لكونه في معنى مذكّرون و المعنى ظاهر ، وقيل غير ذلك ممّا لاجدوى في ذكره وإطالة البحث عنه .

وقوله : «وما كنّا ظالمين» ورود النفي على الكون دون أن يقال : وماظلمناهم و نحو ذلك يفيد نفي الشأنيّة أي و ماكان من شأننا ولا المترقّب منّا أن نظلمهم .

و الجملة في مقام التعليل للحصر السابق و المعنى ما أهلكنا من قرية إلّا في حال لها منذرون مذكّرون تتمّ بهم الحجّة عليهم لأنّا لو أهلكناهم في غير هذه الحال لكنّا ظالمين لهم وليس من شأننا أن نظلم أحداً فالآية في معنى قوله تعالى : «وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً » أسرى : ١٥ .

﴿ كلام في معنى نفي الظلم عنه تعالى ﴾

من لوازم معنى الظلم المتساوية له فعل الفاعل وتصرّفه مالايملكه من الفعل و التصرّف ، و يقابله العدل ولازمه أنّه فعل الفاعل و تصرّفه مايملكه .

ومن هنا يظهر أنّ أفعال الفواعل التكوينيّة من حيث هي مملوكة لها تكويناً لايتحقّق فيها معنى الظلم لأنّ فرض صدور الفعل عن فاعله تكويناً مساوق لكونه مملوكاً له بمعنى قيام وجوده به قياماً لايستقلّ دونه .

ولله سبحانه ملك مطلق منبسط على الأشياء من جميع جهات وجودها لقيامها به تعالى من غير غنى عنه واستقلال دونه فأيّ تصرّف تصرّف به فيها ممّا يسرّها أو يسوؤها أو ينفعها أو يضرّها ليس من الظلم في شيء وإن شئت فقل : عدل بمعنى ماليس بظلم فله أن يفعل مايشاء وله أن يحكم مايريد كلّ ذلك بحسب التكوين .

فله تعالى ملك مطلق بذاته ، ولغيره من الفواعل التكوينيّة ملك تكوينيّ بالنسبة إلى فعله حسب الإعطاء و الموهبة الإلهيّة وهو ملك في طول ملكه تعالى وهو المالك لما ملّكها والمهيمن على ماعليه سلّطها .

ومن جملة هذه الفواعل النوع الإنساني بالنسبة إلى أفعاله وخاصّة ما نسمّيها بالأفعال الاختياريّة و الاختيار الّذي يتعيّن بهذه الأفعال فالواحد منّا يجد من نفسه عياناً أنّه يملك الاختيار بمعنى إمكان الفعل و الترك معاً ، فان شاء فعل وإن لم يشأ ترك فهو يرى نفسه حرّاً يملك الفعل والترك أيّ فعل وترك كانا بمعنى إمكان صدور كلّ منهما عنه .

ثمّ إنّ اضطرار الإنسان إلى الحياة الاجتماعيّة المدنيّة اضطرّ العقل أن يغمض عن بعض ما للإنسان من حرّيّة العمل ويرفع اليد عن بعض الأفعال الّتي كان يرى أنّه يملكها وهي الّتي يختلّ بإتيانها أمر المجتمع فيختلّ نظم حياته نفسه و هذه هي المحرّمات والمعاصي الّتي تنهى عنها القوانين المدنيّة أو السنن القوميّة أو الأحكام الملوكيّة الدائرة في المجتمعات .

و من الضروريّ لتحكيم هذه القوانين والسنن أن يجعل نوع من الجزاء السيّىء على المتخلّف عنها ـ بشرط العلم وتمام الحجّة لأنّه شرط تحقّق التكليف ـ من ذمّ أو عقاب ، و نوع من الأجر الجميل للمطيع الّذي يحترمها من مدح أو ثواب .

و من الضروريّ أن ينتصب على المجتمع والقوانين الجارية فيها من يُجريها على ما هي عليها وهو مسؤل عمّا نصب له و خاصّة بالنسبة إلى أحكام الجزاء فلو لم يكن مسؤلا وجاز له أن يجازي وأن لا يجازي ويأخذ المحسن ويترك المسيء لغى وضع القوانين والسنن من رأس . هذه اُصول عقلائيّة جارية في الجملة في المجتمعات الإنسانيّة منذ استقرّ هذا النوع على الأرض منبعثة عن فطرتهم الإنسانيّة .

وقد دلّت البراهين العقليّة وأيّدها تواتر الأنبياء والرسل من قبله تعالى على أنّ القوانين الاجتماعيّة و سنن الحياة يجب أن تكون من عنده تعالى و هي أحكام و وظائف إنسانيّة تهدي إليها الفطرة الإنسانيّة وتضمن سعادة حياته وتحفظ مصالح مجتمعه .

و هذه الشريعة السماويّة الفطريّة واضعها هوالله سبحانه ومجريها من حيث الثواب والعقاب - وموطنهما موطن الرجوع إليه تعالى - هوالله سبحانه .

و مقتضى تشريعه تعالى هذه الشرائع السماويّة واعتباره نفسه مجريا لها أنّه أوجب على نفسه إيجابا تشريعيّا - وليس بالتكويني - أن لا يناقض نفسه ولا يتخلّف بإهمال أو إلغاء جزاء يستوجبه خلاف أو إعمال جزاء لا يستحقّه عمل كتعذيب الغافل الجاهل بعذاب المتعمّد المعاند ، وأخذ المظلوم بإثم الظالم و إلّا كان ظلما منه تعالى عن ذلك علوّا كبيرا .

و لعلّ هذا معنى ما يقال : إنّ الظلم مقدورله تعالى لكنّه ليس بواقع البتّة لأنّه نقص كمال يتنزّه تعالى عنه ففرض الظلم منه تعالى من فرض المحال وليس بفرض محال ، وهو المستفاد من ظاهر قوله تعالى : « و ما كنّا ظالمين » .الآية ٢٠٩ من السورة وقوله : «إنّ الله لا يظلم الناس شيأ» يونس : ٤٤ وقوله : « و ما ربّك بظلّام للعبيد » فصّلت : ٤٦ وقوله: «لئلّا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل» النساء : ١٦٥ فظاهرها أنّها ليست من قبيل السالبة بانتفاء الموضوع كما يؤمي إليه تفسير من فسّرها بأنّ المعنى أنّ الله لا يفعل فعلا لو فعله غيره لكان ظالماً .

فإن قلت : ما ذكر من وجوب إجراء الجزاء ثوابا أو عقابا يخالف ما هو المسلّم عندهم أنّ ترك عقاب العاصي جائز لأنّه من حقّ المعاقب و من الجائز على صاحب الحقّ تركه و عدم المطالبة به بخلاف ثواب المطيع لأنّه من حقّ الغير وهو المطيع فلا يجوز تركه وإبطاله .

على أنّه قيل : إنّ الإثابة على الطاعات من الفضل دون الاستحقاق لأنّ العبد و عمله لمولاه فلا يملك شيأ حتّى يعاوضه بشيء .

قلت : ترك عقاب العاصي في الجملة ممّا لا كلام فيه لأنّه من الفضل و أمّا بالجملة فلا لاستلزامه لغويّة التشريع والتقنين وترتيب الجزاء على العمل .

و أمّا كون ثواب الأعمال من الفضل بالنظر إلى كون عمل العبد كنفسه لله

فلا ينافي فضلا آخر منه تعالى على عبده باعتبار عمله ملكا له ثمّ جعل ما يثيبه عليه أجراً لعمله ، والقرآن مليء بحديث الأجر على الأعمال الصالحة ، وقد قال تعالى: « إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة » براءة : ١١١ .

قوله تعالى : « و ما تنزّلت به الشياطين - إلى قوله - لمعزولون » شروع في الجواب عن قول المشركين : إنّ لمحمّد جنّا يأتيه بهذا الكلام و قولهم : إنّه شاعر و قدّم الجواب عن الأوّل وقد وجّه الكلام أوّلا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فبيّن له أنّ القرآن ليس من تنزيل الشياطين و طيّب بذلك نفسه ثمّ وجّه القول إلى القوم فبيّنه لهم بما في وسعهم أن يفقهوه .

فقوله : « و ما تنزّلت به الشياطين » أي ما نزّلته والآية متّصلة بقوله : « وإنّه لتنزيل ربّ العالمين » ووجّه الكلام كما سمعت إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بدليل قوله تلواً : « فلا تدع مع الله إلها آخر » إلى آخر الخطابات المختصّة به صلى الله عليه وآله وسلم المتفرّعة على قوله : « وما تنزّلت به » الخ على ما سيجيىء بيانه .

و إنّما وجّه الكلام إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم دون القوم لأنّه معلّل بما لا يقبلونه بكفرهم أعني قوله : « إنّهم عن السمع لمعزولون » و الشيطان الشرير و جمعه الشياطين والمراد بهم أشرار الجنّ .

وقوله : « وما ينبغي لهم » أي للشياطين . قال في مجمع البيان : ومعنى قول العرب : ينبغي لك أن تفعل كذا أنّه يطلب منك فعله في مقتضى العقل من البغية الّتي هي الطلب انتهى .

والوجه في أنّه لا ينبغي لهم أن يتنزّلوا به أنّهم خلق شرير لا همّ لهم إلّا الشرّ و الفساد و الأخذ بالباطل و تصويره في صورة الحقّ ليضلّوا به عن سبيل الله والقرآن كلام حقّ لا سبيل للباطل إليه فلا يناسب جبلّتهم الشيطانيّة أن يلقوه إلى أحد .

وقوله : « وما يستطيعون » أي وما يقدرون على التنزّل به لأنّه كلام سماويّ تتلقّاه الملائكة من ربّ العزّة فينزّلونه بأمره في حفظ و حراسة منه تعالى كما

قال : « فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم وأحاط بما لديهم » الجنّ : ٢٨ وإلى ذلك يشير قوله : « إنّهم عن السمع » الخ .

وقوله : « إنّهم عن السمع لمعزولون » أي إنّ الشياطين عن سمع الأخبار السماويّة والاطّلاع على مايجري في الملإ الأعلى معزولون حيث يقذفون بالشهب الثاقبة لو تسمّعوا كما ذكره الله في مواضع من كلامه .

قوله تعالى : « فلاتدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذّبين » خطاب للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ينهاه عن الشرك بالله متفرّع على قوله : « وماتنزّلت به الشياطين » الخ أي إذا كان هذا القرآن تنزيلاً من ربّ العالمين ولم تنزّل به الشياطين و هو ينهى عن الشرك ويوعد عليه العذاب فلاتشرك بالله فينالك العذاب الموعود عليه وتدخل في زمرة المعذّبين .

و كونه صلّى الله عليه وآله وسلّم معصوماً بعصمة إلهيّة يستحيل معها صدور المعصية منه لا ينافي نهيه عن الشرك فإنّ العصمة لاتوجب بطلان تعلّق الأمر والنهي بالمعصوم وارتفاع التكليف عنه بما أنّه بشر مختار في الفعل والترك متصوّر في حقّه الطاعة والمعصية بالنظر إلى نفسه ، وقد تكاثرت الآيات في تكليف الأنبياء عليهم السلام في القرآن الكريم كقوله في الأنبياء عليهم السلام : « ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون » الأنعام : ٨٨ ، وقوله في النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : «لئن أشركت ليحبطنّ عملك» الزمر : ٦٥ ، والآيتان في معنى النهي .

وقول بعضهم : إنّ التكليف للتكميل فيرتفع عند حصول الكمال وتحقّقه لاستحالة تحصيل الحاصل خطأ فإنّ الأعمال الصالحة الّتي يتعلّق بها التكاليف من آثار الكمال المطلوب والكمال النفسانيّ كما يجب أن يكتسب بالإتيان بآثاره ومزاولة الأعمال الّتي تناسبه و الارتياض بها كذلك يجب أن يستبقى بذلك فمادام الإنسان بشرا له تعلّق بالحياة الأرضيّة لامناص له عن تحمّل أعباء التكليف ، وقد تقدّم كلام في هذا المعنى في بعض الأبحاث .

قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين» في مجمع البيان : عشيرة الرجل

قرابته سمّوا بذلك لأنّه يعاشرهم وهم يعاشرونه انتهى وخصّ عشيرته و قرابته الأقربين بالذكر بعد نهي نفسه عن الشرك و إنذاره تنبيها على أنّه لااستثناء في الدعوة الدينيّة ولامداهنة ولا مساهلة كما هو معهود في السنن الملوكيّة فلافرق في تعلّق الإنذار بين النبيّ واُمّته ، ولابين الأقارب والأجانب ، فالجميع عبيدوالله مولاهم .

قوله تعالى : « واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين » أي اشتغل بالمؤمنين بك واجمعهم وضمّهم إليك بالرأفة والرحمة كمايجمع الطير أفراخه إليه بخفض جناحه لها ، وهذامن الاستعارة بالكناية تقدّم نظيره في قوله : « واخفض جناحك للمؤمنين » الحجر : ٨٨ .

والمراد بالاتّباع الطاعة بقرينة قوله في الآية التالية : « فإن عصوك فقل إنّي بريء ممّا تعملون » فملخّص معنى الآيتين : إن آمنوا بك واتّبعوك فاجمعهم إليك بالرأفة واشتغل بهم بالتربية و إن عصوك فتبرّء من عملهم .

قوله تعالى : « وتوكّل على العزيز الرحيم » أي ليس لك من أمر طاعتهم ومعصيتهم شيء وراء ما كلّفناك فكِلْ ماوراء ذلك إلى الله سبحانه فإنّه لعزّته سيعذّب العاصين وبرحمته سينجي المؤمنين المتّبعين .

وفي اختصاص اسمي العزيز والرحيم إلفات للذهن إلى ما تقدّم من القصص ختمت واحدة بعدواحدة بالاسمين الكريمين .

فهو في معنى أن يقال : توكّل في أمر المتّبعين و العاصين جميعاً إلى الله فهو العزيز الرحيم الّذي فعل بقوم نوح و هود و صالح و إبراهيم ولوط وشعيب وقوم فرعون مافعل ممّا قصصناه فسنّته أخذ العاصين وإنجاء المؤمنين .

قوله تعالى : « الّذي يراك حين تقوم وتقلّبك في الساجدين » ظاهر الآيتين - على مايسبق إلى الذهن - أنّ المراد بالساجدين الساجدون في الصلاة من المؤمنين وفيهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في صلاته بهم جماعة ، والمراد بقرينة المقابلة القيام في الصلاة فيكون المعنى: الّذي يراك وأنت بعينه في حالتي قيامك وسجودك متقلّبا في الساجدين

و أنت تصلّي مع المؤمنين .

وفي معنى الآية روايات من طرق الشيعة وأهل السنّة سنتعرّض لها في البحث الروائيّ الآتي إن شاء الله .

قوله تعالى : « إنّه هو السميع العليم » تعليل لقوله : « وتوكّل على العزيز الرحيم » وفي الآيات - على ما تقدّم من معناها - تسلية للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و بشرى للمؤمنين بالنجاة و إيعاد للكفّار بالعذاب .

قوله تعالى : « هل اُنبّئكم على من تنزّل الشياطين - إلى قوله - كاذبون » تعريف لمن تتنزّل عليه الشياطين بما يخصّه من الصفة ليعلم أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ليس منهم ولا أنّ القرآن من إلقاء الشياطين ، و الخطاب متوجّه إلى المشركين .

فقوله : « هل اُنبّئكم على من تنزّل الشياطين » في معنى هل اُعرّفكم الّذين تتنزّل عليهم شياطين الجنّ بالأخبار ؟

وقوله : « تنزّل على كلّ أفّاك أثيم » قال في مجمع البيان : الأفّاك الكذّاب وأصل الإفك القلب و الأفّاك الكثير القلب للخبر عن جهة الصدق إلى جهة الكذب والأثيم الفاعل للقبيح يقال : أثم يأثم إثما إذا ارتكب القبيح وتأثّم إذا ترك الإثم انتهى .

وذلك أنّ الشياطين لا شأن لهم إلّا إظهار الباطل في صورة الحقّ وتزيين القبيح في زيّ الحسن فلا يتنزّلون إلّا على أفّاك أثيم .

وقوله : « يلقون السمع و أكثرهم كاذبون » الظاهر أنّ ضميري الجمع في « يلقون » و « أكثرهم » معاً للشياطين ، والسمع مصدر بمعنى المسموع والمراد به ما سمعه الشياطين من أخبار السماء ولو ناقصا فإنّهم ممنوعون من الاستماع مرميّون بالشهب فما استرقوه لا يكون إلّا ناقصا غير تامّ ولا كامل ولذا يتسرّب إليه الكذب كثيراً .

وقوله : « و أكثرهم كاذبون » أي أكثر الشياطين كاذبون لا يخبرون بصدق أصلاً وهذا هو الكثرة بحسب الأفراد ويمكن أن يكون المراد الكثرة من حيث

التنزّل أي أكثر المتنزّلين منهم كاذبون أي أكثر أخبارهم كاذبة .

ومحصّل حجّة الآيات الثلاث أنّ الشياطين لابتناء جبلّتهم على الشرّ لا يتنزّلون إلّا على كلّ كذّاب فاجر و أكثرهم كاذبون في أخبارهم ، والنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ليس بأفّاك أثيم ولا ما يوحى إليه من الكلام كذبا مختلقا فليس ممّن تتنزّل عليه الشياطين ولا الّذي يتنزّل عليه شيطانا ، ولا القرآن النازل عليه من إلقاء الشياطين .

قوله تعالى : « و الشعراء يتّبعهم الغاوون ـ إلى قوله ـ لا يفعلون » جواب عن رمي المشركين للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بأنّه شاعر ، نبّه عليه بعد الجواب عن قولهم إنّ له شيطاناً يوحي إليه القرآن .

وهذان أعني قولهم : إنّ من الجنّ من يأتيه ، وقولهم : إنّه شاعر ، ممّا كانوا يكرّرونه في ألسنتهم بمكّة قبل الهجرة يدفعون به الدعوة الحقّة ، وهذا ممّا يؤيّد نزول هذه الآيات بمكّة خلافاً لما قيل إنّها نزلت بالمدينة .

على أنّ الآيات مشتملة على ختام السورة أعني قوله : «وسيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون » ولا معنى لبقاء سورة هي من أقدم السور المكّيّة سنين على نعت النقص ثمّ تمامها بالمدينة ، ولا دلالة في الاستثناء على أنّ المستثنين هم شعراء المؤمنين بعد الهجرة .

و كيف كان فالغيّ خلاف الرشد الّذي هو إصابة الواقع فالرشيد هو الّذي لا يهتمّ إلّا بما هو حقّ واقع ، والغويّ هو السالك سبيل الباطل و المخطيء طريق الحقّ ، و الغواية ممّا يختصّ به صناعة الشعر المبنيّة على التخييل وتصوير غير الواقع في صورة الواقع ولذلك لا يهتمّ به إلّا الغويّ المشعوف بالتزيينات الخياليّة و التصويرات الوهميّة الملهية عن الحقّ الصارفة عن الرشد ، ولا يتّبع الشعراء الّذين يبتني صناعتهم على الغيّ والغواية إلّا الغاوون و ذلك قوله تعالى : « والشعراء يتّبعهم الغاوون » .

وقوله : « ألم تر أنّهم في كلّ واد يهيمون وأنّهم يقولون ما لا يفعلون» يقال: هام يهيم هيمانا إذا ذهب على وجهه والمراد بهيمانهم في كلّ واد استرسالهم في القول

من غير أن يقفوا على حدّ فربّما مدحوا الباطل المذموم كما يمدح الحقّ المحمود وربّما هجوا الجميل كما يهجى القبيح الدميم و ربّما دعوا إلى الباطل و صرفوا عن الحقّ وفي ذلك انحراف عن سبيل الفطرة الإنسانيّة المبنيّة على الرشد الداعية إلى الحقّ ، و كذا قولهم مالا يفعلون من العدول عن صراط الفطرة .

و ملخّص حجّة الآيات الثلاث أنّه صلى الله عليه وآله وسلم ليس بشاعر لأنّ الشعراء يتّبعهم الغاون لابتناء صناعتهم على الغواية وخلاف الرشد لكنّ الّذين يتّبعونه إنّما يتّبعونه ابتغاء للرشد وإصابة الواقع وطلبا للحقّ لابتناء ماعنده من الكلام المشتمل على الدعوة على الحقّ والرشد دون الباطل والغيّ .

قوله تعالى : « إلّا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات و ذكروا الله كثيراً »الخ استثناء من الشعراء المذمومين ، والمستثنون هم شعراء المؤمنين فإنّ الإيمان وصالحات الأعمال تردع الإنسان بالطبع عن ترك الحقّ واتّباع الباطل ثمّ الذكر الكثير لله سبحانه يجعل الإنسان على ذكر منه تعالى مقبلاً إلى الحقّ الّذي يرتضيه مدبراً عن الباطل الّذي لايحبّ الاشتغال به فلا يعرض لهؤلاء ما كان يعرض لاُولئك .

وبهذا البيان يظهر وجه تقييد المستثنى بالإيمان وعمل الصالحات ثمّ عطف قوله : « وذكروا الله كثيراً » على ذلك .

وقوله : « وانتصروا من بعدما ظلموا» الانتصار الانتقام قيل : المراد به ردّ الشعراء من المؤمنين على المشركين أشعارهم الّتي هجوا بها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أوطعنوا فيها في الدين و قدحوا في الإسلام والمسلمين ، وهوحسن يؤيّده المقام .

وقوله : « وسيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون» المنقلب اسم مكان أومصدر ميميّ و المعنى وسيعلم الّذين ظلموا ـ وهم المشركون على مايعطيه السياق ـ إلى أيّ مرجع ومنصرف يرجعون وينصرفون وهو النار أوينقلبون أيّ انقلاب .

وفيه تهديد للمشركين ورجوع مختتم السورة إلى مفتتحها وقد وقع في أوّلها قوله : « فقد كذّبوا فسيأتيهم أنباء ماكانوا به يستهزؤن » .

﴿بحث روائي﴾

في الكافي بإسناده عن الحجّال عمّن ذكره عن أحدهما عليهما السلام قال: سألته عن قول الله عزّ و جلّ: «بلسان عربيّ مبين» قال: يبين الألسن ولاتبينه الألسن.

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى: «ولو نزّلناه على بعض الأعجمين» الخ قال الصادق عليه السلام: لو نزّلنا القرآن على العجم ما آمنت به العرب وقد نزّل على العرب فآمنت به العجم فهذه فضيلة العجم.

وفي الكافي بإسناده عن عليّ بن عيسى القمّاط عن عمّه عن أبي عبدالله عليه السلام قال: اُري رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في منامه بني اُميّة يصعدون على منبره من بعده ويضلّون الناس عن الصراط القهقرى فأصبح كئيباً حزيناً.

قال: فهبط جبرائيل فقال: يا رسول الله مالي أراك كئيبا حزينا؟ قال: يا جبرئيل إنّي رأيت بني اُميّة في ليلتي هذه يصعدون منبري من بعدي يضلّون الناس عن الصراط القهقرى فقال: والّذي بعثك بالحقّ نبيّا إنّي ما اطّلعت عليه فعرج إلى السماء فلم يلبث أن نزل عليه بآي من القرآن يؤنسه بها. قال: «أفرأيت إن متّعناهم سنين ثمّ جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتّعون» و أنزل عليه: «إنّا أنزلناه في ليلة القدر و ما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر» جعل الله ليلة القدر لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم خيرا من ألف شهر ملك بني اُميّة.

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن أبي جهضم قال: رؤي النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كأنّه متحيّر فسألوه عن ذلك فقال: ولم ورأيت عدوّي يلون أمر اُمّتي من بعدي فنزلت «أفرأيت إن متّعناهم سنين ثمّ جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتّعون» فطابت نفسه.

أقول: وقوله: ولم ورأيت الخ فيه حذف والتقدير ولم لا أكون كذلك وقد رأيت الخ.

وفيه أخرج أحمد و عبدبن حميد و البخاري و مسلم والترمذي و ابن جرير وابن المنذروابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وفي الدلائل عن أبي هريرة قال: لمّا نزلت هذه الآية «و أنذر عشيرتك الأقربين» دعا رسول الله صلّى الله عليه و سلّم قريشا و عمّ وخصّ فقال: يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإنّي لا أملك لكم ضرّا ولا نفعا. يا معشر بني كعب بن لؤيّ أنقذوا أنفسكم من النار فإنّي لا أملك لكم ضرّا ولا نفعا. يا معشر بني قصيّ أنقذوا أنفسكم من النار فإنّي لاأملك لكم ضرّا ولا نفعا. يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإنّي لاأملك لكم ضرّا ولانفعا يا بني عبدالمطّلب أنقذوا أنفسكم من النار فإنّي لا أملك لكم ضرّا ولا نفعا. يا فاطمة بنت محمّد أنقذي نفسك من النار فإنّي لا أملك لك ضرّا ولا نفعا. ألا إنّ لكم رحما و سأبلّها ببلالها.

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عبّاس قال: لمّا نزلت «وأنذر عشيرتك الأقربين» جعل يدعوهم قبائل قبائل.

و فيه أخرج سعيد بن منصور والبخاري و ابن مردويه و ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: لمّا نزلت «و أنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين» خرج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حتّى صعد على الصفا فنادى يا صباحاه فقالوا: من هذا الّذي يهتف؟ قالوا: محمّد، فاجتمعوا إليه فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو؟.

فجاء أبولهب و قريش فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقيّ؟ قالوا: نعم ما جرّبنا عليك إلّا صدقا. قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبولهب: تبّالك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: «تبّت يدا أبي لهب وتبّ».

و فيه أخرج الطبرانيّ و ابن مردويه عن أبي أمامة قال: لمّا نزلت «وأنذر عشيرتك الأقربين» جمع رسول الله بني هاشم فأجلسهم على الباب وجمع نساءه و أهله فأجلسهم في البيت ثمّ اطّلع عليهم فقال: يا بني هاشم اشتروا أنفسكم من النار

واسعوا في فكاك رقابكم وافتكوها بأنفسكم من الله فإنّي لا أملك لكم من الله شيأ .

ثمّ أقبل على أهل بيته فقال : يا عائشة بنت أبي بكر ويا حفصة بنت عمر ويا اُمّ سلمة ويا فاطمة بنت محمّد ويا اُمّ الزبير عمّة رسول الله اشتروا (١) أنفسكم من الله واسعوا في فكاك رقابكم فإنّي لا أملك لكم من الله شيأ ولا اُغني ، الحديث .

أقول : و في معنى هذه الروايات بعض روايات اُخر و في بعضها أنّه صلّى الله عليه وآله و سلّم خصّ بني عبد مناف بالإنذار فيشمل بني اُميّة و بني هاشم جميعا .

والروايات الثلاث الاُول لا تنطبق عليها الآية فإنّها تعمّ الإنذار قريشا عامّة والآية تصرّح بالعشيرة الأقربين وهم إمّا بنو عبدالمطّلب أو بنو هاشم و أبعد ما يكون من الآية الرواية الثانية حيث تقول : جعل يدعوهم قبائل قبائل .

على أنّ ما تقدّم من معنى الآية و هو نفي أن تكون قرابة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم تغنيهم من تقوى الله وفي الروايات إشارة إلى ذلك ـ حيث تقول : لا اُغني عنكم من الله شيأ ـ لا يناسب عمومه لغير الخاصّة من قرابته صلّى الله عليه وآله وسلّم .

و أمّا الرواية الرابعة فقوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » آية مكيّة في سورة مكّيّة ولم يقل أحد بنزول الآية بالمدينة و أين كانت يوم نزولها عائشة و حفصة و اُمّ سلمة ولم يتزوّج النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بهنّ إلّا في المدينة ؟ فالمعتمد من الروايات ما يدلّ على أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم خصّ بالإنذار يوم نزول الآية بني هاشم أو بني عبدالمطّلب ومن عجيب الكلام قول الآلوسيّ بعد نقل الروايات : وإذا صحّ الكلّ فطريق الجمع أن يقال بتعدّد الإنذار .

و في المجمع عن تفسير الثعلبيّ بإسناده عن براء بن عازب قال : لمّا نزلت هذه الآية جمع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بني عبدالمطّلب وهم يومئذ أربعون رجلا الرجل منهم يأكل المسنة و يشرب العسّ فأمر عليّا برجل شاة فأدمها ثمّ قال : ادنوا بسم الله فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتّى صدروا . ثمّ دعا بقعب من لبن فجرع منه

---

(١) كذا .

جرعة ثمّ قال لهم : اشربوا بسم الله فشربوا حتّى رووا فبدرهم أبولهب فقال : هذا ما سحركم به الرجل فسكت صلّى الله عليه وآله وسلّم يومئذ ولم يتكلّم .

ثمّ دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب ثمّ أنذرهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : يابني عبدالمطّلب إنّي أنا النذير إليكم من الله عزّ وجلّ فأسلموا وأطيعوني تهتدوا .

ثمّ قال : من يواخيني ويوازرني و يكون وليّي و وصيّي بعدي و خليفتي في أهلي ويقضي ديني ؟ فسكت القوم فأعادها ثلاثا كلّ ذلك يسكت القوم و يقول عليّ أنا فقال في المرّة الثالثة : أنت فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب : أطع ابنك فقد اُمّر عليك .

قال الطبرسيّ : و روي عن أبي رافع هذه القصّة وأنّه جمعهم في الشعب فصنع لهم رجل شاة فأكلوا حتّى تضلّعوا وسقاهم عسّا فشربوا كلّهم حتّى رووا . ثمّ قال : إنّ الله أمرني أن اُنذر عشيرتي ورهطي ، و إنّ الله لم يبعث نبيّا إلّا جعل له من أهله أخاو وزيرا ووارثا ووصيّا و خليفة في أهله فأيّكم يقوم فيبايعني على أنّه أخي و وارثي و وزيري ووصيّي و يكون منّي بمنزلة هارون من موسى ؟ فقال عليّ : أنا فقال : ادن منّي ففتح فاه ومجّ في فيه من ريقه و تفل بين كتفيه و ثدييه فقال أبولهب : بئس ماحبوت به ابن عمّك أن أجابك فملأت فاه ووجهه بزاقا فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : ملأته حكمة و علما .

أقول : و روى السيوطيّ في الدرّ المنثور ما في معنى حديث البراء عن ابن إسحاق وابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و أبي نعيم والبيهقيّ في الدلائل من طرق عن عليّ رضي الله عنه وفيه : ثمّ تكلّم النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : يا بني عبدالمطّلب إنّي والله ما أعلم أحدا في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به إنّي قد جئتكم بخير الدنيا و الآخرة و قد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيّكم يوازرني على أمري هذا ؟ فقلت و أنا أحدثهم سنّا : إنّه أنا ، فقام القوم يضحكون .

و في علل الشرائع بإسناده عن عبدالله بن الحارث بن نوفل عن عليّ بن

أبي طالب عليه السلام قال : لمّا نزلت « وأنذر عشيرتك الأقربين » أي رهطك المخلصين دعا رسول الله صلى الله عليه وآله بني عبدالمطّلب وهم إذ ذاك أربعون رجلا يزيدون رجلا وينقصون رجلا فقال : أيّكم يكون أخي ووارثي و وزيري و وصيّي و خليفتي فيكم بعدي فعرض عليهم ذلك رجلا رجلا كلّهم يأبى ذلك حتّى أتى عليّ فقلت : أنا يارسول الله .

فقال : يا بني عبدالمطّلب هذا وارثي و وزيري وخليفتي فيكم بعدي فقام القوم يضحك بعضهم إلى بعض و يقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع و تطيع لهذا الغلام .

أقول : ومن الممكن أن يستفاد من قوله عليه السلام : أي رهطك المخلصين أنّ ما نسب إلى قراءة أهل البيت « وأنذر عشيرتك الأقربين و رهطك منهم المخلصين» ونسب أيضا إلى قرآن اُبيّ بن كعب كان من قبيل التفسير .

وفي المجمع في قوله تعالى : « وتقلّبك في الساجدين » قيل : معناه و تقلّبك في الساجدين الموحّدين من نبيّ إلى نبيّ حتّى أخرجك نبيّا . عن ابن عبّاس في رواية عطاء و عكرمة و هو المرويّ عن أبي جعفر و أبي عبدالله عليهما السلام قالا: أصلاب النبيّين نبيّ بعد نبيّ حتّى أخرجه من صلب أبيه عن نكاح غير سفاح من لدن آدم .

أقول : ورواه غيره من رواة الشيعة ، و رواه في الدرّ المنثور عن ابن أبي حاتم وابن مردويه و أبي نعيم وغيرهم عن ابن عبّاس وغيرهم .

وفي المجمع روى جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا ترفعوا قبلي ولا تضعوا قبلي فإنّي أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي ثمّ تلاهذه الآية .

أقول : يريد صلى الله عليه وآله وسلم وضع الجبهة على الأرض ورفعها في السجدة ، ورواه في الدرّ المنثور عن ابن عبّاس وغيره .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن شيبة وأحمد عن أبي سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ عرض شاعر ينشد فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : لأن يمتلىء جوف أحدكم

قيحا خير له من أن يمتلىء شعرا .

أقول : و هو مروي من طرق الشيعة أيضاً عن الصادق عليه السلام عنه صلّى الله عليه و آله .

و في تفسير القمي قال : يعظون الناس ولا يتّعظون وينهون عن المنكر ولا ينتهون ويأمرون بالمعروف ولايعملون وهم الّذين قال الله فيهم : « ألم تر أنّهم في كلّ واد يهيمون » أي في كلّ مذهب يذهبون « و أنّهم يقولون مالايفعلون »وهم الّذين غصبوا آل محمّد حقّهم .

و في اعتقادات الصدوق سئل الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : «والشعراء يتّبعهم الغاوون » قال : هم القصّاص .

أقول : هم من المصاديق والمعنى الجامع ماتقدّم في ذيل الآية .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: إنّ من الشعر حكما وإنّ من البيان سحرا .

أقول : : وروى الجملة الاُولى أيضاً عنه عن بريدة و ابن عبّاس عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وأيضاً عن ابن مردويه عن أبي هريرة عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم ولفظه إنّ من الشعر حكمة ، والممدوح من الشعر ما فيه نصرة الحقّ ولاتشمله الآية .

وفي المجمع عن الزهريّ قال : حدّثني عبدالرحمان بن كعب بن مالك أنّ كعب بن مالك قال : يارسول الله ماذا تقول في الشعراء ؟ قال : إنّ المؤمن مجاهد بسيفه ولسانه والّذي نفسي بيده لكأنّما تنضخونهم بالنبل .

قال الطبرسيّ وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لحسّان بن ثابت : اهجهم أوهاجهم وروح القدس معك رواه البخاريّ و مسلم في الصحيحين .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن أبي شيبة وعبدبن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير و ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي الحسن سالم البرّاد قال : لمّا نزلت « والشعراء » الآية جاء عبدالله بن رواحة و كعب بن مالك و حسّان بن ثابت وهم يبكون فقالوا : يارسول الله لقد أنزل الله هذه الآية وهو يعلم أنّا شعراء

أهلكنا ؟ فأنزل الله « إلّا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات » فدعاهم رسول الله فتلاها عليهم .

أقول : هذه الرواية و ما في معناها هي الّتي دعا بعضهم إلى القول بكون الآيات الخمس من آخر السورة مدنيّات وقد عرفت الكلام في ذلك عند تفسير الآيات .

و في الكافي بإسناده عن أبي عبيدة عن أبي عبدالله عليه السلام قال : من أشدّ ما فرض الله على خلقه ذكر الله كثيراً . ثمّ قال : لا أعني سبحان الله والحمدلله ولا إله إلاّ الله والله أكبر ، و إن كان منه ولكن ذكر الله عند ما أحلّ وحرّم فإن كان طاعة عمل بها وإن كان معصية تركها .

أقول : فيه تأييد لما تقدّم في تفسير الآية .



***

سورة النمل مكيّة وهي ثلاث وتسعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ طٰسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرٰى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلٰوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) اِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥) وَاِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) .

(بيان)

غرض السورة - على ما تدل عليه آيات صدرها والآيات الخمس الخاتمة لها - التبشير و الإنذار وقد استشهد لذلك بطرف من قصص موسى و داود و سليمان وصالح ولوط عليهم السلام ثمّ عقّبها ببيان نبذة من اُصول المعارف كوحدانيّته تعالى في الربوبيّة والمعاد وغير ذلك .

قوله تعالى : « تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » الإشارة بتلك - كمامرّ في أوّل سورة الشعراء - إلى آيات السورة ممّا ستنزل بعد و مانزلت قبل ، والتعبير باللفظ الخاصّ بالبعيد للدلالة على رفعة قدرها وبعد منالها .

و القرآن اسم للكتاب باعتبار كونه مقروّاً ، والمبين من الإبانة بمعنى الإظهار ، وتنكير « قرآن » للتفخيم أي تلك الآيات الرفيعة القدر الّتي ننزّلها آيات الكتاب و آيات كتاب مقروّ عظيم الشأن مبين لمقاصده من غير إبهام ولاتعقيد .

قال في مجمع البيان : وصفه بالصفتين يعني الكتاب و القرآن ليفيد أنّه ممّا يظهر بالقراءة ويظهر بالكتابة وهو بمنزلة الناطق بما فيه من الأمرين جميعاً ، ووصفه بأنّه مبين تشبيه له بالناطق بكذا . انتهى .

قوله تعالى : «هدىً وبشرى للمؤمنين» المصدران أعني «هدىً وبشرى» بمعنى اسم الفاعل أو المراد بهما المعنى المصدريّ للمبالغة .

قوله تعالى : «الّذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة» الخ المراد إتيان الأعمال الصالحة وإنّما اقتصر على الصلاة والزكاة لكون كلّ منهما ركناً في بابه فالصلاة فيما يرجع إلى الله تعالى والزكاة فيما يرجع إلى الناس وبنظر آخر الصلاة في الأعمال البدنيّة و الزكاة في الأعمال الماليّة .

وقوله : «وهم بالآخرة هم يوقنون» وصف آخر للمؤمنين معطوف على ماقبله جيىء به للإشارة إلى أنّ هذه الأعمال الصالحة إنّما تقع موقعها وتصيب غرضها مع الإيقان بالآخرة فإنّ العمل يحبط مع تكذيب الآخرة قال تعالى : «و الّذين كذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم» الأعراف : ١٤٧ .

وتكرار الضمير في قوله : «وهم بالآخرة هم» الخ للدلالة على أنّ هذا الإيقان من شأنهم وهم أهله المترقّب منهم ذلك .

قوله تعالى : «إنّ الّذين لايؤمنون بالآخرة زيّنّا لهم أعمالهم فهم يعمهون» العمه التحيّر في الأمر ومعنى تزيين العمل جعله بحيث ينجذب إليه الإنسان والّذين لايؤمنون بالآخرة لمّا أنكروها وهي غاية مسيرهم بقوا في الدنيا و هي سبيل لاغاية فتعلّقوا بأعمالهم فيها وكانوا متحيّرين في الطريق لاغاية لهم يقصدونها .

قوله تعالى : «اُولئك لهم سوء العذاب» الخ إيعاد بمطلق العذاب من دنيويّ واُخرويّ بدليل ما في قوله : «وهم في الآخرة هم الأخسرون» ولعلّ وجه كونهم أخسر الناس أنّ سائر العصاة لهم صحائف أعمال مثبتة فيها سيّآتهم وحسناتهم يجازون بها وأمّا هؤلاء فسيّآتهم محفوظة عليهم يجازون بها و حسناتهم حابطة .

قوله تعالى : « و إنّك لتلقّى القرآن من لدن حكيم عليم » التلقية قريبة المعنى من التلقين ، وتنكير « حكيم عليم » للتعظيم ، والتصريح بكون هذا القرآن من عنده تعالى ليكون ذلك حجّة على الرسالة وتأييداً لما تقدّم من المعارف ولصحّة ماسيذكره من قصص الأنبياء عليهم السلام .

وتخصيص الاسمين الكريمين للدلالة على نزوله من ينبوع الحكمة فلاينقضه ناقض ولا يوهنه موهن ، ومنبع العلم فلايكذب في خبره ولايخطىء في قضائه .



✿✿✿

إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون (٧) فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين (٨) يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم (٩) وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون (١٠) إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم (١١) وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين (١٢) فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين (١٣) وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين (١٤).

﴿ بيان ﴾

أوّل القصص الخمس الّتي اُشير إليها في السورة استشهادا لما في صدرها من التبشير والإنذار والوعد والوعيد و تغلب في الثلاث الاُول منها وهي قصص موسى وداود وسليمان جهة الوعد على الوعيد و في الأخيرتين بالعكس .

قوله تعالى : « إذقال موسى لأهله » الخ المراد بأهله امرأته و هي بنت شعيب على ماذكره الله تعالى في سورة القصص قال في المجمع : إنّ خطابها بقوله : « آتيكم » بصيغة الجمع لإقامتها مقام الجماعة في الاُنس بها في الأمكنة الموحشة . انتهى ومن المحتمل أنّه كان معها غيرها من خادم أومكار أو غيرهما .

وفي المجمع : الإيناس الإبصار ، وقيل ، آنست أي أحسست بالشيء من جهة يؤنس بها وما آنست به فقد أحسست به مع سكون نفسك إليه . انتهى والشهاب على ما في المجمع نور كالعمود من النّار و كلّ نور يمتدّ كالعمود يسمّى شهابا و المراد الشعلة من النار ، وفي المفردات : الشهاب الشعلة الساطعة من النار الموقدة و من العارض في الجوّ ، و في المفردات أيضا : القبس المتناول من الشعلة ، والاصطلاء بالنار الاستدفاء بها .

وسياق الآية يشهد ويؤيّده ماوقع من القصّة في سور اُخرى أنّه كان حين ذاك يسير بأهله وقد ضلّ الطريق و أصابه وأهله البرد في ليلة داجية فأبصر نارا من بعيد فأراد أن يذهب إليها فإن وجد عندها إنسانا استخبره أو يأخذ قبسا يأتي به إلى أهله فيوقدوا نارا يصطلون بها . فقال لأهله امكثوا إنّي أحسست وأبصرت نارا فالزموا مكانكم سآتيكم منها أي من عندها بخبر نهتدي به أو آتيكم بشعلة متناولة من النار لعلّكم توقدون بها ناراً تصطلون و تستدفؤن بها .

ويظهر من السياق أيضاً أنّ النار إنّما ظهرت له عليه السلام ولم يشاهدها غيره و إلّا عبّر عنها بالإشارة دون التنكير .

ولعلّ اختلاف الإتيان بالخبر والإتيان بالنار نوعا هو الموجب لتكرار لفظ الإتيان حيث قال : « سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس » .

قوله تعالى : « فلمّا جاءها نودي أن بورك من في النار و من حولها وسبحان الله ربّ العالمين » أي فلمّا أتى النار وحضر عندها نودي أن بورك الخ .

و المراد بالمباركة إعطاء الخير الكثير يقال : باركه وبارك عليه وبارك فيه أي ألبسه الخير الكثير وحباه به ، وقد وقع في سورة طه في هذا الموضع من القصّة قوله : «فلمّا أتاها نودي ياموسى إنّي أنا ربّك فاخلع نعليك إنّك بالواد المقدّس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى » طه : ١٣ . ويستأنس منه أنّ المراد بمن حول النار موسى أو هو ممّن حول النار ، و مباركته اختياره بعد تقديسه .

وأمّا المراد بمن في النار فقد قيل : إنّ معناه من ظهر سلطانه و قدرته في النار فإنّ التكليم كان من الشجرة ـ على ما في سورة القصص ـ وقد أحاطت بها النار ، وعلى هذا فالمعنى تبارك من تجلّى لك بكلامه من النارو بارك فيك ، ويكون قوله : « وسبحان الله ربّ العالمين » تنزيها له سبحانه من أن يكون جسما أوجسمانيّاً يحيط به المكان أويجاوره الحدثان لالتعجيب موسى كما قيل .

وقيل : المراد بمن في النار الملائكة الحاضرون فيها كما أنّ المراد بمن حولها موسى عليه‌السلام .

وقيل : المراد به موسى عليه‌السلام وبمن حولها الملائكة .

و قيل : في الكلام تقدير والأصل بورك من في المكان الّذي فيه النار ـ و هو البقعة المباركة الّتي كانت فيها الشجرة كما في سورة القصص ـ ومن فيها هو موسى و حولهاهي الأرض المقدّسة الّتي هي الشامات ، و من حولها هم الأنبياء القاطنون فيها من آل إبراهيم وبني إسرائيل .

و قيل : المراد بمن في النار نورالله تعالى وبمن حولها موسى .

و قيل : المراد بمن في النار الشجرة فإنّها كانت محاطة بالنار و بمن حولها الملائكة المسبّحون .

وأكثر هذه الوجوه لايخلو من تحكّم ظاهر .

قوله تعالى : « يا موسى إنّه أنا الله العزيز الحكيم » تعرّف منه تعالى لموسى عليه‌السلام ليعلم أنّ الّذي يشافهه بالكلام ربّه تعالى فهذه الآية في هذه السورة تحاذي قوله من سورة طه « نودي أن يا موسى إنّي أنا ربّك فاخلع » الخ فارجع إلى سورة طه وتدبّر في الآيات .

قوله تعالى : « وألق عصاك فلمّا رآها تهتزّ كأنّها جانّ ولّى مدبراً ولم يعقّب » الخ الاهتزاز التحرّك الشديد ، والجانّ الحيّة الصغيرة السريعة الحركة والإدبار خلاف الإقبال ، و التعقيب الكرّ بعد الفرّ من عقّب المقاتل إذا كرّ بعد فراره .

و في الآية حذف وإيجاز تفصح عنه الفاء الفصيحة في قوله : « فلمّا رآها تهتزّ » والتقدير وألق عصاك فلمّا ألقاها إذا هي ثعبان مبين يهتزّ كأنّه جانّ ولمّا رآها تهتزّ الخ .

ولا منافاة بين صيرورة العصا ثعبانا مبينا كما وقع في قصّته عليه‌السلام من سورتي الأعراف والشعراء - و الثعبان الحيّة العظيمة الجثّة و بين تشبيهها في هذه السورة بالجانّ فإنّ التشبيه إنّماوقع في الاهتزاز و سرعة الحركة والاضطراب حيث شاهد العصا وقد تبدّلت ثعبانا عظيم الجثّة هائل المنظر يهتزّ ويتحرّك بسرعة اهتزاز الجانّ و تحرّكه بسرعة وليس تشبيها لنفس العصا أو الثعبان بنفس الجانّ .

و قيل : إنّ آية العصا كانت مختلفة الظهور فقد ظهرت العصا لأوّل مرّة في صورة الجانّ كما وقع في سورة طه : « فألقاها فإذا هي حيّة تسعى » آية ٢٠ من السورة ثمّ ظهرت لمّا ألقاها عند فرعون في صورة ثعبان مبين كما في سورتي الأعراف والشعراء .

و فيه أنّ هذا الوجه و إن كان لايخلو بالنظر إلى سياق الآيات عن وجاهة لكنّه لايندفع به إشكال تشبيه الشيء بنفسه أو عدم تبدّلها حيّة فالمعوّل في دفع الإشكال على ما تقدّم .

قوله تعالى : « يا موسى لاتخف إنّي لايخاف لديّ المرسلون » حكاية نفس الخطاب الصادرهناك وهو في معنى قال الله يا موسى لاتخف الخ .

و قوله : « لاتخف » نهي مطلق يؤمّنه عن كلّ ما يسوء ممّا يخاف منه مادام في حضرة القرب والمشافهة سواء كان المخوف منه عصا أو غيرها و لذا علّل النهي بقوله : « إنّي لايخاف لديّ المرسلون » فإنّ تقييد النفي بقوله : « لديّ » يفيد أنّ مقام القرب والحضور يلازم الأمن ولا يجامع مكروهاً يخاف منه ، ويؤيّده تبديل هذه الجملة في القصّة من سورة القصص من قوله : « إنّك من الآمنين » فيتحصّل المعنى : لاتخف من شيء إنّك مرسل والمرسلون - وهم لديّ في مقام القرب - في مقام الأمن ولا خوف مع الأمن .

و أمّا فرار موسى عليه السلام من العصا وقد تصوّرت بتلك الصورة الهائلة و هي تهتزّ كأنّها جانّ فقد كان جرياً منه على ما جبل الله الطبيعة الإنسانيّة عليه إذا فاجأه من المخاطر مالا سبيل له إلى دفعه عن نفسه إلاّ الفرار وقد كان أعزل لاسلاح معه إلّا عصاه وهي الّتي يخافها على نفسه ولم يرد عليه من جانبه تعالى أمر سابق أن يلزم مكانه أو نهي عن الفرار ممّا يخافه على نفسه إلّا قوله تعالى : « و ألق عصاك » وقد امتثله ، وليس الفرار من المخاطر العظيمة الّتي لادافع لها إلاّ الفرار ، من الجبن المذموم حتّى يذمّ عليه .

وأمّا أنّ الأنبياء والمرسلين لايخافون شيأ وهم عند ربّهم ـ على ما يدلّ عليه قوله : « إنّي لا يخاف لديّ المرسلون » ـ فهم لا يملكون هذه الكرامة من عند أنفسهم بل إنّما ذلك بتعليم من الله و تأديب و إذ كان موقف ليلة الطور أوّل موقف من موسى قرّبه الله إليه فيه وخصّه بالتكليم وحباه بالرسالة والكرامة فقوله : « لاتخف إنّك من الآمنين » وقوله : « لاتخف إنّي لايخاف لديّ المرسلون » تعليم وتأديب إلهيّ له عليه السلام .

فتبيّن بذلك أنّ قوله : « لاتخف إنّي لايخاف لديّ المرسلون » تأديب وتربية إلهيّة لموسى عليه السلام وليس من التوبيخ والتأنيب في شيء .

قوله تعالى : « إلاّ من ظلم ثمّ بدّل حسنا بعد سوء فإنّي غفور رحيم » الّذي ينبغي أن يقال ـ و الله أعلم ـ أنّ الآية السابقة لمّا أخبرت عن أنّ المرسلين آمنون لايخافون فهم منه أنّ غيرهم من أهل الظلم غير آمنين لهم أن يخافوا استدرك في هذه الآية حال أهل التوبة من جملة أهل الظلم فبيّن أنّهم لتوبتهم وتبديلهم ظلمهم ـ وهو السوء ـ حسنا بعد سوء مغفور لهم مرحومون فلا يخافون أيضاً .

فالاستثناء من المرسلين وهو استثناء منقطع والمراد بالظلم مطلق المعصية وبالحسن بعد السوء التوبة بعد المعصية أو العمل الصالح بعد السيّيء والمعنى لكن من ظلم باقتراف المعصية ثمّ بدّل ذلك حسنا بعد سوء وتوبة بعد معصية أو عملاً صالحاً بعد سيّيء فإنّي غفور رحيم أغفر ظلمه وأرحمه فلا يخافنّ بعد ذلك شيأ .

قوله تعالى : « وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » الخ فسّر السوء بالبرص وقد تقدّم ، وقوله : « في تسع آيات إلى فرعون وقومه » يمكن أن يستظهر من السياق أوّلا أنّ « في تسع » حال من الآيتين جميعاً والمعنى آتيتك هاتين الآيتين - العصا واليد - حال كونهما في تسع آيات .

و ثانياً أنّ الآيتين من جملة الآيات التسع ، وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بيّنات» أسرى : ١٠١ كلام في تفصيل الآيات التسع ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : «فلمّا جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين» المبصرة بمعنى الواضحة الجليّة ، وفي قولهم : «هذا سحر مبين» إزراء وإهانة بالآيات حيث أهملوا الدلالة على خصوصيّات الآيات حتّى العدد فلم يعبؤا بها إلّا بمقدار أنّها أمرمّا .

قوله تعالى : « و جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوّا» الخ قال الراغب: الجحد نفي ما في القلب إثباته وإثبات ما في القلب نفيه . انتهى ، والاستيقان والايقان بمعنى .

* * *

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ عِلْماً وَ قَالاَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلٰى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا اَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ اُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ اِنَّ هٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْاِنْسِ وَ الطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتّٰى اِذَا اَتَوْا عَلٰى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَااَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَيَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ اَوْزِعْنِى اَنْ اَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى اَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَ عَلٰى وَالِدَىَّ وَاَنْ اَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضٰيهُ وَ اَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ اَرَى الْهُدْهُدَ اَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَاُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً اَوْ لَاَذْبَحَنَّهُ اَوْلَيَاْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ اَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَاٍ بِنَبَاٍ يَقِينٍ (٢٢) اِنِّى وَجَدْتُ امْرَاَةً تَمْلِكُهُمْ وَ اُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَاوَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ اَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَيَهْتَدُونَ (٢٤) اَلاَّيَسْجُدُوا لِلّٰهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمٰوَاتِ وَ الْاَرْضِ وَ يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اَللّٰهُ لاَ اِلٰهَ اِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ

الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا

لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) .

﴿بيان﴾

نبذة من قصص داود و سليمان عليهما السلام وفيها شيء من عجائب أخبار سليمان بما آتاه الله من الملك .

قوله تعالى : « و لقد آتينا داود و سليمان علما » الخ في تنكير العلم إشارة إلى تفخيم أمره و ممّا اُشير فيه إلى علم داود من كلامه تعالى قوله : « و آتيناه الحكمة وفصل الخطاب » ص: ٢٠. وممّا اُشير فيه إلى علم سليمان قوله : « ففهّمناها سليمان و كلّاً آتينا حكما وعلما » الأنبياء : ٧٩ وذيل الآية يشملهما جميعا .

و قوله : « وقالا الحمد لله الّذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين » المراد بالتفضيل إمّا التفضيل بالعلم على ما ربّما يؤيّده سياق الآية ، و إمّا التفضيل بمطلق ماخصّهما الله به من المواهب كتسخير الجبال والطير لداود وتليين الحديد له وإيتائه الملك ، و تسخير الجنّ والوحش والطير و كذا الريح لسليمان وتعليمه منطق الطير و إيتائه الملك على مايستدعيه إطلاق التفضيل .

و الآية أعني قوله : « وقالا الحمد لله » الخ على أيّ حال بمنزلة حكاية اعترافهما على التفضيل الإلهيّ فيكون كالشاهد على المدّعى الّذي تشير إليه بشارة

صدر السورة أنّ الله سبحانه سيخصّ المؤمنين بما تقرّ به عيونهم و مثلها ماسيأتي من اعترافات سليمان في مواضع من كلامه .

قوله تعالى : « وورث سليمان داود » الخ أي ورثه ماله وملكه و أمّا قول بعضهم : المراد بهوراثة النبوّة والعلم ففيه أنّ النبوّة لاتقبل الوراثة لعدم قبولها الانتقال ، والعلم وإن قبل الانتقال بنوع من العناية غير أنّه إنّما يصحّ في العلم الفكريّ الاكتسابيّ والعلم الّذي يختصّ به الأنبياء والرسل كرامةً من الله لهم وهبيّ ليس ممّا يكتسب بالفكر فغير النبيّ يرث العلم من النبيّ لكنّ النبيّ لايرث علمه من نبيّ آخر ولا من غير نبيّ .

و قوله : « و قال يا أيّها الناس علّمنا منطق الطير » ظاهر السياق أنّه عليه السلام يباهي عن نفسه وأبيه وهو منه عليه السلام تحديث بنعمة الله كما قال تعالى : « وأمّا بنعمة ربّك فحدّث » الضحى : ١١ وأمّا إصرار بعض المفسّرين على أنّ الضمير في قوله: « علّمنا » و « اُوتينا » لنفسه لاله ولأبيه على ما هو عادة الملوك والعظماء في الإخبار عن أنفسهم - فإنّهم يخبرون عنهم و عن خدمهم و أعوانهم رعاية لسياسة الملك - فالسياق السابق لايساعد عليه كلّ المساعدة .

والمراد بالناس ظاهر معناه وهو عامّة المجتمعين من غير تميّز لبعضهم من بعض وقول بعضهم إنّ المراد بهم عظماء أهل مملكته أو علماؤهم غير سديد .

و المنطق و النطق على ما نتعارفه هو الصوت أو الأصوات المؤلّفة الدالّة بالوضع على معان مقصودة للناطق المسمّاة كلاما ولا يكاد يقال - على ما ذكره الراغب - إلّا للإنسان لكنّ القرآن الكريم يستعمله في معنى أوسع من ذلك و هو دلالة الشيء على معنى مقصود لنفسه قال تعالى : « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الّذي أنطق كلّ شيء » حمّ السجدة : ٢١ ، وهو إمّا من باب تحليل المعنى كما يستعمله القرآن في أغلب المعاني والمفاهيم المقصورة في الاستعمالات على المصاديق الجسمانيّة المادّيّة كالرؤية والنظر والسمع واللوح والقلم والعرش

والكرسيّ و غيرها ، و إمّا لأنّ للّفظ معنى أعمّ واختصاصه بالإنسان من باب الانصراف لكثرة الاستعمال .

و كيف كان فمنطق الطير هو ما تدلّ به الطير بعضها بعضا على مقاصدها ، والّذي نجده عند التأمّل في أحوالها الحيوية هو أنّ لكلّ صنف أونوع منها أصواتا ساذجة خاصّة في حالاتها الخاصّة الاجتماعيّة حسب تنوّع اجتماعاتها كحال الهياج للسفاد وحال المغالبة والغلبة وحال الوحشة والفزع وحال التضرّع أوالاستغاثة إلى غير ذلك ونظير الطير في ذلك سائر الحيوان .

لكن لاينبغي الارتياب في أنّ المراد بمنطق الطير في الآية معنى أدقّ وأوسع من ذلك .

أمّا أوّلا فلشهادة سياق الآية على أنّه عليه السلام يتحدّث عن أمر اختصاصيّ ليس في وسع عامّة الناس أن ينالوه وإنّما ناله بعناية خاصّة إلهيّة ، وهذا المقدار المذكور من منطق الطير ممّا يسع لكلّ أحد أن يطّلع عليه ويعرفه .

و أمّا ثانيا فلأنّ ما حكاه الله تعالى في الآيات التالية من محاورة سليمان والهدهد يتضمّن معارف عالية متنوّعة لايسع لما نجده عند الهدهد من الأصوات المعدودة أن تدلّ عليها بتميّز لبعضها من بعض ففي كلام الهدهد ذكر الله سبحانه و وحدانيّته وقدرته وعلمه وربوبيّته وعرشه العظيم وذكر الشيطان وتزيينه الأعمال والهدى والضلال وغير ذلك ، و فيه ذكر الملك والعرش والمرأة وقومها و سجدتهم للشمس ، وفي كلام سليمان أمره بالذهاب بالكتاب و إلقائه إليهم ثمّ النظر فيما يرجعون ، وهذه كما لايخفى على الباحث في أمر المعاني المتعمّق فيها معارف جمّة لها أصول عريقة يتوقّف الوقوف عليها على ألوف وألوف من المعلومات وأنّى تفي على إفادة تفصيلها أصوات ساذجة معدودة .

على أنّه لا دليل على أنّ كلّ ما يأتي بها الحيوان في نطقه من الأصوات أو خصوصيّات الصوت يفي حسّنا بإدراكه أوتمييزه ، و يؤيّده ما نقل من قول النملة في الآيات التالية و هو من منطق الحيوان قطعا ولا صوت للنملة يناله سمعنا

ويؤيّده أيضا ما يراه علماء الطبيعة اليوم أنّ الّذي يناله سمع الإنسان من الصوت عدد خاصّ من الارتعاش المادّي وهو ما بين ستّة عشر ألفا إلى اثنين وثلاثين ألفا في الثانية وأنّ الخارج من ذلك في جانبي القلّة والكثرة لايقوى عليه سمع الإنسان وربّما ناله سائر الحيوان أو بعضها .

وقد عثر العلماء الباحثون عن الحيوان من عجيب الفهم ولطيف الإدراك عند أنواع من الحيوان كالفرس والكلب والقرد والدبّ والزنبور والنملة وغيرها على اُمور لا يكاد يعثر على نظائرها عند أكثر أفراد الإنسان .

وقد تبيّن بما مرّ أنّ ظاهر السياق أنّ للطير منطقا علّمه الله سليمان ، وظهر به فساد قول من قال إنّ نطق الطير كان معجزة لسليمان وأمّا هي في نفسها فليس لها نطق هذا

وقوله : « واُوتينا من كلّ شيء » أي اُعطينا من كلّ شيء ، و « كلّ شيء » و إن كان شاملاً لجميع ما يفرض موجودا - لأنّ مفهوم شيء من أعمّ المفاهيم وقد دخل عليه كلمة الاستغراق - لكن لمّا كان المقام مقام التحديث بالنعمة ولا كلّ نعمة بل النعم الّتي يمكن أن يؤتاها الإنسان فيتنعّم بها تقيّد به معنى كلّ شيء وكان معنى الجملة : و أعطانا الله من كلّ نعمة يمكن أن يعطاها الانسان فيتنعّم بهامقداراً معتدّاً به كالعلم والنبوّة والملك والحكم و سائر النعم المعنويّة والمادّيّة .

وقوله : « ذلك هو الفضل المبين » شكر وتأكيد للتحديث بالنعمة من غير عجب ولا كبر و اختيال لإسناده الجميع إلي الله بقوله : « علّمنا » و « اُوتينا » ، و احتمل بعضهم أن تكون الجملة من كلام الله سبحانه لامن كلام سليمان والسياق يأباه .

قوله تعالى : «وحشر لسليمان جنوده من الجنّ والإنس و الطير فهم يوزعون» الحشر هو جمع الناس و إخراجهم لأمر بازعاج والوزع المنع وقيل الحبس و المعنى كما قيل : وجمع لسليمان جنوده من الجنّ والإنس والطير فهم يمنعون من التفرّق و اختلاط كلّ جمع بآخر بردّ أوّلهم إلى آخرهم وحبس كلّ في مكانه .

ويستفاد من الآية أنّه كان له جنود من الجنّ و الطير يسيرون معه كجنوده من الإنس .

و كلمة الحشر و وصف المحشورين بأنّهم جنود وسياق الآيات التالية كلّ ذلك دليل على أنّ جنوده كانوا طوائف خاصّة من الجنّ والإنس والطير سواء كانت « من » في الآية للتبعيض أو للبيان .

وقد أغرب في التفسير الكبير فزعم أنّ الآية تدلّ على أنّ جميع الجنّ والإنس والطير كانوا جنوده وقد ملك الأرض كلّها و أنّ الله تعالى جعل الطير في زمانه عقلاء مكلّفين ثمّ عادت بعد زمانه على ما كانت عليه قبله وقال بمثله في النملة الّتي تكلّمت قال في تفسير الآية : و المعنى أنّه جعل الله تعالى كلّ هذه الأصناف جنوده ، ولا يكون كذلك إلّا بأن يتصرّف على مراده ، ولا يكون كذلك إلّا مع العقل الّذي يصحّ معه التكليف أو يكون بمنزلة المراهق الّذي قد قارب حدّ التكليف فلذلك قلنا : إنّ الله تعالى جعل الطير في أيّامه ممّا له عقل وليس كذلك حال الطيور في أيّامنا وإن كان فيها ما قد ألهمه الله تعالى الدقائق الّتي خصّت بالحاجة إليها أو خصّها الله بها لمنافع العباد كالنحل وغيره » انتهى .

و وجوه التحكّم فيه غنيّة عن البيان .

و تقديم الجنّ في الذكر على الإنس و الطير لكون تسخيرهم و دخولهم تحت الطاعة عجيبا ، و ذكر الإنس بعده دون الطير مع كون تسخيرها أيضا عجيبا رعاية لأمر المقابلة بين الجنّ والإنس .

قوله تعالى : « حتّى إذا أتوا على وادي النمل » الآية « حتّى » غاية لما يفهم من الآية السابقة ، وضمير الجمع لسليمان و جنوده ، و تعدية الإتيان بعلى قيل : لكون الإتيان من فوق ، و وادي النمل واد بالشام على ما قيل ، و قيل : في أرض الطائف ، وقيل : في أقصى اليمن ، والحطم الكسر .

والمعنى فلمّا سار سليمان وجنوده حتّى أتوا على واد النمل قالت نملة مخاطبة لسائر النمل : يا أيّها النمل ادخلوا مساكنكم لا يكسرنّكم سليمان وجنوده أي لا يطأنّكم

بأقدامهم وهم لايشعرون . وفيه دليل على أنّهم كانوا يسيرون على الأرض .

قوله تعالى : « فتبسّم ضاحكامن قولها» إلى آخر الآية قيل : التبسّم دون الضحك ، وعلى هذا فالمراد بالضحك هو الإشراف عليه مجازاً .

ولا منافاة بين قوله عليه‌السلام : « علّمنا منطق الطير » وبين فهمه كلام النملة إذلم ينف فهمه كلام سائر الحيوان أو كلام بعضها كالنملة .

وقد تسلّم جمع منهم دلالة قوله : «علّمنا منطق الطير» على نفي ماعداه فتكلّفوا في توجيه فهمه عليه‌السلام قول النملة تارة بأنّه كانت قضيّة في واقعة ، واُخرى بتقدير أنّها كانت نملة ذات جناحين وهي من الطير ، وثالثة بأنّ كلامها كان من معجزات سليمان عليه‌السلام ، ورابعة بأنّه عليه‌السلام لم يسمع منها صوتاقطّ وإنّما فهم مافي نفس النملة إلهاماً من الله تعالى هذا .

وما تقدّم من معنى منطق الحيوان يزاح به هذه الأوهام . على أنّ سياق الآيات وحده كاف في دفعها .

وقوله : « وقال ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك الّتي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه » الإيزاع الإلهام . تبسّم عليه‌السلام مبتهجا مسرورا بما أنعم الله عليه حتّى أوقفه هذا الموقف وهي النبوّة والعلم بمنطق الحيوان والملك والجنود من الجنّ والإنس والطير فسأل الله أن يلهمه شكر نعمته وأن يعمل بمافيه رضاه سبحانه .

وقد جعل الشكر للنعمة الّتي أنعم الله تعالى بها على نفسه مختصّة به ، وللنعمة الّتي أنعم بها على والديه فإنّ الإنعام على والديه إنعام عليه بوجه لكونه منهما وقد أنعم الله تعالى على أبيه داود بالنبوّة والملك والحكمة وفصل الخطاب وغيرها وأنعم على اُمّه حيث زوّجها من داود النبيّ ورزقها سليمان النبيّ وجعلها من أهل بيت النبوّة .

وفي كلامه هذا دليل على أنّ والدته من أهل الصراط المستقيم الّذين أنعم الله

عليهم [١] وهم إحدى الطوائف الأربع المذكورين في قوله تعالى : « الّذين أنعم الله عليهم من النبيّين و الصدّيقين والشهداء و الصالحين» النساء :٦٩ .

وقوله : « و أن أعمل صالحا ترضاه » عطف على قوله : « أن أشكر نعمتك » ومسألته هذه : «أوزعني أن أعمل» الخ أمر أرفع قدرا و أعلى منزلة من سؤال التوفيق للعمل الصالح فإنّ التوفيق يعمل في الأسباب الخارجيّة بترتيبها بحيث توافق سعادة الإنسان والإيزاع الّذي سأله دعوة باطنيّة في الإنسان إلى السعادة ، وعلى هذا فليس من البعيد أن يكون المراد به الوحي الّذي أكرم الله به إبراهيم و آله فيما يخبر عنه بقوله : « و أوحينا إليهم فعل الخيرات » الآية الأنبياء : ٧٣ وهو التأييد بروح القدس على ما مرّ في تفسير الآية .

وقوله : « و أدخلني برحمتك في عبادك الصالحين » أي اجعلني منهم ، وهذا الصلاح لمّا لم يتقيّد بالعمل كان هو صلاح الذات و هو صلاح النفس في جوهرها الّذي يستعدّ به لقبول أيّ كرامة إلهيّة .

و من المعلوم أنّ صلاح الذات أرفع قدرا من صلاح العمل ففي قوله : «وأن أعمل صالحا ترضاه و أدخلني برحمتك في عبادك الصالحين » تدرّج في المسألة من الأدنى إلى الأعلى وقد كان صلاح العمل منسوبا إلى صنعه واختياره بوجه دون صلاح الذات و لذا سأل صلاح الذات من ربّه ولم يسأل نفس صلاح العمل بل أن يوزعه أن يعمل .

وفي تبديله سؤال صلاح الذات من سؤال أن يدخله في عباده الصالحين إيذان بسؤاله ما خصّهم الله به من المواهب و أعزرها العبوديّة وقد وصفه الله بها في قوله : « نعم العبد إنّه أوّاب » ص : ٣٠ .

قوله تعالى : « وتفقّد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين»

---

(١) وفيه تبرئة ساحتها عما فى التوراة الدائرة ففى التوراة أنها كانت امرأة اوريا فجر بهاداود ثم كادفى قتل اوريا فقتل فى بعض الحروب فأدخلها فى أزواجه فولدت له سليمان .

قال الراغب : التفقّد التعهّد لكن حقيقة التفقّد تعرّف فقدان الشيء و التعهّد تعرّف العهد المتقدّم قال تعالى : « وتفقّد الطير » انتهى .

استفهم أوّلا متعجّبا من حال نفسه إذلا يرى الهدهد بين الطير كأنّه لم يكن من المظنون في حقّه أن يغيب عن موكبه ويستنكف عن امتثال أمره ثمّ أضرب عن ذلك بالاستفهام عن غيبته .

و المعنى ما بالي لاأرى الهدهد بين الطيور الملازمة لموكبي بل أكان من الغائبين .

قوله تعالى : « لأُعذّبنّه عذابا شديداً أولأذبحنّه أو ليأتينّي بسلطان مبين » اللّامات للقسم والسلطان المبين البرهان الواضح ، يقضي عليه السلام على الهدهد أحد ثلاث خصال العذاب الشديد والذبح وفيهما شقاؤه و الإتيان بحجّة واضحة وفيه خلاصه و نجاته .

قوله تعالى : « فمكث غير بعيد فقال أحطت بمالم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين » ضمير « فمكث » لسليمان و يحتمل أن يكون للهدهد ويؤيّد الأوّل سابق السياق و الثاني لاحقه ، و المراد بالإحاطة العلم الكامل ، وقوله : « وجئتك » الخ بمنزلة عطف التفسير لقوله : «أحطت» الخ وسبأ بلدة باليمن كانت عاصمته يومئذ والنبأ الخبر الّذي له أهميّة ، و اليقين مالاشكّ فيه .

والمعنى فمكث سليمان - أو فمكث الهدهد - زمانا غير بعيد - ثمّ حضر فسأله سليمان عن غيبته وعاتبه - فقال أحطت من العلم بمالم تحط به وجئتك من سبإ بخبر مهمّ لاشكّ فيه .

ومنه يظهر أنّ في الآية حذفاوإيجازاً ، وقد قيل : إنّ في قول الهدهد: «أحطت بمالم تحط به » كسراً لسورة سليمان عليه السلام فيماشدّد عليه .

قوله تعالى : « إنّي وجدت امرأة تملكهم واُوتيت من كلّ شيء ولها عرش عظيم » الضمير في « تملكهم » لأهل سبإ ومايتبعها وقوله: « واُوتيت من كلّ شيء» وصف لسعة ملكها وعظمته وهو القرينة على أنّ المراد بكلّ شيء في الآية كلّ شيء

هو من لوازم الملك العظيم من حزم وعزم وسطوة ومملكة عريضة و كنوز وجنود مجنّدة و رعيّة مطيعة ، وخصّ بالذكر من بينها عرشها العظيم .

قوله تعالى : « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » الخ أي إنّهم من عبدة الشمس من الوثنيّين .

وقوله : « وزيّن لهم الشيطان أعمالهم » بمنزلة عطف التفسير لما سبقه و هو مع ذلك توطئة لقوله بعد : « فصدّهم عن السبيل » لأنّ تزيين الشيطان لهم أعمالهم الّتي هي سجدتهم وسائر تقرّباتهم هو الّذي صرفهم ومنعهم عن سبيل الله وهي عبادته وحده .

وفي إطلاق السبيل من غير إضافتها إليه تعالى إشارة إلى أنّها السبيل المتعيّنة للسبيليّة بنفسها للإنسان بالنظر إلى فطرته بل لكلّ شيء بالنظر إلى الخلقة العامّة.

وقوله : «فهم لايهتدون» تفريع على صدّهم عن السبيل إذ لاسبيل مع الصدّ عن السبيل فلااهتداء فافهمه .

قوله تعالى : « ألّا يسجدوا لله الّذي يخرج الخبء في السماوات و الأرض و يعلم ماتخفون وما تعلنون» القراءة الدائرة « ألّا » بتشديد اللام ـ مؤلّف من «أن ولا» وهو عطف بيان من « أعمالهم » والمعنى زيّن لهم الشيطان أن لايسجدوا لله و قيل : بتقدير لام التعليل و المعنى زيّن لهم الشيطان ضلالتهم لئلّايسجدوا لله .

و الخبء على ما في مجمع البيان المخبوء و هو ما أحاط به غيره حتّى منع من إدراكه وهو مصدر وصف به يقال: خبأته أخبؤه خبأً وما يوجده الله تعالى فيخرجه من العدم إلى الوجود يكون بهذه المنزلة . انتهى .

ففي قوله : « يخرج الخبء في السماوات والأرض » استعارة كأنّ الأشياء مخبوءة مستورة تحت أطباق العدم فيخرجها الله تعالى إلى الوجود واحداً بعد آخر فيكون تسمية الايجاد بعد العدم إخراجاً للخبء قريبا من تسميته بالفطر وتوصيفه تعالى بأنّه فاطر السماوات والأرض والفطر هو الشقّ كأنّه يشقّ العدم فيخرج الأشياء .

و يمكن حمل الجملة على الحقيقة من غير استعارة لكنّه مفتقر إلى بيان

موضعه غير هذا الموضع . وقيل : المراد بالخبء الغيب و إخراجه العلم به و هو كما ترى .

وقوله : « ويعلم ما تخفون وما تعلنون » بالتاء على الخطاب أي يعلم سرّكم وعلانيتكم ، وقرء الأكثرون بالياء على الغيبة و هو أرجح .

وملخّص الحجّة أنّهم إنّما يسجدون للشمس دون الله تعظيما لها على ما أودع الله سبحانه في طباعها من الآثار الحسنة و التدبير العامّ للعالم الأرضيّ وغيره والله الّذي أخرج جميع الأشياء من العدم إلى الوجود و من الغيب إلى الشهادة فترتّب على ذلك نظام التدبير من أصله ـ ومن جملتها الشمس وتدبيرها ـ أولى بالتعظيم وأحقّ أن يسجد له ، مع أنّه لامعنى لعبادة مالاشعور له بها ولا شعور للشمس بسجدتهم والله سبحانه يعلم ما يخفون و ما يعلنون فالله سبحانه هو المتعيّن للسجدة والتعظيم لاغير .

و بهذا البيان تبيّن وجه اتّصال قوله تلوا : « الله لاإله إلّا هو » الخ .

قوله تعالى : « الله لاإله إلّا هو ربّ العرش العظيم » من تمام كلام الهدهد و هو بمنزلة التصريح بنتيجة البيان الضمنيّ السابق و إظهار الحقّ قبال باطلهم ولذا أتى أوّلا بالتهليل الدالّ على توحيد العبادة ثمّ ضمّ إليه قوله : « ربّ العرش العظيم » الدالّ على انتهاء تدبير الأمر إليه فإنّ العرش الملكيّ هو المقام الّذي تجتمع عنده أزمّة الأمور وتصدر منه الأحكام الجارية في الملك .

وفي قوله : « ربّ العرش العظيم » مناسبة محاذاة اُخرى مع قوله في وصف ملكة سبا : « ولها عرش عظيم » ولعلّ قول الهدهد هذا هو الّذي دعا ـ أو هو من جملة مادعا ـ سليمان عليه السلام أن يأمر أن يأتوا بعرشها إليه ليخضع لعظمة ربّه كلّ عظمة .

قوله تعالى : « قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين » الضمير لسليمان عليه السلام . أحال القضاء في أمر الهدهد إلى المستقبل فلم يصدّقه في قوله لعدم بيّنة عليه بعد ولم يكذّبه لعدم الدليل على كذبه بل وعده أن يجرّب ويتأمّل .

قوله تعالى : « اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثمّ تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون » حكاية قول سليمان خطابا للهدهد كأنّه قيل : فكتب سليمان كتابا ثمّ قال للهدهد : اذهب بكتابي هذا إليهم أي إلى ملكة سبأ و ملإها فألقه إليهم ثمّ تولّ عنهم أي تنحّ عنهم وقع في مكان تراهم فانظرماذا يرجعون أي ماذا يردّ بعضهم من الجواب على بعض إذا تكلّموا فيه .

وقوله : «فألقه» بسكون الهاء وصلاً ووقفاً في جميع القراءآت وهي هاءالسكت و ممّا قيل في الآية : أنّ قوله : « ثمّ تولّ عنهم فانظر » الخ من قبيل التقديم والتأخير والأصل فانظر ماذا يرجعون ثمّ تولّ عنهم . وهو كما ترى .

قوله تعالى : « قالت يا أيّها الملؤ إنّي اُلقي إليّ كتاب كريم إنّه من سليمان و إنّه بسم الله الرحمن الرحيم » في الكلام حذف و إيجاز والتقدير فأخذ الهدهد الكتاب وحمله إلى ملكة سبأ حتّى إذا أتاها ألقاه إليها فأخذتها ولمّا قرأتها قالت لملإها وأشراف قومها يا أيّها الملؤ الخ .

فقوله : « قالت يا أيّها الملؤ إنّي اُلقي إليّ كتاب كريم » حكاية ذكرها لملإها أمر الكتاب و كيفيّة وصوله إليها ومضمونه ، وقد عظّمته إذ وصفته بالكرم .

وقوله : « إنّه من سليمان و إنّه بسم الله الرحمن الرحيم » ظاهره أنّه تعليل لكون الكتاب كريما أي والسبب فيه أنّه من سليمان ولم يكد يخفى عليها جبروت سليمان وما اُوتيه من الملك العظيم والشوكة العجيبة كما اعترفت بذلك في قولها على ما حكاه الله بعد : « واُوتينا العلم من قبله و كنّا مسلمين » .

و إنّه بسم الله الرحمن الرحيم : أي الكتاب بسمه تعالى فهو كريم لذلك والوثنيّون جميعا قائلون بالله سبحانه يرونه ربّ الأرباب و إن لم يعبدوه ، وعبدة الشمس منهم وهم من شعب الصابئين يعظّمونه ويعظّمون صفاته وإن كانوا يفسّرون الصفات بنفي النقائص والأعدام فيفسّرون العلم والقدرة والحياة والرحمة مثلا بانتفاء الجهل والعجز والموت والقسوة فكون الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم يستدعي كونه كريما كما أنّ كونه من سليمان العظيم يستدعي كونه كريما و على هذا فالكتاب

أي مضمونه هو قوله : « أن لا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين » وأن مفسّرة .

و من العجيب ما عن جمع من المفسّرين أنّ قوله : « إنّه من سليمان » استئناف وقع جوابا لسؤال مقدّر كأنّه قيل : ممّن الكتاب وماذا فيه فقالت : إنّه من سليمان الخ و على هذا يكون قوله : و إنّه بسم‌الله بيانا للكتاب أي لمتنه و أنّ الكتاب هو بسم‌الله الرحمن الرحيم أن لا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين » .

و يتوجّه عليهم أوّلا وقوع لفظة أن زائدة لا فايدة لها و لذا قال بعضهم : إنّها مصدريّة و« لا » نافية لا ناهية وهو وجه سخيف كما سيأتي .

و ثانيا بيان الوجه في كون الكتاب كريما فقيل : وجه كرامته أنّه كان مختوما ففي الحديث : إكرام الكتاب ختمه حتّى ادّعى بعضهم أنّ معنى كرامة الكتاب ختمه يقال : أكرمت الكتاب فهو كريم إذا ختمته ، و قيل : إنّها سمّته كريما لجودة خطّه و حسن بيانه ، و قيل : لوصوله إليها على منهاج غير عاديّ و قيل : لظنّها بسبب إلقاء الطير أنّه كتاب سماويّ إلى غير ذلك من الوجوه .

و أنت خبير بأنّها تحكّمات غير مقنعة والظاهر أنّ الّذي أوقعهم فيما وقعوا حملهم قوله : « و إنّه بسم‌الله - إلى قوله : - مسلمين » على حكاية متن الكتاب وذلك ينافي حمل قوله : « إنّه من سليمان و إنّه بسم‌الله » الخ على تعليل كرامة الكتاب ويدفعه أنّ ظاهر أن المفسّرة في قوله : « أن لا تعلوا عليّ » الخ أنّه نقل لمعنى الكتاب و مضمونه لا حكاية متنه فمحصّل الآيتين أنّ الكتاب كان مبدوّا بسم‌الله الرحمن الرحيم و أنّ مضمونه النهي عن العلوّ عليه و الأمر بأن يأتوه مسلمين فلا محذور أصلا .

قوله تعالى : « أن لا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين» أن مفسّرة تفسّر مضمون كتاب سليمان كما تقدّمت الإشارة إليه .

و قول بعضهم إنّها مصدريّة و « لا » نافية أي عدم علوّكم عليّ ، سخيف لاستلزامه أوّلا تقدير مبتدء أو خبر محذوف من غير موجب ، و ثانيا عطف الإنشاء وهو قوله : « وأتوني » على الإخبار .

والمراد بعلوّهم عليه استكبارهم عليه ، وبقوله : « وأتوني مسلمين » إسلامهم بمعنى الانقياد على ما يؤيّده قوله : «أن لاتعلوا عليّ» دون الإسلام بالمعنى المصطلح و هو الإيمان بالله سبحانه وإن كان إتيانهم منقادين له يستلزم إيمانهم بالله على ما يستفاد من سياق قول الهدهد وسياق الآيات الآتية ، ولو كان المراد بالإيمان المعنى المصطلح كان المناسب له أن يقال : أن لا تعلوا على الله .

و كون سليمان عليه السلام نبيّاً شأنه الدعوة إلى الإسلام لاينافي ذلك فإنّه كان ملكا رسولا وكانت دعوته إلى الانقياد المطلق تستلزم ذلك كما تقدّم وقد انتهت إلى إسلامها لله كما حكى الله تعالى عنها « وأسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين » .

قوله تعالى : « قالت يا أيّها الملؤ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتّى تشهدون » الإفتاء إظهار الفتوى وهي الرأي ، وقطع الأمر القضاء به والعزم عليه والشهادة الحضور و هذا استشارة منها لهم تقول : أشيروا عليّ في هذا الأمر الّذي واجهته ـ وهو الّذي يشير إليه كتاب سليمان ـ و إنّما أستشيركم فيه لأنّي لم أكن حتّى اليوم أستبدّ برأيي في الاُمور بل أقضي وأعزم عن إشارة وحضور منكم .

فالآية تشير إلى فصل ثان من كلامها مع ملإها بعد الفصل الأوّل الّذي أخبرتهم فيه بكتاب سليمان عليه السلام و كيفيّة وصوله وما فيه .

قوله تعالى : « قالوا نحن اُولو قوّة واُولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين» القوّة ما يتقوّى به على المطلوب و هي ههنا الجند الّذي يتقوّى به على دفع العدوّ وقتاله ، والبأس الشدّة في العمل والمراد به النجدة والشجاعة .

والآية تتضمّن جواب الملإ لها يسمعونها أوّلا ما يطيب له نفسها ويسكن به قلقها ثمّ يرجعون إليها الأمر يقولون : طيبي نفسا ولا تحزني فإنّ لنا من القوّة والشدّة مالانهاب به عدوّا و إن كان هو سليمان ثمّ الأمر إليك مري بما شئت فنحن مطيعوك .

قوله تعالى : « قالت إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة و كذلك يفعلون» إفساد القرى تخريبها و إحراقها وهدم أبنيتها ، وإذلال

أعزّة أهلها هو بالقتل والأسر والسبي والإجلاء والتحكّم .

كان رأيها على ما يستفاد من هاتين الآيتين ـ زيادة التبصّر في أمر سليمان عليه السّلام بأن ترسل إليه من يختبر حاله ويشاهد مظاهر نبوّته و ملكه فيخبر الملكة بما رآى حتّى تصمّم هي العزم على أحد الأمرين : الحرب أو السلم وكان الظاهر من كلام الملاء حيث بدؤا في الكلام معها بقولهم : نحن اُولو قوّة واُولو بأس شديد ، أنّهم يميلون إلى القتال لذلك أخذت أوّلا تذمّ الحرب ثمّ نصّت على ما هو رأيها فقالت : « إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها » الخ أي إنّ الحرب لا تنتهي إلّا إلى غلبة أحد المتحاربين و فيها فساد القرى و ذلّة أعزّتها فليس من الحزم الإقدام عليها مع قوّة العدوّ وشوكته مهما كانت إلى السلم والصلح سبيل إلّا لضرورة ورأيي الّذي أراه أن اُرسل إليهم بهديّة ثمّ أنظر بماذا يرجع المرسلون من الخبر وعند ذلك أقطع بأحد الأمرين الحرب أو السلم .

فقوله : « إنّ الملوك إذا دخلوا» الخ توطئة لقوله بعد : « و إنّي مرسلة إليهم بهديّة فناظرة » الخ .

و قوله : « وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة » أبلغ و آكد من قولنا مثلا : استذلّوا أعزّتها لأنّه مع الدلالة على تحقّق الذلّة يدلّ على تلبّسهم بصفة الذلّة .

وقوله : « و كذلك يفعلون » مسوق للدلالة على الاستمرار بعد دلالة قوله : أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة » على أصل الوقوع ، و قيل : إنّ الجملة من كلام الله سبحانه لا من تمام كلام ملكة سبأ ، وليس بسديد إذ لا اقتضاء في المقام لمثل هذا التصديق .

قوله تعالى : « و إنّي مرسلة إليهم بهديّة فناظرة بم يرجع المرسلون » أي مرسلة إلى سليمان و هذا نوع من التجبّر والاعتزاز الملوكيّ تصون لسانها عن اسمه و تنسب الأمر إليه و إلى من معه جميعا وأيضا تشير به إلى أنّه يفعل ما يفعل بأيدي أعضاده وجنوده وإمداد رعيّته .

وقوله «فناظرة بم يرجع المرسلون » أي حتّى أعمل عند ذلك بما تقتضيه الحال

وهذا ـ كما تقدّم ـ هو رأي ملكة سبأ ، ويعلم من قوله : « المرسلون » أنّ الحامل للهديّة كان جمعا من قومها كما يستفاد من قول سليمان بعد : « ارجع إليهم » أنّه كان للقوم المرسلين رئيس يرأسهم .

قوله تعالى : « فلمّا جاء سليمان قال أتمدّونن بمال فما آتاني الله خير ممّا آتاكم بل أنتم بهديّتكم تفرحون » ضمير جاء للمال الّذي اُهدي إليه أو للرسول الّذي جاء بالهديّة .

والاستفهام في قوله : « أتمدّونن بمال » للتوبيخ والخطاب للرسول والمرسل بتغليب الحاضر على الغائب ، وتوبيخ القوم من غير تعيين الملكة من بينهم نظير قولها فيما تقدّم : « وإنّي مرسلة إليهم بهديّة » كما أشرنا إليه .

وجوّز أن يكون الخطاب للمرسلين وكانوا جماعة وهو خطأ فإنّ الإمداد لم يكن من المرسلين بل ممّن أرسلهم فلامعنى لتوجيه التوبيخ إليهم خاصّة ، وتنكير المال للتحقير ، والمراد بما آتاني الله الملك والنبوّة .

والمعنى أتمدّونني بمال حقير لاقدر له عندي في جنب ما آتاني الله فما آتاني الله من النبوّة والملك والثروة خير ممّا آتاكم .

وقوله : « بل أنتم بهديّتكم تفرحون » إضراب عن التوبيخ بإمداده بالمال إلى التوبيخ بفرحهم بهديّتهم أي إنّ إمدادكم إيّاي بمال لاقدر له عندي في جنب ما آتاني الله قبيح و فرحكم بهديّتكم لاستعظامكم لها وإعجابكم بها أقبح .

وقيل : المراد بهديّتكم الهديّة الّتي تهدى إليكم والمعنى بل أنتم تفرحون بما يهدى إليكم من الهديّة لحبّكم زيادة المال وأمّا أنا فلا أعتدّ بمال الدنيا هذا . وبُعده ظاهر .

قوله تعالى : « ارجع إليهم فلنأتينّهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنّهم منها أذلّة وهم صاغرون » الخطاب لرئيس المرسلين ، وضمائر الجمع راجعة إلى ملكة سبإ وقومها ، والقبل الطاقة ، وضمير « بها » لسبإ ، وقوله : « وهم صاغرون » تأكيد لما قبله ، و اللاّم في « فلنأتينّهم » و « لنخرجنّهم » للقسم .

لمّا كان ظاهر تبديلهم امتثال أمره - وهو قوله : «وأتوني مسلمين» - من إرسال الهديّة هو الاستنكاف عن الإسلام قدّر بحسب المقام أنّهم غير مسلمين له فهدّدهم بإرسال جنود لاقبل لهم بها ولذلك فرّع إتيانهم بالجنود على رجوع الرسول من غير أن يشترطه بعدم إتيانهم مسلمين فقال : « ارجع إليهم فلنأتينّهم» الخ ولم يقل : ارجع فإن لم يأتوني مسلمين فلنأتينّهم الخ وإن كان مرجع المعنى إليه فإنّ إرسال الجنود و إخراجهم من سبإ على حال الذلّة كان مشروطاً به على أيّ حال .

والسياق يشهد أنّه عليه السلام ردّ إليهم هديّتهم ولم يقبلها منهم .

قوله تعالى : «قال يا أيّها الملؤ أيّكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين» كلام تكلّم به بعد ردّ الهديّة و إرجاع الرسل ، وفيه إخباره أنّهم سيأتونه مسلمين و إنّما أراد الإتيان بعرشها قبل حضورها وقومها عنده ليكون دلالة ظاهرة على بلوغ قدرته الموهوبة من ربّه ومعجزة باهرة لنبوّته حتّى يسلموا لله كما يسلمون له و يستفاد ذلك من الآيات التالية .

قوله تعالى : « قال عفريت من الجنّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك و إنّي عليه لقويّ أمين » العفريت - على ما قيل - المارد الخبيث ، وقوله : « آتيك به » اسم فاعل أو فعل مضارع من الإتيان ، و الأوّل أنسب للسياق لدلالته على التلبّس بالفعل و كونه أنسب لعطف قوله : « و إنّي عليه» الخ وهو جملة اسميّة عليه . كذا قيل .

وقوله : « و إنّي عليه لقويّ أمين » الضمير للإتيان أي أنا للإتيان بعرشها لقويّ لا يثقل عليّ حمله ولا يجهدني نقله ، أمين لا أخونك في هذا الأمر .

قوله تعالى : « قال الّذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك » مقابلته لمن قبله دليل على أنّه كان من الإنس ، وقد وردت الروايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّه كان آصف بن برخيا وزير سليمان ووصيّه ، وقيل : هو الخضر وقيل : رجل كان عنده اسم الله الأعظم الّذي إذا سئل به أجاب ، وقيل : جبريل ، وقيل : هو سليمان نفسه وهي وجوه لا دليل على شيء منها .

و أيّاً ما كان وأيّ من كان ففصل الكلام ممّا قبله من غير أن يعطف عليه للاعتناء بشأن هذا العالم الذي أتى بعرشها إليه في أقلّ من طرفة العين ، وقداعتنى بشأن عمله أيضا إذنكّر فقيل : علم من الكتاب أي علم لايحتمل اللفظ وصفه .

والمراد بالكتاب الّذي هومبدء هذا العلم العجيب إمّاجنس الكتب السماويّة أو اللوح المحفوظ ، والعلم الّذي أخذه هذا العالم منه كان علما يسهّل له الوصول إلى هذه البغية وقد ذكر المفسّرون أنّه كان يعلم اسمالله الأعظم الّذي إذاسئل به أجاب ، وربّما ذكر بعضهم أنّ ذلك الإسم هو الحيّ القيّوم ، وقيل : ذوالجلال و الإكرام ، وقيل : الله الرحمان ، وقيل : هو بالعبرانيّة آهيّا شراهيّا وقيل : إنّه دعا بقوله : يا إلهنا وإله كلّ شيء إلها واحداً لاإله إلّا أنت إيتني بعرشها . إلىغير ذلك ممّا قيل .

وقدتقدّم في البحث عن الأسماءالحسنى فيالجزء الثامن من الكتاب أنّ من المحال أن يكون الاسم الأعظم الّذي له التصرّف في كلّ شيء من قبيل الألفاظ ولا المفاهيم الّتي تدلّ عليها وتكشف عنها الألفاظ بل إن كان هناك اسمله هذاالشأن أو بعض هذا الشأن فهو حقيقة الاسم الخارجيّة الّتي ينطبق عليهامفهوم اللفظ نوعا من الانطباق وهي الاسم حقيقة واللفظ الدالّ عليها اسم الاسم .

ولم يرد في لفظ الآية نبأمن هذا الاسم الّذي ذكروه بلالّذي تتضمّنه الآية أنّه كان عنده علم من الكتاب وأنّه قال : أنا آتيك به ، ومن المعلوم مع ذلك أنّ الفعل فعل الله حقيقة ، وبذلك كلّه يتحصّل أنّه كان له من العلم بالله والارتباط به ما إذا سأل ربّه شيأ بالتوجّه إليه لم يتخلّف عن الاستجابة وإن شئت فقل : إذاشاء شاءالله سبحانه .

ويتبيّن ممّا تقدّم أيضاً أنّ هذا العلم لميكن من سنخ العلوم الفكريّةالّتي تقبل الاكتساب والتعلّم .

وقوله : « أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك » الطرف ـ على ماقيل ـ اللحظ و النظروارتداد الطرف وصل المنظور إليه إلى النفسوعلم الإنسان بهفالمراد

أنا آتيك به في أقلّ من الفاصلة الزمانيّة بين النظر إلى الشيء والعلم به .

وقيل : الطرف تحريك الأجفان وفتحها للنظر ، وارتداده هو انضمامها ولكونه أمرا طبيعيّا غير منوط بالقصد اُوثر الارتداد على الردّ فقيل : قبل أن يرتدّ إليك طرفك ولم يقل : قبل أن يردّ . هذا .

وقد أخطأ فالطرف كالتنفّس من أفعال الإنسان الاختياريّة غير أنّ الّذي يبعث إليه هو الطبيعة كما في التنفّس ولذلك لايحتاج في صدوره إلى تروّ سابق كما يحتاج إليه في أمثال الأكل والشرب فالفعل الاختياريّ مايرتبط إلى إرادة الإنسان وهو أعمّ ممّا يسبقه التروّي ، والّذي أوقع هذا القائل فيما وقع ظنّه التساوي بين الفعل الصادر عن اختيار و الصادر عن تروّ ، ولعلّ النكتة في إيثار الارتداد على الردّ هي أنّ الفعل لعدم توقّفه على التروّي كأنّه يقع بنفسه لا عن مشيّة من اللاحظ .

والخطاب في قوله : « أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك » لسليمان عليه السلام فهو الّذي يريد الإتيان به إليه و هو الّذي يراد الإتيان به إليه .

وقيل : الخطاب للعفريت القائل : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك والمراد بالّذي عنده علم من الكتاب عند هذا القائل هو سليمان ، وإنّما قاله له إظهاراً لفضل النبوّة وأنّ الّذي أقدره الله عليه بتعليمه علما من الكتاب أعظم ممّا يتبجّح به العفريت من القدرة فالمعنى قال سليمان للعفريت لمّا قال ما قال : أنا آتيك بالعرش قبل ارتداد طرفك .

وقد أصرّ في التفسير الكبير على هذا القول و أورد لتأييده وجوها وهي وجوه رديّة وأصل القول لايلائم السياق كما أومأنا إليه .

قوله تعالى : « فلمّا رآه مستقرّا عنده قال هذا من فضل ربّي » إلى آخر الآية ، أي لمّا رآى سليمان العرش مستقرّا عنده قال : هذا أي حضور العرش و استقراره عندي في أقلّ من طرفة العين من فضل ربّي من غير استحقاق منّي ليبلوني أي يمتحنني، أشكر نعمته أم أكفر ومن شكر فإنّما يشكر لنفسه أي يعود نفعه إليه

لا إلى ربّي ومن كفر فلم يشكر فإنّ ربّي غنيّ كريم ـ وفي ذيل الكلام تأكيد لما في صدره من حديث الفضل ـ .

و قيل : المشار إليه بقوله : « هذا » هوا لتمكّن من إحضاره بالواسطة أو بالذات .

وفيه أنّ ظاهر قوله : «فلمّا رآه مستقرّاً عنده قال» الخ أنّ هذا الثناء مرتبط بحال الرؤية والّذي في حال الرؤية هو حضور العرش عنده دون التمكّن من الإحضار الّذي كان متحقّقاً منذ زمان .

و في الكلام حذف وإيجاز و التقدير فأذن له سليمان في الإتيان به كذلك فأتى به كما قال : «فلمّا رآه مستقرّاً عنده» وفي حذف ما حذف دلالة بالغة على سرعة العمل كأنّه لم يكن بين دعواه الإتيان به كذلك وبين رؤيته مستقرّاً عنده فصل أصلاً .

قوله تعالى : « قال نكّروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الّذين لا يهتدون » قال في المفردات : تنكير الشيء من حيث المعنى جعله بحيث لا يعرف قال تعالى : « قال نكّروا لها عرشها » و تعريفه جعله بحيث يعرف . انتهى .

والسياق يدلّ على أنّ سليمان عليه السلام إنّما قاله حينما قصدته ملكة سبإ وملؤها لمّا دخلوا عليه ، و إنّما أراد بذلك اختبار عقلها كما أنّه أراد بأصل الإتيان به إظهار آية باهرة من آيات نبوّته لها ، ولذا أمر بتنكير العرش ثمّ رتّب عليه قوله: « ننظر أتهتدي » الخ والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « فلمّا جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنّه هو واُوتينا العلم من قبلها و كنّا مسلمين » أي فلمّا جاءت الملكة سليمان عليه السلام قيل له من جانب سليمان : « أهكذا عرشك » وهو كلمة اختبار .

ولم يقل : أهذا عرشك بل زيد في التنكير فقيل : أهكذا عرشك ؟ فاستفهم عن مشابهة عرشها لهذا العرش المشار إليه في هيئته وصفاته ، و في نفس هذه الجملة نوع من التنكير .

وقوله : « قالت كأنّه هو » المراد به أنّه هو و إنّما عبّرت بلفظ التشبيه تحرّزا من الطيش و المبادرة إلى التصديق من غير تثبّت ، ويكنّى عن الاعتقادات الابتدائيّة الّتي لم يتثبّت عليها غالبا بالتشبيه .

وقوله : « و اُوتينا العلم من قبلها و كنّا مسلمين » ضمير « قبلها » لهذه الآية أي الإتيان بالعرش أولهذه الحالة أي رؤيتها له بعدما جاءت ، و ظاهر السياق أنّها تتمّة كلام الملكة فهي لمّا رأت العرش و سئلت عن أمره أحسّت أنّ ذلك منهم تلويح إلى ما آتى الله سليمان من القدرة الخارقة للعادة فأجابت بقولها : « و اُوتينا العلم من قبلها » الخ أي لا حاجة إلى هذا التلويح والتذكير فقد علمنا بقدرته قبل هذه الآية أوهذه الحالة و كنّا مسلمين لسليمان طائعين له .

وقيل : قوله : « و اُوتينا العلم » الخ من كلام سليمان ، وقيل : من كلام قوم سليمان ، وقيل من كلام الملكة لكنّ المعنى و اُوتينا العلم بإتيان العرش قبل هذه الحال - وهي جميعا وجوه رديّة .

قوله تعالى : « وصدّها ما كانت تعبد من دون الله إنّها كانت من قوم كافرين » الصدّ المنع والصرف ، ومتعلّق الصدّ الإسلام لله وهو الّذي ستشهد به حين تؤمر بدخول الصرح فتقول : أسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين ، و أمّا قولها في الآية السابقة : « و كنّا مسلمين » فهو إسلامها و انقيادها لسليمان عليه السلام .

هذا ما يعطيه سياق الآيات وللقوم وجوه اُخر في معنى الآية أضربنا عنها .

وقوله : « إنّها كانت من قوم كافرين » في مقام التعليل للصدّ ، والمعنى ومنعها عن الإسلام لله ما كانت تعبد من دون الله وهي الشمس على ما تقدّم في نباء الهدهد و السبب فيه أنّها كانت من قوم كافرين فاتبّعتهم في كفرهم .

قوله تعالى : « قيل لها ادخلي الصرح » إلى آخر الآية الصرح هو القصر و كلّ بناء مشرف والصرح الموضع المنبسط المنكشف من غير سقف ، واللجّة المعظم من الماء و الممرّد اسم مفعول من التمريد و هو التمليس ، والقوارير الزجاج .

وقوله : « قيل لها ادخلي الصرح » كأنّ القائل بعض خدم سليمان مع حضور

من سليمان ممّن كان يهديها إلى الدخول عليه على ما هو الدأب في وفود الملوك و العظماء على أمثالهم .

و قوله : « فلمّا رأته حسبته لجّة و كشفت عن ساقيها » أي لمّا رأت الصرح ظنّت أنّه لجّة لما كان عليه الزجاج من الصفاء كالماء و كشفت عن ساقيها بجمع ثيابها لئلّاتبتل بالماء أذيالها .

وقوله : « قال إنّه صرح ممرّد من قوارير » القائل هو سليمان نبّهها أنّه ليس بلجّة بل صرح مملّس من زجاج فلمّا رأت ما رأت من عظمة ملك سليمان وقد كانت رأت سابقا مارأت من أمر هدهد وردّ الهديّة والإتيان بعرشها لم تشكّ أنّ ذلك من آيات نبوتّه من غير أن يؤتى بحزم أوتدبير وقالت عند ذلك : ربّ إنّي ظلمت نفسي الخ .

وقوله : « قالت رب إنّي ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين » استغاثت أوّلا بربّها بالاعتراف بالظلم إذ لم تعبدالله من بدء أومن حين رأت هذه الآيات ثمّ شهدت بالإسلام لله مع سليمان .

و في قوله : «و أسلمت مع سليمان لله» التفات بالنسبة إليه تعالى من الخطاب إلى الغيبة ووجهه الانتقال من إجمال الإيمان بالله إذ قالت : ربّ إنّي ظلمت نفسي إلى التوحيد الصريح فإنّها تشهد أنّ إسلامها لله مع سليمان فهو على نهج إسلام سليمان وهو التوحيد ثمّ تؤكّد التصريح بتوصيفه تعالى بربّ العالمين فلاربّ غيره تعالى لشيء من العالمين وهو توحيد الربوبيّة المستلزم لتوحيد العبادة الّذي لايقول به مشرك .

﴿كلام فى قصة سليمان عليه السلام﴾

١ ـ **ماورد من قصصه فى القرآن** . لم يرد من قصصه عليه السلام في القرآن الكريم إلّا نبذة يسيرة غير أنّ التدبّر فيها يهدي إلى عامّة قصصه ومظاهر شخصيّته الشريفة.

منها : وراثته لأبيه داود قال تعالى : «ووهبنا لداود سليمان» ص : ٣٠ ، وقال « وورث سليمان » النمل : ١٦ .

ومنها : إيتاؤه الملك العظيم وتسخير الجنّ و الطير والريح له وتعليمه منطق الطير وقد تكرّر ذكر هذه النعم في كلامه تعالى كما في سورة البقرة الآية ١٠٢ والأنبياء الآية ٨١ ، والنمل الآية ١٦-١٨ ، سبأ الآية ١٢-١٣ ص: الآية ٣٥-٣٩ .

ومنها : الإشارة إلى قصّة إلقاء جسد على كرسيّه كما في سورة ص الآية ٣٣ .

و منها : الإشارة إلى عرض الصافنات الجياد عليه كما في سورة ص الآية ٣-٣٣ .

ومنها : الإشارة إلى تفهيمه الحكم في الغنم الّتي نفشت في الحرث كما في سورة الأنبياء الآية ٧٨ ـ ٧٩ .

ومنها : الإشارة إلى حديث النملة كما في سورة النمل الآية ١٨ ـ ١٩ .

ومنها قصّة الهدهد وما يتبعها من قصّته عليه السلام مع ملكة سباء سورة النمل الآية ٢٠ ـ ٤٤ .

ومنها : الإشارة إلى كيفيّة موته عليه السلام كما في سورة سبإ الآية ١٤ .

وقد أوردنا ما يخصّ بكلّ من هذه القصص من الكلام في ذيل الآيات المشيرة إليها الموضوعة في هذا الكتاب .

٢ ـ **الثناء عليه في القرآن** .ورد اسمه عليه السلام في بضعة عشر موضعا من كلامه تعالى وقد أكثر الثناء عليه فسمّاه عبداً أوّابا قال تعالى : « نعم العبد إنّه أوّاب » ص : ٣٠ ، ووصفه بالعلم والحكم قال تعالى : « ففهّمناها سليمان و كلاّ آتينا حكما وعلما » الأنبياء : ٧٩ و قال : « ولقد آتينا داودو سليمان علما » النمل : ١٥ وقال : « وقال ياأيّها الناس علّمنا منطق الطير » النمل : ١٦ ، وعدّه من النبيّين المهديّين قال تعالى : « و أيّوب ويونس وهارون وسليمان » النساء : ١٦٣ وقال : « ونوحا هدينا من قبل ومن ذرّيّته داود وسليمان » الأنعام : ٨٤ .

٣ ـ ذكره عليه السلام **في العهد العتيق** : وقعت قصّته في كتاب الملوك الأوّل وقد اُطيل فيه في حشمته و جلالة أمره وسعة ملكه ووفور ثروته و بلوغ حكمته غير أنّه لم يذكر فيه شيء من قصصه المشار إليها في القرآن إلّا ما ذكر أنّ ملكة سباء لمّا سمعت خبر سليمان و بناءه بيت الربّ بأورشليم و ما اُوتيه من الحكمة أتت إليه

و معها هدايا كثيرة فلاقتها وسألتها عن مسائل تمتحنه بها فأجاب عنها ثمّ رجعت[١].

وقد أساء العهد العتيق القول فيه عليه السلام فذكر [٢] أنّه عليه السلام انحرف في آخر عمره عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام فسجد لأوثان كانت تعبدها بعض أزواجه.

و ذكر أنّ والدته كانت زوج أوريّا الحتّي فعشقها داود عليه السلام ففجر بها فحبلت منه فاحتال في قتل زوجها أوريّا حتّى قتل في بعض الحروب فضمّها إلى أزواجه فحبلت منه ثانيا وولدت له سليمان.

و القرآن الكريم ينزّه ساحته عليه السلام من أوّل الرميتين بما ينزّه به ساحة جميع الأنبياء بالنصّ على هدايتهم وعصمتهم وقال فيه خاصّة : « وما كفر سليمان» البقرة : ١٠٢.

ومن الثانية بما يحكيه من دعائه عليه السلام لمّا سمع قول النملة : « ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك الّتي أنعمت عليّ وعلى والديّ » النمل : ١٩ فقد بيّنّا في تفسيره أنّ فيه دلالة على أنّ والدته كانت من أهل الصراط المستقيم الّذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

٤ـ الروايات الواردة في قصصه عليه السلام. الأخبار المرويّة في قصصه و خاصّة في قصّة الهدهد و ما يتبعها من أخباره مع ملكة سبا يتضمّن أكثرها اُمورا غريبة قلّما يوجد نظائرها في الأساطير الخرافيّة يأباها العقل السليم و يكذّبها التاريخ القطعيّ وأكثرها مبالغة ما روي عن أمثال كعب و وهب.

وقد بلغوا من المبالغة أن رووا أنّه عليه السلام ملك جميع الأرض، وكان ملكه سبعمائة سنة، و أنّ جميع الإنس والجنّ والوحش والطير كانوا جنوده، و أنّه كان يوضع في مجلسه حول عرشه ستّمائة ألف كرسيّ يجلس عليها اُلوف من النبيّين و مآت الاُلوف من اُمراء الإنس والجنّ.

---

(١) الاصحاح العاشر من الملوك الاول.

(٢) الاصحاح الحادى عشر والثانى عشر من كتاب صموئيل الثانى.

و أنّ ملكة سبإ كانت اُمّها من الجنّ ، وكانت قدمها كحافر الحمارة و كانت تستر قدميها عن أعين النظّار حتّى كشفت عن ساقيها حينما أرادت دخول الصرح فبان أمرها ، وقد بلغ من شوكتها أنّه كان تحت يدها أربعمائة ملك كلّ ملك على كورة تحت يد كلّ ملك أربعمائة ألف مقاتل ولها ثلاث مائة وزير يدبّرون ملكها و لها اثنا عشر ألف قائد تحت يد كلّ قائد اثنا عشر ألف مقاتل إلى غير ذلك من أعاجيب الأخبار الّتي لايسعنا إلّا أن نعدّها من الا سرائيليّات ونصفح عنها (١) .

﴿ بحث روائى ﴾

في الاحتجاج روى عبدالله بن الحسن بإسناده عن آبائه عليهم السلام أنّه لمّا أجمع أبوبكر على منع فاطمة عليها السلام فدك وبلغها ذلك جاءت إليه وقالت له : يابن أبي قحافة أ في كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي ؟ لقد جئت شيأ فريّا أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول : وورث سليمان داود . الحديث .

وفي تفسير القمّي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّ وجلّ « فهم يوزعون » قال : يحبس أوّلهم على آخرهم .

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث قال : و الناظرة في بعض اللغة هي المنتظرة ألم تسمع إلى قوله : « فناظرة بم يرجع المرسلون » .

وفي البصائر بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : إنّ اسم الله الأعظم على ثلاث وسبعين حرفا و إنّما كان عند آصف منها حرف واحد فتكلّم به فخسف بالأرض ما بينه و بين سرير بلقيس ثمّ تناول السرير بيده ثمّ عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين ، وعندنا نحن من الاسم اثنان وسبعون حرفا ، وحرف عند الله استأثر به في علم الغيب عنده ولاحول ولاقوّة إلّا بالله العليّ العظيم .

أقول : وروى هذا المعنى أيضاً عن أبي عبدالله عليه السلام ، ورواه في الكافي عن جابر

---

(١) وعلى من يريد الوقوف عليها أن يراجع جوامع الاخبار كالدر المنثور والعرائس والبحار ومطولات التفاسير .

عن أبي جعفر و عن النوفلي عن أبي الحسن صاحب العسكر عليهما السلام .

وقوله : « إن الاسم الأعظم كذا حرفاوكان عند آصف حرف تكلّم به » لا ينافي ماقدّمنا أنّ هذا الاسم ليس من قبيل الألفاظ فإنّ نفس هذا السياق يدلّ على أنّ المراد بالحرف غير الحرف اللفظي و التعبير به من جهة أنّ المعهود عند الناس من الاسم الاسم اللفظي المؤلف من الحروف الملفوظة .

وفي المجمع في قوله تعالى : « قبل أن يرتدّ إليك طرفك » ذكر في ذلك وجوه - إلى أن قال - و الخامس أنّ الأرض طويت له وهو المروي عن أبي عبدالله عليه السلام .

أقول : و مارواه من الطي لايغاير ماتقدّمت روايته من الخسف .

والّذي نقله من الوجوه الاُخر خمسة أحدها أنّ الملائكة حملته إليه . الثاني أنّ الريح حملته . الثالث أنّ الله خلق فيه حركات متوالية الرابع أنّه انخرق مكانه حيث هو هناك ثمّ نبع بين يدي سليمان . الخامس أنّ الله أعدمه في موضعه و أعاده في مجلس سليمان .

وهناك وجه آخر ذكره بعضهم وهو أنّ الوجود بتجدّد الأمثال بإيجاده وقد أفاض الله الوجود لعرشها في سبإ ثمّ في الآن التالي عند سليمان . وهذه الوجوه بين ممتنع كالخامس وبين ما لا دليل عليه كالباقي .

وفيه وروى العيّاشي في تفسيره بالإسناد قال : التقى موسى بن محمّد بن عليّ بن موسى و يحيى بن أكثم فسأله . قال : فدخلت على أخي عليّ بن محمّد عليه السلام إذدار بيني وبينه من المواعظ حتّى انتهيت إلى طاعته فقلت له : جعلت فداك إنّ ابن أكثم سألني عن مسائل اُفتيه فيها فضحك ثمّ قال : هل أفتيته فيها قلت : لا . قال: ولم ؟ قلت : لم أعرفها قال : ماهي ؟ قلت :قال : أخبرني عن سليمان أكان محتاجا إلى علم آصف بن برخيا ؟ ثمّ ذكرت المسائل الاُخر :

قال : اكتب يا أخي بسم الله الرحمن الرحيم سألت عن قول الله تعالى في كتابه:

« قال الّذي عنده علم من الكتاب» فهو آصف بن برخيا ولم يعجز سليمان عن معرفة ما عرف آصف لكنّه أحبّ أن تعرف اُمّته من الجنّ والإنس أنّه الحجّة من بعده و ذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله ففهّمه الله ذلك لئلاّ يختلف في إمامته و دلالته كما فهّم سليمان في حياة داود ليعرّف إمامته و نبوّته من بعده لتأكيد الحجّة على الخلق .

أقول : وأورد الرواية في روح المعاني عن المجمع ثمّ قال : و هو كماترى انتهى ولاترى لاعتراضه هذا وجهاً غير أنّه رآى حديث الإمامة فيها فلم يعجبه .

وفي نور الثقلين عن الكافي عن أمير المؤمنين عليه‌السلام قال : كن لمالاترجوأرجى منك لماترجو ـ إلى أن قال ـ وخرجت ملكةسبإ فأسلمت مع سليمان عليه‌السلام .



✡✡✡

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) .

﴿ بيان ﴾

إجمال من قصّة صالح النبي عليه السلام وقومه ، وجانب الإنذار في الآيات يغلب على جانب التبشير كما تقدّمت الإشارة إليه .

قوله تعالى : « ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا ـ إلى قوله ـ يختصمون » الاختصام والتخاصم التنازع و توصيف التثنية بالجمع أعني قوله : «فريقان» بقوله: « يختصمون » لكون المراد بالفريقين مجموع الاُمّة و « إذا » فجائيّة .

والمعنى واُقسم لقد أرسلنا إلى قوم ثمود أخاهم ونسيبهم صالحاً وكان المرجوّ أن يجتمعوا على الإيمان لكن فاجأهم أن تفرّقوا فريقين مؤمن و كافر يختصمون ويتنازعون في الحقّ كلّ يقول : الحقّ معي ، ولعلّ المراد باختصامهم ماحكاه الله عنهم في موضع آخر بقوله : « قال الّذين استكبروا من قومه للّذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أنّ صالحا مرسل من ربّه قالوا إنّا بما اُرسل به مؤمنون قال الّذين استكبروا إنّا بالّذي آمنتم به كافرون » الأعراف : ٧٦ .

و من هنا يظهر أنّ أحد الفريقين جمع من المستضعفين آمنوا به و الآخر المستكبرون وباقي المستضعفين ممّن اتّبعوا كبارهم .

قوله تعالى : «قال ياقوم لم تستعجلون بالسيّئة قبل الحسنة» الخ الاستعجال بالسيّئة قبل الحسنة المبادرة إلى سؤال العذاب قبل الرحمة الّتي سببها الايمان والاستغفار .

و به يظهر أنّ صالحاً عليه السلام إنّما و بّخهم بقوله هذا بعد ما عقروا الناقة و قالوا له : ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين فيكون قوله : «لولا تستغفرون الله لعلّكم ترحمون» تحضيضا إلى الإيمان والتوبة لعلّ الله يرحمهم فيرفع عنهم ماوعدهم من العذاب وعداً غير مكذوب .

قوله تعالى : «قالوا اطّيّرنا بك وبمن معك قال طائركم عندالله» الخ التطيّر هو التشأّم ، وكانوا يتشأّمون كثيراً بالطير ولذا سمّوا التشأّم تطيّرا ونصيب الإنسان من الشرّ طائرا كما قيل .

فقولهم خطابا لصالح : «اطّيّرنا بك وبمن معك» أي تشأّمنا بك وبمن معك ممّن آمن بك ولزمك لما أنّ قيامك بالدعوة و إيمانهم بك قارن ماابتلينا به من المحن والبلايا فلسنا نؤمن بك .

و قوله خطابا للقوم : « طائركم عند الله » أي نصيبكم من الشرّ وهو الّذي تستوجبه أعمالكم من العذاب عندالله سبحانه .

ولذا أضرب عن قوله : « طائركم عندالله » بقوله : « بل أنتم قوم تفتنون » أي تختبرون بالخير والشرّ ليمتاز مؤمنكم من كافركم ومطيعكم من عاصيكم .

ومعنى الآية قال القوم : تطيّرنا بك يا صالح و بمن معك فلن نؤمن ولن نستغفر قال صالح : طائركم الّذي فيه نصيبكم من الشرّ عندالله وهو كتاب أعمالكم ولست أنا ومن معي ذوي أثر فيكم حتّى نسوق إليكم هذه الابتلاءات بل أنتم قوم تختبرون وتمتحنون بهذه الامور ليمتاز مؤمنكم من كافركم و مطيعكم من عاصيكم.

و ربّما قيل : إنّ الطائر هو السبب الّذي منه يصيب الإنسان مايصيبه من الخير والشرّ ، فإنّهم كما كانوا يتشأّمون بالطير كانوا أيضاً يتيمّنون به والطائر عندهم الأمر الّذي يستقبل الإنسان بالخير و الشرّ كما في قوله تعالى : « و كلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه و نخرج له يوم القيامة كتابا » أسرى : ١٣ و إذ كان مايستقبل الإنسان من خير أوشرّ هو بقضاء من الله سبحانه مكتوب في كتاب فالطائر هو الكتاب المحفوظ فيه ماقدّر للإنسان .

وفيه أنّ ظاهر ذيل آية الإسراء أنّ المراد بالطائر هو كتاب الأعمال دون كتاب القضاء كما يدلّ عليه قوله : «اقرء كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » .

وقيل : معنى « بل أنتم قوم تفتنون » أي تعذّبون ، و ماذكرناه أوّلا أنسب .

قوله تعالى : « و كان في المدينة تسعة رهط » الخ قال الراغب : الرهط العصابة دون العشرة وقيل إلى الأربعين انتهى ، وقيل : الفرق بين الرهط والنفر أنّ الرهط من الثلاثة أو السبعة إلى العشرة و النفر من الثلاثة إلى التسعة انتهى .

قيل: المراد بالرهط الأشخاص ولذا وقع تمييزا للتسعة لكونه في معنى الجمع فقد كان المتقاسمون تسعة رجال .

قوله تعالى : « قالوا تقاسموا بالله لنبيّتنّه و أهله ثمّ لنقولنّ لوليّه ماشهدنا مهلك أهله و إنّا لصادقون » التقاسم المشاركة في القسم ، و التبييت القصد بالسوء ليلا ، و أهل الرجل من يجمعه و إيّاهم بيت أو نسب أودين ، ولعلّ المراد بأهله زوجه وولده بقرينة قوله بعد : « ثمّ نقول لوليّه ماشهدنا» ، وقوله : «وإنّا لصادقون» معطوف على قوله : « ماشهدنا » فيكون من مقول القول .

والمعنى قال الرهط المفسدون وقد تقاسموا بالله : لنقتلنّه وأهله بالليل ثمّ نقول

لوليّه إذا عقّبنا وطلب الثار : ما شهدنا هلاك أهله وإنّا لصادقون في هذا القول ، و نفي مشاهدة مهلك أهله نفي لمشاهدة مهلك نفسه بالملازمة أو الأولويّة ، على ما قيل .

و ربّما قيل : إنّ قوله : « وإنّا لصادقون » حال من فاعل نقول أي نقول لوليّه كذا والحال أنّا صادقون في هذا القول لأنّا شهدنا مهلكه و أهله جميعا لا مهلك أهله فقط .

ولا يخفى ما فيه من التكلّف وقد وجّه بوجوه اُخر أشدّ تكلّفا منه ولاملزم لأصل الحاليّة .

قوله تعالى : « و مكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون » أمّا مكرهم فهو التواطي على تبييته وأهله والتقاسم بشهادة السياق السابق وأمّا مكره تعالى فهو تقديره هلاكهم جميعا بشهادة السياق اللاحق .

قوله تعالى : «فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنّا دمّرناهم و قومهم أجمعين» التدمير الإهلاك ، وضمائر الجمع للرهط ، و كون عاقبة مكرهم هو إهلاكهم وقومهم من جهة أنّ مكرهم استدعى المكر الإلهيّ على سبيل المجازاة واستوجب ذلك إهلاكهم وقومهم .

قوله تعالى : «فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا» الخ الخاوية الخالية من الخواء بمعنى الخلاء ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « وأنجينا الّذين آمنوا وكانوا يتّقون » فيه تبشير للمؤمنين بالإنجاء ، وقد أردفه بقوله : « و كانوا يتّقون » إذ التقوى كالمجنّ للإيمان و قد قال تعالى : « و العاقبة للمتّقين » الأعراف : ١٢٨ و قال : « و العاقبة للتقوى » طه : ١٣٢ .

✡✡✡

وَ لُوطاً اِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اَتَاْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَ اَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) اَئِنَّكُمْ لَتَاْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ اَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ اِلاَّ اَنْ قَالُوا اَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ اِنَّهُمْ اُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَاَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ اِلاَّ امْرَاَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَاَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨) .

﴿ بيان ﴾

إجمال قصّة لوط عليه السلام و هي كسابقتها في غلبة جانب الإنذار على جانب التبشير .

قوله تعالى : «ولوطا إذقال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون» معطوف على موضع «أرسلنا» في القصّة السابقة بفعل مضمر والتقدير ولقد أرسلنا لوطا . كذا قيل ، و يمكن أن يكون معطوفا على أصل القصّة بتقدير اذكر والفاحشة هي الخصلة البالغة في الشناعة والمراد بها اللواط .

وقوله : «وأنتم تبصرون» أي وأنتم في حال يرى بعضكم بعضا وينظر بعضكم إلى بعض حين الفحشاء فهو على حدّ قوله في موضع آخر : «وتأتون في ناديكم المنكر» العنكبوت ٢٩ و قيل : المراد إبصار القلب و محصّله العلم بالشناعة و هو بعيد .

قوله تعالى : «أئنّكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون» الاستفهام للإنكار ، و دخول أداتي التأكيد ـ إنّ واللاّم ـ على الجملة الاستفهاميّة للدلالة على أنّ مضمون الجملة من الاستبعاد بحيث لايصدّقه أحد والجملة على أيّ حال في محلّ التفسير للفحشاء .

وقوله : «بل أنتم قوم تجهلون» أي مستمرون على الجهل لا فائدة في توبيخكم والإنكار عليكم فلستم بمرتدعين ، و وضع « تجهلون » بصيغة الخطاب موضع « يجهلون» من وضع المسبّب موضع السبب كأنّه قيل : «بل أنتم قوم يجهلون فأنتم تجهلون » .

قوله تعالى : « فما كان جواب قومه إلّا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنّهم اُناس يتطهّرون» أي يتنزّهون عن هذا العمل وهو وارد مورد الاستهزاء .

قوله تعالى : «فأنجيناه وأهله إلاّ امرأته قدّرناها من الغابرين» المراد بأهله أهل بيته لقوله تعالى : «فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » الذاريات : ٣٦ وقوله: « قدّرناها من الغابرين » أي جعلناها من الباقين في العذاب .

قوله تعالى : «وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين» المراد بالمطر الحجارة من سجّيل لقوله تعالى : «وأمطرنا عليهم حجارة من سجّيل » ٧٤ ، فقوله :«مطرا» يدلّ بتنكيره على النوعيّة أي أنزلنا عليهم مطراً له نبأ عظيم .



☆ ☆ ☆

قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ وَسَلَامٌ عَلٰى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفٰى آللّٰهُ خَيْرٌ اَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)
اَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْاَرْضَ وَ اَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاۤءِ مَاۤءً فَاَنْبَتْنَا بِهٖ حَدَاۤئِقَ
ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ اَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ءَاِلٰهٌ مَعَ اللّٰهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ
يَعْدِلُونَ (٦٠) اَمَّنْ جَعَلَ الْاَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا اَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا
رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ءَاِلٰهٌ مَعَ اللّٰهِ بَلْ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) اَمَّنْ
يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ اِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوۤءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفَاۤءَ الْاَرْضِ ءَاِلٰهٌ مَعَ
اللّٰهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) اَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَمَنْ
يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ءَاِلٰهٌ مَعَ اللّٰهِ تَعَالَى اللّٰهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣)
اَمَّنْ يَبْدَءُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاۤءِ وَ الْاَرْضِ ءَاِلٰهٌ
مَعَ اللّٰهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِى
السَّمٰوَاتِ وَالْاَرْضِ الْغَيْبَ اِلَّا اللّٰهُ وَمَا يَشْعُرُونَ اَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ
ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الْاٰخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦)
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ءَاِذَا كُنَّا تُرَاباً وَ آبَاۤؤُنَا اَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا
هٰذَا نَحْنُ وَآبَاۤؤُنَا مِنْ قَبْلُ اِنْ هٰذَا اِلَّا اَسَاطِيرُ الْاَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا
فِى الْاَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥) إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١) .

﴿ بيان ﴾

انتقال من القصص الّتي قصّتها سبحانه وهي نماذج من سنّته الجارية في النوع الإنسانيّ من حيث هدايته وإراءته لهم طريق سعادتهم في الحياة و إكرامه من اهتدى منهم إلى الصراط المستقيم بالاصطفاء وعظيم الآلاء وأخذه من أشرك به وأعرض عن ذكره و مكر به بعذاب الاستئصال وأليم النكال .

إلى حمده والسلام على عباده المصطفين وتقرير أنّه هو المستحقّ للعبوديّة دون غيره ممّا يشركون ثمّ سرد الحديث في التوحيد و إثبات المعاد وما يناسب ذلك

من متفرّقات المعارف الحقّة فسياق آيات السورةشبيه بما في سورة مريم من السياق على مامرّ .

قوله تعالى : « قل الحمد لله وسلام على عباده الّذين اصطفى آلله خير أم مايشر كون » لمّا قصّ من قصص الأنبياء وأممهم ماقصّ وفيها بيان سنّته الجارية في الأمم الماضين ومافعل بالمؤمنين منهم من الاصطفاء ومزيد الإحسان كما في الأنبياء منهم ومافعل بالكافرين من العذاب والتدمير ـ ولم يفعل إلّا الخير الجميل ولاجرت سنّته إلّا على الحكمة البالغة ـ انتقل منها إلى أمر نبيّه بأن يحمده ويثني عليه وأن يسلّم على المصطفين من عباده وقرّر أنّه تعالى هو المتعيّن للعبادة .

فهو انتقال من القصص إلى التحميد والتسليم والتوحيد وليس باستنتاج وإن كان في حكمه وإلّا قيل : فقل الحمد لله الخ أوفالله خير الخ .

فقوله : «قل الحمد لله» أمر بتحميده وفيه إرجاع كلّ حمد إليه تعالى لما تقرّر بالآيات السابقة أنّ مرجع كلّ خلق وتدبير إليه و هو المفيض كلّ خير بحكمته و الفاعل لكلّ جميل بقدرته .

وقوله : « وسلام على عباده الّذين اصطفى» معطوف على ماقبله من مقول القول وفي التسليم لاُولئك العباد المصطفين نفي كلّ ما في نفس المسلّم من جهات التمانع و التضادّ ، لما عندهم من الهداية الإلهيّة و آثارها الجميلة ـ على مايقتضيه معنى السلام ـ ففي الأمر بالسلام أمر ضمنيّ بالتهيّؤ لقبول ماعندهم من الهدى و آثاره فهو بوجه في معنى قوله تعالى : « اُولئك الّذين هدى الله فبهداهم اقتده » الأنعام : ٩٠ فافهمه .

وقوله : « آلله خير أمّا يشر كون » من تمام الخطاب للنبيّ ﷺ والاستفهام للتقرير ومحصّل المراد أنّه إذاكان الثناء كلّه لله وهو المصطفي لعباده المصطفين فهو خير من آلهتهم الّذين يعبدونهم ولا خلق ولاتدبيرلهم يحمدون عليه ولاخير بأيديهم يفيضونه على عبادهم .

قوله تعالى : « أمّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء »

إلى آخر الآية ، الحدائق جمع حديقة وهي البستان المحدود المحوّط بالحيطان و ذات بهجة صفة حدائق قال في مجمع البيان : ذات بهجة أي ذات منظر حسن يبتهج به من رآه ولم يقل : ذوات بهجة لأنّه أراد تأنيث الجماعة ولو أراد تأنيث الأعيان لقال : ذوات . انتهى .

و أم في الآية منقطعة تفيد معنى الإضراب ، و « من » مبتدء خبره محذوف وكذا الشقّ الآخر من الترديد والاستفهام للتقرير و حملهم على الإقرار بالحقّ والتقدير على ما يدلّ عليه السياق بل أمن خلق السماوات والأرض الخ خير أم ما يشركون ، و الأمر على هذا القياس في الآيات الأربع التالية .

و معنى الآية بل أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم أي لنفعكم من السماء وهي جهة العلو ماء و هو المطر فأنبتنا به أي بذلك الماء بساتين ذات بهجة ونضارة ماكان لكم أي لاتملكون وليس في قدرتكم أن تنبتوا شجرها . إله آخر مع الله سبحانه - وهو إنكار وتوبيخ .

و في الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب بالنسبة إلى المشركين والنكتة فيه تشديد التوبيخ بتبديل الغيبة حضورا فإنّ مقام الآيات السابقة على هذه الآية مقام التكلّم ممّن يخاطب أحد خواصّه بحضرة من عبيده المتمرّدين المعرضين عن عبوديّته يبثّ إليه الشكوى وهو يسمعهم حتّى إذا تمّت الحجّة وقامت البيّنة كما في قوله : « آللّه خير أمّا يشركون » هاج به الوجد و الأسف فتوجّه إليهم بعد الإعراض فأخذ في حملهم على الإقرار بالحقّ بذكر آية بعد آية و إنكار شركهم و توبيخهم عليه بعدولهم عنه إلى غيره و عدم علم أكثرهم وقلّة تذكّرهم مع تعاليه عن شركهم وعدم برهان منهم على ما يدّعون .

و قوله : « بل هم قوم يعدلون » أي عن الحقّ إلى الباطل و عن الله سبحانه إلى غيره و قيل : أي يعدلون بالله غيره ويساوون بينهما .

و في الجملة التفات من الخطاب إلى الغيبة بالنسبة إلى المشركين و رجوع إلى خطاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والإضراب فيه لبيان أن لاجدوى للسير في حملهم على الحقّ

فإنّهم عادلون عنه .

قوله تعالى : « أمّن جعل الأرض قرارا » إلى آخر الآية ، القرار مصدر بمعنى اسم الفاعل أي القارّ المستقرّ ، والخلال جمع خلل بفتحتين و هو الفرجة بين الشيئين والرواسي جمع راسية و هي الثابتة والمراد بها الجبال الثابتات ، والحاجز هو المانع المتخلّل بين الشيئين .

والمعنى بل أمن جعل الأرض مستقرّة لا تميد بكم و جعل في فرجها الّتي في جوفها أنهارا و جعل لها جبالا ثابتة و جعل بين البحرين مانعا من اختلاطهما وامتزاجهما هو خير أم ما يشركون ؟ و الكلام في قوله : « ءإله مع الله بل أكثرهم لايعلمون » كالكلام في نظيره من الآية السابقة .

قوله تعالى : « أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء و يجعلكم خلفاء الأرض ءإله مع الله قليلا ما تذكّرون » المراد بإجابة المضطرّ إذا دعاه استجابة دعاء الداعين و قضاء حوائجهم و إنّما اُخذ وصف الاضطرار ليتحقّق بذلك من الداعي حقيقة الدعاء والمسألة إذ مالم يقع الإنسان في مضيقة الاضطرار و كان في مندوحة من المطلوب لم يتمحّض منه الطلب وهو ظاهر .

ثمّ قيّده بقوله : « إذا دعاه » للدلالة على أنّ المدعوّ يجب أن يكون هو الله سبحانه وإنّما يكون ذلك عند ما ينقطع الداعي عن عامّة الأسباب الظاهريّة ويتعلّق قلبه بربّه وحده وأمّا من تعلّق قلبه بالأسباب الظاهريّة فقط أو بالمجموع من ربّه و منها فليس يدعو ربّه و إنّما يدعو غيره .

فإذا صدق في الدعاء وكان مدعوّه ربّه وحده فإنّه تعالى يجيبه و يكشف السوء الّذي اضطرّه إلى المسألة كما قال تعالى : « ادعوني أستجب لكم» المؤمن : ٦٠ فلم يشترط للاستجابة إلّا أن يكون هناك دعاء حقيقة و أن يكون ذلك الدعاء متعلّقا به وحده ، وقال أيضا : « و إذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب اُجيب دعوة الداع إذا دعان» البقرة : ١٨٦ ، وقد فصّلنا القول في معنى الدعاء في الجزء الثاني من الكتاب في ذيل الآية .

و بما مرّ من البيان يظهر فساد قول بعضهم : إنّ اللاّم في « المضطرّ » للجنس دون الاستغراق فكم من مضطرّ يدعو فلا يجاب فالمراد إجابة دعاء المضطرّ في الجملة لا بالجملة .

وجه الفساد أنّ مثل قوله : « ادعوني أستجب لكم » وقوله : « فإنّي قريب اُجيب دعوة الداع إذا دعان » يأبى تخلّف الدعاء عن الاستجابة ، وقوله : كم من مضطرّ يدعو فلا يجاب ، غير مسلّم إذا كان دعاء حقيقة لله سبحانه وحده كما تقدّم بيانه .

على أنّ هناك آيات كثيرة تدلّ على أنّ الإنسان يتوجّه عند الاضطرار كركوب السفينة نحو ربّه فيدعوه بالإخلاص فيستجاب له كقوله تعالى : « و إذا مسّ الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما » الآية يونس : ١٢ ، و قوله : « حتّى إذا كنتم في الفلك ـ إلى قوله ـ وظنّوا أنّهم قد اُحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين » يونس : ٢٢ و كيف يتصوّر تعلّق النفس بتوجّهها الغريزيّ الفطريّ بأمر لا اطمئنان لها به فما قضاء الفطرة في ذلك إلّا كقضائها عند إدراك حاجتها الوجوديّة إلى من يوجدها و يدبّر أمرها أنّ هناك أمرا يرفع حاجتها و هو الله سبحانه .

فإن قلت : نحن كثيرا ما نتوسّل في حوائجنا من الأسباب الظاهريّة بما لا نقطع بفعليّة تأثيره في رفع حاجتنا و إنّما نتعلّق به رجاء أن ينفعنا إن نفع .

قلت : هذا توسّل فكريّ مبدؤه الطمع والرجاء وهو غير التوسّل الغريزيّ الفطريّ نعم في ضمنه نوع من التوجّه الغريزيّ الفطريّ و هو التسبّب بمطلق السبب و مطلق السبب لا يتخلّف فافهم .

و ظهر أيضا فساد قول من قال : المراد بالمضطرّ إذا دعاه المذنب إذا استغفره فإنّ الله يغفر له وهو إجابته .

و فيه أنّ إشكال الاستغراق بحاله فما كلّ استغفار يستتبع المغفرة ولا كلّ مستغفر يغفر له . على أنّه لا دليل على تقييد إطلاق المضطرّ بالمذنب العاصي .

و ذكر بعضهم : أنّ الاستغراق بحاله لكن ينبغي تقييد الإجابة بالمشيّة كما وقع ذلك في قوله تعالى : « فيكشف ما تدعون إليه إن شاء » الأنعام : ٤١ .

و فيه أنّ الآية واقعة في سياق لا تصلح معه لتقييد الإجابة في آية المضطرّ و هو قوله تعالى : « قل أرأيتم إن أتاكم عذاب‌الله أو أتتكم الساعة أغيرالله تدعون إن كنتم صادقين بل إيّاه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء » فالساعة من القضاء المحتوم لا يتعلّق بكشفها طلب حقيقيّ ، و أمّا العذاب الإلهيّ فإن طلب كشفه بتوبة و إيمان حقيقيّ فإنّ الله يكشفه كما كشف عن قوم يونس وإن لم يكن كذلك بل احتيالا للنجاة منه فلا لعدم كونه طلبا حقيقيّا بل مكراً في صورة الطلب كما حكاه‌الله عن فرعون لمّا أدركه الغرق « قال آمنت أنّه لاإله إلّا الّذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين آلآن وقد عصيت قبل و كنت من‌المفسدين» يونس : ٩١ ، وحكى عن أقوام آخرين أخذهم بالعذاب : « قالوا يا ويلنا إنّا كنّا ظالمين فمازالت تلك دعواهم حتّى جعلناهم حصيداً خامدين » الأنبياء : ١٥ .

وبالجملة فمورد قوله : « فيكشف ما تدعون إليه إن شاء » لمّا كان ممّا يمكن أن يكون الطلب فيه حقيقيّاً أوغير حقيقيّ كان من اللازم تقييد الكشف والإجابة فيه بالمشيّة فيكشف الله عنهم إن شاء و ذلك في مورد حقيقة الطلب والإيمان ولا يكشف إن لم يشأ و هذا غير مورد آية المضطرّ و سائر آيات إجابة الدعوة الّذي يتضمّن حقيقة الدعاء من‌الله سبحانه وحده .

و قوله : « و يجعلكم خلفاء الأرض » الّذي يعطيه السياق أن يكون المراد بالخلافة الخلافة الأرضيّة الّتي جعلها الله للإنسان يتصرّف بها في الأرض و مافيها من الخليقة كيف يشاء كما قال تعالى : « وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة » البقرة : ٣٠ .

وذلك أنّ تصرّفاته الّتي‌يتصرّف بها في الأرض وما فيها بخلافته اُمورمرتبطة بحياته متعلّقة بمعاشه فالسوء الّذي يوقعه موقع الاضطرار و يسأل‌الله كشفه لامحالة شيء من الأشياء الّتي تمنعه التصرّف أو بعض التصرّف فيها و تغلق عليه باب الحياة

والبقاء و ما يتعلّق بذلك أو بعض أبوابها ففي كشف السوء عنه تتميم لخلافته .

ويتّضح هذا المعنى مزيد اتّضاح لوحمل الدعاء والمسألة في قوله : « إذا دعاه» على الأعمّ من الدعاء اللسانيّ كما هو الظاهر من قوله تعالى : « و آتاكم من كلّ ما سألتموه وإن تعدّوا نعمةالله لا تحصوها » إبراهيم : ٣٤ ، وقوله : « يسأله من في السماوات ومن في الأرض» الرحمان : ٢٩ إذ يكون على هذا جميع ما اُوتي الإنسان ورزقه من التصرّفات من مصاديق كشف السوء عن المضطرّ المحتاج إثر دعائه فجعله خليفة يتبع إجابة دعائه و كشف السوء الّذي اضطرّه عنه .

و قيل : المعنى و يجعلكم خلفاء من قبلكم من الاُمم في الأرض تسكنون مساكنهم و تتصرّفون فيها بعدهم هذا . و ما قدّمناه من المعنى أنسب منه للسياق .

و قيل : المعنى : و يجعلكم خلفاء من الكفّار بنزول بلادهم و طاعةالله تعالى بعد شركهم وعنادهم . و فيه أنّ الخطاب في الآية كسائر الآيات الخمس الّتي قبلها للكفّار لا للمؤمنين كما عليه بناء الوجه .

و قوله : « قليلا ما تذكّرون » خطاب توبيخيّ للكفّار و قرىء « يذّكّرون» بالياء للغيبة وهوأرجح لموافقته ما في ذيل سائر الآيات الخمس كقوله : « بل هم قوم يعدلون» «بل أكثرهم لايعلمون» وغيرهما فإنّ الخطاب فيها جميعا للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بطريق الالتفات كما مرّ بيانه .

قوله تعالى : « أمّن يهديكم في ظلمات البرّ والبحر و من يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته » الخ والمراد بظلمات البرّ والبحر ظلمات الليالي في البرّ والبحر ففيه مجاز عقليّ ، و المراد بإرسال الرياح بشرا إرسالها مبشّرات بالمطر قبيل نزوله ، والرحمة المطر ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « أمّن يبدء الخلق ثمّ يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض» الخ بدء الخلق إيجاده ابتداء لأوّل مرّة و إعادته إرجاعه إليه بالبعث وتبكيت المشركين بالبدء والإعادة مع إنكارهم البعث كما سيذكره بقوله : « وقال الّذين كفروا » الخ بناء على ثبوت المعاد بالأدلّة القاطعة في كلامه فاُخذ كالمسلّم ثمّ استدرك

إنكارهم له أوشكّهم فيه في الآيات التالية .

وقيل : المراد ببدء الخلق ثمّ إعادته إيجاد الواحد من نوعه ثمّ إهلاكه وإيجاد نظيره بعده وبالجملة إيجاد المثل بعد المثل فلايرد أنّ المشركين منكرون للمعاد فكيف يحتجّ به عليهم . هذا وهو بعيد من ظاهر الآية .

وما يتضمّنه الآية من لطائف الحقائق القرآنية يظهر أن لابطلان في الوجود مطلقا بل ما أوجده الله تعالى بالبدء سيرجع إليه بالإعادة وما نشاهده من الهلاك فيها فقدان منّا له بعد وجدانه .

و أمّا ما أجمع عليه المتكلّمون من امتناع إعادة المعدوم في بعض الموجودات كالأعراض و اختلفوا في جواز إعادة بعض آخر كالجواهر ، لاارتباط له بمسألة البعث على ماتقرّره الآية ، فإنّ البعث ليس من باب إعادة المعدوم حتّى يمتنع بامتناع إعادته لوامتنعت بل البعث عود الخلق ورجوعه و هو خلق من غير بطلان إلى ربّه المبدىء له .

وقوله: «ومن يرزقكم من السماء والأرض» إشارة إلى ماوقع من تدبيره لأمرهم بين البدء و العود وهو رزقهم بأسباب سماوية كالأمطار وأسبابها و الأرضيّة كعامّة مايتغذّى به الإنسان من الأرضيّات .

وقوله : «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» لمّا ذكر سبحانه فصولا مشتملة على عامّة الخلق و التدبير مع الإشارة إلى ارتباط التدبير بعضه ببعض و ارتباط الجميع إلى الخلق وعاد الخلق والتدبير بذلك أمراً واحداً منتسباً إليه قائماً به تعالى و ثبت بذلك أنّه تعالى هو ربّ كلّ شيء وحده لاشريك له وكان لازم ذلك إبطال اُلوهيّة الآلهة الّتي يدعونها من دون الله ـ

ـ و ذلك أنّ الاُلوهيّة وهي استحقاق العبادة تتبع الربوبيّة الّتي هي تدبير عن ملك فالعبادة على ما يتداولونها إمّا لتكون شكراً للنعمة أو اتّقاء للنقمة و على أيّ حال ترتبط بالتدبير الّذي هو من شؤون الربوبيّه ـ

ـ وكان إبطال اُلوهيّة الآلهة من دون الله هو الغرض من الفصول الموردة في هذه

الآيات كما يدلّ على ذلك قوله بعد إيراد كلّ واحد من الفصول : « ء إله مع الله » .

أمر نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم بقوله : « قل هاتوا برهانكم » أن يطالبهم بالبرهان على مايدّعونه من اُلوهيّة آلهتهم ليظهر بانقطاعهم أنّهم مجازفون في دعواهم إذ لو استدلّوا على اُلوهيّتها بشي كان من الواجب أن ينسبوا إليها شيئاً من تدبير العالم و الحال أنّ جميع الخلق والتدبير له تعالى وحده .

قوله تعالى : «قل لايعلم من في السماوات والأرض الغيب إلّا الله ومايشعرون أيّان يبعثون » لمّا أمره صلّى الله عليه وآله وسلّم بعد إبطال اُلوهيّة آلهتهم بانتساب الخلق والتدبير إليه تعالى وحده أن يطالبهم بالبرهان على مايدّعونه أمره ثانياً أن يواجههم ببرهان آخر على بطلان اُلوهيّة آلهتهم و هو عدم علمهم بالغيب وعدم شعورهم بالساعة وأنّهم أيّان يبعثون مع أنّه لايعلم أحد ممّن في السماوات والأرض ـ و منهم آلهتهم الّذين هم الملائكة و الجنّ وقدّيسوا البشر ـ الغيب و ما يشعرون أيّان يبعثون ، ولو كانوا آلهة لهم تدبير أمر الخلق ـ و من التدبير الجزاء يوم البعث ـ لعلموا بالساعة .

وقد ظهر بهذا البيان أنّ قوله : «لايعلم من في السماوات و الأرض الغيب إلّا الله » برهان مستقلّ على بطلان اُلوهيّة آلهتهم واختصاص الاُلوهيّة به تعالى وحده و أنّ قوله : « ومايشعرون أيّان يبعثون» من عطف أوضح أفراد الغيب عليه وأهمّها علما بالنسبة إلى أمر التدبير .

وظهر أيضاً أنّ ضميري الجمع في «ومايشعرون أيّان يبعثون» لمن في السماوات لعدم تمام البيان بدونه .

فقول بعضهم : إنّ الضمير للمشركين و إن كان عدم الشعور بما ذكر عامّاً لئلّا يلزم التفكيك بينه وبين الضمائر الآتية الراجعة إليهم قطعا .

فيه أنّه ينافي ما سيقت له الآية الكريمة من البيان كما قدّمنا الإشارة إليه والتفكيك بين الضمائر مع وجود القرينة لابأس به .

قوله تعالى : « بل ادّارك علمهم في الآخرة بل هم في شكّ منها بل هم منها

عمون » ادّارك في الأصل تدارك والتدارك تتابع أجزاء الشيء بعضها بعد بعض حتّى تنقطع و لا يبقى منها شيء ، ومعنى تدارك علمهم في الآخرة أنّهم صرفوا ماعندهم من العلم في غيرها حتّى نفدعلمهم فلم يبق منه شيء يدركون به أمرالآخرة على حدّ قوله تعالى : « فأعرض عمّن تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » النجم : ٣٠ و« عمون » جمع عمي .

لمّا انتهى احتجاجه تعالى إلى ذكر عدم شعور أحد غيره تعالى بوقت البعث وتبكيت المشركين بذلك رجع إلى نبيّه ﷺ و ذكّره أنّهم في معزل عن الخطاب بذلك إذلا خبرلهم عن شيء من أُمور الآخرة فضلا عن وقت قيام الساعة و ذلك أنّهم صرفواما عندهم من العلم في جهات الحياة الدنيا فهم في جهل مطلق بالنسبة إلى أُمور الآخرة بل هم في شكّ من الآخرة يرتابون في أمرها كما يظهر من احتجاجاتهم على نفيها المبنيّة على الاستبعاد بل هم منها عمون والله أعمى قلوبهم عن التصديق بها والاعتقاد بوجودها .

وقد ظهر بهذا البيان أنّ تكرّر كلمة الإضراب لبيان مراتب الحرمان من العلم بالآخرة و أنّهم في أعلاها فقوله : «بل ادّارك علمهم في الآخرة» أي لاعلم لهم بها كأنّها لم تقرع سمعهم ، وقوله . «بل هم في شكّ منها» أي أنّه قرع سمعهم خبرها و ورد قلوبهم لكنّهم ارتابوا ولم يصدّقوا بها ، وقوله : « بل هم منها عمون » أي إنّهم لم ينقطعوا عن الاعتقاد بها من عند أنفسهم وباختيار منهم بل الله سبحانه أعمى أبصار قلوبهم فصاروا عمين فهيهات أن يدركوا من أمرها شيئاً .

وقيل : المراد بتدارك علمهم تكامله و بلوغه حدّ اليقين لتكامل الحجج الدالّة على حقّيّة البعث و الجملة مسوقة للتهكّم وفيه أنّه لايلائم ما يتبعه من الإضراب بالشكّ والعمى .

قوله تعالى : «وقال الّذين كفروا إذا متنا وكنّا ترابا وآباؤنا أئنّا لمخرجون ـ إلى قوله ـ الأوّلين » حكاية حجّة منهم لنفي البعث مبنيّة على الاستبعاد أي كيف

يمكن أن نخرج من الأرض بشراً تامّين كما نحن اليوم وقد متنا و كنّا ترابا نحن و آباؤ نا كذلك ؟

وقوله : « لقد وعدنا هذا نحن و آباؤنا من قبل » حجّة اُخرى منهم مبنيّة على الاستبعاد أي لقد وعدنا هذا وهو البعث بعدالموت نحن و آباؤنا وُعدوه قبل أن يعدنا هذا النبيّ و الّذين وعدوا قبلاهم الأنبياء الماضون فهووعد قديم لم نزل نوعد به ولو كان خبرا صادقا ووعداً حقّا لوقع إلى هذا اليوم و إذ لم يقع فهو من الخرافات الّتي اختلقها الأوّلون و كانوا مولعين باختلاق الأوهام و الخرافات والإصغاء إليها .

قوله تعالى : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين » إنذار وتخويف لهم على إنكارهم وعد الأنبياء بالبعث بأمرهم أن يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة المجرمين المكذّبين للأنبياء المنذرين لهم بالبعث فإنّ في النظر إلى عاقبة أمرهم على ماتدلّ عليه مساكنهم الخربة وديارهم الخالية كفاية للمعتبرين من اُولي الأبصار ، و في التعبير عن المكذّبين بالمجرمين لطف بالمؤمنين في ترك الجرائم . كذا قيل .

ويمكن أن تقرّر الآية حجّة تدلّ على المعاد وتقريبها أنّ انتهاء عاقبة أمر المجرمين إلى عذاب الاستئصال دليل على أنّ الإجرام و الظلم من شأنه أن يؤاخذ عليه وأنّ العمل إحساناً كان أو إجراماً محفوظ على عامله سيحاسب عليه و إذ لم تقع عامّة هذا الحساب والجزاء - وخاصّة على الأعمال الصالحة - في الدنيا فذلك لامحالة في نشأة اُخرى وهي الدار الآخرة .

فتكون الآية في معنى قوله تعالى : «أم نجعل الّذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتّقين كالفجّار» ص : ٢٨ و يؤيّد هذا التقرير قوله: « عاقبة المجرمين » ولو كان المراد تهديد مكذّبي الرسل وتخويفهم كان الأنسب أن يقال: عاقبة المكذّبين ، كما تقدّمت الإشارة إليه .

قوله تعالى : « ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق ممّا يمكرون» أي لا يحزنك

إصرارهم على الكفر و الجحود ولايضق صدرك من مكرهم لإبطال دعوتك وصدّهم الناس عن سبيل الله فإنّهم بعين الله وليسوا بمعجزيه وسيجزيهم بأعمالهم .

فالآية مسوقة لتطييب نفس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وقوله : « ولاتكن في ضيق » الخ معطوف على ماقبله عطف التفسير .

قوله تعالى : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » الظاهر أنّ المراد بالوعد الوعد بعذاب المجازاة أعمّ من الدنيا والآخرة ، والسياق يؤيّد ذلك والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الّذي تستعجلون » قالوا: إنّ اللاّم في « ردف لكم » مزيدة للتأكيد كالباء في قوله : « ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة » البقره : ١٩٨ ، و المعنى تبعكم و لحق بكم ، وقيل : إنّ ردف مضمّن معنى فعل يعدّى باللاّم .

والمراد ببعض الّذي يستعجلونه هو عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة فإنّهم كانوا يستعجلون إنجاز ماوعدهم الله من الحكم الفصل ، و هو ملازم لعذابهم ، و عذابهم في الدنيا بعض العذاب الّذي يستعجلونه باستنجاز الوعد ، ولعلّ مراد الآية به عذاب يوم بدر كما قيل .

قالوا : إنّ « عسى ولعلّ » من الله تعالى واجب لأنّ حقيقة الترجّي مبنيّة على الجهل ولايجوز عليه تعالى ذلك فمعنى قوله : « عسى أن يكون ردف لكم » سيردفكم ويأتيكم العذاب محقّقاً .

وفيه أنّ معنى الترجّي والتمنّي ونحوهما كما جاز أن يقوم بنفس المتكلّم يجوز أن يقوم بالمقام أوبالسامع أو غيرهما وهو في كلامه تعالى قائم بغير المتكلّم من المقام وغيره وما في الآية من الجواب لمّا اُرجع إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان الرجاء المدلول عليه بكلمة عسى قائما بنفسه الشريفة والمعنى قل أرجو أن يكون ردف لكم العذاب .

وفي تفسير أبي السعود : وعسى ولعلّ وسوف في مواعيد الملوك بمنزلة الجزم

بها ، وإنّما يطلقونها إظهاراً للوقار ، وإشعاراً بأنّ الرمز من أمثالهم كالتصريح ممّن عداهم وعلى ذلك مجرى وعدالله تعالى ووعيده انتهى وهووجه وجيه .

ومعنى الآية قل لهؤلاء السائلين عن وقت الوعد : أرجو أن يكون تبعكم بعض الوعد الّذي تستعجلونه و هوعذاب الدنيا الّذي يقرّبكم من عذاب الآخرة ويؤدّيكم إليه، وفي التعبير بقوله : « ردف لكم » إيماء إلى قربه .

قوله تعالى : « وإنّ ربّك لذو فضل على الناس ولكنّ أكثرهم لا يشكرون» معنى الآية في نفسها ظاهر ووقوعها في سياق التهديد والتخويف يفيد أنّ تأخيره تعالى العذاب عنهم مع استحقاقهم ذلك إنّما هو فضل منه عليهم يجب عليهم شكره عليه لكنّهم لا يشكرونه ويسألون تعجيله .

قوله تعالى : « وإنّ ربّك ليعلم ما تكنّ صدورهم و ما يعلنون » أي إنّ تأخير العذاب ليس عن جهل منه تعالى بحالهم وما يستحقّونه بالكفر والجحود فإنّه يعلم ما تستره وتخفيه صدورهم وما يظهرونه .

ثمّ أكّد ذلك بأنّ كلّ غائبة - وهي ما من شأنه أن يغيب ويخفى في أيّ جهة من جهات العالم كان - مكتوب محفوظ عنده تعالى وهو قوله : « ومامن غائبة في السماء والأرض إلّا في كتاب مبين » .

قوله تعالى : « إنّ هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل - إلى قوله - العزيز العليم » تطييب لنفس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وتمهيد لما سيذكره من حقّيّة دعوته و تقوية لإيمان المؤمنين به ، وبهذا الوجه يتّصل بقوله قبلا : « فلا تحزن عليهم» الخ المشعر بحقّيّة دعوته .

فقوله : « إنّ هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل أكثر الّذي هم فيه يختلفون » يشير إلى مايقصّه القرآن من قصص الأنبياء ويبيّن الحقّ فيما اختلفوا فيه من أمرهم ومنه أمر المسيح عليه السلام ويبيّن الحقّ فيما اختلفوا فيه من المعارف والأحكام .

وقوله : « وإنّه لهدى ورحمة للمؤمنين» يشير إلى أنّه يهدي المؤمنين بماقصّه

على بني إسرائيل إلى الحقّ وأنّه رحمة لهم تطمئنّ به قلوبهم ويثبت الإيمان بذلك في نفوسهم .

وقوله : « إنّ ربّك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم » إشارة إلى أنّ القضاء بينهم إلى الله فهو ربّه العزيز الّذي لايغلب في أمره العليم لايجهل ولايخطىء في حكمه فهو القاضي بينهم بحكمه فلترض نفس النبيّ ﷺ بربّه العزيز العليم قاضياحكما ولترجع الأمر إليه كما ينبغي أن تفعل مثل ذلك في حقّ المشركين ولا تحزن عليهم ولا تكون في ضيق ممّا يمكرون .

قوله تعالى « فتوكّل على الله إنّك على الحقّ المبين » تفريع على مجموع ماأمر به قبال كفر المشركين واختلاف بني إسرائيل أي إنّ أمرهم جميعا إلى الله لا إليك فاتّخذه وكيلا فهو كافيك ولا تخافنّ شيأ إنّك في أمن من الحقّ .

قوله تعالى : «إنّك لاتسمع الموتى ـ إلى قوله ـ فهم مسلمون» تعليل للأمر بالتوكّل أي إنّما أمرناك بالتوكّل على الله في أمر إيمانهم و كفرهم لأنّهم موتى وليس في وسعك أن تسمع الموتى دعوتك و إنّهم صمّ لايسمعون وعمي ضالّون لاتقدر على إسماع الصمّ إذاولّوا مدبرين ـ ولعلّه قيّد عدم إسماع الصمّ بقوله « إذا ولّوا مدبرين » لأنّهم لولم يكونوا مدبرين لأمكن تفهيمهم بنوع من الاشارة ـ ولا على هداية العمي عن ضلالتهم ، وإنّما الّذي تقدر عليه هو أن تسمع من يؤمن بآياتنا الدالّة علينا وتهديهم فإنّهم لإذعانهم بتلك الحجج الحقّة مسلمون لنا مصدّقون بما تدلّ عليه .

وقد تبيّن بهذا البيان أوّلا أنّ المراد بالإسماع الهداية .

وثانيا أنّ المراد بالآيات الحجج الدالّة على التوحيد ومايتبعه من المعارف الحقّة .

وثالثا أنّ من تعقّل الحجج الحقّة من آيات الآفاق والأنفس بسلامة من العقل ثمّ استسلم لها بالإيمان والانقياد ليس هو من الموتى ولا ممّن ختم الله على سمعه وبصره .

﴿بحث روائي﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : «وسلام على عباده الّذين اصطفى» قال : هم آل محمّد عليهم السلام .

أقول : و رواه أيضا في جمع الجوامع عنهم عليهم السلام مرسلا مضمرا ، و قد عرفت فيما تقدّم من البيان في ذيل الآية أنّ الّذي يعطيه السياق أنّ المراد بهم بحسب مورد الآية الأنبياء المنعمّون بنعمة الاصطفاء وقد قصّ الله قصص جمع منهم فقوله عليه السلام - لو صحّت الرواية - هم آل محمّد عليهم السلام من قبيل الجري والانطباق .

و نظيرها ما رواه في الدرّ المنثور عن عدّة من أصحاب الكتب عن ابن عبّاس في الآية قال : هم أصحاب محمّد فهو - لو صحّت الرواية - إجراء منه وتطبيق .

ومنه يظهر ما فيما رواه أيضا عن عبد بن حميد وابن جرير عن سفيان الثوريّ في الآية قال : «نزلت في أصحاب محمّد خاصّة» فلا نزول ولا اختصاص .

وفي تفسير القمّي أيضا في قوله تعالى : «بل هم قوم يعدلون» قال : عن الحقّ .

وفيه في قوله تعالى : «أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه» الآية حدّثني أبي عن الحسن بن عليّ بن فضّال عن صالح بن عقبة عن أبي عبدالله عليه السلام قال : نزلت في القائم من آل محمّد عليهم السلام هو والله المضطرّ إذا صلّى في المقام ركعتين ودعا إلى الله عزّ وجلّ فأجابه ويكشف السوء ويجعله خليفة في الأرض .

أقول : و الرواية أيضا من الجري والآية عامّة .

وفي الدرّ المنثور أخرج الطبرانيّ عن سعد بن جنادة قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : من فارق الجماعة فهو في النار على وجهه لأنّ الله تعالى يقول : «أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض» فالخلافة من الله عزّ وجلّ فإن كان خيراً فهو يذهب به وإن كان شرّاً فهو يؤخذ به ، عليك أنت بالطاعة فيما أمر الله به .

أقول : الرواية لا تخلو من شيء فقد تقدّم أنّ المراد بالخلافة في الآية - على

مايشهدبه السياق ـ الخلافة الأرضيّة المقدّرة لكلّ إنسان وهو السلطة على ما في الأرض بأنواع التصرّف دون الخلافة بمعنى الحكومة على الاُمّة بإدارة رحى مجتمعهم .

ومع الغضّ عن ذلك فمتن الرواية لايخلو عن تدافع فإن كان المراد بكون الخلافة من الله تعالى أنّ سلطانه على الناس بتقدير من الله وبعبارة اُخرى انتسابها التكوينيّ إلى الله سبحانه كما ورد في ملك نمرود من قوله تعالى : « أن آتاه الله الملك » البقرة ٢٥٨ ، وقوله حكاية عن فرعون : « أليس لي ملك مصر » الزخرف : ٥١ فمن البيّن أنّ الخلافة بهذا المعنى لاتستتبع وجوب الطاعة وحرمة المخالفة و إلّا كان نقضا لأصل الدعوة الدينيّة و إيجابا لطاعة أمثال نمرود و فرعون و كم لها من نظير ، وإن كان المراد به الجعل الوضعيّ الدينيّ وبعبارة اُخرى انتسابها التشريعيّ إلى الله تعالى ثمّ وجبت طاعته فيما يأمر به و إن كان معصية كان ذلك نقضا صريحا للأحكام ، و إن كان الواجب طاعته في غير معصية الله لقوله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : « لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق » جازت مفارقة الجماعة في الجملة وهو يناقض صدر الرواية .

و نظير الإشكال يجري في قوله ذيلاً : « عليك أنت بالطاعة فيما أمرالله به » فلوكان المراد ممّا أمرالله به طاعة مقام الخلافة و إن كان في معصية كان نقضا صريحا لتشريع الأحكام وإن كان المراد به طاعةالله وإن استلزم معصية مقام الخلافة كان ناقضا لصدر الرواية .

وقد اتّضح اليوم بالأبحاث الاجتماعيّة أنّ إمضاء حكومة من لايحترم القوانين المقدّسة الجارية لايرضى به مجتمع عاقل رشيد فمن الواجب تنزيه ساحة مشرّع الدين عن ذلك ، والقول بأنّ مصلحة حفظ وحدة الكلمة واتّفاق الاُمّة أهمّ من حفظ بعض الأحكام بالمفارقة معناه جواز هدم حقيقة الدين لحفظ اسمه .

وفي الدرّ المنثور أيضا أخرج الطيالسيّ و سعيد بن منصور و أحمد و عبدبن حميد والبخاري ومسلم والترمذيّ والنسائي وابن جرير و ابن المنذر وابن أبي حاتم

و أبوالشيخ و ابن مردويه و البيهقيّ في الأسماء و الصفات عن مسروق قال : كنت متّكئا عند عائشة فقالت عائشة : ثلاث من تكلّم بواحدة منهنّ فقد أعظم على الله الفرية . قلت : و ماهنّ ؟ قالت : من زعم أنّ محمّدا رآى ربّه فقد أعظم على الله الفرية قال : و كنت متّكئا فجلست وقلت : يا امّ المؤمنين أنظريني ولاتعجلي عليّ ألم يقل الله : « ولقد رآه في الأفق المبين » « ولقد رآه نزلة اُخرى » ؟

فقالت : أنا أوّل هذه الامّة سأل هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : جبريل . لم أره على صورته الّتي خلق عليها غيرهاتين المرّتين رأيته منهبطا من السماء سادّاً أعظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض . قالت : ألم تسمع الله عزّ وجلّ يقول : « لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » ؟ أولم تسمع الله يقول : « وماكان لبشر أن يكلّمه الله إلّا وحيا - إلى قوله - عليّ حكيم » .

و من زعم أنّ محمّدا كتم شيأ من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله جلّ ذكره يقول : « ياأيّها الرسول بلّغ ما اُنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس» .

قالت : و من زعم أنّه يخبر الناس بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول : « قل لايعلم من في السماوات والأرض الغيب إلّا الله » .

أقول : و في متن الرواية شيء أمّا آيات الرؤية فإنّما تنفي رؤية الحسّ دون رؤية القلب وهي من الرؤية وراء الإيمان الّذي هو الاعتقاد وقد أشبعنا الكلام فيها في الموارد المناسبة له .

وأمّا قوله تعالى : « يا أيّها الرسول بلّغ » الآية فقدأوضحنا في تفسير الآية أنّها خاصّة غير عامّة ولو فرضت عامّة فإنّما تدلّ على أنّ كلّ ما اُنزل إليه ممّا فيه رسالة وجب عليه تبليغه ومن الجائز أن ينزل إليه ما يختصّ علمه به صلى الله عليه وآله وسلم فيكتمه عن غيره .

وأمّا قوله : « قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلّاالله » فلا يدلّ إلّا على اختصاص علم الغيب بالذات به تعالى كسائر آيات اختصاص الغيب به ، ولا

ينفي علم الغير به بتعليم منه تعالى كما يشير إليه قوله : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول » الجنّ : ٢٦ وقد حكى الله سبحانه نحواً من هذا الإخبار عن المسيح عليه السلام إذ قال : «وأُنبّئكم بما تأكلون وما تدّخرون » آل عمران : ٤٩ و من المعلوم أنّ القائل أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يخبر الناس بما يكون في غد لاينفي كون ذلك بتعليم من الله له .

وقد تواترت الأخبار على تفرّقها و تنوّعها من طرق الفريقين على إخباره صلّى الله عليه وآله و سلّم بكثير من الحوادث المستقبلة .



☆ ☆ ☆

وَ اِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ اَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْاَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ اَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَايُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ اُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتّٰى اِذَا جَاؤُا قَالَ اَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً اَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥) اَلَمْ يَرَوْا اَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِراً اِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْاَرْضِ اِلَّا مَنْ شَاءَ اللّٰهُ وَ كُلٌّ اَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللّٰهِ الَّذِي اَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ اِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ اِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) اِنَّمَا اُمِرْتُ اَنْ اَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَاُمِرْتُ اَنْ اَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَ اَنْ اَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدٰى فَاِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ اِنَّمَا اَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) .

﴿بيان﴾

هي من تمام الفصل السابق من الآيات تشير إلى البعث وبعض مايلحق بهمن الاُمور الواقعة وبعض أشراطه وتختم السورة بما يرجع إلى مفتتحها من الإنذار والتبشير .

قوله تعالى : « و إذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابّة من الأرض تكلّمهم أنّ الناس كانوا بآياتنا لايوقنون » مقتضى السياق ـ بما أنّ الآية متّصلة بما قبلها من الآيات الباحثة عن أمر المشركين المعاصرين للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أوخصوص أهل مكة من قريش وقدكانوا أشدّ الناس عداوة للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ودعوته ـ أنّ ضمائر « عليهم » و « لهم » و « تكلّمهم » للمشركين المحدّث عنهم لكن لالخصوصهم بل بما أنّهم ناس معنيّون بالدعوة فالمراد بالحقيقة عامّة الناس من هذه الاُمّة من حيث وحدتهم فيلحق بأوّلهم من الحكم مايلحق بآخرهم وهذا النوع من العناية كثير الورود في كلامه تعالى .

والمراد بوقوع القول عليهم تحقّق مصداق القول فيهم وتعيّنهم لصدقه عليهم كما في الآية التالية : « ووقع القول عليهم بماظلموا » أي حقّ عليهم العذاب فالجملة في معنى « حقّ عليهم القول » وقد كثر وروده في كلامه تعالى والفرق بين التعبيرين أنّ العناية في « وقع القول عليهم» بتعيّنهم مصداقا للقول وفي « حقّ عليهم القول » باستقرار القول وثبوته فيهم بحيث لايزول .

وأمّا ماهو هذا القول الواقع عليهم فالّذي يصلح من كلامه تعالى لأن يفسّر به قوله : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ » حم السجدة ٥٣ فإنّ المراد بهذه الآيات الّتي سيريهم غير الآيات السماويّة و الأرضيّة الّتي هي بمرآهم و مسمعهم دائماً قطعاً بل بعض آيات خارقة للعادة تخضع لها وتضطرّ للإيمان بها أنفسهم في حين لا يوقنون بشيء من آيات السماء والأرض الّتي هي تجاه أعينهم وتحت مشاهدتهم .

وبهذا يظهر أنّ قوله :«أنّ الناس كانوا بآياتنا لايوقنون» تعليل لوقوع القول عليهم والتقدير لأنّ الناس ، وقوله : «كانوا» لإفادة استقرار عدم الإيقان فيهم والمراد بالآيات الآيات المشهودة من السماء والأرض غير الآيات الخارقة ، وقرىء «إنّ» بكسر الهمزة وهي أرجح من قراءة الفتح فيؤيّد ماذكرناه وتكون الجملة بلفظها تعليلا من دون تقدير اللاّم .

وقوله : «أخرجنا لهم دابّة من الأرض تكلّمهم» بيان لآية خارقة من الآيات الموعودة في قوله : «سنريهم آياتنا في الآفاق و في أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ» وفي كونه وصفا لأمر خارق للعادة دلالة على أنّ المراد بالاخراج من الأرض إمّا الاحياء والبعث بعد الموت و إمّا أمر يقرب منه ، وأمّا كونها دابّة تكلّمهم فالدابّة مايدبّ في الأرض من ذوات الحياة إنسانا كان أوحيوانا غيره فان كان إنسانا كان تكليمه الناس على العادة وإن كان حيوانا أعجم كان تكليمه كخروجه من الأرض خرقا للعادة .

ولا نجد في كلامه تعالى مايصلح لتفسير هذه الآية وأنّ هذه الدابّة الّتي سيخرجها لهم من الأرض فتكلّمهم ماهي ؟ وماصفتها ؟ و كيف تخرج ؟ وماذا تتكلّم به؟ بل سياق الآية نعم الدليل على أنّ القصد إلى الإبهام فهو كلام مرموز فيه .

ومحصّل المعنى أنّه إذا آل أمر الناس ـ وسوف يؤل ـ إلى أن كانوا لايوقنون بآياتنا المشهودة لهم وبطل استعدادهم للإيمان بنا بالتعقّل والاعتبار آن وقت أن نريهم ماوعدنا إراءته لهم من الآيات الخارقة للعادة المبيّنة لهم الحقّ بحيث يضطرّون إلى الاعتراف بالحقّ فأخرجنا لهم دابّة من الأرض تكلّمهم .

هذا ما يعطيه السياق ويهدي إليه التدبّر في الآية من معناها ، وقد أغرب المفسّرون حيث أمعنوا في الاختلاف في معاني مفردات الآية وجملها والمحصّل منها وفي حقيقة هذه الدابّة وصفتها ومعنى تكليمها و كيفيّة خروجها و زمان خروجها وعدد خروجها والمكان الّذي تخرج منه في أقوال كثيرة لامعوّل فيها إلّا على التحكّم ولذا أضربنا عن نقلها والبحث عنها ومن أراد الوقوف عليها فعليه بالمطوّلات .

قوله تعالى : «ويوم نحشر من كلّ اُمّة فوجا ممّن يكذّب بآياتنا فهم يوزعون» الفوج ـ كما ذكره الراغب ـ الجماعة المارّة المسرعة ، والإيزاع إيقاف القوم وحبسهم بحيث يردّ أوّلهم على آخرهم .

وقوله : « ويوم نحشر » منصوب على الظرفيّة لمقدّر والتقدير و اذكر يوم نحشر و المراد بالحشر هو الجمع بعد الموت لأنّ المحشورين فوج من كلّ اُمّة ولا اجتماع لجميع الاُمم في زمان واحد وهم أحياء ، و«من» في قوله : «من كلّ اُمّة» للتبعيض ، وفي قوله : «ممّن يكذّب » للتبيين أو للتبعيض .

والمراد بالآيات في قوله : « يكذّب بآياتنا » مطلق الآيات الدالّة على المبدء والمعاد ومنها الأنبياء والأئمّة والكتب السماويّة دون الساعة ومايقع فيها وعند قيامها و دون الآيات القرآنيّة فقط لأنّ الحشر ليس مقصوراً على الاُمّة الإسلاميّة بل أفواج من اُمم شتّى .

ومن العجيب إصرار بعضهم على أنّ الكلام نصّ في أنّ المراد بالآيات ههنا وفي الآية التالية هي الآيات القرآنيّة قال : لأنّها هي المنطوية على دلائل الصدق الّتي لم يحيطوا بها مع وجوب أن يتأمّلوا ويتدبّروا فيها لا مثل الساعة وما فيها انتهى.

وفساده ظاهر لأنّ عدم كون أمثال الساعة و ما فيها مرادة لا يستلزم إرادة الآيات القرآنيّة مع ظهور أنّ المحشورين أفواج من جميع الاُمم وليس القرآن إلّا كتاباً لفوج واحد منهم .

وظاهر الآية أنّ هذا الحشر في غير يوم القيامة لأنّه حشر للبعض من كلّ اُمّة لا لجميعهم وقد قال الله تعالى في صفة الحشر يوم القيامة : « و حشرناهم فلم نغادر منهم أحداً » الكهف : ٤٧ .

وقيل : المراد بهذا الحشر هو الحشر للعذاب بعد الحشر الكلّي الشامل لجميع الخلق فهو حشر بعد حشر .

وفيه أنّه لو كان المراد الحشر إلى العذاب لزم ذكر هذه الغاية دفعاً للإبهام كما في قوله تعالى : «ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون حتّى إذا ما جاؤها»

حم السجدة : ٢٠ مع أنّه لم يذكر فيما بعدهذه الآية إلّا العتاب والحكم الفصل دون العذاب و الآية كماترى مطلقة لم يشرفيها إلى شيء يلوّح إلى هذا الحشر الخاصّ المذكور ، ويزيدها إطلاقا قوله بعدها : « حتّى إذا جاؤا» فلم يقل : حتّى إذا جاؤا العذاب أو النارأو غيرها .

ويؤيّد ذلك أيضاً وقوع الآية و الآيتين بعدها بعد نباء دابّة الأرض وهيمن أشراطالساعة وقبل قوله : « ونفخ في الصور» إلى آخر الآيات الواصفة لوقائع يوم القيامة ، ولامعنى لتقديم ذكرواقعة من وقائع يوم القيامة على ذكر شروعه ووقوع عامّة ما يقع فيه فإنّ الترتيب الوقوعيّ يقتضي ذكرحشرفوج من كلّ اُمّةلوكان من وقائع يوم القيامة بعد ذكر نفخ الصور وإتيانهم إليه داخرين .

وقد تنبّه لهذا الإشكال بعض من حمل الآية على الحشر يوم القيامة فقال : لعلّ تقديم ذكرهذه الواقعة على نفخالصور ووقوع الواقعة للإيذان بأنّ كلّا ممّا تضمّنه هذا و ذاكمن الأحوال طامّة كبرى وداهية دهياء حقيقة بالتذكير علىحيالها ولو روعي الترتيب الوقوعيّ لربّما توهّم أنّ الكلّ داهية واحدة .

وأنت خبير بأنّه وجه مختلق غير مقنع ، ولوكان كما ذكر لكان دفع توهّم كون الحشر المذكور في الآية في غير يوم القيامة بوضع الآية بعد آية نفخ الصور مع ذكر ما يرتفع به الإبهام المذكور أولى بالرعاية من دفعهذا التوهّم الّذي توهّمه .

فقدبان أنّ الآية ظاهرة في كون هذا الحشر المذكور فيها قبليوم القيامة وإن لم تكن نصّاًلايقبل التأويل .

قوله تعالى : « حتّى إذاجاؤا قال أكذّبتم بآياتي ولم تحيطوابها علما أم ماذا كنتمتعملون» المراد بالمجييء ـ بإعانة منالسياق ـ هوالحضور فيموطن الخطاب المدلول عليه بقوله : «قالأكذّبتم» الخ والمراد بالآيات ـ كماتقدّم فيالآيةالسابقة ـ مطلق الآيات الدالّة على الحقّ ، وقوله : « ولم تحيطوا بها علما » جملة حاليّة أي كذّبتم بها حال كونكم لاعلم لكم بها لإعراضكم عنها فكيف كذّبتم بمالاتعلمون

أي رميتموها بالكذب وعدم الدلالة من غير علم وقوله : « أم ماذا كنتم تعملون» أي غير التكذيب .

و المعنى حتّى إذا حضروا في موطن الخطاب قال الله سبحانه لهم : أكذّبتم بآياتي حالكونكم لم تحيطوا بها علما أم أيّ شيء كنتم تعملون غير التكذيب ، وفي ذلك عتابهم بأنّهم لم يشتغلوا بشيء غير تكذيبهم بآيات الله من غير أن يشغلهم عنه شاغل معذّر .

قوله تعالى : «فوقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون» الباء في«بما ظلموا» للسببيّة و « ما » مصدريّة أي وقع القول عليهم بسبب كونهم ظالمين ، وقوله : «فهم لاينطقون » تفريع على وقوع القول عليهم .

و بذلك يتأيّد أنّ المراد بالقول الّذي يقع عليهم قوله تعالى «إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين» الأنعام : ١٤٤ والمعنى ولكونهم ظالمين في تكذيبهم بالآيات لم يهتدوا إلى ما يعتذرون به فانقطعوا عن الكلام فهم لاينطقون .

و ربّما فسّر وقوع القول عليهم بوجوب العذاب عليهم والأنسب على هذا أن يكون المراد بالقول الواقع عليهم قضاؤه تعالى بالعذاب في حقّ الظالمين في مثل قوله : « ألا إنّ الظالمين في عذاب مقيم » الشورى : ٤٥ والمعنى ولكونهم ظالمين قضي فيهم بالعذاب فلم يكن عندهم ما ينطقون به ، والوجه السابق أوجه .

وأمّا تفسير وقوع القول بحلول العذاب و دخول النار فبعيد من السياق لعدم ملاءمته التفريع في قوله : « فهم لاينطقون » .

قوله تعالى: « ألم يروا أنّا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » لمّا وصف في الآيات السابقة أنّ كثيرا من الناس في صمم و عمى من استماع كلمة الحقّ والنظر في آيات الله و الاعتبار بهما ، ثمّ ذكر دابّة الأرض وأنّه سيخرجها آية خارقة للعادة تكلّمهم ثمّ ذكر أنّه سيحشر فوجا من كلّ اُمّة من المكذّبين فيعاتبهم فتتمّ عليهم الحجّة بقولهم بغير علم بالآيات لاعراضهم عنها وبّخهم في هذه الآية ولامهم على تكذيبها بالآيات مع الجهل أنّهم

كانوا يرون الليل الّذي يسكنون فيه بالطبع وأنّ هناك نهارا مبصرا يظهر لهم بها آيات السماء والأرض فلم لم يتبصّروا ؟ .

وقوله : «إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون» أي في جعل الليل سكنا يسكنون فيه والنهار مبصرا يبصرون فيه آيات السماء والأرض آيات لقوم فيهم خاصّة الإذعان والتصديق للحقّ اللائح لهم .

والمراد بالآيات العلامات والجهات الدالّة فيهما على التوحيد و ما يتبعه من حقائق المعارف ومن جملة ذلك دلالتهما على أنّ الإنسان عليه أن يسكن فيما من شأنه أن يسكن فيه ، وهو الليل الّذي يضرب بحجاب ظلمته على الأبصار ، ويتحرّك فيما من شأنه أن يتحرّك فيه وهو النهار المبصر الّذي يظهر به الأشياء الّتي تتضمّن منافع الحياة للأبصار .

فعلى الإنسان أن يسكت عمّا حجبته عنه ظلمة الجهل ولا يقول بغير علم ولا يكذّب بما لا يحيط به علما وأن يقول ويؤمن بما تجلّيه له بيّنات الآيات الّتي هي كالنهر المبصرة .

قوله تعالى : «ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات والأرض إلّا من شاء الله وكلّ أتوه داخرين» النفخ في الصور كناية عن إعلام الجماعة الكثيرين كالعسكر بما يجب عليهم أن يعملوا به جمعا كالحضور والارتحال وغير ذلك ، والفزع كما قال الراغب ـ انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف وهو من جنس الجزع والدخور الذلّة والصغار .

قيل : المراد بهذا النفخ النفخة الثانية للصور الّتي بها تنفخ الحياة في الأجساد فيبعثون لفصل القضاء ، ويؤيّده قوله في ذيل الآية : «وكلّ أتوه داخرين» والمراد به حضورهم عندالله سبحانه ، ويؤيّده أيضا استثناؤه «من شاء الله» من حكم الفزع ثمّ قوله فيمن جاء بالحسنة : «وهم من فزع يومئذ آمنون» حيث يدلّ على أنّ الفزع المذكور هو الفزع في النفخة الثانية .

وقيل : المراد به النفخة الاُولى الّتي يموت بها الأحياء بدليل قوله : «ونفخ

في الصورفصعق من في السماوات والأرض إلاّ من شاءالله ثمّ نفخ فيه اُخرى فإذاهم قيام ينظرون » الزمر : ٦٨ فإنّ الصعقة من الفزع وقد رتّبت على النفخة الاُولى و على هذا يكون المراد بقوله : « و كلّ أتوه داخرين » رجوعهم إلى الله سبحانه بالموت .

ولا يبعد أن يكون المراد بالنفخ في الصور يومئذ مطلق النفخ أعمّ ممّا يميت أو يحيي فإنّ النفخ كيفما كان من مختصّات الساعة ، و يكون ما ذكر من فزع بعضهم وأمن بعضهم من الفزع وسيرالجبال من خواصّ النفخة الاُولى و ما ذكر من إتيانهم داخرين من خواصّ النفخة الثانية ويندفع بذلك ما يورد على كلّ واحد من الوجهين السابقين .

وقد استثنى سبحانه جمعا من عباده من حكم الفزع العامّ الشامل لمن في السماوات والأرض ، و سيجيء كلام في معنى هذا الاستثناء في الكلام على قوله الآتي : « وهم من فزع يومئذ آمنون » .

و الظاهر أنّ المراد بقوله : « و كلّ أتوه داخرين » رجوع جميع من في السماوات والأرض حتّى المستثنين من حكم الفزع و حضورهم عنده تعالى وأمّا قوله : « إنّهم لمحضرون إلّا عبادالله المخلصين » الصافات : ١٢٧ ، فالظاهر أنّ المراد نفي إحضارهم في الجمع للحساب و السؤال لانفي بعثهم و رجوعهم إلى الله و حضورهم عنده فآيات القيامة ناصّة على عموم البعث لجميع الخلائق بحيث لا يشذّ منهم شاذّ .

و نسبة الدخور والذلّة إلى أوليائه تعالى لاتنافي مالهم من العزّة عندالله فإنّ عزّة العبد عندالله ذلّته عنده وغناه بالله فقره إليه نعم ذلّة أعدائه بما يرون لأنفسهم من العزّة الكاذبة ذلّة هوان .

قوله تعالى: « وترى الجبال تحسبها جامدة و هي تمرّ مرّ السحاب صنع الله الّذي أتقن كلّ شيء إنّه خبير بما تفعلون » الآية بما أنّها واقعة في سياق آيات القيامة محفوفة بها تصف بعض ما يقع يومئذ من الآيات و هو سير الجبال وقد قال

تعالى في هذا المعنى أيضا : « و سيّرت الجبال فكانت سرابا » النبأ : ٢٠ ، إلى غير ذلك .

فقوله : « و ترى الجبال » الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والمراد به تمثيل الواقعة كما في قوله : « و ترى الناس سكارى » الحج : ٢ ، أي هذا حالها المشهودة في هذا اليوم تشاهدها لو كنت مشاهدا ، و قوله : « تحسبها جامدة » أي تظنّها الآن ولم تقم القيامة بعد جامدة غير متحرّكة ، والجملة معترضة أو حاليّة .

و قوله : « و هي تمرّ مرّ السحاب » حال من الجبال و عاملها « ترى » أي تراها إذا نفخ في الصور حال كونها تسير سير السحاب في السماء .

وقوله : « صنع الله الّذي أتقن كلّ شيء » مفعول مطلق لمقدّر أي صنعه صنعا وفي الجملة تلويح إلى أنّ هذا الصنع والفعل منه تعالى تخريب للدنيا و هدم للعالم لكنّه في الحقيقة تكميل لها و إتقان لنظامها لما يترتّب عليه من إنهاء كلّ شيء إلى غايته و إيصاله إلى وجهته الّتي هو مولّيها من سعادة أو شقاوة لأنّ ذلك صنع الله الّذي أتقن كلّ شيء فهو سبحانه لا يسلب الإتقان عمّا أتقنه ولا يسلّط الفساد على ما أصلحه ففي تخريب الدنيا تعمير الآخرة .

وقوله : « إنّه خبير بما تفعلون » قيل : إنّه تعليل لكون ما ذكر من النفخ في الصور وما بعده صنعا محكما له تعالى فإنّ علمه بظواهر أفعال المكلّفين و بواطنها ممّا يستدعي إظهارها و بيان كيفيّاتها على ما هي عليه من الحسن والسوء و ترتيب آثارها من الثواب والعقاب عليها بعد البعث والحشر وتسيير الجبال .

وأنت ترى ما فيه من التكلّف وأنّ السياق بعد ذلك كلّه لا يقبله .

وقيل : إنّ قوله : « إنّه خبير بما تفعلون » استئناف في حكم الجواب عن سؤال مقدّر كأنّه قيل : فماذا يكون بعد هذه القوارع ؟ فقيل : إنّ الله خبير بعمل العاملين فيجازيهم على أعمالهم وفصّل بقوله : « من جاء بالحسنة فله خير منها » إلى آخر الآيتين .

وههنا وجه آخر مستفاد من الإمعان في سياق الآيات السابقة فإنّ الله سبحانه أمر فيها نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أن يتوكّل عليه ويرجع أمر المشركين وبني إسرائيل إليه فانّه إنّما يستطيع هداية المؤمنين بآياته المستسلمين للحقّ وأمّا المشركون في جحودهم و بنو إسرائيل في اختلافهم فإنّهم موتى لايسمعون وصمّ عمي لايسمعون ولايهتدون إلى الحقّ بالنظر في آيات السماء و الأرض و الاعتبار بها باختيارمنهم .

ثمّ ذكر ماسيواجههم به ـ وحالهم هذه الحال لايؤثّر فيهم الآيات ـ وأنّه سيخرج لهم دابّة من الأرض تكلّمهم وهي آية خارقة تضطرّهم إلى قبول الحقّ وأنّه يحشر من كلّ اُمّة فوجامن المكذّبين فيتمّ عليهم الحجّة ، وبالآخرة هو خبير بأفعالهم سيجزي من جاء بحسنة أوسيّئة بعمله يوم ينفخ في الصور ففزعوا وأتوه داخرين .

وبالتأمّل في هذا السياق يظهر أنّ الأنسب كون « يوم ينفخ » ظرفاً لقوله: « إنّه خبير بما يفعلون» وقراءة«يفعلون » بياء الغيبة أرجح من القراءة المتداولةعلى الخطاب .

و المعنى وإنّه تعالى خبير بما يفعله أهل السماوات والأرض يوم ينفخ في الصور ويأتونه داخرين يجزي من جاء بالحسنة بخير منها و من جاء بالسيّئةبكبّ وجوههم في النار كلّ مجزيّ بعمله ، وعلى هذا تكون الآية في معنى قوله تعالى: « أفلايعلم إذا بعثرما في القبور وحصّل ما في الصدور إنّ ربّهم بهم يومئذ لخبير » العاديات : ١١ وقوله : « يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شيء » المؤمن : ١٦ ويكون قوله : « من جاء بالحسنة » الخ تفصيلا لقوله : «إنّه خبير بما يفعلون » من حيث لازم الخبرة وهو الجزاء بما فعل وعمل كما أشار إليه ذيلاً بقوله : «هل تجزون إلّا ما كنتم تعملون » والالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله : « هل تجزون» الخ لتشديد التقريع و التأنيب .

وفي الآية أعني قوله : «وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب » الخ قولان آخران :

أحدهما حملها على الحركة الجوهريّة وأنّ الأشياء كالجبال تتحرّك بجوهرها إلى غاية وجودها وهي حشرها ورجوعها إلى الله سبحانه .

وهذا المعنى أنسب بالنظر إلى ما في قوله : « تحسبها جامدة » من التلويح إلى أنّها اليوم متحرّكة ولمّا تقم القيامة ، وأمّا جعل يوم القيامة ظرفاً لحسبان الجمود وللمرور كالسحاب جميعاً فممّا لا يلتفت إليه .

وثانيهما حملها على حركة الأرض الانتقاليّة وهو بالنظر إلى الآية في نفسها معنى جيّد إلّا أنّه أوّلاً يوجب انقطاع الآية عمّا قبلها وما بعدها من آيات القيامة و ثانيا ينقطع بذلك اتّصال قوله : « إنّه خبير بما يفعلون » بما قبله .

قوله تعالى : «من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون» هذه الآية وما بعدها ـ كما تقدّمت الإشارة إليه ـ تفصيل لقوله : « إنّه خبير بما يفعلون» من حيث أثره الّذي هو الجزاء والمراد بقوله : « من جاء بالحسنة فله خير منها »أنّ له جزاء هو خير ممّا جاء به من الحسنة وذلك لأنّ العمل أيّاً مّا كان مقدّمة للجزاء مقصود لأجله والغرض و الغاية على أيّ حال أفضل من المقدّمة .

وقوله : « وهم من فزع يومئذ آمنون » ظاهر السياق أنّ هذا الفزع هو الفزع بعد نفخ الصور الثاني دون الأوّل فيكون في معنى قوله : «لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقّاهم الملائكة هذا يومكم الّذي كنتم توعدون» الأنبياء : ١٠٣ .

قوله تعالى : « ومن جاء بالسيّئة فكبّت وجوهم في النار هل تجزون إلّا ما كنتم تعملون » يقال : كبّه على وجهه فانكبّ أي ألقاه على وجهه فوقع عليه فنسبة الكبّ إلى وجوههم من المجاز العقليّ والأصل فكبّوا على وجوههم .

وقوله : « هل تجزون إلّا ما كنتم تعملون » الاستفهام للانكار و المعنى ليس جزاؤكم هذا إلّا نفس العمل الّذي عملتموه ظهر لكم فلزمكم فلا ظلم في الجزاء ولا جور في الحكم .

والآيتان في مقام بيان ما في طبع الحسنة و السيّئة من الجزاء ففيهما حكم من جاء بالحسنة فقط ومن أحاطت به الخطيئة واستغرقته السيّئة و أمّا من حمل حسنة

وسيّئة فيعلم بذلك حكمه إجمالا و أمّا التفصيل ففي غير هذا الموضع .

قوله تعالى : «إنّما اُمرت أن أعبد ربّ هذه البلدة الّذي حرّمها وله كلّ شيء» الآيات الثلاث ـ من هنا إلى آخر السورة ـ ختام السورة يبيّن فيها أنّ هذه الدعوة الحقّة تبشير و إنذار فيه إتمام للحجّة من غير أن يرجع إليه صلّى الله عليه وآله وسلّم من أمرهم شيء و إنّما الأمر إلى الله و سيريهم آياته فيعرفونها ليس بغافل عن أعمالهم .

و في قوله : « إنّما اُمرت » الخ تكلّم عن لسان النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فهو في معنى قل إنّما اُمرت أن أعبد ربّ هذه البلدة ، و المشار إليها بهذه الإشارة مكّة المشرّفة ، و في الكلام تشريفها من وجهين : إضافة الربّ إليها ، وتوصيفها بالحرمة حيث قال : ربّ هذه البلدة الّذي حرّمها . و فيه تعريض لهم حيث كفروا بهذه النعمة نعمة حرمة بلدتهم ولم يشكروا الله بعبادته بل عدلوا إلى عبادة الأصنام .

و قوله : « وله كلّ شيء » إشارة إلى سعة ملكه تعالى دفعاً لما يمكن أن يتوهّم أنّه إنّما يملك مكّة الّتي هو ربّها فيكون حاله حال سائر الأصنام يملك الواحد منها على عقيدتهم جزءاً من أجزاء العالم كالسماء والأرض و بلدة كذا و قوم كذا و اُسرة كذا ، فيكون تعالى معبودا كأحد الآلهة واقعا في صفّهم و في عرضهم .

و قوله : « واُمرت أن أكون من المسلمين » أي من الّذين أسلموا له فيما أراد ولا يريد إلّا ما يهدي إليه الخلقة ويهتف به الفطرة وهوالدين الحنيف الفطريّ الّذي هو ملّة إبراهيم .

قوله تعالى : « وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فقل إنّما أنا من المنذرين» معطوف على قوله : «أن أعبد» أي اُمرت أن أقرء القرآن والمراد تلاوته عليهم بدليل تفريع قوله : « فمن اهتدى » الخ عليه .

و قوله : « فمن اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه » أي فمن اهتدى بهذا القرآن

فالّذي ينتفع به هو نفسه ولا يعود نفعه إليّ .

و قوله : « و من ضلّ فقل إنّما أنا من المنذرين » أي و من لم يهتد به بالإعراض عن ذكر ربّه و هو الضلال فعليه ضلاله و وبال كفره لاعليّ لأنّي لست إلّا منذرا ماءمورا لذلك و لست عليه و كيلا والله هوالوكيل عليه .

فالعدول عن مثل قولنا : و من ضلّ فإنّما أنا من المنذرين وهو الّذي كان يقتضيه الظاهر إلى قوله : «فقل إنّما أنا من المنذرين» لتذكيره صلى الله عليه وآله وسلم بما تقدّم من العهد إليه أنّه ليس إلّا منذرا وليس إليه من أمرهم شيء فعليه أن يتوكّل على ربّه ويرجع أمرهم إليه كما قال : «فتوكّل على الله إنّك على الحقّ المبين إنّك لاتسمع الموتى » الخ فكأنّه قيل : و من ضلّ فقل له قد سمعت أنّ ربّي لم يجعل عليّ إلّا الإنذار فلست بمسؤل عن ضلال من ضلّ .

قوله تعالى : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها و ما ربّك بغافل عمّا تعملون» معطوف على قوله : « فقل إنّما أنا من المنذرين » و فيه انعطاف إلى ما ذكره بعد أمر نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم بالتوكّل عليه في أمرهم من أنّه سيجعل للمشركين عاقبة سوء و يقضي بين بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه ويريهم من آياته ما يضطرّون إلى تصديقه ثمّ يجزيهم بأعمالهم .

و محصّل المعنى وقل الثناء الجميل لله تعالى فيما يجريه في ملكه حيث دعى الناس إلى ما فيه خيرهم و سعادتهم وهدى الّذين آمنوا بآياته و أسلموا له و أمّا المكذّبون فأمات قلوبهم وأصمّ آذانهم وأعمى أبصارهم فضلّوا و كذّبوا بآياته .

و قوله : « سيريكم آياته فتعرفونها » إشارة إلى ما تقدّم من قوله : « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابّة من الأرض » و ما بعده ، وظهور قوله : «آياته» في العموم دليل على شموله لجميع الآيات الّتي تضطرّهم إلى قبول الحقّ ممّا يظهر لهم قبل قيام الساعة و بعده .

و قوله : « و ما ربّك بغافل عمّا تعملون» الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وهو بمنزلة

التعليل لما تقدّمه أي إنّ أعمالكم معاشر العباد بعين ربّك فلا يفوته شيء ممّا تقتضيه الحكمة قبال أعمالكم من الدعوة والهداية والإضلال وإراءة الآيات ثمّ جزاء المحسنين منكم والمسيئين يوم القيامة .

و قرىء « عمّا يعملون » بياء الغيبة ولعلّها أرجح و مفادها تهديد المكذّبين و في قوله : «ربّك» بإضافة الربّ إلى الكاف تطييب لنفس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و تقوية لجانبه .

﴿بحث روائى﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : « وإذا وقع القول عليهم » الآية حدّثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال : انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أمير المؤمنين عليه السلام و هو نائم في المسجد قد جمع رملا ووضع رأسه عليه فحرّكه برجله ثمّ قال : قم يا دابّة الأرض فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله أيسمّي بعضنا بعضا بهذا الاسم ؟ فقال : لا والله ما هو إلّا له خاصّة و هو الدابّة الّذي ذكره الله في كتابه فقال : « و إذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابّة من الأرض تكلّمهم أنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » .

ثمّ قال : يا عليّ إذا كان آخر الزمان أخرجك الله في أحسن صورة ومعك ميسم تسم به أعداءك .

فقال رجل لأبي عبدالله عليه السلام : إنّ العامّة يقولون : إنّ هذه الآية إنّما «تَكلِمهُم» فقال أبو عبدالله عليه السلام : كلمهم الله في نار جهنّم إنّما هو تكلّمهم من الكلام .

أقول : و الروايات في هذا المعنى كثيرة من طرق الشيعة .

وفي المجمع وروى محمّد بن كعب القرظيّ قال : سئل عليّ عن الدابّة فقال:

أما والله مالها ذنب وإنّ لها للحية .

أقول : و هناك روايات كثيرة تصف خلقتها تتضمن عجائب وهي مع ذلك متعارضة متدافعة من أرادها فليراجع جوامع الحديث كالدرّ المنثور أو مطوّلات التفاسير كروح المعاني .

وفي تفسير القمي حدّثني أبي عن ابن أبي عمير عن حمّاد عن أبي عبدالله عليه السلام قال : مايقول الناس في هذه الآية «يوم نحشر من كلّ اُمّة فوجاً » ؟ قلت : يقولون إنّه في القيامة . قال : ليس كما يقولون إنّها في الرجعة أيحشر الله في القيامة من كلّ اُمّة فوجا ويدع الباقين ؟ إنّما آية القيامة «وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا» .

أقول : و أخبار الرجعة من طرق الشيعة كثيرة جدّاً .

وفي المجمع في قوله تعالى : «ونفخ في الصور» : واختلف في معنى الصور - إلى أن قال - وقيل : هو قرن ينفخ فيه شبه البوق وقد ورد ذلك في الحديث .

وفيه في قوله تعالى : « إلاّ من شاء الله» قيل : يعني الشهداء فإنّهم لا يفزعون في ذلك اليوم وروي ذلك في خبر مرفوع .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : «صنع الله الّذي أتقن كلّ شيء» قال: فعل الله الّذي أحكم كلّ شيء .

وفيه في قوله تعالى : « من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيّئة فكبّت وجوههم في النار » قال : الحسنة والله ولاية أمير المؤمنين عليه السلام والسيّئة والله عداوته .

أقول : و هو من الجري وليس بتفسير وهناك روايات كثيرة في هذا المضمون ربّما أمكن حملها على ماسيأتي .

وفي الخصال عن يونس بن ظبيان قال : قال الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام : إنّ الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه : فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه فتلك عبادة

الحرصاء و هو الطمع ، وآخرون يعبدونه فرقا من النار فتلك عبادة العبيد وهي الرهبة ، ولكنّي أعبده حبّاله فتلك عبادة الكرام و هو الأمن لقوله تعالى : «وهم من فزع يومئذ آمنون» ، ولقوله : «قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم» فمن أحبّ الله أحبّه الله ومن أحبّه الله كان من الآمنين .

أقول : لازم مافيه من الاستدلال تفسير الحسنة في الآية بالولاية الّتي هي عبادته تعالى من طريق المحبّة الموجبة لفناء إرادة العبد في إرادته وتولّيه تعالى بنفسه أمر عبده وتصرّفه فيه وهذا أحد معنيي ولاية عليّ عليه السلام فهو عليه السلام صاحب الولاية و أوّل فاتح لهذا الباب من الأمّة وبه يمكن أن يفسّر أكثر الروايات الواردة في أنّ المراد بالحسنة في الآية ولاية عليّ عليه السلام .

وفي الدّرّ المنثور أخرج أبوالشيخ وابن مردويه والديلميّ عن كعب بن عجرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في قول الله : «من جاء بالحسنة فله خير منها» يعني بها شهادة أن لا إله إلّا الله ، ومن جاء بالسيّئة يعني بها الشرك يقال : هذه تنجي و هذه تردي .

أقول : وهذا المعنى مرويّ عنه صلى الله عليه وآله وسلم بألفاظ مختلفة عن طرق شتّى وينبغي تقييد تفسير الحسنة بلا إله إلّا الله بسائر الأحكام الشرعيّة الّتي هي من لوازم التوحيد و إلّا لغى تشريعها و هو ظاهر .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : «إنّما أمرت أن أعبد ربّ هذه البلدة الّذي حرّمها» قال : مكّة .

وفيه عن أبيه عن حمّاد بن عيسى عن حريز عن أبي عبدالله عليه السلام قال : لمّا قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكّة يوم افتتحها فتح باب الكعبة فأمر بصور في الكعبة فطمست فأخذ بعضادتي الباب فقال : ألا إنّ الله قد حرّم مكّة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة لا ينفر صيدها ولا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها ولا تحلّ لقطتها إلّا لمنشد .

فقال العبّاس : يارسول الله إلّا الأذخر فإنّه للقبر والبيوت فقال رسول الله

صلّى الله عليه وآله وسلّم : إلّا الأذخر .

أقول : وهو مرويّ من طرق أهل السنّة أيضاً .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : ماكان في القرآن «وماالله بغافل عمّا تعملون» بالتاء ، وماكان « وما ربّك بغافل عمّا يعملون » بالياء .

تمّ والحمدلله



ص	س	الخطاء	الصواب
٧	٢٢	عن	من
٢٥	٤	فجعلنا كم	فجعلنا هم
٢٩	٢١	جبل	جبل في الحقيقة
٤٧	١٥	لذلك	كذلك
٤٨	٢٣	ينتهي	تنتهي
٦٤	٣	يمنعه	يمنعه مانع
٦٦	٢٠	استعلاء	الاستعلاء
٦٨	٩	قرّره	قرّروه
٦٨	٢٠	تريني	ترني
٧٥	١٠	يكذّبون	يكذبون
٧٦	١٧	عن	من
٧٨	١٧	ارمّة	ازمّة
٧٨	٥	الايّامى	الأيامى
٧٨	١٣	بين المشرك	بين المؤمن و المؤمنة والمشرك
٨٨	١٤	المعنويّة	المعنونة
١٠١	١٤	لايخلو	ولايخلو
١٠٤	١١	بخبيثهم	بخبيثيهم
١٢٧	٢١	الجزء	في الجزء
١٣٤	٩	ولم تمسسه	ولو لم تمسسه
١٤٧	١	الرحمته	الرحمة
١٤٩	١٦	وحدها	وحده
١٤٩	٢٢	نسبنا	نسبناه
١٥١	٦	اذ	ان
١٥٣	٢	عن جابر	عن جابر عن
١٦٢	١	فتلخروج	فالخروج
١٧٦	١٣	السوآة	السوأة
١٨٠	١٩	فلكلّ	فكلّ
١٩٥	٦	في النبيّ	وفي النبيّ
١٩٨	٥	لامساغ	ولامساغ
١٩٩	١٦	للاهوت	اللاهوت
٢٠٢	٢٤	يمشي	تمشي
٢٠٣	١٦	الاّ أنّهم	الاّ إنّهم
٢٠٣	٢١	عليه فيهم	لهم
٢٠٩	١٣	كثيرا	كبيرا
٢٠٩	١٥	وإن	و إذ
٢٠٩	١٨	أنّهم	إنّهم
٢١٠	١٣	أنزل	أنزله
٢١٤	٦	يتّصف	ويتّصف
٢١٧	١٠	الموت	يوم الموت
٢٢١	١٩	الكلام	لكلام
٢٣٣	٢٤	او مفيدتان	أومفيدتان له
٢٣٧	٥	الآية	الآية ظاهر
٢٥١	٢	توكيل	بوكيل
٢٥٢	١٣	هو	وهو
٢٥٩	١٤	يُلقَون	يُلقّونَ
٢٦١	٢٠	الواسط	الوسط

ص	س	الخطاء	الصواب
٢٦٤	٢٢	يبدّل	تبدّل
٢٦٥	١٧	كانّها	كأنّه
٢٧٥	١٨	فيها	فيما
٢٨٤	١٥	ففرت	ففررت
٢٨٥	١٧	الافدام	الاقدام
٣٠٩	١٠	كان	كاف
٣٠٩	١٢	والّذي هو	والّذي
٣١٠	١٧	قولى	لى
٣٤٧	٤	برجاه	برحاء
٣٤٧	٩	على شيء	بشيء
٣٦٧	٢٣	ابن شيبة	ابن ابى شيبة
٣٨٧	١٢	يستعد	تستعدّ
٣٩٧	٢٤	وصل	وصول
٤٠١	٢٤	سليمان	سليمان داود
٤٠٢	٣	سبا	وسبا
٤٠٢	٣	ص	وص
٤٠٢	٥	٣–٣٣	٣٣
٤٠٢	٢٢	ملكة	ملكه
٤٠٦	٧	ولاترى	ولانرى
٤١٤	١٢	قصّتها	قصّها
٤٢٠	١٨	والمراد	المراد
٤٢١	١٨	الى الخلق	بالخلق
٤٣٧	٢١	بهما	بها
٤٣٧	٢٤	تكذيبها	تكذيبهم
٤٤٤	٤	لذالك	بذلك
٤٤٧	١٣	عن	من